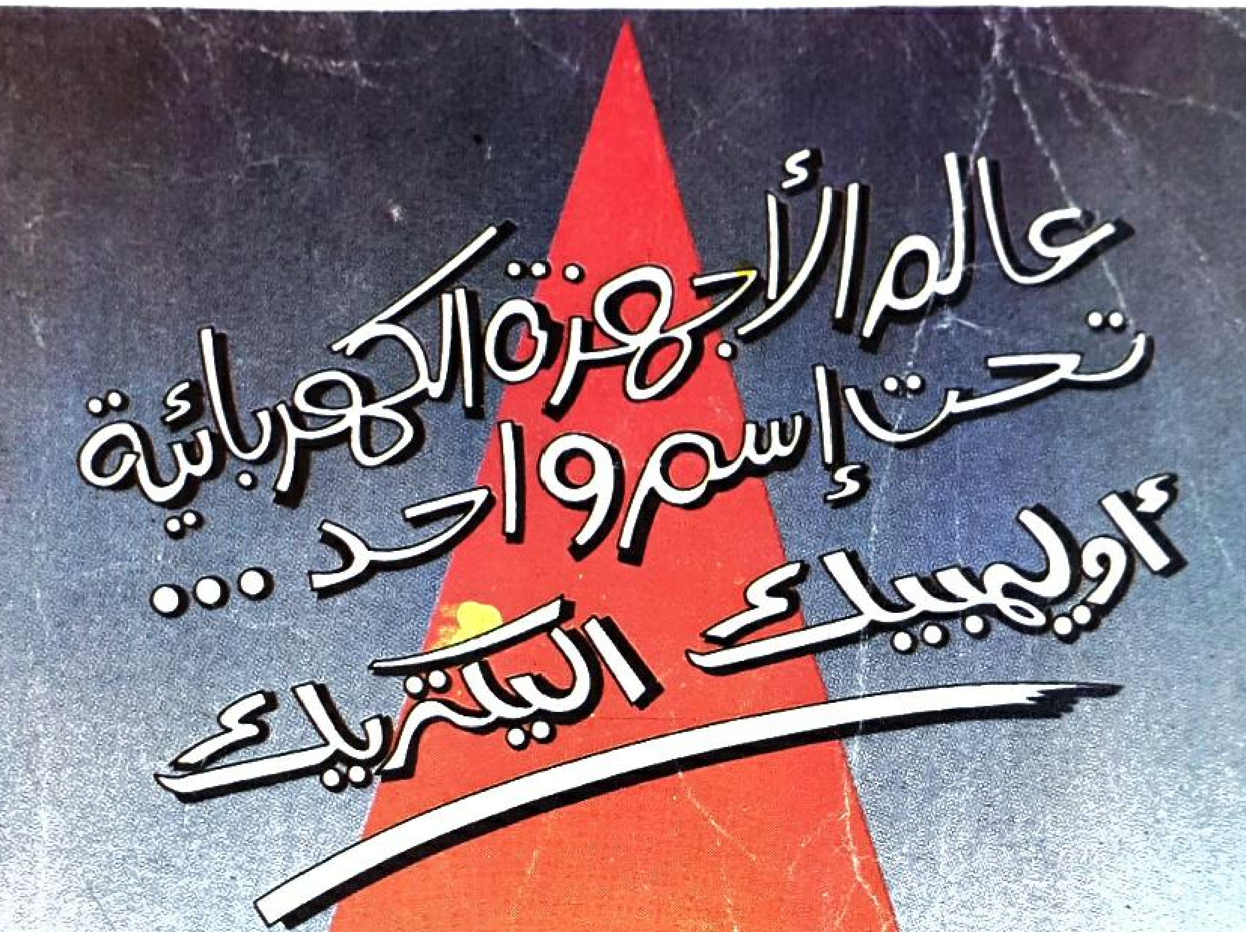
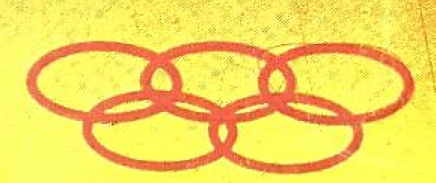
عدد ممتاز

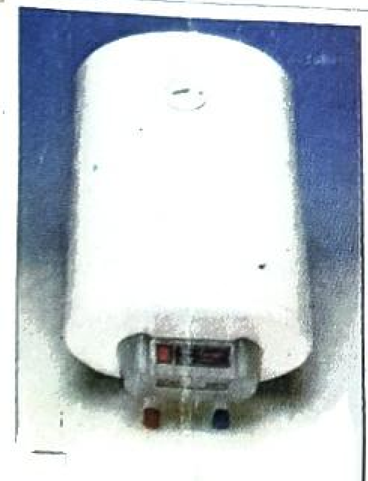
روايات الهلال

ملاعيب علي الزيبق

فاروق خورشيد


عالم الأجهزة الكهربائية
تحت إسم واحد ...
أوليمبيك اليكتريك











٢/٦/١٩٩٠ الرياض

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩٥ مارس ١٩٩٠
شعبان ١٤١٠ هـ
NO.495 mar. 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى.

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع. نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية، وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب.

أسعار البيع للعدد ٤٩٥ فئة ٣٥٠ قرشا:

لبنان: ١٠٠٠ ليرة، الاردن: ١ ينار، الكويت: ٨٥٠ فلسا، العراق: ٣٥٠٠ فلس، السعودية: ١٠ ريالات، البحرين: ١٢٠٠ فلس، الدوحة: ١٠ ريالات، دبى: ١٠ دراهم، ابوظبى: ١٠ دراهم، مسقط: ١٠٠ر١ ريال، غزة والضفة: ٢ دولار، عدن: ٣ دولارات، لندن: ٢ جك.



الكويت: السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص. ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس: 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنان :
حـلـمـى الـتـونـى



ملاعيب على الزيبق

بقلم :

فاروق خورشيد

دار الهلال

كلمة حول « على الزيبق»

هذه هى المحاولة الثانية فى استلهام سيرة الزيبق المصرى عملا روائيا يحتفظ بروح السيرة وأحداثها الرئيسية من ناحية ، ويتعامل مع الفن الروائى المعاصر بكل امكانياته الفنية والدرامية .. وقد صدر العمل الأول باسم « على الزيبق » ونشر أول مرة عام ١٩٦٣ وأعيد نشره عام ٨١ ، وقد نفدت الطبعتان كلتاهما .. وأعد الراحل ميخائيل رومان « العمل الروائى الاول للاذاعة باذن خاص وأذيع من اذاعة القاهرة ، وأعددت أنا مسلسلا اذاعيا عنها أذيع من اذاعة الكويت . ثم تعرضت الرواية لعمليات اعتساف من تليفزيون الاردن وتليفزيون القاهرة . ولم يكن هناك من رد على هذا الا اصدار رواية جديدة تماما لنثبت أن « سيرة على الزيبق المصرى » غنية ومليئة بالامكانيات التى كان يمكن أن تمد معدى التليفزيون بما يصبح لهم ملكهم الخالص دون اعتساف لجهد أحد .. ولنؤكد ما نادينا به مرارا من أن السير الشعبية كنوز تحتاج الى من يستخرجها ويستلهمها ، ويعيدها الى الحياة ، لأنها بحكم شعبيتها صالحة فى كل عصر ، اذا ما حملت هموم العصر ومشاغله ، واستجابت لآماله وآلامه على السواء .

ونحن فى هذه الرواية نبدأ من حيث انتهت الرواية الاولى مع فتح ما أغلق فنيا من دوائر درامية يتحرك خلالها العمل الجديد . ويحمل البطل فيها هموم الماضى وهموم الحاضر على السواء . ويتحرك الموقف فيها فى حرية أكثر واتجاه أصح ، روائيا واجتماعيا على السواء .

وسيرة على الزيبق المصرى بن حسن راس الغول هى واحدة من أبرز السير الشعبية التى حملها الضمير الفنى العربى عبر الزمان والمكان . وحفظها من الزوال فظلت فى الصدور زمنا تتناقل شفاها

على السنة « الحكواتية » وشعراء الربابة ، الى ان دونت وطبعت في صورتها الاخيرة التي نجدها بين ايدينا الآن الا ان السيرة حين دونت ظلت على ثباتها ولم تتحرك مع تحرك المجتمع وتطوره ، ولهذا فقد حملت سمات العصر المملوكي ولغته ومفاهيمه ومعتقداته ، فامتلأت بالكثير من الغيبيات والخوارق مما كان سائدا في ذلك العصر . ومهمة من يستوحي هذه السيرة شديدة الصعوبة اذ يجب ان يلم بكل الظروف التي تحكمت في نسختها المدونة كما ينبغي ان يكون على معرفة بالتراكيبات الفولكلورية المتتالية التي تمثل عصور التداول الشفاهي ، ورموز الشخصيات في جذورها الاسطورية وأسرار حرفيتها فيما نسميه فن كتابة السير الشعبية ، وهو فن له اصوله وقواعده التي سارت عليها هذه السيرة الى جوار زميلاتها الباقيات لنا كسيرة عنترة بن شداد ، وسيرة ذات الهمة وسيرة حمزة البهلوان وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وسيرة الزير سالم وسيرة فيروز شاه والسيرة الهلالية .

والواقع انه رغم ضخامة حجم كل عمل من هذه الأعمال ، واستقلاليتها من ناحية الأبطال والاحداث والحقبة التاريخية التي تعالجها والقضايا الفنية التي تتعرض لها الا انها تتفق في المنهج الفني وطريقة العلاج الروائي بحيث تكون لنفسها فنها الخاص . كما أن هذه الاعمال قد تعايشت في اكثر من مرحلة ، وأثر بعضها في البعض الآخر تأثيرا واضحا في المنحى الفني وفي رسم الشخصيات الروائية بها . ونحن نذهب الى أن شخصية على الزيبق نجد جذورها في عمق هذه السيرة الشعبية من سيرة عنترة بن شداد وذلك في شخصية شيبوب بطل سيرة عنترة الجانبي ، ثم في الشخصيات المساعدة المشابهة لشيبوب التي ظهرت في باقي السير ، كشخصية ابو محمد البطال في سيرة ذات الهمة وشخصية عمر الخطاف في سيرة حمزة البهلوان ، وشخصية عثمان بن الحبلى ، وشخصية جمال الدين شيحه في سيرة الظاهر بيبرس الى أن تنفرد ببطولة خاصة بها هي (سيرة على الزيبق المصرى بن حسن راس الغول) وهذه

الشخصية تعتمد فى البطولة على الذكاء والحيلة و « الملاعيب » الى حروب الروم الى الحروب الصليبية نفسها، ومن هنا كان ضروريا وجود رابط قومى عام يجمع الأمة رغم تفرق دويلاتها ، ويحدد للفرد هموما المتلقى العادى فى البطل الجديد صورة قريبة الى نفسه وواقع حياته ، فيسهل أن يلتحم مع هذه الصورة ويقترب منها . ويسهل كذلك ان يمثل البطل صورة كفاح الانسان العادى فى حياته اليومية المعيشة ، وبهذا نقترب من البطل الروائى المعاصر كل الاقتراب .

والمهاد التاريخى الذى تقع فيه أحداث السيرة هو مرحلة تفكك الدولة الاسلامية الى امارات مستقلة ، بعضها ناصب الدولة المركزية العداء ، وبعضها اكتفى بالانتماء الرمزى اليها دون وجود انتماء حقيقى ممارس . وواجهت الدولة الاسلامية هذا التمزق الداخلى فى الوقت الذى واجهت فيه الغزو الصليبى الذى لم يتوقف منذ حروب الروم الى الحروب الصليبية نفسها ومن هنا كان وجود رابط قومى عام يجمع الأمة رغم تفرق دويلاتها ، ويحدد للفرد هموما مشتركة رغم تهاوى السلطة المركزية فى بغداد . والمجتمع الاسلامى فى ذلك الحين كان مجتمعا ثريا ، ينعم بخيرات امتداده الجغرافى من ناحية وثروات المنطقة كلها المتنوعة الثروة ، والمتنوعة العطاء من ناحية اخرى ، ولهذا كان قوام الحياة فى هذا المجتمع هم طبقة التجار وطبقة الحرفيين .

ولكن حكام الاقاليم كانوا ينظرون الى الحكم باعتباره اداة لجمع المال ، فكثرت المظالم واللصوصية ، ويمثل الزيبق البطل الذى ينتقم لنفسه ولقومه من طبقة التجار الجشعين مستعملا اسلحتهم ليأخذ منهم حق الفقراء والمطحونين . فهو بطل سياسى من ناحية ، وبطل اجتماعى من ناحية اخرى . فرغم ان مغامراته الاولى او ملاعيبه تتم داخل اطار الثورة الاجتماعية ، الا ان هذه المغامرات سرعان ما تتجه ضد أعداء الامة الذين يهددونها من الخارج وهم الافرنج ، او يهددون وحدتها من الداخل ، وهم امراء بعض الدويلات

التى استقلت ثم طمعت فى غزو مقر الخلافة نفسه وخاصة الدويلات الفارسية الاصل .

وهذا الثراء فى الحدث يقابله ثراء فى الشخصيات ، لأن البطل هنا واحد من عامة الشعب ولأن ملاعيبه تتم فى غالبها الأعم داخل المدن الاسلامية بشوارعها وأسواقها وبيوتها وحوانيتها .. ومن هنا كانت خصوصية هذه السيرة الشعبية وكانت أهميتها .

والمحاولة الطموح فى استلهام هذه السيرة عملا روائيا يجمع بين الاصالة والمعاصرة ، تريد أن تخلق التواصل فى الابداع الفنى بين الأمس واليوم ، وتريد أن تصب مجرى صغيرا فى تيار نهر الحياة الأدبية المتدفق ، أما الجهد فقد بذل قصاراه ، وأما التوفيق فمن عند الله سبحانه .

فاروق خورشيد

- ١ -

عم سلطان السقا

كانت القاهرة فى هذه الساعات الباكرة من الضحى شديدة الحرارة خانقة الجو ، مما كان يشى بيوم قائظ من أيامها الصيفية التى تمتص العرق من فوق الجباه ، وترسله غزيرا الى أجزاء الجسد كلها .. وهز حمار عم سلطان السقا ذيله يدفع الذباب الذى يحط بكثافة فوق جسده يمتص العرق ، ويزيد من احساسه بالضيق والتعاسة - وصاح فيه عم سلطان :

- الصبر طيب ياجميل .. والرزق يحب الصبر ، وكلها كام لفة والشعير جاهز .

ونهق الحمار كأنه يجيب عم سلطان ، وضحك عم سلطان وهو يدخل بحماره من الباب الخارجى للدار الى الباحة الداخلية ، فيوقفه الى جوار الباب ، ثم يحمل قربه من فوقه فى خفة الى ظهره هو لتستقر فوق المنطقة الجلدية التى تحيط بجلبابه ، ثم اهتز ليعدل (القربة) ليميل فمها الى أسفل ، ومد يده يفتح الربطة التى تربط عنقها ، ثم يسد بأصبعه الفوهة بمهارة ودربة ، ويعيد وضع (القربة) ويمد يده بعنقها الطويل ، ويتنهد ويقول :

- يا عوض الله ، يا ساتر ، وخلقنا من الماء كل شىء حى - حى يا قيوم - يا عوض الله .

وابتسم المقدم سالم الذى خرج الى الباحة من باب الدار الداخلى ووقف يرقبه باستمتاع ، وهو يتحرك فى نظام ليرش أرض الباحة المتربة بماء (القربة) ، يرفع اصبعه عن فتحتها بمهارة بحيث لا يخرج منها الا القدر الذى يريده من الماء ، ثم يحرك عنق القربة وهو يميل بكتفه ناحيتها ، ويوزع الماء بمهارة فوق التراب فتخرج منه سحابات من غبار وقيظ ، ثم يستقر وتمر نسمة رقيقة تنعش الجو قليلا .. وكان عم سلطان منهمكا فى عمله تماما ، فلم يحس بخروج المقدم سالم ، ولا بوقفته عند الباب ، ولا بنظرات عينيه التى تشبه نظرات الصقر من تحت الحاجبين الكثيفين الاشيبين ، الى أن قال المقدم سالم فى صوت يشوبه وهن :

- تسلم الايادى يا سلطان .. شيخ السقائين بحق ..

وأجفل عم سلطان ، وأسرع يعدل القربة حتى لا تقع ، ورفع

بصره الى المقدم سالم وهو يبتسم عن فم اهتم خلا من الاسنان الامامية وبعض الأضراس ، وقال :

ــ صباح الخير يا مقدم سالم ، حمدا لله على سلامتك ، الكلام كثير انك مزيض ، وانك جرحت جرحا فظيعا قال أولاد الحرام انه .. لا مؤاخذة ، والشر بعيد .. قاتل لا يرحم .. ولكن الماء يكذب الفطاس ، وهذا انت أسد كما كنت ، بارك الله فيك ..

ثم مضى ينهمك فى رش الباحة فى دقة ، وهو يحجل بقدمه ، ويميل بكتفه ، ويسكب الماء من (القربة) فى مهارة ونظام .

وقطب المقدم سالم حاجبيه الكثين ، واعتدل فى وقفته ، واسند ظهره الى الباب المغلق وراءه وقال :

ــ الله سلم يا سلطان ، ولنا فى العمر بقية ..

صاح عم سلطان ، وهو يتحرك الى ناحية أخرى من الباحة ، والغبار يتصاعد من حيث يسكب الماء ، مثيرا الأبخرة ومرطبا الجو الساخن :

ــ أطال الله عمرك يا مقدم ، ولكنك أوحشت الرميلة وقرة ميدان ، ومقدم المصارعين يظل حتى المغرب ينتظر حضورك لتقسم عليهم رزق اليوم ، وعندما ييأس من مقدمك يجمعهم حوله ، ويعطى كلا منهم قسما لا يرضيه ، وكلهم يتحدثون بأيامك وأيام قسمتك العادلة ، وكلماتك المليئة بالحكمة والعطف .

ضحك المقدم سالم فانفرجت أسارير وجهه المتغضن العجوز ، وهو يقول :

ــ فيك وفيهم الخير يا سلطان ، والمقدم فحل الرجال فيه الكفاية وزيادة ..

كان عم سلطان يرش آخر ما بقى فى (القربة) من ماء ، ولم يكن قد تجاوز نصف الباحة بعد .. ورفع (القربة) الى نهايتها على كتفه اليسرى لتنزل منها آخر قطرات بها ، ثم جمعها ومضى وهو يتنهد الى الحمار فوضعها ، ورفع قربة ثانية مليئة ، نقلها بمهارة الى ظهره وهو يصيح عندما وقع حملها الثقيل فوق ظهره :

ــ يا عوض الله ــ حى يا قيوم ــ يا ساتر ــ وخلقنا من الماء كل شىء حى ــ يا عوض الله .

وعاد المقدم سالم يبتسم وهو يرقب حركات عم سلطان ، يعدل القربة ويميلها ، وينحنى بوسطه ليمكن يده من عنق (القربة) الجديدة ، ثم يزيل رباط فتحة (القربة) ، ويحكم أصابعه عليها فلا تخرج منها قطرة ماء ، ثم يزيد ميله وذراعه اليسرى تمتد تحت

عنق القربة ، ثم يبدأ فى رش باقى الباحة فى نظام ومهارة وصبر ، ويعود الغبار ليتصاعد ، وتزداد رقة الهواء وهو ينتقل من مكان الى مكان فى بطء وصبر شديدين ، وقال له :

— وماذا يقولون ايضا فى الرميله وقرة ميدان يا سلطان ؟.

توقف عم سلطان السقا ليعدل (القربة) فوق كتفه ، واستأنف رش الباحة وهو يقول :

— الكلام كثير يا مقدم .. ولكنه كله كلام خير ..

ونهق الحمار وهز ذيله فى قلق ، فصاح فيه عم سلطان :

— كفى نهيقا يا جميل ، الصبر جميل ، والرزق يحب الصبر يا جميل ..

ضحك المقدم سالم ، ومد يده يعبث فى شاربه وهو يتأمل الحمار وعم سلطان السقا وهو يرش باقى الباحة فى صبر ونظام ، وقال :

— اسم الحمار جميل ياسلطان ؟ . غريب اسمه هذا وهو قبيح قبيح ..

ضحك عم سلطان وهو يميل بكتفه ويمد ذراعه اليسرى الى آخرها ، ويحظل فى أنحاء الباحة يرش الماء ، وقال :

— اسماء يا مقدم أسماء ، وهم يطلقون عليك الآن اسم سالم ناب السبع وأطلقوا على مقدمك حسن أسم حسن رأس الغول ، وعلى ابنه على اسم على الزيبق ، وعلى أمه فاطمة اسم فاطمة اللبؤة .. أسماء يا مقدم ، أسماء (*)

بدأ الاهتمام على سالم وهو يسأل :

— حسن رأس الغول وفهمنا فقد اسميناه كلنا هذا الاســـــم من يوم أجتث رأس الغول الذى كان يقطع الطريق على الناس فى مغارة جبل الجيوشى ، فقد كانت هذه هى (النفيلة) التى طلبهـــا المقدمون منه لكى يعترفوا به واحدا منهم .. أما ناب السبع ..

وضحك المقدم سالم ثم سعل واهتز جسده النحيل لسعاله .. بينما توقف عم سلطان السقا لحظات يعدل فيها (القربة) على كتفه ، وقال كأنه يدلى بأمر واقع يعرفه الجميع :

— انت يا مقدم سالم كناب السبع الذى تقع كل اسنانه ما عداه ، والذى ينهش لحم الفريسة فيمزقها ، وما من مهمة أراد المقدم حسن أن ينجزها الا وارسل اليها المقدم سالم فهو نابه الذى يفترس به ضحاياه واعداءه على السواء ..

أطربت كلمات عم سلطان المقدم سالم ، فعاد يبتسم وهو يداعب

شاربه الكث الاشيب باطراف اصابعه ، وقال :
ـ وباقى التسميات يا سلطان ؟.
استانف عم سلطان رش باقى الباحة فى همة ، وهو يقول ، وسط رذاذ الماء ، والاتربة المتصاعدة :
ـ الست فاطمة كان اسمها عند اولاد البلد احمد بن البنى ..
وتوقف عن الرش ورفع راسه وهو يقول وقد نسى عنق القربة تنز من اصابعه :
ـ يا سلام .. من منا لا يذكر احمد بن البنى وصولاته وجولاته .. كان هو الفارس الوحيد الذى استطاع أن يجرح المقدم حسن راس الفول حين تصدى له ليمنع بطشه وجوره وظلمه للناس ، ولكن حين سقط المقدم حسن وسقط السيف من يده ، ظهرت الست فاطمة فجأة ، كأنما انشقت عنها الارض ، لتلقط السيف وتتصدى لاحمد بن البنى وتمنعه من الاجهاز علي زوجها .. يا سلام ..
ومضى عم سلطان السقا يرقص ، وهو يحرك عنق (القربة) فى يده ، وكأنه يبارز فارسا وهميا ، والماء يتساقط من فتحتها تساقطا عشوائيا ، وهو يقول وقد استخفته الحكايات والطرب معا :
ـ كانت مبارزة مشهورة لا تنسى ، وحين حاول احمد بن البنى ان يلجأ الى نفس الخدعة التى جرح بها المقدم حسن ، خدعته الست فاطمة واطاحت براسه ، ومن يومها تزيت بزيه وتقلدت حسامه ، واسمت نفسها باسمه ، واصبحت تعرف بأحمد بن البنى ، الذى يظهر فى الشدائد ليساند المقدم حسن راس الفول فى معاركه ..
ضحك المقدم سالم وهو يصيح :
ـ الماء يا سلطان كاد يغرق الباحة ويكون البرك ..
فالتفت عم سلطان السقا الى (قربته) ، وعاد يعدلها فى مكانها فوق منكبيه ، ويتحكم من جديد فى مهارة فى فمها ليمنع الماء الا بالقدر الذى يريده .. واخذ ينهمك فى رش الباحة فى سكون ، وهو يعظل فى حركته من مكان الى مكان ، فى نظام ورتابة ـ ثم هز راسه وقال :
ـ ولكن هذا الاسم نسى منذ ظهر ابنها وابن المقدم حسن راس الفول ، نعم اختفى منذ ظهر على وظهر مكانه اسم آخر ..
احس المقدم سالم أن الباب الذى يستند اليه يدفع فى هدوء ، فتحرك من مكانه ، وفتح الباب وظهرت فى فرجته فاطمة وهى

تبتسم . وصمت :

ـ لا تزعجه ، ودعنى اسمع ما يقول ..

ولم يتكلم المقـــدم سالم ، وانما أفسح لها مكانا الى جواره ، فوقفت بقامتها الفارعة ووجهها الساكن تسمع حديث عم ســلطان السقا الذى كان منهمكا فى رش الباحة بآخر ما بقى فى (قربته) الثانية من ماء ، وقد انزلها فوق ذراعه ، ومال بجسده كله مينزل منها آخر ما بها من ماء ، وكان يقول وهو يتحرك عاظلا فى نظـــام ورتابة :

ـ منذ ظهر على ابن حسن راس الغول ، وهى وراءه ، تظهر حين تشتد الازمة ، ويحلك الزمان ، فتنقذه بفروسيتها وشجاعتها ومهارتها ، وحين حاصره صلاح الكلبى فى الكمين الذى أعده له ، ظهرت فاطمة مرتدية ملابس احمد بن البنى ، وهزمت رجال الكلبى وخلصتك انت وهو من براثنهم ، ولولاها لكانوا قتلوك لا جرحوك وحسب ، ثم كانوا انتهوا منه يومها وقتلوه وارتاحوا .. ولكنهـــا ظهرت كاللبؤة التى تدافع عن أشبالها ، فتنتشلهم من براثن الخطر ـ ست ولا كل الستات يامقدم ـ ألم تخرجه من تحت حبل المشنقة، فجأة انشقت الارض عنها وهى فوق جوادها ، واختطفته اختطافا والموت يحوم حوله ـ من يومها يا مقدم ، وكل أولاد البلد يسمونها اللبؤة ـ ولم يخطئوا أبدا فى هذه التسمية ، فهى التى علمته كيف يأكل فرائسه أكلا ، وهى التى تخرجه من كل مأزق مهمـا اشتد الخطر ، وتأزمت الاحوال ..

ومال بجسده فسال آخر الماء من (القربة) .. واخذ يلمهـا فوق كتفه وقد فقدت انتفاخها ، ومد يده بعنقها مرات حتى انهت كل ما بها من ماء ، واتجه الى حماره وهو يقول :

ـ ناس يا مقدم سالم ولا كل النـــاس ، انت لم تســمع نداء الصبية فى الحوارى وهم يلعبون تقول جماعة : (كنت فين يا على) .. وترد جماعة أخرى (كنت فين ، كنت فين) لترد الاولى قائلة (كنت فين يا على وامك بتدور عليك) .. تقول لعب عيال ، أقول لك لا ، انما هو الكلام الذى ملأ كل الالسنة والقلوب ـ المرأة اللبؤة التى تحمى شبلها الوحيد ، كلما وقع فى مأزق بحثت عنه ، واخرجته منه ، وعادت تحمله منتصرة الى العرين .

ثم مضى يرقص وهو يتجه الى حماره ويغنى فى ايقاع رتيب :

ـ كنت فين يا على ـ كنت فين .. كنت فين يا على وامك بتدور عليك .

واحس المقدم سالم بأن فاطمة وراءه لا تملك نفسها من الضحك ، نضحك هو الاخر ، والتفت عم سلطان السقا فرأى فاطمة واقفة الى جوار المقدم سالم وهى تلف شالها على وجهها ، ولكنه عرفها فى الحال ، فقال :

ـ دستور يا ست ..هو كلام أهل الرميلة وقرة ميدان ، ولا ذنب لى ، وانما سألنى المقدم سالم فقلت له ..

ضحكت فاطمة ضحكة رائقة هدأت من مخاوف عم سلطان ، وقالت :

ـ لا بأس يا عم سلطان .. ولكن ماذا يقول أولاد البلد عن على ؟.

صاح عم سلطان :

ـ ما قاله عن نفسه ، وما قالته الرميلة وقرة ميدان كلها ، وما قاله حتى صلاح الكلبى ورجاله ، هو الزيبق ، يعرف كيف يخرج من أى مأزق ، وينزلق من أى فخ كأنه الزيبق .. ومن ملاعيبه مع صلاح الكلبى ، وخروجه من كل كمين أعده له هو أو دليلة العراقية المحتالة ، سماه الناس على الزيبق .. هل غلطت يا ست فاطمة ؟.

قالت فاطمة :

ـ أبدا يا عم سلطان ما أنت الا ناقل لما قاله الناس ..

صاح عم سلطان وهو يتجه الى حماره ، يرمى عليه القربة الفارغة .. ويسوى مكانها ، ثم يلتفت الى (قربة) ملآنه ، فيرفعها على ظهره :

ـ كلام البلد لا ينتهى عند حد ـ يا عوض الله ـ (دستور .. وخلق الله من الماء كل شىء حى ـ أين الزير يا جماعة لأملأه .. حى قيوم ، هو الستار .

تنحت فاطمة عن مكانها ، وتحرك المقدم سالم ليفسح مكانا له ، وهو يتحرك حاملا (القربة) المليئة الثقيلة فى عناء ، وهو يحجل ويدلف من الباب الى صالة المنزل وهو يقول :

ـ يا ساتر ، يا عوض الله .

وكان يعرف مكانه الى الزير فسار اليه مسرعا ، ورفع غطاءه ، ثم عدل (القربة) فوق منكبه ، وهو يوجه عنقها الى الزير ، ويفتح الرباط بمهارة ، ثم يوجه فم القربة الى حافة الزير ، ويميل بجسده فيندفع الماء الى الزير الفارغ فى صوت رنان واضح ، وهو يبسمل ويحوقل ويقول :

ـ يا ساتر استر على عبيدك وخلقك ، واحد قيوم ـ يا عوض الله .

ويرتفع صوت الماء يملأ الزير ، فيزغرد صوته وسط الحر القائظ ، يرطب النفوس والافئدة ـ وقالت فاطمة وهى تغادر القاعة :

ـ ساحضر لك افطارك يا عم سلطان لتأكل قبل أن تخرج .

لم يسمعها عم سلطان فقد كان منهمكا فى افراغ الماء فى الزير حتى امتلأ ، ثم عدل وضع (القربة) الفارغة فوق كتفه وهو يقول :

ـ يا عوض الله ـ دستور يا أهل البيت .. وخلقنا من الماء كل شىء حى .. قيوم ..

قال له سالم :

ـ انتظر افطارك يا سلطان ، فالست فاطمة ذهبت لتحضره .

للم عم سلطان (قربته) الفارغة ، وجال بنظره فى القاعة ، ثم انطوى على نفسه وهو يقول :

ـ مقبول كرم الست فاطمة ، أطال الله فى عمرها ، .. المحروس دائما ، على الزيبق .

- ٢ -
البنت المخطوفة

لم يمهل عم سلطان السقا ، فاطمة حتى تدخل بصينية الطعام بل اندفع نحوها قائلا :

ــ هذا لا يليق يا أم الرجال ، أنا أخدم نفسى .. واحسن الله اليك وأبقاك ، يا عوض الله ــ ياساتر ــ وحمل عنها صينية الطعام ليضعها امامه فى لهفة ، واسرع يرفع (المكبات) عن الصحون ، وهو يلتهم بأنفه الروائح العبقة المتصاعدة ، ويقول :

ــ يا سبحان الله ، نعمة صانها الله من الزوال ، ما كل هـذا يا ست فاطمة ؟

ولم ينتظر أن يجيبه احد على سؤاله ، بل انقض بذوق كل الصحون فى سرعة ونظام ، ورفع المقدم سالم نظره عنه وابتسم ردا علىابتسامة فاطمة ، وقال :

ــ هو منظم وسريع فى كل شىء ، فى رش الباحة ، وتذوق الصحون ..

ولم يلتفت عم سلطان الى كلماته لانه كان قد فرغ من التذوق ، الى معركة الاكل الحقيقية .. وكان منظره مسليا بالفعل فقد كان يأكل بيديه وفمه ولحيته وإكمامه وعينيه وأنفه وكل شىء ... وانبعث صوت قوى يفيض رقة وحنانا من عند باب أحدى الحجرات المطلة على القاعة يقول :

ــ الجوع كافر .. لعن الله الذين يأكلون السحت فى بطونهم ، ويتركون مثل عم سلطان على حافة الجوع دائما ..

وقعت اللقمة من يد عم سلطان ، وازدرد مافى فمه بصعوبة وقد جحظت عيناه ، وتهدلت شفتاه ، وهب متعثراً من جلسته امامصينية الطعام وهو يقول :

ــ الزيبق ، سلمت ياعلى ، ياكحلا للعين المروضة .. ماأسعدنى أن أراك سالما ..

ثم التفت الى الصينية فعاد يجلس فى الحال ، وينقض من جديد على الطعام ، وان كانت عيناه ظلتا مثبتتين على الزيبق لا تريدان التحول عن وجهه ، واستانف على حديثه الى امه قائلا :

ــ العزيز لا يرى كل هذه المظالم التى تصيب أهل مصر . صلاح الكلبى يخفى الحقائق عنه ، والمحتسب والقاضى والوزير يشتركون مع

صلاح الكلبى فى نهب البلد ، والنتيجة أن يجوع الناس ويعروا .
قالت فاطمة :
ـ الآن ستصبح شريكا لصلاح الكلبى فى مقدميه الدرك ، وتستطيع أن تحمى الضعفاء من عسفه ، وأن ترفع للعزيز الحقائق حول أحوال الناس ، فينصلح الحال .
فتح باب آخر من الابواب المطلة على القاعة ، وخرجت منه زينب وهى تقول :
ـ ما كل هذه الضجة فى الصباح الباكر ..
مرة اخرى وقفت يد عم سلطان السقا ، ومرة اخرى ازدرد ما فى فمه من طعام ، ونقل بصره من وجه على الزيبق الى وجه زينب ، وهو يهمس لنفسه :
ـ يا سبحان الله ، أبدع وصـــور ، ما أجمـــل الوجهين ، وأحلى القوامين ، وأظرف الزوجين ..
ضحكت زينب وهى تقول :
ـ من الضيف يا خالة فاطمة ؟
قالت فاطمة وهى تتحرك ناحية مطبخ الدار :
ـ هذا عم سلطان السقا ، يأتى بالماء كل صباح ، ايقظتنى حركته وصوته وهو يرش الفناء ..
وقال على الزيبق :
ـ كم رشنى بالماء وانا صغير العب فى باحة الدار .
صاح عم سلطان السقا :
ـ تلعب ؟ أكنت تلعب حقا ؟ لقد كانت لك شقاوة العفــاريت ، وكنت ادخل الدار وانا ارتجف رعبا من ملاعيبك وعبثك ، وكنت وانا خارج من الدار اتحسس كل اعضائى لأتأكد انها سليمة ، فأحمد الله وأمضى فى حالى ..
وغادرت فاطمة القاعة وهى تضحك ، بينما نظرت الى على وعيناها تلمعان ، وقالت :
ـ هكذا منذ الصغر يا على .
ضحك على وهو يقول :
ـ كنت أحب أن أعابثه ..
صاح عم سلطان بين المضغ والبلع :
ـ الحمد لله انك لم تعابثنى كما عابثت صلاح الكلبى ، فكويت جلده بقطع الزجاج ، وأحرقت أفخاذه بالماء المغلى ، وصبغت لحيته

بالحناء المسمومة ، وأوسعته عذابا بثمن العجل الذى سرقه منك ، حتى أذقته لحم العجل مخلوطا بالعلقم .. لقد انجانى الله من هذا النوع من العبث ، فما أنا الا سقاء مسكين على باب الله .

ضحك على الزيبق وهو يقلده فى ندائه :

ـ يا عوض الله ، ياساتر .. وخلقنا من الماء كل شىء حى ـ قيوم ـ هو الدائم .. ياعوض الله .

وضجت زينب والمقدم سالم بالضحك ، بينما نظر عم سلطان فى بلاهة الى الزيبق ، وقال :

ـ سبحان الخالق الناطق ، هذا صوتى ، ولولا أننى أعرف نفسى لظننت أننى أنا الذى أتحدث ، هل أنت عفريت من الجن يازيبق ؟

ضحك على وضحكت زينب ، ولكن سالم لم يضحك ، بل قال :

ـ انس ما سمعته يا سلطان ، وسبحان واهب النعم .. والله وصبه نعمة النطق فلا اعتراض على حكمة الله ..

صاح عم سلطان وهو يعود الى طعامه فى حمية وشوق :

ـ اللهم لا اعتراض ، اللهم لا اعتراض ، سبحان الحى القيوم .. حى .. وحدوه ..

ثم نسى نفسه بين صحون الطعام .. وقالت زينب :

ـ حقيقة ياعلى لقد مهرت فى تقليد الاصوات .

قال المقدم سالم فى اعتزاز :

ـ وفى التنكر الى اى شخصية يشاء ـ الادوات موجودة ، والدهون والاصباغ واللحى والشوارب ، والالوان ، ولكن على له موهبة خاصة تفوقت على موهبتى ، وأنا الذى علمته كل شىء ، كما تفوقت على موهبة أبيه حسن رأس الغول ، والادوات التى ورثها هى أدواته .

قالت زينب وفى صوتها نبرة تأمل وحزن :

ـ كنت أحسب دليلة هى سيدة الناس فى التنكر ، ولكن بعد أن رايتك ياعلى وسمعت أفعالك فانا اومن انك قد فقتها قدرة واتقانا ، شميعة ، وصبى الحمام ، والجارية ، وصبى المطبخ .. لا لا .. دليلة لا تقدر على كل هذا .

قال المقدم سالم فى اعتزاز :

ـ لقد تفوق الزيبق على كل من سبقوه ، تفوق على ابيه ، وعلى صلاح الكلبى ، وعلى . انا شخصيا بل استطيع ان اقول انه تفوق على دليلة نفسها ..

قال عم سلطان وهو يبسمل ويحوقل ، ويرفع يده بعد ان اتى على كل صحون الطعام التى قدمت اليه :

ـ الحمد الله رب العالمين ٠٠ ياعوض الله ٠٠ من كان يصدق هذا كله ، ولكنه الولد الشقي ، لو عرفت أن مثل هذه الفعال تصدر منه ٠

قاطعه المقدم سالم قائلا :

ـ هل أنتهيت ؟

قال عم سلطان السقا وهو ينظر الى الصحون فى حسرة :

ـ نعم يامقدم ، أكلت حتى شبعت وحتى فرغت الصحون ، ولكنى كنت أقول ٠٠

قاطعه المقدم سالم قائلا مرة أخرى :

ـ هل انتهيت ؟.

نظر عم سلطان حوله في حيرة ، ثم قال :

ـ الحمد لله ، من الافطار انتهيت .. واعود الى حمارى و (قربى) لم تبق الا (قربة) واحدة ملآنة ، اذهب بها الى سقاة الخيل ، ثم أنصرف ٠٠

قال المقدم سالم :

ـ فعلا آن الاوان ٠

ولم يفهم عم سلطان السقا شيئا من كل الحديث الذى دار ـ لماذا كان المقدم سالم يدفعه دفعا الى الصمت ـ لم يقل شيئا غريبا ، هو دائما لا يقول الا ما يبسط الناس ، ولكن لعله أخطأ ، فلكل لسان زلة ولملم نفسه ، وجمع اشتات افكاره وهو يقول :

ـ نسيت أن أقول صباحية مباركة ياعرسان ـ فالكل يتحدث عن على الزيبق الذى خدر دليلة وابنتها زينب ، وساق دليلة ذليلة الى غرفة العزيز ، وخطف البنت زينب من أمهـا ، ثم طـرد الام ، وتزوج البنت ٠٠

صاح المقدم سالم :

ـ حيلك يارجل حيلك ما كل هذا ، هذا ما كنت أخشاه ، لسانك لا يعرف متى يتوقف أبدا ٠٠

ووجم عم سلطان ، وهب واقفا وقد بدأ شيء من الخوف يتسلل الى قلبه ، فهو يعرف سطوة هؤلاء الناس ، ويعرف أن غضبهم لا تؤمن عقباه ، وقبل أن يتحدث دخلت فاطمة ووراءها خادم يحمل صينية جديدة لافطار أصحاب الدار ، وبينما كان الخادم يحمل الصينية الاولى باطباقها الفارغة ليخرج بها وضعت فاطمة الصينية الثانية مكانها وجالت ببصرها بمن فى الحجرة ، ثم توقفت عند عم سلطان المرتجف فاحست أن هناك شيئا يخيفه ، فقالت ملاطفة :

ـ ماذا حدث ياعم سلطان ؟

لم يجب سلطان ، وانما نكس بصره فى الارض ، بينما قال سالم :

ـ كان يخرف بما لا يعرف ، ويقول ما لا يقال ، وهو انهى طعامه وسينصرف الان .

همس عم سلطان لنفسه وهو يلملم ثيابه ، ويستعد للفرار من القاعة ، بل ومن البيت كله :

ـ جاءك الفرج ياسلطان ، وهربت هذه المرة بجلدك .

الا أن أمنه لم يستمر طويلا ، اذ رفع الزيبق يده يوقفه ، وقال :

ـ بل كان يتحدث عن الصباحية المباركة ، والعريس والعروس ، والزيبق الذى خطف بنت دليلة ، اسمعى معى يا أم فهذا كلام جديد..

اندفع عم سلطان السقا يقول ، وهو يتعثر فى كلماته :

ـ أنه كلام الناس ، مالى أنا ، انا أقول ماسمعت ..

قالت فاطمة فى اهتمام

ـ وأين سمعت هذا الكلام ياعم سلطان ..

قال سلطان السقا وهو يستعيد هدوء نفسه اذ غدا مصدر معلومات ، لا مثار الغضب منها :

ـ أنا أنتقل من مكان الى مكان أحمل الماء للمنازل والخانات والدكاكين ، واسمع من هنا كلمة ، ومن هناك كلمة ، وعيبى ان راسي كقربتى ما تمتلىء حتى تفرغ ماءها فى كل مكان ..

ضحكت فاطمة وهى تقول :

ـ لا عليك ياعم سلطان .

صاح سلطان وكانما جاءه الفرج ..

ـ أمضى لحالى اذن .. ؟

قالت :

ـ والله معك ..

اندفع عم سلطان السقا الى باب القاعة ، وهو يصيح :

ـ اطال الله عمرك يا أم الرجال .. ياسبحان الله ولا حول ولا قوة الا بالله .. حى .. قيوم ـ ياساتر ـ ياساتر ..

وسرعان ما أنفلت من باب القاعة ، وصوته يأتى اليهم مبتعدا فى سرعة ، وقال سالم :

ـ ما كنت أحب ان تعرف يا على ما قاله هذا المخرف .

قال على الذى أطرق برأسه واجما :

ـ اذن فانت كنت تعرف ·
هز المقدم سالم منكبيه ، وجلس امام صينية الطعام متنهدا وهو يقول :
ـ كلام الناس يا على لا يستطيع أحد أن يحجر عليه · ولا حديث للناس الا افعالك بصلاح الكلبى ودليلة المحتالة .. انها سمر كل مجلس ، وحكاية كل بيت ··
قالت فاطمة وهى تربت على كتف ابنها :
ـ أجلس يا على الى الافطار ، ولا تدع مثل هذا الكلام يفسد عليك طعامك ويومك ·
جلس على متثاقلا ، وجلست زينب الى جواره واجمة . واستأنفت فاطمة حديثها وهى تجلس الى جوارها :
ـ ان الناس لا يعرفون الا أنصاف الحقائق ، بل ربما لا يعرفون من الحقائق شيئا على الاطلاق ، ولكن ما يجهلونه يؤلفونه بأنفسهم ليرضى عندهم التشفى فيمن ظلمهم وقهرهم ··
قال على الزيبق وهو يمد يده الى الطعام فى تثاقل :
ـ ولكن هذا ظلم ، فأنا لم أخطف زينب ·
وقالت زينب :
ـ ونحن لم نتزوج ··
ضحك سالم وهو يقول :
ـ هذا أمر سهل تصحيحه ·· فالبطل لابد أن تكون جائزته عند الانتصار زوجة جميلة وشابة مثلك يازينب ·
قالت زينب فى غضب :
ـ أنا هنا ضيفة ، ما كنت أريد أن أذهب مع دليلة بعد أن غدرت بعلى وساقته الى المشنقة ، وكنت أنا السبب فى سقوطه فى شراكها ·· كنت أريد أن أبين لها غضبى منها ومن أفعالها ، وفى نفس الوقت كنت أريد أن يعرف الجميع اننى مع على لا مع دليلة ··
ضحكت فاطمة وهى تقول :
ـ فقط ·· ؟
احمر وجه زينب ، ومدت يدها الى الطعام ، واخذت تاكل فى صمت ـ بينما قال على وقد احمر وجهه ايضا :
ـ انت محقة يا أم فنحن انا وزينب ، نريد أن نتزوج ..
صاحت فاطمة ضاحكة :
ـ اذن فلم يكذب الناس ؟ ··

وضحك المقدم سالم حتى أنتابته نوبة سعال قطعت ضـحكاته ، وجعلت الدموع تقفز الى عينيه ، بينما تقل على الزيبق نظره بين أمه وبين سالم وقال :

ـ ما الذى يضحك فيما أقول ·· ؟

ولم يستطع ان يظل على تقطيبته ، اذ انفـرجت اسـاريره عن ابتسامة عريضة ، بينما قالت زينب :

ـ ولماذا لا تضحكون ما دام الامر مسـليا بالنسبة لكم ، ولكنه يمس شرفى وكرامتى ، ويضيرنى ، ويجعل منى حديث المجـالس فى مصر ·· ولست أجد فى هذا ما يضحك ··

ماتت الضحكات على شفاه الجميع ، وكست ملامحهم سمات الجد ، وقال سالم وهو يعبث فى شاربه :

ـ انت محقة فى هذا يا زينب ، ولهذا اقترحت ان تتزوجا على الفور ..

صاحت زينب :

ـ ليس من تقاليدنا أن تزوج البنات نفسها بنفسها ، بل لابد من ان يتقدم على الى أمى وخالى طالبا يدى ، وان يقدم ما يطلبانه منه مهرا لى ، وان يتم كل شىء جهرا وفى وضوح ·

قال المقدم سالم مجادلا اياها :

ـ ولكنك تحبينه ، وهو يحبك ، فما دخل امك وخالك فى هذا الأمر ؟.

قاطعته فاطمة فى حزم قائلة :

ـ انتم معشر الرجال لا تفهمون هذا ، ولكنها محقة فى كل ماقالت·

قال على الزيبق :

ـ المهر أنت تحددينه كما تشائين ، وسأحضر لك كل ما تريدينه حتى لو كلفنى حياتى ··

قالت فاطمة :

ـ آه ، هذا هو مدخل دليلة اليك يا على ..

قالت زينب :

ـ ان أمى لن تغالى فى مهرى فهى تعرف اننى .. اعنى .. اوافق على على زوجا لى ..

قالت فاطمة :

ـ ولكنها تكره على ، ولا تنسى له ابدا انه قهرها ، وساقها مكشوفة الرأس عارية القدمين الى امام بيت السلطان الناصر عزيز مصر ·

صاحت زينب فى ضيق :

ـ وما دخل مهرى بكراهيتها لعلى الزيبق ؟
قالت فاطمة :
ـ ستطلب وتغالى ..
قال على مندفعا :
ـ وأنا عند طلبها .
استأنفت فاطمة حديثها قائلة :
ـ ستطلب الاشياء المستحيلة التى تكلفك حريتك ، وربما روحك أيضا ..
قال المقدم سالم :
ـ صدقت ان هذا بالفعل مدخلها الجديد اليه ..
قالت زينب فى حدة :
ـ ولكنها تركت له مصر كلها وعادت الى العراق ، وهى هناك مقدمة درك بغداد ، ومقربة الى الخليفة ويطيعها الجميع ويهابونها ..
قالت فاطمة :
ـ هذا لن ينسيها حقدها على ابنى .. ولن يهدأ لها بال حتى تنتصر عليه كما أنتصرت على غيره ، ولن تطمئن الى مكانها فى بغداد ، ومكانتها عند الخليفة الا اذا أقر لها الزيبق بالسبق وأصبح من أتباعها، او على الاقل غدا أقل منها اهمية ومكانة .
قال المقدم سالم مؤمنا :
ـ كما فعلت بالمقدم أحمد الدنف الذى سبقها الى احتلال المكانة الاولى فى درك بغداد ، وكما فعلت فى المقدمين المشهورين والمعروفين بالمهارة (والعياقة) والشجاعة ، شحادى ابو حطب ، وحسن شومان ، وعمر الخطاف .. فابقاهم الخليفة ، ولكن فى درجة دون درجتها ،وفى مكانة لا ترقى الى مكانتها ..
قالت زينب فى اصرار :
ـ أنتم تنسون انكم تتحدثون عن أمى ، وما يؤذيها من قول يؤذينى انا أيضا .
قالت فاطمة :
ـ بل أنت تنسين أننا نتحدث عن دليلة التى لا تعرف الا النجاح والفوز بكل وسيلة ، وتنسين انها سبق أن استغلت حب على لك للايقاع به ، وساقته مهانا الى المشنقة ، فما الذى يمنعها أن تكرر الحيلة مرة أخرى ..

صاحت زينب فى غضب :
ــ انا فى صف على ، ولن اغدر به مرة ثانية أبدا .
قال على :
ــ انا أصدقك يا زينب ، ولكنى لا أفهم ماذا تريدين ؟
قالت زينب :
ــ اريد أن أعود الى بغداد ، ومن هناك ، من امى وخالى تطلب يدى
قبل أن يجيبها على او تعقب فاطمة على حديثها ، ارتفع صوت قرع ملح على باب الدار الخارجى ، فصمت الجميع وتبادلوا النظرات فى دهشة ، وقال سالم :
ــ لعله سلطان السقا عاد لامر أو لاخر .
ثم هب واقفا واندفع الى خارج القاعة ، بينما قالت فاطمة :
ــ قلبى لا يبشرنى بخير ..
قال على :
ــ زمان القلق والخوف انتهى ، فقد أعطانى العزيز منديل الامان ، واقر صلاح الكلبى بحقى أن أشاركه فى مقدمية مصر ..
ولم تجبه فاطمة ، وطال الصمت القلق ، الذى قطعه دخول المقدم سالم شاحب الوجه وهو يقول :
ــ انه المقدم عثمان يحمل رسالة من العزيز ان السلطان يريدك فى مجلسه الآن ودون امهال .
قالت فاطمة .
ــ الم أقل ان قلبى لا يحدثنى بخير .
قال على :
ــ سنعرف كل شىء فى حينه ، وأنا ذاهب اليه .
قال سالم :
ــ وأنا معك .

- ٣ -

النخيلة

كان ديوان السلطان الناصر عزيز مصر هذا الصباح يموج بالحركة والنشاط ، وقد امتلأ بكبار رجال الدولة ، وفى ناحية جلس المحتسب منهمكا فى حديث هامس مع قاضى القضاه ، بينما فى جانب آخر كان مفتى الديار بعمامته الضخمة ولحيته الشيباء الكثة يحادث كبير الكتبة . ووقف جنود فى ارديتهم المزركشة فى جوانب الديوان ، الذى كان يتصدره السلطان الناصر وعن يمينه جلس الوزير قيس ، وعن يساره جلس المقدم صلاح الكلبى مقدم الدرك وقد انهمك الثلاثة فى حديث طويل ، وعند باب الديوان وقف المقدم عثمان مع سلحدار السلطان وهما ينظران بين حين وحين الى الباب فى ترقب وقلق ، وهمس السلحدار :

- اتظنه سيحضر . ؟

قال المقدم عثمان :

- وهل هو يخاف شيئا ؟ سيحضر دون شك ، وانتظرته ..

قال السلحدار وهو يعبث بمقبض سيفه :

- لو عرف ما ينتظره لما جاء ..

ضحك المقدم عثمان ، ولمعت عيناه وهو يقول :

- بل لو عرف لكان هذا أدعى أن يجىء .. انت لا تعرفه ، هو الزيبق ..

حدق السلحدار فى حدة فى وجه المقدم عثمان وقال :

- من يسمعك يظن انك معجب به ، ومن يعرف الحقيقة يدرك غير هذا ..

قال المقدم عثمان :

- بل انا اكرهه كما لم اكره انسانا فى حياتى من قبل ، ولا اظن انني سأكره انسانا فى باقى حياتى كراهيتى له ، لقد خدعنى فى كل مرة التقينا ، وجعل منى الأداة التى يسخرها للوصول الى المقدم صلاح الكلبى ، مرة يظهر لى فى ثوب فتاة ، ومرة فى ثوب شميعة اليهودى ، ومرة فى ثوب المغسل الأبلة ، ومرة على شكل امرأة عجوز..

وسكت لحظات ولمعت عيناه غضبا ، ومضى يفرك كفيـه كانه يعصر بينهما رقبة عدوه ، وقال :

ـ فى كل مرة اقسم اننى ساكشفه رغم تنكره ، وامسك برقبته بين يدى ، لا اتركها حتى اتركه جثة هامدة ، وفى المرة الأخيرة يستطيع أن يخدعنى من جديد ـ انه شيطان ..

وتنهد المقدم عثمان ، وهو يرفع يده الى شاربه يفتله فى عصبية، بينما قال السلحدار :

ـ بالفعل لقد جعل منك ومن المقدم صلاح الكلبى ، وكل اتبـاعه من الزعر أضحوكة أولاد البلد فى مصر ، ولم يجد العزيز بدا من أن يعطيه منديل الأمان ، وان يعلن انه سيشركه مع المقدم صلاح الكلبى فى مقدميه درك مصر ، وخاصة بعد أن تغلب على تلك الحية الرقطاء ، دليله ..

قال المقدم عثمان :

ـ لكل واحد يوم نصره ، وله ايضا يوم هزيمته وذله ... والأمر لم ينته بعد ، وسيعرف الزيبق هذا بعد أن يصل الى هذه القاعة .

وقطع عليهما الحديث ، صوت الحاجب وهو يعلن بدء الديوان ، وتقدم كبير الديوان ينحنى مستاذنا من السلطان الذى أشار بيـده اشارة البدء ، فأسلم كبير الديوان ورقة مطوية الى الحاجب تضـم اسـماء أصـحاب المظالم والشـكايات الذين سيعرض أمرهم على السلطان فى ديوانه هذا اليوم ... وبدأ الحاجب ينادى على الأسماء ، ويدخل صاحب الشكاية من باب جانبى ويتقدم الى مقام السـلطان ثم ينحنى ويرفع اليه عريضة مكتوبة بشكايته ، فيسلمها السلطان الى الوزير الذى يقرأها بسرعة ليحدد للسلطان الشكاية فى كلمات قليلة ، فيشير السلطان باحالتها الى من تقع الشكاية فى اختصاصه المحتسب أو الكاتب او القاضى أو المفتى أو مقدم الدرك ، فيأخـذ الشـاكى شكايته ، ويذهب بها اليه حيث يجلس .. فينادى الحاجب على صاحب الشكاية التالية .. وابتـدأ الديوان يمتلىء باللغط والاصوات المتداخلة .

وقال السلحدار فى أذن المقدم عثمان :

ـ لقد نفد صبر السلطان فبدأ الديوان .

بادله المقدم عثمان همسه قائلا :

ـ سيزيد هذا من غضب السلطان فهو لا يحب أن يجعله احد فى موقف الانتظار ..

وقبل ان يجيبه السلحدار انبعثت ضجة من ناحية باب القاعة

الرئيسى ، فالتفتت كل العيون نحوه ، فاذا به ينفتح فجأة ويدخل كبير الحراس ووراءه على الزيبق فى ثياب فاخرة ووراءه المقدم سالم يتبعه وصاح كبير الحراس معلنا قدومه :
— المقدم على بن حسن راس الفول .
فهب المقدم صلاح الكلبى من مكانه الى جوار السلطان صائحا :
— اخطأت ياكبير الحراس ، فهو ليس مقدما بعد ، بل هو الشاطر على الزيبق ..
فانحنى على الزيبق امام السلطان ، بينما ظهر الارتباك على كبير الحراس ، وبدا الزهو على وجه المقدم صلاح الكلبى ، وهمس المقدم عثمان فى اذن السلحدار قائلا :
— طعنه فى الصميم .. بكلمة واحدة ازاح كل نصره ..
وارتفع صوت على الزيبق قائلا :
— مولاى السلطان انا لم ازعم لنفسى لقبا ، ولكنك وعدت وعلى هذا فلا لوم على كبير الحراس ان كان قد اخطأ وسمانى بغير ما يجب ان اسمى به .
همس السلحدار فى اذن المقدم عثمان :
— عفارم .. هذا زيبق صحيح ..
وقال السلطان :
— تقدم ياعلى ولا تثريب عليك فقد أعطيناك منديل الأمان ..
فتحرك على الزيبق مقتربا من مجلس السلطان ، وعاد ينحنى فى أدب ، ثم قال :
— مولاى السلطان انت وعدتنى فى ديوانك هذا ، وامام الجميع ، ان أكون شريكا للمقدم صلاح الكلبى فى مقدمية الدرك ..
قال السلطان وهو يسعل سعالا مفتعلا :
— طبعا ، طبعا ، ولكن ..
وقبل أن يكمل السلطان ، قال صلاح الكلبى الذى كان مايزال واقفا امام مقعده وقفة استفزاز وتحد ، وعيناه تلمعان فى حقد وغضب :
— للمقدمية أصول ياشاطر ، ولا يعنى ان الحظ حالفك ضدى وضد دليلة انك غدوت مقدما دون امتحان أو اختبار لاحقيتك وجدارتك بالمقدمية ..
صاح صوت واهن عجوز من عند الباب :
— كلام السلطان لا يرد ، صلاح الكلبى او غير صلاح الكلبى .. من سمع ان كلام السلاطين يرد ؟. ووجم الديوان وكل العيون تتطلع

الى جسد سالم الفارع ، وهو يتقدم فى وهن نحو مجلس الملك ، ويقف الى جوار الزيبق . ويستأنف كلامه قائلا :
ـ ماتعودنا يامولاى ان هناك معقبا على كلام السلطان ، فما قاله السلطان يصير ..
وتنحنح السلطان ، وتحرك فى مجلسه فى قلق ، بينما صاح المقدم صلاح الكلبى فى غضب :
ـ من الذى أدخل هذا المحتال الى الديوان ؟.
صاح فيه المقدم سالم قبل ان يشير الى الزعر والحرس لينقضوا عليه :
ـ تادب فى حضرة السلطان يامقدم صلاح .. والسلطان يعرف من انا ، فأنا سالم ناب السبع خادم مقدم درك مصر الراحل حسن راس الغول ..
ووجد السلطان مخرجا من حرجه فى كلمات المقدم سالم ، فابتسم وهو يقول :
ـ من زمن لم أرك يامقدم سالم ، هل هذا فعل السنين فيك .. ؟
ضحك المقدم سالم وهو يقول :
ـ بل هو فعل سيف أحد الجبناء ، ولا ادرى اى جبان هو ؟ فقد كانوا من الكثرة بحيث لم أعرف لهم عددا ، وهم يطبقون من كمين اعدوه لنا انا وعلى ، ومع هذا يا مولاى فقد هربوا من امام هذا السيف العجوز ..
ضحك السلطان فى حرج ، ثم سعل ، ثم قال :
ـ لا احد يشك فى شجاعتك وبسالتك يا مقدم .
ورغم كلمات الاطراء ، فان الفارس العجوز لم يمهل السلطان ، بل قال :
ـ وانت يامولاى وعدت ، ووعد الملوك لا يرد ..
قال السلطان وهو يتحرك فى مجلسه فى قلق :
وانا عند وعدى يامقدم سالم ، ولكن المقدم صلاح الكلبى افهمنى انه لا يجوز اشراك هذا الشاب فى مقدمية درك مصر الا بعد أن يصبح مقدما أولا ..
والتفت بوجهه ناحية صلاح الكلبى الذى أسرع يقول :
ـ هذا صحيح يامولاى السلطان ، فهو الآن ليس الا شاطر من الشطار ، ولم يسمع احد أن أحد الشطار غدا مقدم الدرك ، بل لابد له من أن يكون مقدما أولا ...
وأسرع السلطان يقول :

ــ وقد أيد المقدم صلاح الكلبى فى كلامه كل وجـــوه الديوان ، الوزير ، والقاضى والمحتسب ، وكبير الكتبة ، والمفتى ، والسلحدار، وكبير الحرس ، ورئيس العسكر ..

وكان السلطان وهو يتحدث ، ينقل بصره الى صاحب كلّ منصب فيهز هذا راسه موافقا ، حتى انهى ذكره لهم جميعا ، فقـــــال على الزيبق :

ــ كلام مولاى السلطان عندى امر واجب التنفيــــذ ، ومادام السلطان يوافق المقدم صلاح الكلبى على كلامه ، وكذلك يوافقه كل وجوه القوم هنا ، فانا مطيع منفذ .

رجع السلطان الى الوراء فى كرسيه وهو يتنهد فى ارتيــــاح ، وقال :

وعلى هذا فلا يحول بينك وبين الحصول على المنصـــب الذى وعدتك به الا ان تكون مقدما .

وسأل على الزيبق فى ادب :

ــ وكيف يكون ذلك ؟

صاح صلاح الكلبى قبل أن يجيب الســلطان عن ســؤال على قائلا :

ــ النفيلة يا شاطر على ، لن يرضى المقدمون ان تكون منهم الا بالنفيلة .

سأل على فى سذاجة :

ــ يأمرون وانا مستعد .

وصاح المقدم سالم فى تحذير :

ــ حذار ياعلى هذا فخ نصبه صلاح الكلبى فلا تقع فيه .

وقال صلاح الكلبى فى براءة ، وهو يلوح بذراعيه مشيرا الى الزعر يملئون الديوان :

ــ هذا ليس طلبى انا ، بلّ هو طلب كلّ المقدمين والزعر ، لابـد لكى يقبل واحد فى زمرة المقدمين أن يقدم النفيلة التى يتفق عليهـا الجميع ..

قال على فى اندفاع وحمية :

ــ وانا قلت اننى مستعد ، فما هو طلبك يامقدم صـلاح الدين الكلبى ..

استمر صلاح الكلبى يتصنع لهجة البراءة وهو يقول :

ــ انا اقول لك ما اتفقوا عليه ، لا ما أطلبه انا ..

قال على فى صبر نافذ :

ـ اذن قل ، وعلى التنفيذ .
قال صلاح الكلبى فى انتصار وتشف :
ـ تحضر لنا صندوق التواجيه ..
وساد الوجوم القاعة كلها ، بينما شحبت بعـــض الوجوه ، وارتسمت ابتسامة التشفى على وجوه اخرى ، وهمس المقدم عثمان فى اذن السلحدار قائلا :
ـ هذا هو السهم الذى احتفظ به المقدم صلاح فى جعبته
فقال السلحدار :
وقد اصمى وادمى ..
قال المقدم عثمان فى ابتهاج :
ـ من سمع أن احدا ذهب لاحضار صندوق التواجيه وعاد ..
قال السلحدار :
ـ هذا عالم من الجن والطلاسم والسحرة لا يقدر عليه احد .. لن يوافق الزيبق على هذا
همس المقدم عثمان :
ـ بل سيوافق ، وسترى ..
قال السلحدار :
ـ ان المقدم سالم يحاول أن يحذره ..
قال المقدم عثمان فى ثقة :
ـ لن يجدى معه تحذير ..
وكان واضحا ان سالم يشتبك مع على فى جدل عنيف هامس ، وكانت لحية سالم الشيباء تتحرك فى عصبية ، بينما كان على يهز راسه الشاب فى اصرار .. وقطع عليهما المقدم صلاح الكلبى حوارهما الهامس قائلا فى سخرية :
ـ مولانا السلطان ينتظر ردك ياعلى .. ومولانا السلطان لا يحب ان ينتظر احدا ..
وامن السلطان على حديثه بقوله :
ـ ماذا قلت يا على ، ان باب الاعتذار مفتوح ، فانت مازلت شابا صغير السن ، قليل التجربة ، ولو اعتــذرت ما لامك احد ، ومازال منديل الأمان معك ، فلن امسك بسوء ..
ورغم كل اعتراضات المقدم سالم تقدم على الزيبق خطـــوة وقال :
ـ بل افعل يامولاى السلطان ، واحضر صندوق التواجيه هدية لك ..

ضحك السلطان فى اضطراب وقال :
ـ مثل هذه الهدية جديرة بمن هو اعلى مقاما منى ، هى هدية منا جميعا الى خليفة بغداد ، هارون الرشيد ..
صاح صلاح الكلبى فى سخرية :
ـ لو احضرها ..
قال على الزيبق فى اصرار :
ـ ساحضرها ، ولتكن هدية بلادى لمركز الخلافة مولانا هارون الرشيد .
ارتفعت من القاعة آهة تقطع الوجوم الذى ران عليها وهذا الحوار دائر ، واهتزت لحى فى اشفاق ، واهتزت رؤوس فى حماس وتأييد ..
وهمس المقدم عثمان فى اذن السلحدار فى سخرية :
ـ ابتلع الولد الطعم ، ولن يعود الا جثة هامدة ، ان عثرنا له على جثة ..
قال السلحدار وفى صوته رنة آشفاق :
ـ صغير هو على هذا والله .
نظر اليه عثمان فى دهشة ، وقال :
ـ أتتعاطف معه ؟
قال السلحدار ، وهو يواجه نظرات المقدم عثمان الحادة بنظرات اكثر حدة :
ـ لقد حدثتنى عنه بكل ما هو بشع ، لقد صورته لى وحشا فى صورة انسان ، وها هو امامى الآن ، شاب رقيق يافع يشع حماسا وحيوية ، ويلقى المخاطر بابتسامة جريئة وابية ..
ثم صمت لحظات ، وعاد يقول :
ـ وهو يعجبنى ، وافضله على صلاح الكلبى مائة مرة ..
وتقابلت نظراتهما فى حدة غاضبة ، واعادهما الى ماهم فيه صوت على الزيبق الفتى وهو يقول :
ـ هل هذا هو كل ما استدعيتنى من اجله يامولاى السلطان ..
وابتسم السلحدار فى ثقة ، بينما امتلأت عينا المقدم عثمان حنقا وغضبا من لهجة الزيبق الهادئة الواثقة ، والتفتا الى حديث الزيبق والسلطان الذى قال :
ـ لم يكن هذا هو سبب استدعائى لك ياعلى ، وانما كان هذا ما اثاره المقدم صلاح الكلبى ، اما الموضوع الاصلى فسيخبرك به الوزير ..

وما ان صمت الملك حتى وقف الوزير قيس واخرج لفافة من ورق كان يحتفظ بها وامسكها بيده وأشار بها وهو يقول :

ـ هذه شكوى جاءتنا من ديوان الخليفة هارون الرشيد نفسه ضدك .. وعاد الوجوم يسود الديوان كله ، بينما تقدم على الزيبق خطوة الى أمام ، فامسك المقدم سالم ذراعه يمنعه من التقدم ، واستأنف الوزير كلامه قائلا :

ـ انها شكوى مقدمة من دليله مقدمة درك بغداد الى الخليفة ، تقول فيها ان ابنتها قد اختطفت فى مصر ، وتطلب عودة ابنتها اليها ، والخليفة أرسل الى عزيز مصر يطلب منه البحث عن زينب بنت دليلة واعادتها الى أمها فى بغداد سالمة آمنة .

وسكت الوزير يلتقط أنفاسه ، فعاد صلاح الكلبى يصرخ وهو يشير باصبعه الى على قائلا :

ـ ونحن جميعا نعرف ان الذى اختطفها هى وامها هو انت ..

ورفع السلطان الناصر يده فسكت صلاح الكلبى ، بينما عاد الوزير قيس يقول :

ـ دليلة تقول انها غادرت مصر على عجل ، ولم تر ابنتها ، ولم تعثر لها على اثر ، وتتهمك بانك خطفتها ، وتزوجتها قسرا ..

قال السلطان :

ـ ماقولك ياعلى فى هذه الشكوى الخطيرة ، لو صدقت لكلفتك عنقك ..

قال على الزيبق فى أدب شديد :

ـ مولاى السلطان محق ، فلو كنت فعلت هذا لاستحققت الشنق على يدك من جديد .

واثارت كلمات على همهمة بين المجتمعين فى الديوان ، فقد تذكر كل واحد منهم ، كيف سيق على الزيبق الى المشنقة ، وتذكر أيضا كيف هرب منها .. وعاد الزيبق يقول :

ـ ليس من شريعتنا يامولاى خطف النساء ، أما ما حدث لدليله فقد كان وفاء بقسمها ان تسوقنى اليك وعند بابك ، مقيد اليدين عارى الراس ، فوفيت بقسمها عليها نفسها ، فسقتها الى بابك عارية الراس مقيدة اليدين ، لاثبت لك ولها اننى افوقها مهارة وقدرة وحيلة .

وارتفعت كلمات الاستحسان من كل مكان فى الديوان ، حتى اطرق العزيز فى خجل وصمت ، وعاد الزيبق يقول :

ـ لقد رفضت زينب أن تعود مع أمها الى بغداد ؛ لكراهيتهـا للطريقة التى اشركتها فيها دليلة فى حيلتها فى الايقاع بى .. ولكن زينب يامولانا السلطان ضيفة عزيزة فى دارى لم تمس ، ولن تكون زوجتى الا بارادتها وموافقة امها ، وأنا مستعد أن أعيدها اليهـا فى الحال ..

وارتفعت صيحات كل من فى الديوان ؛ وكلها تعاطف واستحسان وحب .. وقال السلطان :

ـ اذن تعيدها الى أمها فى بغداد ، ونجيب عن خطاب الخليفة بانها عائدة .

قال الزيبق :

ـ نعم يامولاى أعيد زينب الى أمها شريفة معززة مكرمة لم يمسها سوء .

قال السلطان :

ـ سلمت ياعلى .

قال سالم :

ـ المقدم على .

قال صلاح الكلبى :

ـ الشاطر على الى أن يثبت لنا احقيته بالمقدمية .

قال على :

ـ وأنا عند وعدى يامولاى .

قال السلطان الناصر ، وهو يرفع يده ليصمت الجميع :

ـ اذن تحضر صندوق التواجيه لتصبح مقدما ، وساعتها تصبح شريكا لصلاح الكلبى فى مقدمية مصر ، وتعيد زينب الى امها دليلة لتبقى صفحتها بيضاء عند الخليفة هارون الرشيد .

قال الزيبق :

ـ نعم يامولانا السلطان افعل ، الصندوق سيكون عندك وفاء بوعدى ، وزينب ستكون عند امها وفاء بمعنى الشهامة والكرم ..

٤

صندوق التواجيه

قالت فاطمة فى حنق وهى تتحرك فى الغرفة ذاهبة آتية فى عصبية وغضب :

ـ صندوق التواجيه .. ؟ هذه داهية أرسلوك اليها ، ما طلب صلاح هذا الطلب الا ليرميك فى بحر المهالك الذى لا عودة منه ..

قال على وهو مطرق الرأس :

ـ انه تحدانى ، وكان لابد أن أجيب على تحديه بالقبول ..

وكان وجه زينب شاحبا وهى تراقب حركات فاطمة الغاضبة فقالت :

ـ وما صندوق التواجيه هذا ياخالة ؟

وقفت فاطمة أمامها ، وعقدت ذراعيها على صدرها ، وهى تقول :

ـ دخلنا فى دنيا السحر والارصاد ، صندوق التواجيه أعجوبة من عجائب الزمان صنع بالحكمة والكهانة ، وهو مركب من أربعة معادن هى الماس والياقوت والزمرد والفيروز ، وقد اصطنعه أحد حكماء اليونان الاقدمين . وكان يجلس أمامه فيكشف كل ما فى الدنيا ، ويرى الممالك القريبة والبعيدة ، ويرصد ما يحدث فيها كأنه يعيش مع أهلها .

قالت زينب فى دهشة :

ـ كأنه يجمع الدنيا فى صندوق ..

التفتت فاطمة الى سالم الذى كان يقف مستندا الى جدار الغرفة ، والاعياء باد عليه ، وقالت :

ـ لقد حسبت ان ذهابك معه الى ديوان السلطان سيجنبه مثل هذه المهلكة .. كيف نتركه يقبل هذه النفيلة يا سالم ؟.

قال سالم ، وهو يمر بيد متعبة فوق جبهته المتغضنة :

ـ حاولت أن أحذره ونحن فى الديوان ، ولكنه رفض ان يستمع الى نصحى ، حتى وضح أمام الجميع أننا نكاد نتشاجر أو حتى نتعارك .

قال على فى صبر نافد :

ـ ليس لسالم شأن بهذا ، فالتحدى كان موجها الى لا اليه . وأنا الذى قبلته ، وسأحضر هذا الصندوق مهما كلفنى الأمر .

قالت فاطمة وهى تهز كتفيها فى استسلام :

ـ بينك وبين المدينة المرصـــودة التى فيها الصندوق مســـافات ومسافات ·

سالت زينب :

ـ المدينة المرصودة ؟

قالت فاطمة :

ـ كان الحكيم اليونانى يعيش فى مدينة عند حافه البحر ، لا يصل اليها الانسان الا بعد قطع صحراء مخوفة ، وغابات مليئة بالوحـــوش والسباع · ومع هذا خاف على ذخيرته ، فقصد الى جزيرة تواجه المدينة فبنى فيها قبة عظيمة وضع فيها صندوق التواجيه ، ثم طلسم الجزيرة بالسيوف القاتلة التى لا يعرف سر حركتها الدائمة الا هو ، فاذا ما دخل الجزيرة انسان واقترب من القبة مزقته هذه السيوف المتحركة ··

قال على الزيبق :

ـ هذا أمر عجيب · وكيف صنع هذه السيوف يا أم ؟

قالت فاطمة :

ـ من قدر بعلمه وحكمته على صنع صندوق التواجيه لا يوجد مثله فى الدنيا ، والذى يستطيع أن يجعله يرى البحار والانهار والمدن كأنه يعيش فيها لحظة بلحظة ، قادر على حماية ما يصنع ··

عاد على الزيبق يسال فاطمة :

ـ ولكنك قلت أن المدينة مرصودة ·· ؟

قالت فاطمة :

ـ كان أهل المدينة يحبون هذا الحكيم اليـــونانى ، فقد صنع لهم الانهار ، وعلمهم الزراعة ، وبنى لهم مخـــازن الغـــلال ، وعلمهم من الصناعات ما تفوقوا فيه على سائر المدن حولهم ، فاحبـــوه وتفانوا فى الاخلاص له وعنـــدما حانت منيته ، أوصى ملك المدينة أن يحـــافظ على ذخيرته من كل من يحاول الحصول عليها ، وبنى لهم تمثـــالا على هيئة انسان من النحاس ، ووضعه على باب المدينة رصـــدا لمن يدخلها بغية الحصول على الصندوق ، فاذا دخل المدينة غريب ، صـــاح هذا التمثال صيحة عظيمة . فيعلم أهل المدينة بأمر دخول الغريب ، فيخرجون اليه ، ويقبضون عليه ، ثم يقتلونه جزاء تعديه على مدينتهم ··

قالت زينب :

ـ من سمع بمثل هذا من قبل ، صندوق ينقل العالم الى من يراه ، وسيوف متحركة تقتل كل من يقترب منها ، وتمـــاثيل تصيح عندما يدخل غريب الى المدينة ··

قالت فاطمة :

ـ ولم يقصد انسان الى هذه المدينة ونجا بحياته أبدا ، فمن أفلت من أهل المدينة ، وغضبهم ، مزقته سيوف الجزيرة وقضت عليه .

قال على :

ـ لكل شيء سر ، ولو عرف السبب بطل العجب .

قالت فاطمة :

ـ قلت لك ياعلى أن هذا الحـــكيم كان يعرف من أسرار الحركة ، وعلوم المعادن مالا يعرفه غيره . وكان يســـتطيع أن يحرك الســاكن بمعرفته ، وان ينطق المعدن بحكمته ..

قال على في اصرار :

ـ مازلت أقول انه فوق كل ذى علم عليم ..

تحدث سالم الذى ظل صامتا طوال هذه المدة فقال :

ـ ومن أين لنا بهذا العالم الذى يفوق علمه ذلك الحكيم ؟

سكتت فاطمة ، وعيناها تبرقان بوهج غريب ، فصاح على :

ـ أنت تعرفين يا أم ولا تريدين أخبارى خوفا على .

قالت زينب

ـ ليس فى بلادنا من يفوق علمه علم هذا اليونانى ..

قالت فاطمة فى غضب :

ـ هل عقمت النســاء فى بلادنا يا زينب .. وكل هذه الجســور والمعامل ، وكل هذه السدود والاهرامات ، وكل هذه المصانع والالآت ، الم يقمها اناس فى بلادنا . يعرفون العلم . ويتقنون الصناعة .

ابتسمت زينب وهى تقول :

ـ ما كل هذا الحماس ياخالة .. ؟

وارتسمت ابتسامة الامل على شفتى على الزيبق وهو يقول :

ـ الم اقل أنها تعرف .. ؟

قالت فاطمة :

ـ لم اقل أى شيء . ســــوى أن لدينا فى بلادنا من أهل الحكمة والمعرفة من علموا هذا اليونانى وغيره الحكمة والعلم والكهانة ..

قال على الزيبق وهو مايزال يبتسم :

ـ مثل من يا أم .. ؟

صاح سالم محذرا

ـ حذار أن تخبريه فيورد نفسه موارد التهلكة .

قالت فاطمة وهي تدق الارض بقدمها في اصرار :
ـ لقد قطع على نفسه عهدا ، ولابد أن يوفيه ، وما كنت لأرضى لابن حسن رأس الغول أن يكون عاجزا عن تحقيق أمر أخذ على نفســـه أن ينجزه .
قال سالم في تخاذل :
ـ ولكنه
قالت فاطمة وعيناها تلمعان :
ـ ليس هناك لكن ، لقد حاولت أن أثنيه عن عزمه ، ولكنه مصمم على المضى في طريقه ، فلتكن اذن مشيئة الله .
اشتعل صوت زينب حماسا وهي تقول :
ـ اذن فسينتصر الزيبق من جديد ، ويثبت بطولته وجدارته .
قالت فاطمة :
ـ لابد أن ينتصر يا زينب ، فانتصاره هو طريقه الوحيد اليك .
علت حمرة الخجل وجه زينب ، وهي تطرق برأسها ، وتهمس في اضطراب :
ـ كيف .. ؟
قالت فاطمة وهي تضحك :
ـ الم تشك امك دليلة الى الخليفة من ان على الزيبق قد اختطفك ، أنت ستغادرينا غدا الى بغداد معززة مكرمة ، ولكن على لا يستطيع ان يطلبك من الخليفة هارون الرشيد الا اذا ذهب اليه يحمل صـــندوق التواجيه هدية من عزيز مصر ، وعربونا على جدارته بك ، واسترضـاء لغضب الخليفة عليه ..
تنهدت زينب وهي تقول :
ـ ويفعل هذا من أجلى أنا ..
قال على في حماس وهو لا يلحظ ما علا وجه زينب من خجل وخفر :
ـ بل من أجلها أفعل أكثر من هذا ..
ضحكت فاطمة وقالت :
ـ لابد لك اذن من صندوق التواجيه ان كنت تريد زينب ..
قالت زينب في صوت خافت :
ـ أنا له دون هذا الصندوق وأهواله ..
قالت فاطمة :
ـ لابد أن يرضى الخليفة عنه ، ولابد له أن يثبت حسن نواياه ..
قالت زينب : ـ

- عودتي سالمة الى بغداد كافية باثبات كل هذا .
قال سالم بعد ان سعل ليلفت الانظار اليه :
- لن يجديها شيء أن يهلك في طلب هذا الصندوق الشيطاني ..
صرخت زينب في اجفاله :
- يهلك .. لا قدر الله ..
وقالت فاطمة وهي تربت على كتفها في حنو :
- لن يهلك الزيبق وله عزيمته ودهاؤه وملاعيبه التي لا تنفد ..

منذ غادر الزيبق الديوان والمقدم عثمان قد فقد اهتمامه بما يدور حوله ، وكان يرد على ملاحظات سلحدار السلطان في فتور وقلق ، كان يعرف ان الزيبق قد وقع في فخ حفره له صلاح الكلبي ، ولكنه لم يكن يحس في قلبه بفرحة لأزمة الزيبق الجديدة التي ستورده مورد التلف والهلاك .. هو يعرف السيف والسهم والحربة ، ولكن حروب الطلاسم والسحر ، شيء لا يجب أن يتعرض له فارس .. وما من انسان قصد المدينة المطلسمة . حيث جزيرة القبة وصندوق التواجيه الا أهلك ، ولم يسمع أحد عنه شيئا بعدها أبدا .. والزيبق بعد شاب حدث ، شجاع هو وذكي ، وصاحب ملاعيب لا تنتهي ولكنه حارب دائمـــا بشرف ، وانتصر بجدارة ، وأما أن يرســـل الى هلاكه الغامض ، فهـــذا شيء لا يستسيغه ولا يحبه .. وأفاق من تأملاته على لكزات الســـلحدار ، فرفع راسه وقال :
- ماذا جد ؟
قال السلحدار ، وهو يبتسم :
- المقدم صلاح الكلبي يشير اليك ، وأنت سارح في فكرك لا تراه وسيغضب منك ان لم تجبه ..
التفت المقدم عثمان ناحية المقدم صلاح الدين الكلبي الذي يجلس الى جوار السلطان في صدر الديوان ، فرآه يشـــير اليه بيده ، فأحنى رأسه ، ومضى يشق طريقه وسط الديوان الى ناحيته ، بينمـــا قال السلحدار في صوت هامس :
- سهم جديد من جراب صلاح الكلبي ..
ولم يلتفت اليه المقدم عثمان ،وانما مضى في طريقه حتى اقترب من صلاح الكلبي حتى كاد يحاذيه . وأشار اليه صلاح الكلبي أن يقترب منه أكثر ، ففعل حتى أصبح يلامس كتفه ، فهمس صـــلاح الكلبي في أذنه :
- اخرج من هذا الباب الجانبي وســـأتبعك دون أن الفت نظر السلطان ..

واشار صلاح الكلبى الى باب جانبى صغير ، يقود الى جزء مهجور من الدار ، فسار المقدم عثمان اليه مسرعا .. وما كاد يدخل من الباب الى ممر معتم مهجور حتى لحقه المقدم صـــلاح الكلبى ، وأمسك بكتفه وهو يقول :

ـ لقد وقع الزيبق فى أيدينا ولن ينجو من الهلاك أبدا ..

لم يجب المقدم عثمان عندما ، وانما نظر فى عينى صـــلاح الكلبى المليئتين بالحقد والكراهية ، فقال :

ـ الى هذا الحد تكرهه يامقدم .. ؟

اشتدت قبضة صلاح الكلبى على كتف المقدم عثمان ، وهو يقول :

ـ لقد فضحنى .. وهزمنى بحيله وملاعيبه ، ولابد من القضاء عليه بكل وسيلة ، النجاح هو الحكم فى حياتنا ، الفاشـــل يموت وينتهى ، لا أريد أن أكون الفاشل أبدا ..

قال المقدم عثمان ، وهو يتمالك نفسه :

ـ لا قدر الله يامقدم .. وهو لن يعود من ســـفرته الى صندوق التواجيه أبدا .

قال صلاح الكلبى :

ـ هذا لا يكفى ، أنا لا اركن الى حديث السحر والشـــعوذة ، أنا لا أعرف الا الحقائق ، ولهذا أريده أن يموت قبل أن يبدأ .

وأنتبه المقدم عثمان لحديث المقدم صـــلاح الكلبى ، وأنتبهت كل حواسه وهو يسأل :

ـ كيف يا مقدم ؟

قال صلاح الكلبى وهو يعض على نواجذه :

ـ عند باب النصر ، وفى آخر حوش من أحواش المقابر ، ستجد حوشا خشبيا أحمر اللون ، هناك ستجد حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، اخبرهما اننى أريدهما ، وأرسلهما لى ..

فتح عثمان فمه فى دهشة وبلاهة وهو يسأل :

ـ حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، لقد نفاهما السلطان ، وأنت بنفسك أخرجتهما من ديوان الزعر ، وأمرتهما أن يرحلا عن مصر ، والا قتلا .

قال المقدم صلاح الكلبى فى صوت هامس أجش :

ـ لا يعرف أحد أنهما لم يغادرا مصر الا انا ، وأنت الآن ..

ونظر فى عينى تابعه نظرة متوهجة وهو يقول :

ـ ولن يعرف أحد بأمرهما ، والا طارت عنقك .

ارتجف المقدم عثمان رغم صـلابته تحت نظرات المقدم صـلاح الكلبى ، وقال :
أنت تعرف ، ان ما تقوله لى لا يعرفه احد أبدا ٠
همس صلاح الكلبى فى صوت كالفحيح :
ـ يدفن معك ياعثمان ، أفهمت ، يدفن معك ٠٠ فلو عرف العـزيز أننى آويتهما فى مصر لقتلنى دون تردد ٠
همس المقدم عثمان :
ـ لا سمح الله يامقدم ٠
وعاد صلاح الكلبى يقول :
ـ لقد أصبحت يدى مشلولة حيال على الزيبق ، فقد حصـل على منديل الامان من السلطان ، وأصبحت حمايته من واجبى ٠٠ تصور ٠٠ هل هذا شىء يصدق ٠٠ قال لى السلطان : لا أريد أن يحدث له شىء ، وإلا غدوت أضحوكة عند أبناء مصر ، ولسانهم لا يرحم ٠٠
قال المقدم عثمان فى حذر :
ـ ان قلبك لم يصف له يا مقدم ٠٠
ثم استدرك قائلا :
ـ وكيف يصفو بعد كل ملاعيبه التى لا ترحم ٠
أصر المقدم صلاح الكلبى على أسنانه ، وهو يقول :
ـ لقد خدمه الحظ ، وأننا لم نكن نعرف من هو ، وما هو شكله . اما الآن وقد عرفناه فالأمر أسهل من قبل بكثير ٠٠ أسـمع ، عندما تقابلهما أخبرهما أن الزيبق فى طريقه الى المدينة المرصودة ، وسيخرج من مصر من ناحية الجيزه ، فليرصداه ، وعندما يتـأكدان من خروجه فليسبقاه الى بئر النجاة ٠٠ وهى البئر الوحيدة وسط المغارة المهلكة التى لابد أن يجتازها من أرض الوادى الى المدينة المرصودة ، وليكمنا هناك ولا يعودان الا برأسه ٠
ارتجف المقدم عثمان وهو يسمع صوت المقدم صلاح الكلبى الذى غدا كالفحيح ٠٠ وقال :
ـ ولكن الم تحسب حساب مكره ، وأنه قد يتغلب عليهما ٠٠
ضحك المقدم صلاح الكلبى وهو يقول :
ـ انت لا تعرف الطريق ، لن يصل الى بئر النجـاة ألا وقد خبله العطش والتعب ، ولو احسنا الحيله لقبضنا عليه باليد دون عناء ٠٠

او بهما بالغدر والكتمان .
قال المقدم عثمان :
ـ أذهب معهما يا مقدم فانا اعرفه اكثر منهما ..
قال صلاح الكلبى فى غضب :
ـ لقد اتيحت لك مائة فرصة وفرصة لتتخلص منه عنا ، وفشلت .. وانا لا أخشى على حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار فهما من العتاة ، وليس الزيبق من رجالهما ..
قال عثمان :
ـ لا تغضب يا مقدم ، فانما أعرض خدماتى ..
قال صلاح الكلبى وهو يبتسم فى شراسة :
ـ لن تنفعنى خدماتك الآن ، لا أنت ولا أحد من رجالى المعروفين ، وانما سيقتل الزيبق اثنان من العصاة على وعلى السلطان ، كما سيقتل خارج مصر ، فلا لوم على ولا اتهام ..
ثم اتجه الى خارج الممر المظلم وهو يقول :
ـ حذار أن يراك أحد معهما ..
ثم ابتلعته فتحة الممر الى الديوان ، بينما خرج المقدم عثمان من مدخل الممر الى الشارع وهو عازف عن ان يرى السلحدار أو غير السلحدار ، وصدمته ضجة القاهرة وشمسها الساطعة ، فوقف لحظات يعود أذنه وبصره على حياة الشارع الصاخبة ، ومضى مسرعا يشق شوارع القاهرة وحواريها ، وحوله ترتفع نداءات الباعة ، وصنوج الشربتلية ، وصهيل خيل ، ونهيق حمير ، وشجار بين نافذتين وجدل عند باب الحمام فى سوق الزلط ، ثم تخف الضجة وهو يتجه الى خارج القاهرة ، الى باب النصر ، الى المقابر تقف منفردة بشواهدها ، أو الاحواش الخشبية تضم داخلها شواهد قبور وغرف الزيارة ، وأماكن الخزين .. كان يحس ثقلا فى قلبه ، لقد هزمه الزيبق حقا ، ولكنه كان فى كل ملاعيبه مثال الشجاعة والجرأة والذكاء ، ومنذ نجا الزيبق من المشنقة ، وهو يعتقد فى أعماق قلبه ، ان الحياة أصبحت من حقه . ولكن هكذا تجرى الامور ، ماله هو وكل هذا ، ما هو الا مقدم من مقدمى صلاح الكلبى ، عليه أن ينفذ أوامره والا ناله السوء ، وعاد الى حياة الصعلكة والشقاوة والخوف القديمة ..
ومن بعيد لاح له حوش منفرد بعيد ، جدرانه من خشب طليت باللون الاحمر .. وشد أقدامه شدا وهو يتحسس مقبض سيفه ، ويتقدم نحوه فى استسلام وقنوط ، لقد كان يعرف أنه يحمل اليه رسالة الموت الغادر الاكيد ..

- ٥ -

غدا .. نرتحل

قال عم عباس المبخراتى ، وهو يحرك يده بالمبخرة ذاهبة رائحة ويده الاخرى تمدها بالبخور بين الحين والحين ، فتزداد كثافة الدخان المتصاعد من المبخرة ، وهو يقول :

ـ هو الحى القيوم ، سبحانه ، مخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، له الدوام وحده قيوم حى ، وحدوا الله .

ثم يختفى وراء غلالة من الدخان وهو يتحرك من مكان الى مكان ، ويده تمر بالمبخرة فوق الاحمال المتراكمة وسط باحة الدار .. ويتمتم لنفسه مرة ، ويجهر بصوته مرات ، وهو مفقود وسط ماقى البيت من حركة وضجة وصياح .. فقد كان البيت هذا الصباح يموج بالحركة ويعج بالناس ، يتوه وسطهم عم عباس المبخراتى ، ويتوه صوته ، وتتوه حركة يده الرتيبة بالمبخرة .. كان الحمالون يحملون الامتعة التى تثقل كواهلهم الى القاعة .. ليعودوا الى الحمير المربوطة فى الفناء الخارجى ، يركبونها ويعودون الى السوق ، ليعودوا من جديد باحمال اخرى .. اقمشة ، وتوابل ، وعطور ، وآنية من كل نوع .. وعم عباس المبخراتى ، يقابل كل حمل جديد بمبخرته المتوقدة دائما ، المشتعلة على الدوام ، تفوح منها روائح المسك والعنبر ، ويدور بها حول كل جديد يدخل القاعة وهو يبسمل ويحوقل ويقول :

ـ هو الحى القيوم . العفو من الله . والرزق من الله . وهو الحى ، سبحان الله .

ويتخافت صوته شيئا فشيئا ، وهو يحرك مبخرته ذات اليمين، وذات الشمال ، ويتحرك من مكان الى آخر وعيناه لا تغادران فاطمة عند الوسط تماما من كل هذه الحركة الدائبة .. وكانت فاطمة مشغولة عنه فى ترتيب الاحمال والامتعة ، بينما كانت زينب تقف عند طرف القاعة وهى ترقب هذه الحركة النشطة فى خجل ، وتفرك كفيها فى ارتباك ، واخيرا رفعت راسها وقالت :

ـ كل هذا يا خالة لى .. هذا كثير .

وصاح عم عباس المبخراتى ، وهو يحرك يده فيرتفع الدخان والبخور يكاد يخفيه عن اعين الناظرين :

- ما يكثر على الله نعم الله .. حى .. قيوم .. سبحانه مقسم الارزاق .

وصاحت به فاطمة فى غضب :

- يا عم عباس - بخرت القاعة - ماذا يبقيك ؟ تعال خذ حسنتك .

ومدت يدها فى جيب ثوبها بحفنة دراهم ، اعطتها له فى صمت وقال متلعثما :

- قال المقدم سالم بخر من عين العوازل بخرت ، كل حمل يدخل بخره يا عباس ، واياك ان تترك حملا لا تبخره بخرنا .. القاعة كلها بخرناها .. ولا يبقينى شىء الا كرمك وحسن رضاك يا ام الرجال ، يا كاملة ..

ضحكت زينب ، وهى تخرج حفنة دراهم اخرى تعطيها له فى كفه اطبقت عليها فى حرص وقالت :

- خذ وانصرف .

واسرع يحرك المبخرة فى يده ، لينبعث منها دخان جديد ، وخرج من القاعه وهو يتصايح قائلا :

- من عين العوازل ، من عين الحاسدين ، سبحان من يرفع من يشاء ، ويذل من يشاء ، هو الحى القيوم ..

وفى غلالة من الدخان المتصاعد من مبخرته انسحب خارجا من القاعة ، وقالت فاطمة :

- انسان طيب ولكنه ثقيل الظل ..

قالت زينب :

- وهل كان حضوره ضروريا ؟.

قالت فاطمة :

- المقدم سالم احب ان يخزى العين عن كل ما جاءك ، فجاء بالمبخراتى لكى يبخر كل ما جاء من السوق لتحل به البركة ..

ضحكت زينب وهى تقول :

- ولكن هذا كثير يا خالة فاطمة ..

قالت فاطمة وهى تتجه نحوها وتضمها الى صدرها :

- ابدا هذا اقل من القليل يا زينب .. ومع هذا فالمقدم سالم اراد ان يرقى هذا القليل من العين فاتى بالمبخراتى .

وضحكت .. بينما احنت زينب راسها وهى تدير بصرها فيما ملأ القاعة من احمال ، وقالت :

ـ ولكن هذا شوار عروس يا خالة فاطمة ..
ضمتها فاطمة وقبلتها ، ثم قالت :
ـ وانت عروس يا زينب وان تأجل زفافك ..
علت الحمرة وجه زينب ، وازداد اطراق راسها وهى تقول :
ـ بعد كل هذه الفضيحة يا خالة ..
قالت فاطمة بسرعة وهى تربت على شعر زينب :
ـ لا فضيحة فى الأمر ، انت يا زينب ضيفتنا منذ البداية ..
قالت زينب :
ـ وما يقوله الناس ؟ الزيبق اسر زينب بعد ان طرد أمها دليلة ؟
قالت فاطمة :
ـ الآن الكل يعرف انك لست فى اسر احد ..
ثم ضحكت وقالت :
ـ واذا تحدثنا عن الاسر ، فمن فيكما فى أسر الآخر ؟
ازداد احمرار وجه زينب وهى تقول :
ـ يا خالة .. هذا كرم منك ..
ضحكت فاطمة ، وهى تشير الى ما فى القاعة من متاع جديد ، وقالت :
ـ كل هذا هديتنا لدليلة علها ترضى ـ وانت ستسافرين معززة مكرمة الى بغداد دون ان يمسك اذى ، ودون ان يطلب منك احد شيئا .. تعودين الى بلدك والى أهلك ، معززة مكرمة ، ضيفة عزيزة حلت ، وضيفة عزيزة ترتحل عنا ، وكلنا حزن على فراقها ، وسفرها .
قالت زينب :
ـ آسفة على فراقكم ..
ضحكت فاطمة وهى تقول :
ـ فراق من يا زينب ؟.
ضحكت زينب وهى تقول :
ـ فراقك يا خالة ، وفراق على .. وفراق عمى سالم ..
وبادلتها فاطمة الضحك ، ثم قالت فى تؤدة ، وكأنها تزن كلماتها :
ـ اما انا ، فنحن حبيبان ، ومهما طال الزمان فسوف نلتقى ، اما على ..
وضحكت .. وتمايلت ، وضمت اليها زينب وقبلتها ، ثم قالت :

ـ نعم اما على ، فهذه مسالتك معه .. انتما وحدكما تعرفان ما فيها .
صاحت زينب :
ـ يا خالة
قالت فاطمة وهي تربت على شعر زينب فى حنان وتضحك :
ـ هو يحبك ..
قالت زينب :
ـ نعم ..
قالت فاطمة :
ـ وانت تحبينه ..
اطرقت زينب ولم تجب .. وقطع عليهما الحديث دخول زمرة اخرى من الحمالين يحملون متاعا جديدا وعلى راسهم المقدم سالم، الذى تصدر القاعة وهو يقول :
ـ كل شيء يتم فى راحة ـ انت هنا ـ ضع هنا .. وانت هناك لا تستعجل .. حملك ضعه فى هدوء هنا .
كان المقدم سالم يشرف فى جدية على وضع كل شيء فى مكانه ، ولا يتهاون مع الحمالين ، حتى لا ينكسر شيء ، أو يندلق شيء من قواريره ، او ينسكب شيء من خوابيه .. وكان يصيح وهو يوجه كلامه هنا وهناك :
ـ اياك ان ينكسر شيء ، ضع هذا هنا .. وانت اياك ان يقلب من حملك ما تحمل ، ضعه فى هدوء ..
وقال شيخ الحمالين ، وهو يضع حمله فى ارض القاعة :
ـ كل شيء تمام والصلاة على النبى ـ مالك يا مقدم سالم ، لماذا تقلق ، هذه مهنتنا من قديم ، كل شيء يصل الى مكانه وتمام التمام ..
قال المقدم سالم ، وهو يخرج من جيبه نقودا يودعها فى يد شيخ الحمالين :
ـ صدقت يا معلم ، اترك كل شيء فى مكانه ومع السلامة ..
قال شيخ الحمالين :
ـ الصـــلاة على النبى مكسبى ، لم يعرف أحد عنا فى الســـوق اننا نكسر شيئا او نضيع حملا .. كل شيء هنا تمام يا مقدم ..
قال المقدم سالم :
ـ نعم كل شيء تمام ، واجركم تمام ..

قال شيخ الحمالين ، وهو يشير الى رجاله ليتركوا القاعة :
ـ مرضيين وحياة صلاة النبى ..
واخذ يداعب ما اعطاه المقدم سالم فى يده ويقول :
ـ تمام .. التمام .. وحياة صلاة النبى ..
ثم اشار الى من معه من رجال ، فاخذوا ينصرفون واحدا واحدا ، حتى كان هو آخرهم ، وقبل أن يخرج التفت الى المقدم سالم قائلا :
ـ نحن فى الخدمة دائما ، وليس فى كل يوم نحمل هدايا على الزيبق لدليلة المحتالة ..
قال المقدم سالم فى صبر :
ـ من قال لكم هذا الكلام ، هذه هدايا على الزيبق لزينب فى رحلتها ..
قال رئيس الحمالين :
ـ جعلها الله سفرة موفقة ، وامتعنا بالزيبق وزوجته زينب ..
صاحت فاطمة :
ـ يا معلم ، هذا شىء سابق لاوانه ، ونحن وانتم نعرف الاصول ..
قال شيخ الحمالين وهو يلم حباله :
ـ الاصول اصول ، وما هو اليوم كلام غدا يصبح فعلا وفعالا.
قالت فاطمة وهى تصرفه بحركة من يدها :
ـ اكرمك الله يا معلم ، وجعل كلامك كل الفال الحسن الذى تطلبه ..
خرج شيخ الحمالين ، وهو يقبل النقود فى يده مرات ، ويقول :
ـ جعل الله الدار عامرة ، واكرمنا بفرحنا بالزيبق وحليلته ..
وخرج شيخ الحمالين ، وزينب غارقة فى خجلها ، وفاطمة تقول لسالم :
ـ يا مقدم ، الم تجد غير هؤلاء ..
قال سالم فى صبر :
ـ كل الناس يعرفون حكاية زينب وعلى ـ فماذا افعل ؟
قالت فاطمة :
ـ لا عليك يا مقدم سالم .. الله يفعل ما يريد .
قالت زينب :
ـ فضيحتى اذن فى كل مكان .. وسيرتى على كل لسان ..
صاح المقدم سالم فى عصبية :

ـ حاشا الله يا زينب ، ما انت الا اطهر البنات ، وما على الا اشرف الفتيان ..
قاطعته فاطمة فى حزم قائلة :
ـ كل هذا سينتهى ، حين تسافر قافلة زينب فى الغد الى بغداد ..
قالت زينب :
ـ كل هذه الهدايا ستجعل الناس يتحدثون ..
قالت فاطمة :
ـ فاتركيهم يتحدثون ، فما لنا وحديث الناس ..
قال سالم وهو يبتسم فى رقة :
ـ غدا نرتحل ، أنت وكل هداياك ، وانا ..
صاحت زينب :
ـ أتسافر معى يا عم سالم ؟.
قال وهو يضحك :
ـلابد أن يحرسك واحد منا ، أما الزيبق ، فأمامه السفر فى الحصول على النفيلة ، أما انا فحر ، اسافر معك ، وأسعد بك ، واغيظ الكائدين والحساد .
قالت زينب فى حزن :
ـ ويبقى على وحده ، دون رعايتك ..
قالت فاطمة :
ـ بل هو يسافر الى قدره يا زينب ويرعاه الله ..
ما أتمت فاطمة كلامها حتى دخل على القاعة وهو يقول :
ـ هل كل شيء أعد لسفر زينب الى أمها ؟ .
قال سالم :
ـ كل شيء معد يا على لا تقلق ، والجمال تحضر فى الصباح وانا اصحبها الى دار أمها فى بغداد وانت رعاك الله فى سفرتك من اجل احضار النفيلة ، كم كنت أود أن أكون معك ، ولكن سلامة زينب تأتى فى الدرجة الاولى ، وأنا على قافلة زينب ، أما انت فيرعاك الله ..
قالت فاطمة :
كل شيء معد لرحلة زينب يا على فلا تقلق ، اهتم بنفسك ..
ثم اشارت الى المقدم سالم فقال :
ـ انصرف الآن لأعد الأمر لرحلة الغد مع زينب ..

وخرج المقدم سالم . وخرجت فاطمه ـ ونظر على حوله .
مطالعته علائم الرحلة والسفر . وقالت زينب وهى تتقدم نحوه و
تردد واستحياء :
ـ اذن انا من طريق . وانت الى طريق .
اطرق على براسه وهو يقول :
ـ انت الى امك . وانا الى المجهول ..
قالت زينب وهى تزداد اقترابا منه :
ـ الى قدر معلوم اسير . والى قدر مجهول انت تسير ..
همس الزيبق :
ـ طريقك مأمون ، ومعك المقدم سالم ضمان الطريق ..
قالت زينب وهى تمسك بذراعه فى تردد :
ـ لست أخاف على نفسى من الطريق ، وانما انا اخاف عليك .
جفت الكلمات فى فم الزيبق وصمت ، فعادت زينب تقول :
ـ الابد من سفرتك هذه الى المجهول .
تمالك على نفسه ، وقال :
ـ لكى أصل اليك لابد ان اجتاز هذه العقبه ..
قالت :
ـ اتغامر بحياتك ، وشبابك ونفسك ..
همس :
ـ واغامر بكل شيء ، لكى اكون كفئا لك ..
قالت وهى تمسك بذراعيه :
ـ يا على هذه مهلكة رماك فيها صلاح الكلبى ، ولا يريد لك
عودة ..
قال :
ـ ومن اجل هذا اذهب ، فلن اطلبك من امك الا وقد احضرت
هذه النفيلة وغدوت جديرا بك ..
قالت :
ـ يا على .. اخاف عليك .
همس :
ـ حبك نورى ووقائى ، وسانجح واعود ، لاكلل معنى حبى لك.
قالت :
ـ هى مغامرة مخيفة يا على ، ولم يرجع منها احد منتصرا ابدا ،
هم يريدون هلاكك .

قال وهو يقترب منها ويمسك بذراعها :

ـ ساعود يا زينب ، وسانتصر ، فانت جائزتى الكبرى ـ ولن يثنينى شىء ابدا عن الفوز .. الموت وحده يمنعنى .

قالت :

ـ الموت وحده بعيد عنك ، فانا احبك .

قال :

ـ فالنصر لى يا حب ـ طالما ظل وعد حبك قائما ..

- ٦ -

نصلى لله وحده

كانت لحظات مشهودة حين مر موكب زينب من شارع سوق الميمون متجها الى باب الفتوح ، مغادرا القاهرة ، وسط ضجة السوق ، والاصوات التى تتابع الموكب من شارع النحاسين الذى لا ينقطع الطرق فيه طوال النهار ، كان المقدم سالم على رأس قافلة زينب فوق جواده ، ووراءه جمل زينب الذى يحمل هودجها ، ثم يأتى جملان محملان الى أقصى طاقتيهما ، وكل جمل يسوقه تابع مسلح ، ووراء الجميع تابعان مسلحان يركبان الجياد ، شهد الموكب الصبيان ، يتابعونه من كل الاحياء التى مر بها ، بعضهم يمسك عصا كأنها حربة ، وبعضهم يركب عصا كأنها جواد ، وشهدها العجائز المتسكعون حول السوق ، يفترشون الارض أمام الحوانيت وهم يتندرون بالجمال المحملة التى تنوء بعبء ما تحمل ، وشهدتها النساء من المشربيات ، وهن يناذين ليفرجن على الموكب ، ويتابعون سيره الوئيد .. وقالت الست حفيظة :

ـ هذا (شوار) عروس ..

ردت عليها الست جليلة من المشربية المقابلة قائلة :

ـ وماله ، اليس هو هدية الزيبق الى عروس المستقبل ..

مصمصت الست حفيظة بشفتيها ، وهى تقول :

ـ ولكنه ياحسرة حرم منها ، أرسلها عذراء الى أمها دون أن يبنى بها ..

قالت الست جليلة :

ـ وماله رجل ولا كل الرجال ، يطلبها حين يصبح قادرا على مثلها ، وحين يقطع كل الالسنة عنها ، وعنه ، أما الآن فهى تعود الى أمها معززة ومكرمة ..

هزت الست حفيظة رأسها مؤمنة على كلام جارتها ، وقالت وهى تشير بيدها نحو الموكب :

ـ انظرى الى المقدم سالم أمام المكب .. زين الرجال وملء العين والله ..

قالت الست جليلة :

ـ هو قادر على حفظها ، من هنا والى بغداد ..

قالت الست حفيظة وهى تعود الى المصمصة بشفتيها :
- ياحسرة علينا .. لو كان لنا مثل هؤلاء الرجال ما أصبح حالنا مائلا ، ولاعتدل البخت ، وصفت الحياة .
صاحت بها الست جليلة :
- خمسة وخميسة فى عين العدوين ياست حفيظة .. الولد ابننا وابن اختنا فاطمة ست النساء ، ونحن نحبه ، ونضعه فى قلوبنا ، والبنت صديقتنا كلنا ، تسافر الى أمها بالسلامة .. ادعى لها ياشيخة أن يحفظها الله من العين ، ومن شر الطريق ، ليسترك الله ، ويستر كل أعراضنا ..
مصمصت الست حفيظة بشفتيها ، والموكب يبتعد على مهل ، وهى تقول :
- قادر ، هو صاحب القدرة وحده ، لا يعترض أحد على عطائه ، ومن أعطى لعلى بن حسن رأس الغول يعطنا ، ومن جعل لزينب هذا الموكب يجعل لبناتنا مثلة ..
قالت الست جليلة :
- الله يحفظها ويعيدها الى أمها بالسلامة .
وكان الاولاد يتصايحون وراء الموكب وهو يدخل فى البوابة :
- يامحنى ديل العصفورة .. وزينب هى المنصورة ..
- يا أولاد حارتنا ، سوسة سوسة
- وزينب ترجع لنا عروسة ..
وما أن خرج الهودج من ظلام القبو ورطوبته الى خارج بوابةالفتوح حتى أشارت زينب الى قائد هودجها فأوقف الجمل ، بينما تكأكأت حولها باقى الجمال ، والتف الاولاد حولها ، وهم يرددون صيحاتهم وضحكاتهم ، وأغانيهم .. وأسرع المقدم سالم الى هودج زينب ، فرفع السجف وقال :
- لماذا توقفت ياسيدة الملاح ؟
كانت فى عينى زينب دموع ، وكانت شفتها السفلى ترتجف ، فأشاحت بوجهها عن المقدم سالم وأطرقت ، وتركت لدموعها أن تسيل فى صمت ، ثم قالت بصوت مرتجف يشرق بالعبرات :
- انما هى نظرة وداع للقاهرة ..
ضحك المقدم سالم فى خفوت ، وقال :
- وداع الى لقاء قريب يا زينب ، ستعودين اليها عروسا باذن الله

رفعت زينب يدها بوشاحها تجفف الدموع ، واشارت برأسها الى لصبية المتحلقين حول الجمال وقالت وصوتها يزداد ارتجافا :

ـ اترك هذه الامنيات للصغار يا عم سالم ..

ازدادت ضحكة سالم ارتفاعا وهو يقول :

ـ الاطفال أحباب الله ، وكلامهم البرىء يحمل كل أمنيـات أهل القاهرة لك يازينب أن تعودى الينا منصورة مجبورة ، وعروسا تزف الى عريسها .

همست زينب ، وهى تحاول كبح جماح دموعها :

ـ من يدرى ياعم ، من يدرى ؟

قال المقدم سالم ، وهو يخفى ما جاشت به نفسـه من عواطف ، وراء حركة كفه على شاربه الكث في رتابة عصبية :

ـ اطلبى الخير من الله يا أبنتى ، وتفاءلى خيرا .. الا تجدين فى صياح هؤلاء الاطفال بشرى الخير ؟

ابتسمت زينب وسط دموعها وقالت :

ـ كلماتهم هي التى دفعت الدموع الى عينى ، ولو سمعتها دليلة لعرفت الى أى حد يحب أهل مصر على الزيبق ، ولاحبته كما يحبونه ..

هز المقدم سالم رأسه الاشيب ، وابتسم وهو يقول :

ـ الله وضع على قلوب أقفالها ..

ثم ضحك بصوت عال ، وهو يقول :

ـ هل ستطول وقفتنا هنا ؟

أشارت زينب بيدها الى ضريح سيدى حسن الذوق يتوسـط الباحة أمام البوابة ، وقالت :

ـ يقولون ان من يقرأ الفاتحة لسيدى حسن الذوق وهو يغـادر بوابة الفتوح ، يعود مرة أخرى ليقرأ له الفاتحة من جديد ..

نظر اليها لحظات فى صمت ، ثم مد راحتيه منضمتين وهـو يقول :

ـ اذن نقرأ له الفاتحة سويا ..

ومدت زينب كفيها أمام وجهها ومضت تقرأ الفـاتحة مع المقدم سالم ، الذى أنهاها بأن مسح على وجهه بكفيه ، وهو يقول :

ـ آمين ..

وحين أنهت زينب الفاتحة ، مدت يدها الى صرة بيدها ، ففكتها وهى تقول :

ـ لا تحسبنى اتلكأ فى بدء الرحلة ياعم ، انما اتودع من مصر .
ضحك المقدم سالم ، وقال :
من مصر ، أم من واحد فى مصر ؟
احمر وجه زينب ، ودارته بوشاحها ، وهى تعبث بيدها الاخرى فى الصرة ، وقالت :
ـ كل مافى مصر عزيز يامقدم سالم ، وهو فى مصر بهجتها التى تمثلها عندى ..
ثم ملأت كفهـــا بالدراهم من الصرة ، ومضت تبدرها على الاولاد المتحلقين ، الذين اخذوا يتصايحون ، وهم يجمعون الدراهم المتساقطة وتنهدت زينب وهى ترفع وجهها الى المقدم سالم وتقول :
ـ والآن هيا بنا ..
قال المقدم سالم وهو يسدل السجف على الهودج ، ويشــير الى رجاله ببدء الرحلة :
ـ على بركة الله .
ومضى الموكب وئيدا يغادر الساحة ، مبتعدا عن باب الفتوح ببطء وصياح الصبية يعود من جديد ليردد :
ـ يامحنى ديل العصفورة ، وزينب هى المنصورة ..
ـ ياولاد حارتنا ، سوسة سوسة
ـ وزينب ترجع لنا عروسة ..

***

قالت فاطمة فى حدة :
ـ كفى يا على ، لقد ذرعت القاعة أكثر من خمسين مرة ، لو كنت نادما على ترك زينب تعود الى أمها لكنت احتفظت بها هنا ، وتزوجتها ، ولن نبالى بأحد ..
فرك على الزيبق كفيه ، وعض على شفتيه ، وهو يقول :
ـ بل كان لابد من عودتها .
قالت فاطمة فى حزم :
ـ اذن انسها ، وركز تفكيرك كله فى المهمة الصعبة التى اوقعك فيها صلاح الكلبى ..
تمتم على من بين نواجذه :
ـ النفيلة ، صندوق التواجيه .. المدينة المطلسمة ، الجزيرة ذات السيوف المهلكة . .دوامة ، دوامة ، كلما أمعنت التفكير فيما أخبرتنيه عنها ، احتار فكرى ، وتبلبلت أفكارى .

ربتت فاطمة على متكبيه فى حنان ، وهى تقول :
- راحت السكرة وجاءت الصحوة وعرفت الان الى اى مهلك دفعك صلاح الكلبى ..
هدأ على قليلا ، واطرق وهو يقول :
- أيا كان الامر ، لابد من الوفاء بما تعهدت به ..
قالت فاطمة :
- هذا احسن من القلق ياعلى ، فاعد نفسك لما عزمت عليه .
قال على هامسا كأنما يحدث نفسه :
لقد سمعت جدى القاضى نور الدين يقول : أن الصلاة ملجأ كل نفس قلقة ، فهى تثبت الايمان وتقوى العزم .. وانا ذاهب الى مسجد السيدة زينب أصلى عل ما بنفسى من قلق يذهب عنى .
قالت فاطمة فى حنان :
- اذهب يابنى ، فنعم النصيحة هذه تذكرها عن جدك ، فهو والله افضل الناس واتقاهم ..

***

مضى على الزيبق يشق طريقه وسط شوارع القاهرة وازقتها ، وهو مطرق برأسه ، مشغول بفكره ، لا يحس بضجة الناس من حوله، ولا يشعر بحركتهم الموارة وزحامهم الذى يملأ كل الشوارع والازقة التى يعبرها فى صمت وسرعة ، ولكن حاسته الحذرة ما لبثت ان ادركت أن هناك من يتبعه من مكان الى مكان . ربما كانت حياة الطريد الذى يتعقبه رجال صلاح الكلبى لتوقع به ، قد علمته أن يلاحظ من الأمور ما قد يغيب عن غيره . وربما كان قد تعود أن يراقب ما يحدث خلفه كما يراقب ما يحدث امامه ، ولكنه آخر الأمر ازداد تأكدا من انه متبوع فى سيره ولاشك .. وفكر فى ان يلجأ الى احدى حيله لكشف من يتبعه ، ولكنه فضل أن يظل فى سيره فهو ليس ذاهبا الى مهمة سرية ، وهو قد حاز منديل الامان فلا خوف عليه من كمين يعده له صلاح الكلبى ورجاله .. وكان قد وصل الى المسجد ، فاتجه الى بابه ، وخلع نعليه دون أن يتلفت حوله ، ودخل الى ساحة المسجد لتتسلل الى قلبه ووجدانه تلك الرائحة الذكية التى تملأ جوه ، وهدأت نفسه وهو يجيل بصره فى رحاب المسجد الذى يسوده الهدوء الا من تمتمات هنا وهناك يرددها المصلون فى خشوع وابتهال . ونسى قلقه وحذره ، وهو يتجه الى الميضة ليتوضأ فى استغراق ، ثم يعود الى المسجد لينتحى ركنا هادئا ، ويصلى وحده فى ابتهال هامس مؤمن .

آيات القرآن تخرج من بين شفتيه فيحس انهــــا مرت بقلبه تطهرته ، وبعقله فهدهدته ، وبنفسه فزرعت فيها الهــدوء والامل .. ويركع فيضيع الوجود بصخبه ، واحقاده ، ومؤامراته ، وينحصر بصره امامه فى بؤرة نور خرجت من ذاته لتعــود الى ذاته بالحب والسلام والأمن .. ويسجد فاذا هو ذرة ضئيلة فى ملكوت الرحمن الرحيم ، اذ هو يشفى ويرزق ، ويحس بصغاره وصــغار الكون كله ، وينتصب من جديد ، فاذا كل جسده قد غدا خفيفا لا ثقــل فيه ، لا شيء يشده الى الارض ، لا شيء يغل من حركته ، ويمور قلبه بالحب وهو يقرأ الفاتحة من جديد .. ما انت ومن انت امام عظمــة الخالق الواحد الاحد ، سبحان من له الملكوت ، ســـبحان من له الدوام ، واذا هو فى ركوعه ينحنى لما ملأ قلبه من عظمة خالقه الرحمن الرحيم ، واذا هو يخر ساجدا رهبة وخشوعا يرتجف جسده كله .. وحين انهى صلاته كانت دموع خبيئة تملأ عينيه ، فجلس فى ركنه صامتا ، وأحداث حياته تمر أمام باصريه ، وأدرك انه ما كان يقــاوم صلاح الكلبى الا لانه طغى وبغى ، وان الايمان الذى يملأ قلبه هو الذى دفعه الى نصرة المظلومين والمضطهدين ، وان هــذا سر حب النــاس له ، وتأييدهم لأفعاله بصلاح الكلبى ورجاله .. وسمع نفسه يهمس فى صوت مرتجف خفيض :

ــ اللهم بصرنى ، وسدد خطاى ، واجعلنى أداة رحمة وهداية ، لا عنصر شقاوة وضلال .

وانهمرت دموعه فتركها تبلل وجهه ، وهو مطرق خاشع مضطرب الا انه أفاق على صوت يقول بصوت جهورى :

ــ نويت أصلى ركعتين تحية للمسجد .. الله أكبر .

فرفع راسه يحدق فى صاحب الصوت .. كان الرجل يقف امامه الى اليمين قليلا ، وقد رفع كفيه الى جبهته ثم خفضهما وضمهما الى صدره ، ومضى يقرأ الفاتحة بصوت هامس ولكنه مسموع .. لا يعرف على ما الذى لفته اليه ، الصوت بالطبع هو لم يسمعه من قبل ربما والقامة ، ابدا ، هو لم يعرف هذا الرجل من قبل ... ومضى يتأمله فى دقة ، ولكنه متاكد انه لم يره من قبل .. وهز راســـه فى حيرة ، عجيب ان يسترعى الرجل انتباهه رغم كثرة المصــــلين فى المسجد ، ولكن للرجل حضورا يفرض نفسه ، ويشعر بوجوده .. وعاد على يهز راسه من جديد ــ ربما كان هذا هو كل ما فى الأمر .. لبعض الرجال وجود طاغ يرغم الآخرين على الاحساس به .. وهــذا

الرجل واحد منهم .. ليست المسألة مسألة صوت ، ولا مسألة طريقة كلام ، وليست كذلك فى القامة المنتصبة والهامة المرتفعة فى كبرياء ، ولكن هو شيء غير هذا كله ، وهو هذا كله فى آن واحد .. وهمس على لنفسه :

ــ لا تشغل بالك به ، هو واحد يصلى ، وأنت لا تعرفه ، ولاداعى لامعان النظر نحوه .. وأنت قد صليت ، فهيا بنا يا فتى ..

ولملم نفسه ليقوم ، ولكنه فجأة ارتجف حين أحس باصبع يمر بيد لزجة باردة فوق كفه ، وصوت هادىء يقول :

ــ مسك من روائح الجنة يا فتى .. هات كفك الاخرى وتوكل على الله ..

رفع على الزيبق راسه ، فواجهته عينان عميقتان قد تكحلتا وصفت حدقتاهما ، وعاد صاحبها يقول فى نفس الصوت الهادىء :

ــ هات كفك الاخرى ..

ومد على الزيبق كفه الاخرى فمسح عليها الرجل باصبعه بعد ان مر به على « حق » صغير ، ودهن يده وهو يبسمل ويقول :

ــ من ريح الجنة ، والصلاة على النبى ..

ثم اختفى الوجه الملتحى من أمامه ، وذهبت العينان الصافيتان ، ووجد نفسه يحدق فى فراغ ، فرفع كفه اليمنى الى انفه ، وانبعثت رائحة عطرية نافذة جميلة الى صدره ، ثم رفع كفه الثانية الى أنفه، فانبعثت نفس الرائحة ، رائحة المسك ــ تملأ صدره ، وتعطر أنفاسه .. ومضى يفرك كفيه ثم يمسح بهما على وجهه وجبهته .. وأحس بالانتعاش ــ وتنهد وهو يقف ويحمل نعليه فى يده ليخرج من المسجد ، وفجأة التفت الى حيث كان الرجل الاول يصلى فلم يجده .. متى انتهى من صلاته ، وكيف اختفى .. أ هو لا يعرف ، وعندما اخذ يجول ببصره فى المسجد بحثا عن الرجل صاحب « حق » المسك ، أدرك انه اختفى هو الآخر ــ وأحس بالشك يملأ صدره من جديد .. واحساس غريب بان هناك غموضا ما يحيط به لا يريد ان يفارقه .. وعاد يجول ببصره فى المسجد الرحب من جديد بحثا عن الرجلين ، ولكن بصره لم يقع على أى منهما .. وهز راسه فى حيرة ثم مضى يغادر ساحة المسجد وقد بدأ فكره يتبلبل من جديد ــ وما أن خرج من المسجد وساحته المعتمة الى ضوء النهار الساطع ، وضجة الحياة الصاخبة فى الميدان المحيط بالمسجد حتى نسى أمر الرجلين ، وابتسم لنفسه ساخرا وهو يلبس خفيه ، ويجول

بصره فى الحركة الدائبة التى يموج بها الميدان ، هنا راحة وهنـــا تعب . هنا هدوء ، وهنا صخب ، هنا ذكر الله ، وهنا انغمـــاس كامل فى كل أمور الحياة .. وأحس بنفسه يضحك ، وهو يترك نفسه تنساب مع الحركة الغامرة فى الميدان .. نداء الحمارين على حميرهم، وصياح الباعة على سلعهم ، وصخب الصبيان يخترعون ألعـــابا غريبة منهمكين فى أدائها بكل جد ، وجدل هنا ، وضحكات هناك .. وصنج السقاء .. وتوقف .. صنج السقاء .. نعم ، هى صـــنج السقاء يسمعها منذ غادر المنزل وحتى وصل الى المسجد ، ويسمعها الآن وهو يتجه من المسجد الى باب الخلق ، وتوقف فى سيره ، وأخذ يجوس الميدان بناظرية ، بحثا عن السقاء المتجول يبيع الماء للعطاشى من عابرى السبيل ، ولكنه لم يجده ــ بائع برتقال ، حمـــار يجرى وراء حماره ، امرأة تصحب فى كل يد طفلا ، وتحمل فوق رأســـها « بقجة » ، سائل أعمى يمد عصاه ، ويجأر بشكوى الزمان ، طفـــل لوث وجهه بحلوى ساحت على يديه ووجهه ، رجل عجوز فى يـــده عصا يتوكأ عليها ويجهد ليتابع سيره ، لاسقاء ــ لاسقاء .

ومضى يتابع سيره وهو يتلفت حوله فى حيرة وقد اختفت أصوات الصبح .. وكان حر القاهرة قد اشتد عليه ، وصـــوت الصنج قد ذكره بالماء فأحس بالعطش ، ومضى يغذ السير فى دروب الحمالين ، ففى آخره وعند الميدان السبيل القديم ، وهناك سيجد الماء الذى يروى عطشه .. ووجد ســـائلا يجلس على حافة الطريق فرمى له بدرهم ، ثم لاح السبيل من بعيد ، فمضى فى سيره وهو يسأل نفسه ، اذا كان لا يستطيع احتمال وهج شمس القاهرة ، فكيف سيحتمل لفح شمس الصحراء المخوفة ، التى حكت له عنها أمه ، والتى تفصل الوادى عن المدينة المرصودة .. وهمس لنفسه :

ــ نترك أمرنا لله .. ومن توكل على الله كفاه ياعلى .

وقبل أن يتحرك نحو مبنى السبيل الدائرى الذى لاح من بعيد ، عاد يسمع صوت الصنج من جديد ، وكانت هذه المرة قريبة جـــدا منه ، فالتفت وراءه ، واذا برجل ســـقاء ، من السقائيين الجائلين يتقدم نحوه وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وفوق كتفه قربة منداه ، ويده تلعب بالصنج فى وقع رتيب ، وهو يقول له :

ــ الماء ياعطشان ، اشرب ــ وصل على النبى .

كان الصوت مألوفا ، وكان الوجه مألوفا ، وكان جسد الرجل الذى يتقـــدم نحوه مألوفا ، ولكنه لا يستطيع أن يذكر متى رآه ،

ولا أين رآه ، وقال الرجل وهو يمد يده بطاسة نحاسية مليئة بالماء :
ـ ماء معطر بالورد .. اشرب .. وبل ظماك ، وصل على النبى .
امسك على الزيبق الطاسة فى يده ، كان الماء فيها رائقا وجميلا ، وكان عطشان ، ولكنه كان ايضا الزيبق ، رج الماء فى الطاسة ورمى الماء منها فى صمت ، وأعادها الى السقاء ، واخذ السقاء الطاسة الفارغة ومال بجسده يملؤها من القربة على ظهره ، وهو يقول :
ـ اشرب وصل على النبى .
وعاد على الزيبق يرج الماء فى الطاسة مرة ثانية ، ثم يرمى الماء على الارض ، ويعيد الطاسة فارغة الى الرجل ، الذى نظر فى عينيه فى صمت ، وعاد يملؤها من جديد ويقدمها اليه .. وشرب على الزيبق الماء فى استمتاع ، وأعاد الطاسة ، وهو يمد يده الى جيبه يخرج دريهمات يعطيها له وهو يقول :
ـ هذا ليس صبر السقائين .
نظر الرجل الى الدراهم العديدة ، فى يده ، وابتسم ، وقال :
ـ وهذا ليس عطاء عطشانين .
قال على الزيبق :
ـ واذن .
ضحك الرجل وهو يقول :
ـ أنت الزيبق .. اليس كذلك .. ؟
قال على الزيبق :
ـ وانت تتعقبنى منذ خرجت من منزلى ..
عاد الرجل يضحك ، وهو يقول :
ـ لو كنت أريد بك شرا لاقدمت عليه من زمن .
لمعت عينا الزيبق وهو يقول :
ـ وانت الرجل الذى كان يصلى فى مسجد السيدة زينب امامى .
قال الرجل :
ـ وصاحب المسك الذى هو عطر الجنة .
ابتسم الزيبق فى هدوء وقال :
ـ فماذا تريد ؟

قال الرجل فى هدوء شبيه بهدوء الزيبق :
ـ هناك من يريد ان يراك ، وانا مكلف ان اقودك اليه . فماذا قلت .. ؟
قال الزيبق :
ـ سر امامى ، اتبعك اليه .
وضحك الرجل ، ومال بالقربة وهو يملأ الطاسة ويمدها الى الزيبق قائلا :
ـ اشرب وصل على النبى ، ثم اتبعنى ، وصل على النبى .. وتوكل على الله .
ثم رفع عقيرته وهو يميل بقربته من جديد ، ويصيح :
ـ الماء يا عطشان .. اشرب ، وصل على النبى .
وتبعه الزيبق

- ٧ -

أحمد الدنف والفتيان

كان على الزيبق يتبع السقاء فى سيره من شارع الى شارع ، ومن زقاق الى زقاق ، وهو يحاول ان يتذكر فى سيره كل المتعرجات والمنحنيات التى مرا بها ، ولكنه اعترف لنفسه انه قد تاه وسط مدينته ، وانه لم يعد يعرف اين هو فى القاهرة التى كان يظن ان لا أحد يعرف أسرارها ، ومداخلها ومخارجها مثله .. ولكنه مع هذا لم يكن يحس بالقلق ، لانه لو اراد به هذا الرجل الذى يتبعه منذ خروجه من منزله شرا لناله به من زمن ، ولما احتاج الى ان يكشف عن نفسه له .. لم يكن الخوف اذن هو الذى يساور الزيبق ، وانما كان هو الفضول الذى استحوذ على عقله ونفسه حين رضى أن يتابع السقاء فى هذه الرحلة المجهولة عبر أزقة القاهرة وحواريها .. كان يحس انه على وشك الحصول على مفاتيح اسرار ظلت مغلقة عليه كل هذا الزمن .. ونظر الى ظهر السقاء المحنى تحت القربة ، ولاحظ انه يداوم على قرع الصنج بين الحين والحين ، كما أنه يداوم على ترديد نداءاته على ما يحمل من ماء .. وبين الحين والحين كان يقف اثر اشارة من أحد العابرين ليملأ له الطاسة النحاسية بالماء فى ادب ، ويتقبل الدراهم التى تعطى له فى امتنان .. لن يشك احد فى انه سقاء حقيقى يمارس مهنته ، ولن يشك أحد فى انه يسير نحو هدف محدد يقود الزيبق اليه عبر شوارع وأزقة القاهرة المزدحمة .. وابتسم لنفسه وهو يعجب كيف امكن لهذا الرجل ان يتحول من المصلى ذى الملامح الجامدة ، الى موزع المسك صاحب العينين المكحولتين ، ثم الى هذا السقاء الذى ينوء ظهره بحمل القربة الملآنة .. وبين كل تحول وآخر دقائق ، بل ربما لحظات لا تتسع لكل هذا التقمص الغريب والمتقن من شخصية الى أخرى ، وأحس بشىء من الانبهار والاعجاب يملأ نفسه ناحية هذا الرسول الغريب ، وأفاق من تأملاته على صوت السقاء يردد نداءه ، وهو يضرب الصنج :

ـ الماء ، ياعطشان اشرب ، وصل على النبى .

كان الرجل قد توقف امام باب حمام قديم ، وكان ينظر اليه نظرة ذات معنى ، وفهم أنه يدعوه الى الاقتراب منه ، فذهب اليه وهو يقول :

ـ اسقنى يا سقاء .

مال السقاء بكتفه يملأ الطاسة وقدمها الى على الزيبق ، وهو يقول :
- مرحبا ياشاب ، بالهناء والشفاء .
وبينما كان الزيبق يرفع الطاسة الى شفتيه ، همس السقاء :
- اترك البابين الاولين على اليسار وادخل فى الثـــالث ، وادخل وكانك تقصد المكان وتعرفه ، ولا تلتفت يمينا أو يسارا ..
وانهى الزيبق ما فى الطاسة من ماء ، فصاح السقاء ، وهو يتناول الدراهم التى أعطاها له الزيبق فيقبلها ، ثم يرفعهـــا الى جبهته ثلاث مرات :
- بالهناء والشفاء يا شاب .. ماء للعطشانين ، اشرب وصل على النبى .
وأدار له ظهره ، ومضى الى حال سبيله وهو يدق الصنج فى رتابة ومهارة .. ولم يعره الزيبق التفاتا ، بل سار فى طريقه وكأنه يعرف الى اين يقصد ، وكان الباب الاول على يساره لشربتلى ، وابتهج الزيبق فهو يعرف هذا الدكان ، وهو شربتلى مشهور فى الكحكيين ، اذن فهو فى الكحكيين ، اما كيف جاء الى هنا دون ان يلاحظ طريقه فهذه وحدها تثبت مهارة دليله السقاء .. وتجاوز الزيبق الدكان ، وطالعته من الباب الثانى روائح اليفه وحبيبه يعرفها جيدا ، وعرف أنه أمام دكان عطارة فلم يلتفت اليها ، وانما اتجه مباشرة الى الباب الثالث ، وكأنما هو مقصده الذى يسعى اليه ، ولم يفاجأ حين وجد الباب الثالث ، باب دكان اقمشة ، بل دخل وهو يلقى بالسلام فى ثقـــة ، وأسرع اليـــه رجل وقور وخط الشيب لحيته ، وارتسمت على وجهه ابتســـامة مرحبة وهو يقول :
- اهلا وسهلا يا بن المقدم حسن ، اتبعنى فطلبك فى داخل المحل .
ولم يدهش على الزيبق أن يخاطب بأسم أبيه ، فقد كان يتـــوقع شيئا كهذا ، وسار وسط بالات الاقمشة المكومة الى جنبات المحل ، وهو يزيح من طريقه أقمشة علقت لتتدلى معلنة عن نفسها ، بألوانها الصارخة ونسيجها الهفهاف ، حتى وصل الى آخر الدكان ، فاذا أمامه ستار ملون ، ازاحه الرجل الذى يتقدمه وهو يقول :
- تفضل فهم ينتظرونك .
وأمامه كانت تمتد قاعة معتمة بعد ضوء النهار الساطع فى الخارج .
كان اثاثها مقاعد ممتدة على الجانبين ، وفى الوسط مقعد طويل ، جلس فى وسطه رجل كهل ملتح ، فى ثياب الفرسان والى جواره ســيفه فى قرابه . وأمامه « مداعة » طويلة ينبعث منها دخان كثيف وهو ممسك مبسم من مباسمها يشده فى هدوء وتواصل ، وينفث الدخان من منخريه

ليغطي الدخان وجهه لحظات ثم ينقشع .. وأعتدل فى مجلسه وقال :
ـ ادخل يا على فنحن فى انتظارك منذ وقت طويل .
ولاحظ علي الزيبق ان هناك رجلا آخر يجلس فى مقعد الى اليمين يمسك بمبسم آخر « للمداعة » ويمتص منه الدخان فى صمت .. فتردد لحظات ، ثم استجمع شجاعته ، ودخل الى وسط القاعة ، وهو يقول :
ـ من أنت ؟ ولماذا أستدعيتنى .. ؟
ضحك الرجل الكهل الملتحى ، وأشار بيده الى مقعد على يساره ، وهو يقول :
ـ اجلس أولا ، وستعرف كل شيء .
لم يتردد علي الزيبق ، وأتجه الى المقعد الذى اشار اليه الرجل الكهل ، وجلس فى هدوء ، وهو يقول :
ـ ما كل هذا الغموض ، ولماذا رسول يتعقبنى ، ثم لماذا أنا هنا ؟
ضحك الكهل وهو ينفث الدخان من أنفه وفمه ، وقال وهو يعتدل فى جلسته :
ـ يعجبنى هدوؤك ، وثبات جنانك .. ساخبرك بكل شيء فلا تقلق والآن هل تحب المنقوع من زبيب وتين وبلح ، أو العصير من عنب وبرتقال أو تحب القهوة ..
اعتدل الزيبق فى جلسته ، وقال فى هدوء :
ـ أنت تريدنى ان أكون على سجيتى ، وهذا حسن ـ ولكنى لا أحب شيئا من كل هذا ، وانما أحب أن أعرفها ، فلا تطل قلقى ، وحدثنى بما تريد .
قال الرجل الكهل ، وهو يترك مبسم المداعة ، ويتجه اليه بكليته :
ـ نحن نرصد تحركاتك كلها من زمن طويل ، وآن لنا ان نتواجه ونتكاشف ..
قال علي الزيبق :
ـ أنتم .. ؟ من أنتم ؟
قال الرجل الكهل فى هدوء ، وهو يبتسم :
ـ نحن يابنى حماة هذه الدولة الاسلامية الذين يضحون من أجل بقائها واستمرارها وأمنها بكل شيء .. هل اضاف اليك هذا شيئا ؟
اطرق الزيبق فى حيرة ، واخذ يحرك ساقيه فى عصبيه ، وقال :
ـ هذا كلام كبير ..
ضحك الكهل ، وتحرك الرجل الآخر فى الجانب المقابل ، وترك

مبسم المداعة ، وأنضم الى الرجل الكهل فى مجلسه ٠٠ وقال :
ـ هذا كلام من يدركون معنى ما يقال لهم ٠
ونظر الزيبق فى عينى الرجل الآخر ، كانتا صريحتين صافيتين ، وارتسمت ابتسامة على الوجه أضاءته ، فأطرق وهو يقول :
ـ احس اننى امام عالم مجهول لا أعرفه ، فزيدانى ايضاحا ٠
ضحك الرجل الكهل ، وقال للرجل الآخر :
ـ الم أقل لك ، هو مثل أبيه ، وقد آن الأوان ان يكون معنا ٠
قال الرجل الكهل فى هدوء :
ـ اسمى يابنى احمد الدنف ، الا يثير عندك هذا الاسم شيئا ٠٠
لمعت عينا على الزيبق ، ورفع رأسه وهو يقول فى اندفاع :
ـ بل سمعت عنه الكثير ٠٠
ثم ازداد اندفاعا وهو يقول :
ـ احمد الدنف اسم تعرفه مصر كلها ، انت كنت مقدم الدرك فى مصر ، وفى بغداد ٠٠
ضحك الرجل الكهل ، ومر على لحيته بيديه وقال :
ـ لا تندفع يا على ٠٠ فوجودنا هنا سر لا يعرفه احد ، وما جئنا الا من أجلك ٠
وصمت على واجما ٠٠ وعاد الرجل الكهل يقول :
ـ انا الآن بالفعل مقدم درك بغداد ، والفضل فى هذا يرجع اليك ٠
رفع على وجهه فى تساؤل وقال احمد الدنف :
ـ لا تعجب ، استطاعت دليلة ان تقصينى عن مقدمية الدرك ، حتى هزمتها أنت هنا فى مصر ، فنحيت عن المقدمية ، وعدت انا مقدما لدرك بغداد ، ومسئولا من جديد عن أمن الدولة الاســــلامية كلها ٠٠ انت لا تعرف يا فتى اى خير فعلته حين جعلت منها أضحوكة هنـــا ، لقد فقد الخليفة فى بغداد ثقته بها ، فأقصاها ، وكان هذا أحسن ما يمـكن ان يحدث ليومنا ولغدنا أيضا ٠
هز الزيبق رأسه فى حيرة ، وقال :
ـ لست أفهم ٠٠ ما هى علاقتى انا بكل هذا ٠٠
لأول مرة تدخل الرجل الآخر فى الحديث ٠٠ فقال :
ـ يا على ، انت عندنا فى مكانة كبيرة فأنت ابن حسن رأس الغول ، وانت أيضا ابن فاطمة ٠٠ الفارسة المشهورة باسم احمد بن النبى ٠ ولهما معا من الافعال ما يجعلهما قرة عين كل من يحب مصر ٠٠ ويسعى الى سعادتها وعزها ٠

واكمل أحمد الدنف قائلا :
ومن هنا كانت رسالتك جزءا من رسالة ابيك حسن راس الغول ·
وحسن راس الغول ·
اكمل على الزيبق تلقائيا دون ان يحس
ـ كان من رجالك ··
تنهد احمد الدنف ·· وصمت ·· بينما قال الرجل الآخر :
ـ كلنا كنا من رجال الدنف ، وحين ذهب الى بغـــداد ذهبنا معه ، ابوك وحده هو الذى أصر على البقاء فى مصر ، وأغتاله صــلاح الكلبى ، والباقى انت تعرفه ··
صمت على الزيبق ، ومضى يتأمل فيمـــــا قيل له ، وأحس انه فى دوامة ·· بينما قال الدنف ··
ـ كلنا كنا أصدقاء ابيك ، وكان من مشاديدى ، ولكن الموت حق ، وهذا أمر قد انتهى ·· وقلنا اننا خسرنا مصر الى حين ، ولكـن حين بلغنا ما فعلته بمصر عرفنا انك ابن حسن رأس الغـــول ـ وعرفنا ان لحظات الانحسار قد انتهت ، وانه آن الاوان أن نظاهرك ، وأن نقف الى جوارك ·
قال الرجل الآخر :
ـ لقد طردت دليلة من مقدميةالدرك بفضلك ،وهذا انجاز لم نكن نتصور أنه يحدث ، فقد خدعت دليلة كل الناس ، خدعت حتى الخليفة نفسه ، ولم نكن نستطيع ان نقدم له دليل خبثها وضـــعتها ، لانها لم تكشف ابدا عن غدرها بنا وبالخلافة نفسها ·
عاد احمد الدنف يقول :
ـ وحين اقصيت دليلة عن مقدمية درك بغداد ، عرفنا أن الشـــاطر الجديد الذى ظهر فى القاهرة ، واحد منا ـ وكان لابد أن نســاندك ، ونقف الى جوارك ·
قال الرجل الثانى :
ـ ولهذا جاء احمد الدنف ونحن معه الى القـــاهرة لنقدم لك كل ما نستطيع من مساندة ومساعدة ·
قال الزيبق فى هدوء :
ـ ومن أنت ؟
ضحك الرجل الآخر ، ولم يجب ، بينما قال احمد الدنف :

ـ هذا يا على ، شحادى ابو حطب ، وقد ارتفق اسمه باسم ابيك فى مغامرات عديدة لا تنساها مصر أبدا ·

قال على الزيبق فى ذهول :

ـ شحادى ابو حطب ، لقد سمعت عنه الكثير ·

اكمل احمد الدنف

ـ ومن كان على باب الدكان ، هو حسن شومان ، صديق أبيك ورفيق سلاحه ·

قال الزيبق فى ذهول متعاظم :

ـ احمد الدنف وشحادى ابو حطب وحسن شومان ـ لا ينقصنى الا عمر العيار ·

قطع عليه كلامه ·· دخول الرجل الذى كان على باب الدكان وهو يقول :

ـ انا حسن شومان يا على ، أما عمر ·· فقد عرفته قبلنا كلنا ·

قال احمد الدنف :

ـ الرجل الذى يصلى ، والرجل الذى يوزع المسك والعنبر ، والسقا الذى يقودك من مكان الى مكان ، هذا هو عمر العيار ·

كان على الزيبق فى ذهول مطلق ، يواجه هذه الاسماء التى عرفها كاشباح من ماض حافل مجيد فى صمت وسكون ، ويفكر فى نفس الوقت فى عمر العيار ، ومافعله معه حتى اوصله الى هذا المكان فيحس فى قلبه رهبة وفى داخله اعجابا عميقا متزايدا ، وصمت ·· وطال صمته ··

ضحك احمد الدنف وعاد يقول بصوته الجهورى القوى :

ـ ادهشك كل هذا ، ولكن لا تترك لدهشتك أن تنسيك ما أنت فيه ، فليس فى كل ما عرفت ما ينجيك من خطر داهم منا ، أو من هم اشر منا ، فمن يدرك ، أنحن نريد بك الخير أم نريد بك الشر ··

وجم على الزيبق ، ولم يجب ، وهو يجيل بصره بين أصحاب هذه الاسماء المخيفة التى ترتعد من ذكرها قلوب أشد الناس سطوه فى مصر ، حتى صلاح الكلبى ، لو عرف ان هؤلاء الرجال فى مصر ، لاهتز رعبا وفرقا ـ اما السلطان

·· قال على الزيبق :

ـ هذا شرف لى كبير يامقدم احمد الدنف ·

ضحك احمد الدنف ، وهو يقول :

ـ لقد سبقتنا الى هذا الشرف يازيبق ـ فحين هزمت دليلة هنا فى مصر ، نحاها الخليفة هناك فى بغداد ، وكشف ضعفها وعجز حيلتها ، ومن ساعتها ونحن معك ، ومن ساعتها وهى عدوة عمرك ..

قبل أن يجيب الزيبق ، دخل القاعة شاب امرد ، رشيق كالحربة ، هادىء كنهر النيل ، ونظر الى الزيبق ، ثم نظر الى الجالسين حول المداعة وقال :

ـ هل جئت فى وقت غير ملائم ؟

ـ ضحك احمد الدنف ، وأشار بيده وهو يقول :

ـ بل جئت فى وقتك ، فأخونا الزيبق مفتون بك .

قال على الزيبق :

ـ هذا عمر العيار ..

قال الدنف وهو يعود الى ضحكته :

ـ كيف عرفته ؟

قال الزيبق :

ـ عرفته ، حين جهلته ، هذا صاحب المائة وجه ، والمائة لغة ، والمائة مشية .

ضحك الجميع المتحلقون حوله ، وقال أحمد الدنف :

ـ وهذا ما نريد أن نعلمك اياه يافتى ـ ان تكون صاحب المائة وجه والمائة لغة والمائة مشية ـ بل والمائة شخصية .

وسط الضحكات احس الزيبق أنه بين أصدقاء احبة ، فانطلق يضحك معهم من قلبه ، دون حذر أو وجل ، فوسط هؤلاء يحس مثله انه يعيش عالمه الذى خلق له ، ويحس أنه امام عالم اخر عميق وجديد .

- ٨ -

نعرف الحقائق .. ونتكلم

قال عمر العيار فى جدية ، وهو يريح جسده حول ثوبه :
ـ آن الاوان لنكاشفه يا مقدم احمد بكل شيء ، فهو جدير بأن يكون منا ..
أدار الدنف عينيه فى الجالسين حوله ، ثم قال :
ـ هذا ما يجب عليكم جميعا أن تقرروه ، أنحن معه الى النهاية ، ام نتركه لحاله ونمضى ؟.
ضحك شحادى ابو حطب وقال :
ـ ماجئنا من بغداد ، وقطعنا كل هذا الطريق لنتركه لحاله ونمضى
وقال حسن شومان :
ـ لقد كنا رفاق أبيه ، وكان المقدم حسن رأس الغول واحدا منا ، بل كان هو الرجل الظاهر أمام الناس فى فرقتنا ..
قال على الزيبق فى دهشة :
ـ ما كل هذه الالغاز والاحاجى .. منذ الصباح وأنا أخرج من سؤال لأدخل فى سؤال .. هل كان لمجموعتكم أو فرقتكم .. أو ما شئتم أن تسموها ، ظاهر وباطن .
ضحك عمر العيار وقال :
ـ لا لف ولا دوران ، وانما سؤال فى الصميم ، أجبه يا مقدم احمد ، وأرحه وأرحنا ..
تنهد احمد الدنف ، واعتدل فى جلسته ، ثم قال :
ـ بعد الذى فعلته بصلاح الكلبى وبدليلة من ملاعيب مبهرة ، اصبح من حقك يا على أن تاخذ مكان أبيك بيننا ، وان تعرف ما كان يعرفه عنا ، وأن تلقى معونتنا وتاييدنا ، وان يكون لنا عليك ، ما كان منا على ابيك ..
قال على الزيبق
ـ وماذا كان لكم عليه ..
قال أحمد الدنف :

ـ الثقة الكاملة ، والاخلاص المتناهى .. وفى مقـــابلها لك ثقتنا واخلاصنا ..

قال على الزيبق فى الحاح :

ـ فى أى شىء ؟ ..

هنا قال عمر العيار ، وعيناه تلمعان ببريق الاعجاب :

ـ أحسنت توجيه السؤال يافتى ..

واستأنف أحمد الدنف حديثه قائلا ، وكأن أحدا لم يقاطعه :

ـ حين عادت دليلة مهزومة على يديك عزلهـــا الخليفة عن مقدمية الدرك ، وأعاد تعيينى فيه ، وقد كان هو منصبى القديم قبل ان تبهر دليلة بغداد كلها بملاعيبها الشـيطانية ، حتى أراد الخليفة أن يمنع أذاها عن الناس فاعطاها هذا المنصب الرفيع ، ومن يومهـا وهى ما ان تسمع بظهور أحد الشطار فى اى جزء من اجزاء الخـلافة حتى تسرع بالقضاء عليه ، حتى يظل لها الامر كله ، وتظل يدها مســيطرة على الامور فى بغداد ، حتى حاولت معك أنت أيضا وفشـلت ، وذاع أمر فشلها ، وأقصاها الخليفة دون عناء ..

ابتسم على الزيبق وهو يقول :

ـ لم أكن أظن الامر يصل الى هذا الحد ، بل ظننت ان مكانتها من الخليفة فى بغداد ثابتة كما هى ، وقد افهمنى السـلطان وصـلاح الكلبى ، ان رسولا جاء من بغداد يعلن غضب الخليفة لاحتجاز ابنتهـا زينب ، فارسلتها اليها هذا الصباح معززة مكرمة ..

قال احمد الدنف :

ـ نعرف انك فعلت هذا ..

وقاطعه حسن شومان :

ـ وكان هذا اختبارا لقوتك وشهامتك يا على .. ونحن لا نرحب وسطنا الا بمن كانت هذه اخلاقه ، وهز الآخران رأسيهما تأييدا لحديث حسن شومان ، بينما استأنف أحمد الدنف كلامه قائلا :

ـ ان الخليفة اقصى دليلة عن مقـــدمية الدرك ، ولكنه ترك أمر الحمام الزاجل ، فهى مقـــدمة بريده ، والمطـــلعة على اسراره كما كان زوجها السابق ، ونحن نشـــك فى صـــدق ولائها للخليفة وللدولة الاسلامية كلها .. وهنا ياتى السر الحقيقى فى مصرع أبيك ..

صاح على الزيبق فى انفعال :

ـ سر مقتل أبى ، اخبرتنى امى ان صلاح الكلبى دس عليه جارية قتلته حتى ينفرد بمقدمية درك مصر .

قال احمد الدنف :
ـ هذه هى القصة التى يعرفها كل الناس ، ولكن الحقيقة أعمق من هذا بكثير ٠
ولم يتكلم على الزيبق ، وانما ظل ينظر واجما الى أحمد الدنف، الذى تنهد ، ثم قال فى صوت خافت :
ـ نعم الحقيقة ان اباك اكتشف صلات مشبوهة بين دليلة وعملاء الفرنجة هنا فى مصر ، وعرفت دليلة بالامر ، فأتفقت مع صلاح الكلبى على قتله حتى لا يفضح أمرها وأمره ، وكانت هى التى أرسلت اليه الجارية التى دسها على ابيك بعد أن مرنتها ، وأعدتها لمثل ما أريد منها ، وكان موت الجارية مقدرا منذ البدء حتى لا تتكلم ٠
قال على الزيبق فى ذهول :
ـ دليلة تتصل بعملاء الفرنجة ، هى اذن ٠٠ اذن ٠٠
قال شحادى أبو حطب :
ـ قلها ولو همسا ، فنحن نعرف هذا من زمن ، ونبقيه بيننا همسا ٠
وقال حسن شومان :
ـ وآن لك ان تشاركنا الحقائق ، وأن تشاركنا الهمس ايضا ، فما نعرفه لا تقوله الا بيننا ٠
وعاد احمد الدنف يقول :
ـ نحن نشك فيها من زمن طويل ، وكنا قد اكتشفنا ـ أو بمعنى آخر ـ أكتشف عمر العيار انها تتصل بالامراء العجم الذين ولاهم الخليفة على ولاياتهم تحرضهم على الانفصال على الخلافة ، واعلان هذه الولايات الأعجمية الاصل مستقلة عن الخلافة ٠
قال على الزيبق فى عجب :
ـ ولكن هذه الولايات ، ولايات مسلمة ؟
قال عمر العيار :
ـ ان حقد بعض الناس على انتشار الاسلام ، وسطوة دولته ينسيهم دينهم وقوميتهم ٠٠
وقال احمد الدنف :
ـ ان الفرنجة لا يخشون الا وحدة دولة الاسلام ، وهم يدفعون الغالى والرخيص ليوقعوا الفتنة بين أجزائها ، وهم يدسون رجالهم بيننا ، ويستميلون ضعاف النفوس منا ٠٠ وهنا ياتى دورنا الحقيقى ٠
رفع على الزيبق راسه فى انتباه ، وقال :

ـ دوركم الحقيقى ؟
ضحك احمد الدنف وهو يقول :
ـ ودورك معنا منذ الآن يافتى .. فنحن لنا عملان ، الاول يعرفه الجميع ، وهو المحافظة على الامن ، وحماية أموال الناس وأعراضهم من اللصوص وقطاع الطريق ، والمرتشين والعمال الفاسدين ، اما الثانى فلا يعرفه احد ، فهو المحافظة على سلامة البلاد من تآمر اعدائنا علينا ، واكتشاف الخونة ، وعملاء الفرنجة ، والجواسيس ، والايقاع بهم ..
ضحك عمر العيار ، وهو يعقب قائلا :
ـ وهذا أيضا كما قال شحادى أبو حطب ، نعرفه ، ونبقيه بيننا همسا ..
قال على الزيبق وهو يطرق الى الارض :
ـ ولكن هذه مهمة ضخمة وثقيلة ..
قال حسن شومان :
ـ ونحن لا نختار لها الا من يستطيعون تحمل مخاطرها ..
وقال احمد الدنف :
ـ وسيظل دورك المعلن كما هو ، فانت شـاطر من شطار مصر حصل على منديل الامان من السلطان ، وسيحتل مكان صلاح الكلبى مقدما لدرك مصر .
قال شحادى أبو حطب :
ـ بعد نجاحك فى الحصول على النفيلة باذن الله ..
هنا سال على الزيبق :
ـ وما علاقة حصولى على النفيلة بكل هذه الاسرار التى ذكرتموها امامى الآن .. ؟
قال احمد الدنف :
ـ صلاح الكلبى يريد هلاكك ، وما أظن فكرة صندوق التواجيه الا من وحى دليلة المحتالة ، ووحى مكرها وخبثها ، فهذا الصندوق سعى ملوك الافرنج الى الحصول عليه ، وأرسـلوا امهر رجالهم فى طلبه ، ولكن اعياهم ، فاما امسكهم رجال المدينة المرصودة وقضوا عليهم ، واما اهلكتهم السيوف المتحركة فى الجزيرة المعزولة ؛ وكذلك سعى امراء العجم اليه ، وارسلوا خيرة رجالهم فى طلبه .. والكل فشل ..
قال على الزيبق وقد قطب ما بين حاجبيه :
ـ أهو معجز الى هذا الحد .. ؟

قال عمر العيار :

ـ واكثر من هذا الحـــد ، والا لذهب احـــدنا في طلبه من زمن ، ولكننا نعرف أننا لسنا من رجاله ٠

ضحك على الزيبق في حيرة ، وقال :

ـ وأنا أصغركم سنا ، وأقلكم شأنا من رجاله ؟

قال احمد الدنف في تؤده :

ـ نحن قوم مؤمنون يا على ، ولم يكلف احد منا من قبل باحضار هذا الصندوق ، ولكن حين كلفت انت به ، نحس انه اختيار العناية ، فـــلكل شيء سبب ، وكل أمر له من يقضـــيه ، ونحن نحس ان الله سيوفقك حيث فشل غيرك ٠٠ فصندوق التواجيه ذخيرة مهمة لابد ان تكون فى حوزة خليفة المسلمين ، لانه عن طريقه يستطلع شئون الدنيا حوله ، ومثل هذه الذخائر تكون دائما فى خدمة اصحاب الايمان ومن يرفعون لواء دين الله فى أرضه ، وليست بحال من الاحوال ، ولن تكون فى خدمة أعداء دين الله ٠٠

واطرق على الزيبق الى الارض وقلبه يهتز أنفعالا وحمية ، ثم قال :

ـ سأعود بصندوق التواجيه ولو كلفني هذا حياتى ٠

قال احمد الدنف :

ـ ونحن نريد ان نتأكد من قدرتك على هـــذا الامر ، ولذلك فقـد استأذنت الشيخ زكى البتوكى أن يضع ما عنده من ذخائر وأدوات تحت تصرفك وان يعلمك كيف تستعملها ٠٠

قال على الزيبق فى سخرية :

ـ هل سنستعين بالسحر والرقى والتعاويذ ؟

قال احمد الدنف :

ـ هذه أدوات القاعدين العاجزين الكســـالى الذين لا يريدون أن يســـتعملوا ما خلق الله فيهم من عقل ، وما أمدهم به من قوة على الاستنباط والمعرفة ـ لا ياعلى ـ الشيخ زكى البتوكى هو آخر سلالة خدم وتلاميذ الحكيم اخميم الطالب ٠ الذى كان ابرع اهل زمانه فى الطب والفلك والهندسة وعلوم طبائع الاشياء وعلوم الكمياء والسمياء ، وغيرها من علوم الانسان التى سخر بها الاشياء لخدمته ٠

قال على الزيبق :

ـ نسمع عن هذه العلوم فى الكتب القديمة ،ولكننا لا نرى منهـــا شيئا اليوم ٠

ضحك احمد الدنف فى مرارة ، وقال :

ـ بل هناك منها الكثير فى بغداد مركز الخلافة يابنى ، والا فكيف تمتد رقعة البلاد ، وكيف نتفوق على أعدائنا فى الحرب وفى الحضارة أيضـا .
قال على فى عناد :
ـ ولكننا هنا .
قاطعه أحمد الدنف قائلا :
ـ هنا وفى كل أطراف البلاد الاسلامية علماء يعملـون فى صمت وجدية ، ونتائج علومهم ومعارفهم تصب فى قلب البـلاد . ومن هؤلاء هنا الشيخ زكى البتوكى ، والليلة موعدنا معه ..
عاد على يجادل :
ـ ولكن لماذا الصمت والسرية ؟
قال عمر العيار :
ـ لأن المكائد من الفرنجـة تتربص بنا ، فهم لا يريدون ارضنا وثرواتنا فحسب ، وانما هم يريدون عقولنا وثمرات هذه العقـول ، واليوم الذى نغفل فيه عن حراسة ما عنـدنا منهم ، يكتب لهم كسب السبق الاكيد ..
وعاد احمد الدنف يقول :
ـ ونحن موكلون بحفظهم ورعايتهم ، وحراسة نتائج أعمالهم .. ولكننا ايضا مفوضون ان نستعمل ما ينفعنـا فى عملنـا من نتائج ابحاثهم ، ولهذا سنتجه الليلة الى الشيخ زكى البتوكى لنضعك فى رعايته بعد أن نفهمه بحقيقة مهمتك ..
قال الزيبق محتجا :
ـ ولكنى كنت أريد الارتحال غدا .
ضحك حسن شومان وقال :
ـ ليس قبل سبعة أيام يا على ـ فلدى كل منا مايريد أن يلقنه لك . وخاصة عمر العيار .
انفرجت أسارير على الزيبق ، وهو يقول :
ـ اهو معسكر تدريب اذن ..
ضحك احمد الدنف وهو يقول :
ـ سمه هكذا ان شئت ، والان أصغ الى جيدا ـ بعد صلاة العشـاء الليلة ، تسلل من منزلك متخفيا واقصد الى حمام سالم عند درب سالم فى أول القرافة . ولن تتوه عنه فهو حمام جناده بن عبس المعافرى

الذى عند مصبغة الحفارين المعروفة بفسقية ابن طولون . هو على يسارك وأنت متوجه الى القرافة ، بالقرب من قبر القاضى بكار ..
قال على الزيبق :
ـ اعرف المكان وسأكون هناك بعد صلاة العشاء ..
ضحك احمد الدنف وقال :
ـ وافهم عنا يا على .. نحن نعرف الحقائق ولكننا نتكلم همسا .
قال على :
ـ السر عندى فى بير .
قال احمد الدنف :
ـ هناك استثناء واحد يا على .. امك السيدة فاطمة ان أردت ان تخبرها بشىء فأخبرها بما تريد فمثلها يؤتمن على كل الأسرار ..
قال عمر العيار وهو يضحك :
ـ وهى منا وان كانت لا تدرى ، فكم خاضت من معارك الى جوار ابيك حسن راس الغول ..
وفى صمت صافح على الزيبق احمد الدنف والمتحلقون حوله ، ثم غادر الدكان وهو يحمل حملا من الاقمشة ليوهم من يراه انه كان يشترى وينتقى داخل الدكان ..

***

كان على الزيبق يتناول طعامه فى وجوم وبطء ، وكانت أمه فاطمة تجلس امامه ترقبه فى حنان ، وقد فهمت وجومه وصمته على غير حقيقته ، فقالت وهى تدفع أمامه بصحن ملء باللحم :
ـ احزنك فراق زينب يا على ..
رفع على رأسه عن صحاف الطعام امامه ، وقال :
ـ قلبك الحنون يسبق قلبى الى احزانه يا أم ، ولكنها ليست زينب التى تشغلنى الآن فهى فى أمان فى حماية سالم ، وانما ما بقلبى هم يشغل عقلى ..
نظرت فاطمة اليه فى اهتمام ، وهى تقطب ما بين حاجبيها ، وقالت :
ـ هموم القلب فهمناها ، أما هموم العقل فيحيرنا أمرها ..
قال على ، وهو يحمد لأمه انها لا تحرجه بسؤال مباشر :
ـ لقد أذنوا لى ان أحدثك بالامر ..
اقتربت فاطمة منه وهى تقول :

ـ أذنوا لك ؟ من هم ؟ . لقد خرجت لتصـــلى ويهدأ بالك ، فماذا حدث لك ..

قال على :

ـ صليت يا أم كما لم أصل من قبل ، وهدأ بالى واستقرت نفسى ولكنى بعد الصلاة قابلتهم ، وعرفت الحقـــائق التى لا يتحـــدث من يعرفونها عنها الا همسا ..

اجفلت فاطمة ، ونظرت الى ابنها فى حدة ، وقالت :

ـ الحقائق التى تعرفها ، ولا تتحدث عنها الا همسا..هذه عبارة غامضة من عبارات أبيك حسن رأس الغول ، وهى من الاشياء القليلة فى حياتنا التى رفض ان يشرحها لى .

ضحك على الزيبق وقال :

ـ آن الأوان أن يشرحها لك ابنه ، ولكن همسا ..

ورفع يده عن الطعام وقال :

ـ سأحكى لك ..

صاحت فاطمة فى احتجاج :

ـ وطعامك يا على ؟

قال على :

ـ ينتظر الحكاية ، فهى تضجر صدرى ، ولابد أن تعرفى كل شىء .

ومضى يحكى فى صوت خافت ، ومضت تسمع حديثه ، ووجههـــا يشحب كلما مضى فى حكايته ، وقاطعته مرة قائلة :

ـ هذه فعلا أفعال عمر العيار ..

ولكن عندما وصـــل الى لقائه باحمد الدنف ومن معه ، قالت فى انفعال :

ـ المقدم الدنف ورجاله هنا فى القـــاهرة وأنا لا أعرف ، لا هذا كثير ، ما كانوا ينزلون القاهرة الا ويكون بيتى هو بيتهم ..

ذكرها على الزيبق قائلا :

ـ كان هذا أيام كان ابى مقدم درك مصر ، أما الآن فهم يتخفون من جواسيس صلاح الكلبى ، وعملاء الفرنجة ..

دقت فاطمة على صدرها وهى تقول :

ـ عملاء الفرنجة ، هنا فى مصر .. ما هذا يا على ..

قال على الزيبق وهو يبتسم :

ـ اذن اسمعى ..

ومضى يحكى لها كل ما سمعه في الجلسة الغريبة التى عاش فيها كالحلم المذهول ، ومضت تسمع له في اصغاء شديد ، وازداد شحوب وجهها عندما ذكر لها ما عرفه عن مصرع ابيه ، وهمست وكأنما لنفسها :

ـ اذن فهذا هو السر ، رحمه الله المقدم حسن رأس الغول ، اقرأ له الفاتحة يا بنى ..

ومدت كفيها تقرأ الفاتحة ، وحذا على ، حذوها ، فلما انتهت منها مسحت بكفها على وجهها ، وقالت وقد تندت عيناها بالدموع :

ـ ما كنت أعرف كل هذا .. ولكن حيـــاته كانت مليئة ومفيدة ، ومثله لا تموت ذكراه أبدا .. ومضى على يكمل حكايته وفاطمة تنصت ، فلما انتهى من كلامه قالت :

ـ كان الشيخ زكى البتوكى صديقا لجدك القاضى نور الدين ، ولكن كان لكل منهما طريقه ، فقد كان جدك غارقا فى التسابيح والاوراد ، اما الشيخ زكى فهو غارق فى التجارب والابحـــاث ، وكل منهما يعـــرف طريقه الى الله بوسيلته .. فالذكر عبادة والعلم عبادة ..

قال على :

ـ أنا مشوق الى لقائه ، فأنا لم الق مثله حتى الآن ..

قالت فاطمة :

ـ أكمل طعامك ، ثم قم فنم ، وحين صلاة العشاء أوقظك ، لتصـلى وتذهب اليه مخفورا بعناية الله .

عاد على الى طعامه وهو يقول :

ـ كلماتك ذكرتنى كم أنا متعب .. نعم ، سآكل وأنام .. فأنا محتاج الى راحة طويلة من عناء هذا اليوم الطويل ..

- ٩ -

الشيخ زكى البتوكى

كانت قاعة الزعر مليئة بالاضطراب والقلق ، الكل يجرى هنا وهناك ، والكل يهرول فى أرجاء القاعة دون هدف واضح ، وقد امتلأت قلوب الجميع بالهلع لغضبة المقدم صلاح الكلبى ، الذى كان يقف وسط القاعة وهو يلوح بيديه فى حنق ، ويصيح :

- كيف تسرق مجموعة رسائلى الخاصة من وسط القاعة وهى مليئة بكم ، دون أن يحس أحد ، ان من دخل القاعة وسرق الرسائل كان من الممكن ان يقتلكم جميعا ، ويقتلنى أنا ايضا دون ان يعترضه أحد ..

قال احد المقدمين :

- لعله الزيبق ..

لوح المقدم صلاح الكلبى بيده فى ضجر ، وهو يقول :

- الزيبق ، الزيبق ، لا .. كان هذا قبل أن ياخذ منديل الامان ، وينشغل بأمر النفيلة ، من دخل القاعة وسرق الرسائل ليس الزيبق . وانما هو لا يقل مهارة عنه ، ولابد من كشفه .

وهنا دخل المقدم عثمان القاعة ، وهو ينظر الى الفوضى التى ضربت اطنابها بها فى ذهول ، فاشار اليه المقدم صلاح الكلبى ليقترب منه ، وعندما فعل ، قال له همسا :

- هل ابلغتهما الرسالة ؟

قال المقدم عثمان همسا :

- تعنى حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، لقد ابلغتهما الرسالة .

صاح المقدم صلاح الكلبى فى حنق :

- الم أقل لك لا تنطق باسمهما ابدا .

قال المقدم عثمان همسا :

- لاذنك فقط كان حديثى ، ولم يسمعه أحد .. وهما فى الطريق الى تنفيذ ما تريد ، عسى ان لا يكون الزيبق قد سبقهما ..

ضحك المقدم صلاح الكلبى وهو يفتل شاربه ويقول :

ـ هو مازال في القاهرة ، وسأعرف أخباره من المقدم عباس الأشول الذي يلازمه منذ الصباح كظله ..

تنهد المقدم عثمان ، وهز كتفيه ، وهو يقول :

ـ هما اذن سيسوقانه الى بئر النجاة كما قلت لهم؟ ..

قال المقدم صلاح الكلبي وفي صوته نبرة تشف واضحة :

ـ وهناك ستكون نهاية الزيبق ، ولن يعبر الصحراء أبدا .

ثم نظر فجأة في حدة الى المقدم عثمان وهو يقول :

ـ هل تعرف شيئا عن سرقة الرسائل من القاعة ؟

فتح المقدم عثمان فاه في ذهول وهو يدير رأسه في القاعة المضطربة ، وقال :

ـ اذن فهذا هو السر في كل هذه الفوضى ..أيبحثون عن الرسائل

صاح المقدم صلاح الكلبي في غضب :

ـ لا ، الرسائل فقدت من هنا تماما ، رغم أنني أخفيها حيث لا يهتدي اليها أحد ، فما فيها خطير للغاية لا علي وحدي ، وانما على أناس كثيرين ، ولو وقعت في يد الخليفة لطارت أعناق .

قال عثمان في اصرار :

ـ ولكن عن أي شيء يبحثون اذن ؟

قال المقدم صلاح الكلبي في صبر نافد :

ـ عن أي اثر يكون اللص قد تركه وراءه ..

ضحك المقدم عثمان وهو يقول :

ـ أثر .. ؟ هل سرق اللص شيئا غير الرسائل ..

حدق فيه المقدم صلاح الكلبي ، ثم قال :

ـ لا ، لم يسرق شيئا من القاعة سوى هذه الرسائل ..

أكمل المقدم عثمان حديثه قائلا :

ـ ومن مخبئها السري الذي لا يعرفه احد سواك يا مقدم .. مثل هذا اللص لا يترك وراءه أي أثر .. ومهما أجهدتهم في البحث فلا فائدة ، فهم يتخبطون بلا جدوى ..

همس المقدم صلاح الكلبي من بين اسنانه :

ـ صدقت ..

ثم راح يصيح في الرجال صارفا اياهم عن البحث ليذهب كل منهم الى ما كلف به من عمل ، بينما قال المقدم عثمان :

ـ وربما لم تترك الرسائل هنا يا مقدم صلاح ، ربما كانت في مكان آخر ..

نظر صلاح الكلبى اليه فى حدة ، وقال :
ـ ماذا تعنى يا عثمان ؟
قال عثمان محاذرا وهو يهمس فى أذن مقدمه :
ـ أعنى ، ربما تركت الرسائل فى بير جوان ..
صرخ المقدم صلاح الكلبى محنقا ، وقال :
ـ قلت لك الف مرة ، لاتذكر هذا المكان .
قال عثمان وهو يخافت من صوته :
ـ فقط أذكرك ، ربما تركت هذه الرسائل هناك ، فى الطابق المستور .. اعنى ..
صاح المقدم صلاح الكلبى :
ـ كفى يا عثمان ، فحولنا أذن لا نعرف اين ولاءها .
قال عثمان :
ـ قبل أن نقيم الدنيا ونقعدها ، نتوجه الى بير جوان ، عسى ان نجد الرسائل هناك ..
تلفت المقدم صلاح الكلبى حوله فى حذر ، وهو يجوس بعينيه فى القاعة ، وقال :
ـ ربما عندك حق .. ولو انى لا أترك هناك الا رسائل معينة ، ليس منها هذه الرسائل .. ولكن من يدرى .. هيا بنا .
وقبل أن يتحرك المقدم صلاح الكلبى من وسط القاعة ، اقتحمها المقدم عباس الاشول وهو يجيل عينيه فى أرجاء القاعة الى ان استقرتا على المقدم صلاح الكلبى ، فاتجه اليه ..
وقال المقدم صلاح الكلبى :
ـ الآن ستعرف أخبار صاحبك الزيبق .
ثم وجه سؤاله الى المقدم عباس الاشول قائلا :
ـ هل سافر ؟
كان منظر المقدم عباس الاشول مثيرا للشفقة ، كانت ملابسه متربة ، وكان وجهه مربدا ، وقد انعقدت على جبهته أثار أتربة سالت مع العرق ، ثم جف العرق وتركها بقعا سوداء داكنة هناك ، وحين تكلم كان صوته يشف عن ارهاق وتعب .. وقال :
ـ انه فى بيته ينام الآن كالحمل الوديع ..
ثم عض على ناجذيه ، وقال فى حنق :
ـ لقد لف بى القاهرة كلها أكثر من مرة ، وكانه يودع كل

شوارعها وحاراتها ، وكأنه يريد أن يتأكد من مكان كل خان وحمام وشربتلى ودكان فى مصر كلها ..

قال المقدم صلاح الكلبى ، وهو يتأمله فى امعان :

ـ لنبدأ من البداية ..

قال عباس الاشول ، وهو يشرح بيده فى ضجر :

ـ ليست هناك بداية ، ولا نهاية ، الا اذا اعتبرت خروجه من بيته بداية ، وعودته اليه نهاية ..

استمر المقدم صلاح الكلبى يسأله فى امعان :

ـ ولكن ، لابد ان هناك شيئا ما وراء هذه الجولة .. أخبرنى ماذا فعل ؟

ازداد ضجر عباس الاشول وضوحا فى نبرات صوته ، وهو يقول :

ـ خرج قاصدا مسجد السيدة زينب ليصلى ، وهذا أمر مفهوم ، وبعد هذا أخذ يضرب على غير هدى فى أنحاء المدينة ، مرة يدخل دكان شربتلى ، ثم يخرج ليشرب من سقاء ماء عابر ، ثم يجوس فى المدينة من مكان الى مكان ، ولم يقف آخر الجولة الا عند دكان أقمشة ، وقف يتأمل ما فى واجهة المحل من معروضات، ثم دخل ليبدأ جولته فى استعراض ما فوق الارفف ، وما هو معلق فى أنحاء الدكان ، ثم صحبه صاحب الدكان الى داخل المحل وكأنما لم يعجبه من المعروض شىء ، وغاب حتى خلت انه لن يخرج ابدا ، ثم عاد محملا بالاقمشة ، ليتجه الى بيته مباشرة .. هذا كل ما هناك ..

اطرق المقدم صلاح الكلبى مفكرا ، ثم رفع رأسه وهو يعبث فى شاربه ، وقال :

ـ لو كان يريد شراء الاقمشة لقصد الى المحل بعد أن انتهى من الصلاة .. لا هذا الدكان له سر .. اتعرف مكانه يا عباس .. ؟

قال عباس الاشول :

ـ لا سر هناك ، فالدكان فى مكانه منذ كانت الكحكيين فى مكانها ، ولا احسبه الا ضجر من كثرة التجوال ، واستراح فى ظل المحل من الشمس ..

قال المقدم عثمان :

ـ مثل الزيبق لا يسير على غير هدى ابدا ، ولا أظن الا انه كان يحاول بتجواله ان يخدع من يتعقبه .

وقال صلاح الكلبى :

ـ أذهب يا عباس وتحقق من الدكان ، من صاحبه ، وماذا يبيع ،

وماذا هناك في عرفته الداخلية . فلمن يشترى الزيبق الاقمشة ، وقد اشترت امه امس نصف المعروض في السوق هدايا لزينب .. لا .. هذا أمر كلما طال فيه التفكير زاد فيه الشك .

قال المقدم عباس الاشول في حيرة :

ـ لم يخطر كل هذا ببالى يا مقدم .

ضحك المقدم صلاح الكلبى ، وهو يقول :

ـ ومنذ متى وأنتم تعرفون التفكير .. اذهب وافعل ما أمرتك به وتركه ينصرف ، وهو يدير ظهره له ، ويقول للمقدم عثمان :

ـ هيا بنا ياعثمان الى الجمالية لنتحقق من فكرتك .. فربما بالفعل أكون قد تركت الرسائل هناك .

ضحك المقدم عثمان وهو يقول :

ـ هيا بنا الى بير جوان

***

كان على الزيبق يتقدم في الطريق المظلم في حذر ، ما أن يسير عدة خطوات حتى يرتكن الى حائط ويمكث مكانه بجزء من الظلام المحيط به، ينظر الى الطريق خلفه في امعان ليتأكد ان احدا لم يتبعه في هذه الرحلة الليلية الغامضة . ولم يكن يخشى على نفسه ، وانما كان يخشى ان يكشف سر هؤلاء الاصدقاء الذين وثقوا فيه ، وباحوا له بسرهم ، وتقدموا وحدهم لمساعدته وحمايته ..

ومضى في طريقه دون وجل فهو يعرف هذه الاماكن جيدا ، كم قصد اليها عندما كان يهرب من معلمه الضرير المضجر في الازهر ، وكم كان يحب ان يتصور نفسه يقاتل العفاريت والجان الذين كان الناس يقولون انها تسكن المقابر ، وخاصة هذه المقابر بالذات ، وعلى الاخص فسقية ابن طولون ، وقبر القاضي بكار .. كبر الآن وعرف ان العفاريت هي رجال صلاح الكلبى ، وان الجان هو صلاح الكلبى وأمثاله ممن يركبون الناس بالعنت والظلم ، يسرقون وينهبون ، ويزدادون ثراء ومالا وسطوة .. ومر الى جوار مبنى متهدم لحوش قديم ، فدلف الى جوار حائطه ووقف ساكنا يرقب الطريق خلفه وقد غدا جزءا لايتجزء من الحائط الذى التصق به .. وتنهد ، فهو واثق ان احدا لم يتبعه ، لأن احدا لا يعرف انه خرج من مسكنه ، لقد حمل جرابه القديم وفيه كل حاجاته ، وتسلق « سلم التساليك » الى سطح الدار ، ثم قفز الى سطح الدار المجاورة ، ومنها قفز الى زقاق جانبى، ثم خرج الى طريق آخر غير الطريق الذى يقع فيه باب داره ، ومع هذا فالحذر واجب مع واحد

كصلاح الكلبى ، والحذر واجب لحماية واحد كاحمد الدنف .. وعاد يذكر وجه احمد الدنف الجاد الصارم ، كانه قطعة من صخر لا تظهر عليها الانفعالات ، يخرج كلامه من فمه هادئا ، ولكنه كلام لا عاطفة فيه ، كم رأى هذا الرجل من مآسى واحداث .. وتوالت امامه الوجوه التى عرفها لاول مرة هذا النهار ، وجه حسن شومان الذكى الماكر ، ووجه شحادى ابو حطب الهادىء الوقور ، ووجه عمر العيار الضاحك العابث الذى يسخر من كل شىء ، ولا يبالى بشىء . وابتسم لنفسه فى الظلام ، الآن غدا واحدا منهم ، منذ هذا النهار وهو من مشاديد احمد الدنف ، يأخذ مكان أبيه ، ويخرج الى دنيا الرجال . وكأنه استمرار لرسالة أبيه ، واكمال لدوره .. وأفاق من تأملاته على صوت وقع أقدام تقترب من مكانه .. هل كان هناك آخر الامر من يتعقبه بعد كل ما أخذ من احتياطات ، وهز على كتفيه ، وظل يرقب القادم فى قلق .. لم يكن فى اعماقه خشى أن يفتضح أمره ، أو ان يعرفه أحد ، فقبل أن يغادر الدار تنكر على هيئة قارىء عجوز يحمل خرجه على ظهره المقوس ، وتهتز لحيته الشيباء مع حركة رأسه .. ومن الذى يشك فى قارىء عجوز داخل المقابر ، لعله يقيم فى أحد حيشانها المهجورة ، ولعله عائد من القراءة على قبر ميت حديث الموت ، عجل اهله بدفنه اكراما له .. وازداد وقع الاقدام اقترابا .. وتلفت الزيبق حوله من جديد ، كان قريبا جدا من درب سالم ، وأستطاع ان يلمح وسط الظلام شبح مبنى حمام المعافرى على اول درب سالم .. هو اذن قد أوشك ان يصل ، فكيف سمح لاحد أن يتعقبه حتى باب بغيته .. وفكر ان يتراجع ويختفى حتى يمر هذا القادم صاحب الخطوات الواثقة ، وفكر ان يظل فى مكانه مختفيا عن عينيه ، ولكنه كان يعرف أن من ينظر نحوه من قرب سيكتشف وجوده ، فقد بدات النجمات المتلألئة فى السماء تسمح بضوء مغبش يميز الناظر فيه الاشباح والاشياء .. وقبل ان يحسم رأيه توقفت الخطوات امامه ، وجاءه صوت هادىء من الظلام ، يقول له :

ـ اتعرف الطريق يامولانا الى حمام سالم ؟

وكاد قلب على الزيبق يتوقف عن نبضاته ، وعقدت المفاجأة لسانه نصمت ، بينما استمر الصوت الهادىء يقول :

ـ لقد ضللت طريقى فى الظلام ، ووسط هذه الحيشان المتشابهة ، ولست أجد احدا يدلنى على حمام سالم ، قالوا لى انه فى اول درب سالم ، فى أوائل القرافة ، وأنا قد سرت فى هذه القرافة حتى تعبت اقدامى ولست أظن الا اننى قد تهت ..

تقدم على الزيبق نحوه متشجعا ، وهو يحنى ظهره ويقوسه تحت عبء خرجه ، وقال فى صوت عجوز مشروخ صدىء :
ـ بل أنت يا حاج فى الطريق الصـــحيح ، ليس امامك الا عدة خطوات ونصل الى درب سالم ..
عاد الصوت الهادىء يقول :
ـ جزاك الله خيرا يامولانا .. هل اطمــع فى كرمك فتسير معى اليه ، فانا غريب عن هذه النـــواحى .. شـــك على الزيبق فى نبرة سخرية خفية فى كلام الرجل ، كما احس ان الصوت ليس غريبا عنه ، ولكنه لم يكن متأكدا من شىء ، فهز كتفيه فى استسلام ، وهو يتقـدم نحو الرجل ويقول :
ـ حبا وكرامة يا حاج .. سر معى وسنصل اليه باذن الله ..
ومد على الزيبق يده يتحسس مقبض سيفه قطاع المجادل الذى أخفاه تحت الجبة والقفطان ، بينما قال الرجل وهو يستأنف سيره فى محاذاة على :
ـ من يسمع صوتك يامولانا يظنك خائفا ، فمم تخاف وأنت رجل قارىء عجوز فقير ، أم انت تحمل ذهبا أو شـــيئا ثمينا فى هذا الخرج الذى يثقل ظهرك ..
ضحك على الزيبق ضـــحكة واهنة ، ثم أخذ يسعل كأنما اثقلت السنون صدره ، وقال :
ـ انما هى [illegible]اص ممـــا يوزعه الناس رحمة على أمواتهم ، وخبز وفاكهة جمعتها اليوم فى تجوالى بين القبـــور أقرأ سورة هنـا وسورة هناك ، ويجود على الناس بما عندهم ..
ثم أردف بعد صمت قصير :
ـ ان كنت جائعا افتح الخرج واقاسمك ما فيه من زاد ..
وكانت قبضته قد اشتدت على مقبض سيفه ، بل لقد جذبه من غمده عدة بوصات ، حين سمع ضحكة الرجل الهادئة ، ثم جاءت كلماته حافلة بالسخرية الواضحة ، وهو يقول :
ـ لست جائعا ، ولست فضوليا ، ولكنى أحسبك خائفا ، فاحببت ان أعرف مم تخاف ..
تظاهر على الزيبق بالخوف ، فنظر حـــوله فى تردد ، وهو يقيس المسافة بينه وبين الرجل ، وقال فى صوت ملأه بالارتعاد والرعشة :
ـ العمر غال ياحاج ، وأولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحـلال شيئا ..

ثم التفت الى مدخل الزقاق ، واشار بيده الاخرى قائلا :
ـ هذا هو زقاق سالم ، وأمامك مباشرة باب الحمام ٠٠
وكان قد تأهب تماما لاى حركة غدر من الرجل ٠٠ كان يستطيع ان يجذب الحسام ، وأن يتقدم خطوتين اثنتين ، ليشق رأسه بضربة واحدة ٠٠ فقد كان واثقا ان الرجل يسخر منه ، وانه يلعب معه لعبة لا يدركها ، وان كان واثقا ايضا انه ليس من رجال صلاح الكلبى ، والا لهاجمه قبل هذا بفترة ، ودون ان يتركه حتى يأخذ حذره ويتأهب لملاقاته ٠٠ وعادت ضحكة الرجل الهادئة تشق الصمت ، وعاد يقول :
ـ بل تقدمنى انت ، الست على موعد هناك ٠٠ ؟
صاح على الزيبق فى غضب ، وهو يسحب سيفه من قرابه حتى منتصفه ، ويتأهب للوثوب :
ـ من أنت ؟ ٠٠ وماذا تريد ؟ ٠٠ وماذا تعرف عن موعدى هنا ٠٠ ؟
ضحك الرجل ضحكته الهادئة ، وهو يقول :
ـ اسئلة ٠٠ اسئلة ٠٠ نسيت يا على لهجة القارىء العجوز المتهالك ٠٠ حذار من هذا الغضب فهو ينسيك مارسمته لنفسك من دور
ثم مد يده فأزاح اللحية المستعارة من فوق وجهه ، فاذا هو أمام وجه عمر العيار الأمرد ، أمام عينيه الضاحكتين فى عبث وسخرية ٠٠ وتمالك على الزيبق نفسه بصعوبة ، وهو يعيد السيف الى قرابه ، ويتنهد قائلا :
ـ لقد خدعتنى يامقدم عمر ٠٠ ولولا كلامك الآن لكان سيفى فى يدى ٠٠
ضحك عمر العيار ، واقترب من على الزيبق مربتا على كتفه وهو يقول :
ـ لقد لاحظت حركة يدك تحت الجبة وعرفت انك تحتفظ بسيفك للطوارىء ، واعجبنى هذا منك .. هيا فالقوم فى انتظارك ..
قال على الزيبق :
ـ ولكن ٠٠ هل كنت فى انتظارى ؟
تأبط عمر العيار ذراع على الزيبق ، وهو يتجه به الى باب الحمام قائلا :
ـ بل كنت أتبعك منذ قفزت فى الحارة الجانبية ، فقد قدرت انك لن تخرج من الباب الامامى للمنزل ، ولا أكتمك لقد خدعنى تنكرك أول الامر ، ولكنى سرعان ما تحققت منك وانت تمر فى النور المنبعث من حانوت الطباخ على ناصية الميدان ٠

وضحك وهو يقول مهونا :
ـ كنت أريد أن أتأكد ان احدا لن يتبعك كما حدث في الصباح .
وقف على الزيبق مجفلا وهو يقول :
ـ وهل كنت متبوعا في الصباح من غيرك ؟ لقد احسست بك ، ولكني لم الحظ غيرك ..
ضحك عمر العيار وهو يقول :
ـ كان بالك مشغولا باشياء كثيرة فلم تلحظ عباس الاشول ، وكنت أنا مشغولا بك فلم الحظه أيضا ، ولكني تأكدت الان : تعال سأحكي لهم ولك في وقت واحد حتى لا أكرر نفسي ..
وضحك عمر العيار وهو يدلف من باب الحمام والى جواره على الزيبق الذى أدهشه ما سمع من كلام ، ولكنه تحكم في فضوله ، ومضى الى جوار عمر الى داخل الحمام الذى طالعه ببخاره العبق وأضاءته الخافتة ، والبخار الذى يتسرب من المغطس تخفيه عنهما ستارة مبتلة قد حال لونها ، وقال لهما الحمامي ، وهو لا يكاد ينظر اليهما :
ـ من هنا يا أفاضل ، اخلعا ملابسكما في هذه الدورة وهذه هي البشاكير والمناشف والصابون .
وأزاح الستار يدخلهما الى جو الحمام الحار المفبش بالبخار . وما ان نزلت وراءهما الستارة المبتلة ، حتى أمسك عمر العيار بيد على الزيبق قائلا :
ـ اتبعني واسرع ..
ثم تجاوز المغطس منحرفا الى اليمين ، حيث فتح بابا خشبيا صغيرا ودلف منه ، وتبعه على ليجد نفسه في ممر طويل معتم تضيئه شعلة ذابلة ثبتت الى جانب الحائط يسبق دخانها نورها ، وسار عمر العيار الى نهاية الممر ووراءه الزيبق في صمت ، وفتح باب آخر فاذا هما في حجرة واسعة مضاءة بعدة مصابيح وهناك كان حسن شومان يقف منتصبا ويده على مقبض سيفه ، ولكنه عندما رآهما قال :
ـ تأخرتما .. هيا فالشيخ في الانتظار .
ومد يده الى أرض الغرفة فجذب بابا خشبيا ، وأخذ ينزل درجا متعرجا ، وهما وراءه ، ثم جذب عمر العيار الباب الخشبي وراءهم فشملتهم ظلمة كاملة .. ومد على يده يتحسس ما أمامه فوجد يد حسن شومان تمسك به في قوة وتقوده في نزوله الدرج .. وفي نهاية الدرج كانت تلوح انوار قوية تزداد قوة كلما اقتربوا منها .. وما ان نزل الزيبق الدرج حتى كادت عيناه تغشيان من شدة الضوء ، فأغلقهما

وهو يستند الى يد حسن شومان القوية ، ثم فتح عينيه ليطالعه منظر لم ير مثله فى حياته من قبل :

كانت القاعة واسعة لا تصل العين الى نهايتهـــا ، وكانت مليئة بالمناضد العالية التى تكومت فوقها فى نظـــام عدة أدوات وأجهـــزة وأنابيق ومواقد غريبة مختلفة ، وعلى الارفف تراكمت زجاجات مليئـة بسوائل متعددة الالوان ، ومساحيق داكنة وبيضاء وصفراء ٠٠ وكانت القاعة تعبق برائحة غريبة حريفة لم يستطع الزيبق أن يحـدد كنهها ، وفى نهاية القاعة من بعيد كان شيخ وقور يلبس ملابس ناصعة البياض وتخفى لحيته الشهباء وجهه كله يجـلس أمام منضـــدة عليها كتاب مفتوح ٠ والى جواره جلس احمد الدنف وشحادى ابو حطب فى أدب وصمت وترقب ٠٠ وهمس عمر العيار فى أذن على الزيبق ٠

ــ هذا هو الشيخ زكى البتوكى يا على .. وهو فى انتظارك .. فتقدم فى صمت ، ولا تتكلم حتى يوجه اليك الخطاب ٠

- ١٠ -

الآن نتعلم

افاق على الزيبق من ذهوله امام منظر القاعة الغـريب ، على كلمات عمر العيار ، فهمس :

ـ ايعيش هنا .. تحت الأرض ؟ ..

همس عمر العيار :

ـ قلت لك اسكت وستعرف كل شيء الآن والآن هيا بنا .

وكانت القاعة يسودها صمت مطبق الا من صوت ماء يغلى فى قدر ما فى خفوت ، وصوت بخار يتصاعد فى هسيس مكتـوم ، وصوت تنفس الرجال ، وحركة صفحات الكتاب يقلبها الرجل الشيخ فى رقة ... واحس على الزيبق بالرهبة تتملكه وهو يتأمل الكتب العديدة التى ملأت أرففا متعددة تملأ الحائط خلف الشيخ ، ولفته صوت غريب خافت فالتفت ناحيته ، والى جوار الحائط على اليمين لاحظ شباكا ضيقة من حديد تغطى صناديق متينة فى الحـائط ، وحين امعن النظر تأكد ان مايراه حقيقة ، كانت هناك فئران صـغيرة بيضاء تجرى داخل الصندوق وتظهر من خلال فتحات الشـباك الحديدية الضيقة ، والى جوارها اقفاص متشابهة مليئة بحمـام صغير ، ثم حوض ماء ملىء بالضفادع الحية تجرى وتتقافز داخـل الحمام الذى يغطيه زجاج سميك .. واحس على الزيبق بلمسـة على ذراعه فالتفت ليرى عمر العيار يشير اليه بعينيه الى الحائط المقابل ، وارتجف الزيبق وهو يشاهد ما فى صندوق زجاجى مثبت فى الحائط المقابل ، وكاد يكذب عينيه ، ولكنه سرعان ما تأكد أن الصندوق يحوى عدة أفاع ضخمة ، فقد كان النور يلمع على جلدها المرقط لتظهر رغم سكونها فى وضوح لا يدع مجالا للشك فى حقيقتها .. وهمس عمر العيار فى اذنه :

ـ انها حيوانات التجارب ..

وسمعا تنهد الشيخ فى نهاية القاعة وهو يغلق الكتاب المفتـوح امامه ، ويرفع راسه ليتأمل ما حوله كانما يفيق من حلم عميق .. وتحرك احمد الدنف من جلسته ، فوقف يشير الى القادمين بالتقدم نحوه ، وهو يقول :

ـ ها قد وصلوا من كنا فى انتظارهم . وهذا يا مولانا الشيخ هو على الزيبق بن حسن راس الفول وحفيد صديقك القديم القاضى نور الدين ..

اضاء وجه الشيخ زكى بابتسامة عريضة ، وهو يمد يده مرحبا ، وقال :

ـ اهلا بالرجال ، واهلا بابن الأحبة ..

ثم سكت فجأة وهو يقول مقطبا حاجبيه الكثين :

ـ ولكنه رجل عجوز ، وفقيه ايضا ، وما هذا الخرج الذى يحمله على ظهره ..

واضطرب على الزيبق ، وهو ينزل خرجه من فوق كتفه ، ويمد يده يزيل اللحية المستعارة من فوق وجهه ، ويخرج زجاجة من جيبه وقطنة يغمسها بالسائل الذى فى الزجاجة ، ويمر بها على وجهه وحاجبيه يزيل آثار تنكره ، بينما ضحك عمر العيار وهو يتقدم قائلا :

ـ هذه يامولانا ثياب التنكر ، فقد خشى ان يتبعه أحد ..

ضحك أحمد الدنف وهو يقول :

ـ وقد اجاد التنكر وان كانت تنقصه لمساتك ياعمر .

قال عمر :

ـ انا هنا لاكمل له مرانه ، ولأكمل تعليمه ..

وعاد الشيخ زكى البتوكى يتأمل فى على بعد أن ازال تنكره ، ويقول :

ـ هكذا يعتدل الحال ، فانت الآن تشبه اباك حسن راس الفول كثيرا .. وان كان فيك من جدك القاضى نور الدين الكثير ايضا .

ثم صمت فجأة وكانما يتذكر شيئا غاب عن باله ، وسأل عليا :

ـ وكيف حال القاضى نور الدين ، وكيف حال أمك فاطمة ؟

احس على الزيبق بفرحة اذ يذكر هذا الرجل الجليل جده وامه ، وقال :

ـ هو بخير فى دكانه ، وهى ارسلت السلام معى عندما عرفت اننى فى طريقى الى لقائك ..

وكانما لم يسمع الشيخ زكى البتوكى كلمات على الزيبق اذ تعلقت عيناه بصدر المكان ، وسهمت نظراته ، وتبادل الجميع النظرات المتسائلة الا ان احدا منهم لم يقطع على الشيخ تأمله ، الذى تنهد بعد حين ، وعادت نظراته تتأملهم واحدا اثر الآخر ، الى ان عادت نظراته تستقر على الزيبق ، فقال وهو يبتسم :

ـ دار الزمن دورته ، ولم يعد زائرى هو القاضى نور الدين بل ابن ابنته غدا شابا يافعا يملأ الدنيا صخبا وحياه ، ويحير بملاعيبه صلاح الكلبى واعوانه ..

همس على الزيبق :

ـ وتعرف هذا . ؟

ضحك الشيخ زكى البتوكى ، وقال :

ـ لا يفوتنى مما يحدث فى مصر كلها الا القليل ، وحتى هذا القليل تأتينى اخباره آن آجلا وان عاجلا .

هنا تدخل عمر العيار قاطعا حديثه ، قائلا :

ـ فاتنى ان اخبركم ان دكان الاقمشة اصبح غير صالح لنا ، وقد نقلت كل ما فيه من اقمشة واثاث وتركته قاعا صفصفا قبل ان احضر الى هنا .

تغير وجه احمد الدنف الصارم ، وظهر عليه الغضب ، وهو يقول :

ـ هل عثر عليه جواسيس صلاح الكلبى ؟

قال عمر العيار ، وهو يلاحظ الحمرة التى علت وجنتى على الزيبق :

ـ كان على متبوعا هذا الصباح ، وقد شغلته عن ملاحظة تابعة ، كما شغلنى هو عن ملاحظة انه متبوع . وبعد خروجنا من الدكان عدت اليه لاغير من تنكرى ، فرايت عباس الاشول يسال اصحاب الدكاكين حوله عن صاحبه الاصلى ، ومتى باعه ، ولمن باعه ؟ .. وأين يسكن المشترون الجدد ، بل لقد سألنى وانا فى زى السقا عن معلوماتى عن الدكان واصحابه الجدد ، فقلت له انهم من تجار الاقمشة فى الحسين ، اشتروا الدكان لفرع جديد لتجارتهم ، فمضى يسال عن الاسماء التى أعطيتها له ، واسرعت أخلى الدكان من كل ما فيه ، وتركته قاعا صفصفا .

قال على الزيبق فى خجل :

ـ كنت مشغول الفكر ، فقد حيرتنى المصاعب التى قيلت لى عن طريق الحصول على النفيلة .

عاد وجه احمد الدنف الى سابق عهده ، وابتسم وهو يقول :

ـ لا باس ، كلنا نقع فى الخطأ ، المهم ان نتداركه ، والخطأ اساسا هو خطأ عمر العيار ، وقد اصلح الامر ، ولم يعد هناك مانخشاه ..

تنهد حسن شومان وهو يقول :

ـ كنت احسب اننى ساستمتع فترة اطول بدور بائع الاقمشة ، فهو عمل لطيف وهادىء ، ويتيح للانسان الفرصة للتأمل والتفكير ، ومشاهدة الناس .

وأزاحت كلماته الضاحكة شيئا من التوتر الذى كان قد ساد الحديث ، فارتسمت ابتسامات على الوجوه ، وضحك شحادى ابو حطب ، وتأمل على الزيبق الوجوه من حوله ، واحس أنهم قد غفروا له اهماله ، فتمالك نفسه ، وكاد يتكلم حين فتح أحد الأبواب الجانبية المطلة على القاعة الفسيحة ، ودخل رجلان طويلان ملتحيان، يلبسان نفس الملابس الناصعة البياض التى يرتديها الشيخ البتوكى .. الا أن ملامح الشبه بينهما تنتهى عند هذا الحد ، فأحدهما أسمر داكن السمار حتى لتلمع عيناه فى وجهه مع بياض عينيه ، والآخر أشعر شديد الشقرة حتى لتبدو عيناه بلا رموش وقد انتشر غس بنى اللون فوق بشرته .. ووقف الشيخ زكى البتوكى لدخولهما ، فوقف الجميع تحية لهما .. ووضع الأسمر صندوقا كان بيده فوق منضدة قريبة ، ووضع الآخر جهازا عجيبا كان يحمله فوق منضدة أخرى ، واتجه كلاهما نحو الجميع وقد مد كل منهما يده لمصافحة رفاق الشيخ زكى البتوكى الذى قال فى صوت خفى :

ـ هذان هما رفيقاى فى دنيا البحث والمعرفة ، وقد حان الوقت لاترك لهما القاعة ، شغلنى الحديث معكم حتى نسيت موعد انتهاء عملى وبدء عملهما .. هذا الاسمر هو الشيخ ابو بكر من نسل عالم الطب وطبائع الاشياء والصيدلة شيخنا الاكبر ابو بكر بن زكريا الرازى . وهذه الحيوانات التى ترونها هنا تقع فى دائرة عمله ..

واخذ الشيخ أبوبكر يصافح الجميع حتى وصل الى على ، فصافحه وهو يضحك ويقول :

ـ اذن فانت الزيبق ، سمعنا هنا عن ملاعيبك مع دليلة وصلاح الكلبى الكثير ..

واحمر وجه على الزيبق ، ولكنه صمت حياء ، بينما قال الشيخ زكى البتوكى مقدما الرجل الثانى قائلا :

ـ أما هذا الاشقر فهو الشيخ عبد الله بن براهيم بن سنان عالم الحساب والهندسة وحركة الآلات والفلك ، وهو من نسل ابراهيم بن سنان وهو ابن سنان بن ثابت ، وهذا بدوره ابن عالم العلماء فى الحساب والفلك ثابت بن قرة .. وقد ورث كلاهما الفضل والعلم ابا عن جد الى جده الأكبر ..

وصافح الرجل الآخر الواقفين لتحيته واحدا واحدا وهو

يبتسم ، ثم حمل آلته ومضى بها فى صمت الى آخر القاعة ، فقال الشيخ زكى البتوكى وهو يجمع رداءه حول جسده :

نتركهما لعملهما وهيا بنا نخرج من هذا المعمل الى دنيا الله الواسعة ..

وصفق بيديه فظهر فى الحال خادمان من باب آخر غير الباب الذى دخل منه العالمان ، وحمل كل منهما مشعلا واتجها الى باب فى مؤخرة القاعة يتبعهما الشيخ زكى ووراءه المقدم أحمد الدنف ورجاله .. وسار على الزيبق وراءهم وهو مشغول البال بما راى وبما سمع .. طب وعلوم خصائص الاشياء وحساب وحركة الآلات ، وصيدلة وتجارب والرازى وثابت بن قرة .. يذكر أنه سمع بعض هذه الاسماء والاشياء من أحاديث متقطعة مع جده نور الدين .. وكلمات سريعة تسقط فى اذنه لتعبره فى جولته القديمة بين أعمدة الأزهر .. عالم يعمل وحده فى صمت ، وهو فى صمته يحرك العالم كله من حوله .. دنيا من المعرفة تشكل دنيا الحياة التى يحياها دون أن يحس بها ...

وافاق على الزيبق من تأملاته على صوت عمر العيار الذى كان يهمس فى اذنه قائلا :

ـ حذار ، أمامنا سلم سننزله ..

ودهش على الزيبق من انه سينزل مرة أخرى ، حين جاء هذه القاعة نزل سلما من خلف الحمام ، وهاهو يعاود النزول الآن ، ولكنه لاحظ ان الدرج حجرى كانه نقش فى قلب الجبل وكان الخادمان ينيران الطريق فى المقدمة ، ويهتز الضوء مع اهتزاز حركة ايديهما فى النزول . ولكن الدرج كان مريحا وواسعا ، وكان لوقع اقدامهما فوق الدرجات الحجرية صدى يتردد . واحس على الزيبق بازدياد الرطوبة وثقل الجو . ولكن نزولهم لم يطل كثيرا ، فسرعان ما وصلوا الى باحة حجرية مربعة ، تركها حاملا المشاعل ودخلا فى سرداب طويل مظلم ازداد فيه صدى وقع اقدامهما على الارض الحجرية ، وسرعان ما تبعهما الشيخ زكى البتوكى ، وهو يشير الى أحمد الدنف ورجاله لكى يتبعوه .. وكانت أضواء المشاعل تتراقص فوق الجدران الصخرية ، وفوق سقف صخرى يغطى المكان ، وسرعان ما ادرك على الزيبق أنهم يسيرون فى نفق تحت الارض ، وربما تحت جبل صخرى من الجبال التى تحيط بالقاهرة .. وتراقصت اشباح الرجال مع تراقص الأضواء فوق الجدران الصخر ، وجاءهم صوت الشيخ زكى البتوكى الهادى يتحدث

فى صوت خافت ، تتردد أصداؤه فى النفق الحجرى ، قال :
ـ يمتد هذا النفق حتى الدير الغريب فى حضن الجبل ، حفره القساوسة الهاربون بدينهم من عسف الرومان قبل الاسلام بكثير ، واستعملوه فى الهروب من الدير حين يهاجمه جند الرومان ، الذين كانوا يقيمون لهم المذابح بلا حساب .
قال أحمد الدنف :
ـ نحن الآن نتجه الى الدير ؟.
قال الشيخ زكى البتوكى :
ـ نعم ، أما هذا الطرف ، فقد كان هناك خان قديم فى مكان الحمام ، قبل أن يجعل المسلمون من هذا المكان قرافة لموتاهم .. وقام الحمام مكان الخان القديم ، ولم يعرف أحد سر النفق الى ان هربنا بعلمنا من تعقب جواسيس الفرنجة ، وجهل الولاةوغبائهم ، وفساد عمالهم الذين أعماهم ذهب الفرنجة عن واجبهم فى حمايتنا .. ووجدنا عند قساوسة الدير الترحيب والمعاونة ، فهم مثلنا يشتغلون فى هذه العلوم ، ووجدنا فى الدير والنفق وسيلة أمان كاملة ، واستعملنا حجرة السرداب كمعمل سرى حتى لا يطلع على عملنا أحد ..
خف الهواء ورق ، وملأت النفق نسمات ليل ندية ، وبدأت الشعلات تضطرب وتتأرجح فادرك على الزيبق أنهم قد أوشكوا على الوصول الى نهاية النفق ، وسرعان ما تسربت أشعة القمر تملأ المسافة الباقية التى قطعوها مسرعين ، وكأنما يدعوهم نداء الهواء الطلق الى الاسراع نحوه .. واستقبلتهم السماء الصافية بنجومها اللامعة وقمرها المضيء ، وانبعثت حولهم روائح ازهار وورود ، وانساب خرير عذب من نافورة لاحت من بعيد تنعكس على مياهها أشعة القمر الفضية ، وانشرح صدر على الزيبق ، وهو يستنشق الهواء العذب الندى ، بينما قال الشيخ زكى البتوكى
ـ أطفئا المشاعل ، واحضرا المساند للجلسة حول الفسقية ، واكرما الضيوف ، واغلقا المدخل .. واشار بيده نحو الفسقية فتبعه ضيوفه ، وعلى الزيبق يتامل ما حوله .. كان فى حديقة غناء عامرة بأحواض الزهور واشجار الفاكهة ، يعبث النسيم الرقيق بأغصان الشجر واعواد الورود ، فتتمايل حالمة فى ضوء القمر ، وترسل ظلالا شاحبة حولها تهدهد الأعصاب ، وتريح النفس .. وجاء الخادمان يحملان الحشايا فوضعاها فوق أرائك رخامية بنيت حول الفسقية ،وجلس الشيخ زكى البتوكى وجلس

ضيوفه .. واسند على الزيبق راسه الى الحشية اللينة واحس بالخدر يتسلل اليه . هنا سكينة وراحة وتأمل .. لا صراعات ولا معارك ولا مؤامرات .. وجاءه صوت مضيفهم الشيخ يقول :
حجراتكم تطل كلها على هذه الحديقة ، وبعد ان نسمر قليلا سياخذكم الخدم كل الى حجرته ، وسيجد فيها كل وسائل الراحة ، وماليس موجودا يطلبه وسنحضره له فى الحال .
ضحك احمد الدنف وقال :
ـ سبحان الله ، ندخل من القبور لنخرج الى الجنة ..
وقال حسن شومان :
ـ والقساوسة ، الن يضايقهم وجودنا ؟
قال الشيخ زكى :
ـ هم فى حالهم ، ونحن فى حالنا ، ولن تشاهدوا واحدا منهم طوال اقامتكم معنا ، فنحن وهم نتعاون فى العلم ، هم يترجمون من لغات يعرفونها ، ونحن نترجم من لغات نعرفها ، ونشترك معا فى حل معضلات المعرفة ، اما مابعد هذا فكل منا فى حاله .. فالعلم عبادة فى ذاته ، فنحن من خلاله نعرف قدرة الله ، وتكتشف عظمة الخالق ..
قال شحادى ابو حطب :
ـ عرفنا شيوخ صاحبيك فى قاعة البحث ، ولكن من شيخك يامولانا ان لم يكن سؤالى فضولا ؟
قال الشيخ زكى البتوكى وهو يمسح على لحيته :
ـ فى العلم يابنى يتلقى التلميذ عن استاذه الذى غالبا ما يكون اباه ، ولهذا فللعلم بيوت مشهورة تتوارث ، من جيل الى جيل ، وانا من نسل اخميم الطالب الحكيم المصرى القديم ، اخذت المعرفة عن ابى الذى اخذها عن ابيه وهكذا حتى أخميم ، اما اخميم الطالب نفسه فهو من نسل هرمس اشهر من عرفنا من علماء الدنيا ، عنه ، اخذ علماء الاسكندرية ، وعلماء الاغريق والرومان ، عنهم نقلنا علمه وترجمناه .. وعلماء المسلمين اليوم يعرفون هرمس وفضله ، ويقولون والله اعلم انه بنى الهرم الذى عرف باسمه وخبأ فيه كنوز معرفة الاولين ، التى نعيد التعرف على اجزاء منها هى قطرة فى بحر ، وحبة فى كومة ..
كانت كلمات الشيخ زكى تاتى وكانها صادرة من مكان بعيد ، فقد فعل الهواء وضوء القمر والجلسة المسترخية جميعا فعلهم فيه ، وكان يفتح عينيه بصعوبة بالغة ، وانتبه على الخادمين يحملان

اكواب الشراب المعطرة والثمر والفاكهة .. واحس بالعطش فمد يده الى كوب شراب فوجده مثلجا تفوح منه رائحة الورد ، وحين ذاق الشراب الحلو اختلطت فى فمه وانفه ، طعوم البرتقال برائحة الورد .. وسمع من بعيد صوت المقدم أحمد الدنف وهو يقول :

ـ أوشك على ان ينام وهو جالس .. هيا بنا الى غرفتنا بعد اذن مولانا الشيخ .

كان المقدم صلاح الكلبى يصرخ فى غضب ، وقد تملكه خوف حقيقى لم يستطع أن يخفيه :

ـ لا فائدة ، ضاع كتاب الشفرة .. سرق ـ هناك من دخل هنا ، الى القاعة السرية أسفل بيت بير جوان ، داخل البير المستور المخفى بمهارة الشياطين .. وجاس فى كل ما بالقاعة وفتش كل شىء ، وعثر على كتاب الشفرة ، وسرقه ..

وكان المقدم عثمان مندهشا من علامات الخوف المرتسمة على وجه المقدم صلاح ، فما هذا الكتاب وماذا يعنى أن يضيع او لا يضيع ، وماذا فى أن لصوصا تسربوا الى الطابق المخفى ، وحاول ان يهدىء من ثائرة مقدمه ، فقال له :

ـ البيت مهجور ، والزقاق كله ليس فيه أحد ، ومن السهل ان يدخل لص الى البيت ، وأن يفتشه بحثا عن الأشياء الثمينة فيعثر على الطابق و ..

ولم يدعه المقدم صلاح الكلبى يمضى فى حديثه ، بل قاطعه قائلا :

ـ ويترك كل هذه التحف الثمينة ولا يسرق سوى كتاب الشفرة .

قال المقدم عثمان مجادلا :

ـ سرق كتابا ، لصوص آخر زمن ، أيترك كل هذه التحف التى تملأ القاعة ويسرق كتابا ؟

صاح المقدم صلاح الكلبى فى حنق :

ـ وهذا الكتاب أثمن من كل ما فى القاعة من تحف لمن يعرف كيف يستخدمه ، ولا اشك أن من سرقه جاء من أجله خصيصا .. هذه مصيبة كبرى وحلت علينا ، كنت اظن أن أمرنا مستور ولكن هذه السرقة أوضحت الحقيقة امام عينى .

بيرجوان لا يسرقون الا كتاب الشفرة هنا صاح المقدم صلاح الكلبى :

ـ تماما . انت فهمت اذن ..

فغر المقدم عثمان فاه فى بلاهة ، وهو يقول :

ـ فهمت .. ماذا فهمت ؟

قال المقدم صلاح الكلبى :

ـ قد يستطيع من سرق الرسائل أن يفهم سر مافى واحدة منها ، ولكنه سيعجز عن فهم الأخريات ، ولكن لو كان معه كتاب الشفرة لفهم كل أسرار ما فى الرسائل ، ولعرف كيف يحل رموزها السرية كلها .

أطبق المقدم عثمان فمه فجأة ، وقد بدا الخوف يتسلل اليه لأول مرة ، وقال :

ـ انها اذن الرسائل التى تأتينا من الخارج ، أعنى من ..

صاح المقدم صلاح الكلبى :

ـ كفى ، اياك أن تنطق باسماء هنا ، أو فى أى مكان ، فمن يدرى ، لعل للجدران أذانا ..

قال المقدم عثمان وخوفه يزداد :

ـ ولن يسرق احد الرسائل ، وكتاب الشفرة الا رجال الخليفة . ومعنى هذا ان هناك شكا بدأ يحوم حولنا ، ومعناه اننا لم نعد نتمتع بالثقة المطلقة التى كانت ممنوحة لنا وكانت تتيح لنا حرية الحركة ، والتصرف فى تنفيذ ما يطلب منا .

قال المقدم صلاح الكلبى :

ـ الشك لا يضايقنى ، ولكن ان يصبح الشك يقينا هو ما يرعبنى ، فسيجعل حياتنا فى خطر ..

قال المقدم عثمان :

ويوقف سيل الذهب الذى كان يتدفق علينا .

صاح المقدم صلاح الكلبى :

ـ كفى ، انت تجعل كل شىء يبدو فى غير صورته ـ نحن نخدم بلادنا بطريقتنا ، وان كان الخليفة يرى مصلحة البلاد فى الحرب ، فنحن نراها فى انهاء هذه الحرب ، وخلق التفاهم والمودة بيننا وبين كل الناس بمن فيهم الفرنجة .. فنحن نعمل لصالح البلاد ، نعم ، لا تنسى هذا ابدا نحن نعمل من اجل خير الناس ، وخير المسلمين .

ضحك المقدم عثمان وهو يقول :

ـ ليس المهم أن انسى او لا انسى ، المهم أن يصدق رجال الخليفة هذا ..

قال المقدم صلاح الكلبى :

ـ لابد من استرداد هذه الرسائل وكذلك كتاب الشفرة بأى ثمن ، هيا بنا الى القاعة لأرتب الرجال ليحاصروا كل منافذ القاهرة ، ولن يخرج أحد الا اذا فتشناه .. ولنحاول أن نحصر الغرباء فى المدينة ونداهمهم ونفتشهم ..

قال المقدم عثمان :

ـ سيثير هذا ثائرة الناس ، الا يحسن أن نستأذن السلطان .

قال المقدم صلاح الكلبى :

ـ ما لا يعرفه السلطان لا يقلقه ، وهذه أمور امن ، وهو يترك لنا هذه الأمور ولا يحاول أن يعرف ما نفعل لا يشترك معنا بضميره فى المسئولية .

اغلق المقدم صلاح الكلبى باب القاعة السرية ، وصعد مع المقدم عثمان الى الطابق العلوى فى بيت بيرجوان ، وقال والمقدم عثمان يتبعه الى الساحة الخارجية للدار :

ـ منذ سافر عم شندى الى بلدهم ليحضر جنازة ابيه ، ولا امان لهذه الدار .

قال المقدم عثمان :

ـ نعين أحد الرجال ليحرس الدار حتى يعود .

قال المقدم صلاح وهو يدلف الى خارج الدار ووراءه المقدم عثمان :

ـ لا احد يعرف سر هذه الدار ، او حتى مكانها ألا انت وعباس الاشول وعم شندى الذى ينظفها ويحرسها ، ويعتنى بأمر من نخبئهم فيها من ضيوفنا الاغراب .

وأغلق المقدم صلاح الكلبى الباب الخارجى للدار بالمفتاح ، ثم وضع على الباب قفلا ثقيلا ، ومضى مسرعا والى جواره المقدم عثمان يغادران الزقاق المظلم فى صمت ، قطعه المقدم عثمان عند وصولهما الى اول الشارع الساكن المظلم قائلا :

ـ صدقت يا مقدم لابد من استعادة الرسائل وكتاب الشفرة .

ضحك المقدم صلاح الكلبى ضحكة خشنة وهو يقول :

ـ الآن ادركت ما أعنى .

ثم صمت وهو يغذ السير والى جواره المقدم عثمان ، وفجأة وقف وضرب الأرض بقدمه وهو يقول :

ـ قلبى يحدثنى ان للزيبق يدا بطريقة او باخرى فى هذا الامر ..

ولم يجبه المقدم عثمان ، بل سارع من خطواته لتوافق خطوات المقدم صلاح الكلبى المهرولة الذى بدا أنه يستعجل الوصول الى قاعة الزعر ، ومضيا يقطعان الطرقات فى سرعة متزايدة حتى وصلا الى قاعة الزعر فأدهشهما ان وجداها تموج بالرجال وقد أشعلت المصابيح واضيئت المشاعل فى الباحة الخارجية للدار . ولكن دهشتهما لم تطل حين وجدا المقدم عباس الأشول يقف وسط القاعة وهو يصدر أوامره بصوت حازم الى الرجال المتحلقين حوله :

وصمت المقدم عباس الأشول حين راى المقدم صلاح الكلبى ، وأفسح له الرجال طريقا وسطهم حتى وصل هو والمقدم عثمان الى حيث يقف المقدم عباس الأشول وقد بدت عليه علامات الانفعال والقلق ، وبادره المقدم صلاح الكلبى سائلا :

ـ ماذا حدث . ؟ ولماذا استدعيت كل هؤلاء الرجال ؟ وماذا تريد منهم فى هذه الساعة من الليل ؟ قال المقدم عباس الأشول وفى صوته حدة وقلق :

ـ الدكان يامقدم ، خالية على عروشها ، لا اقمشة ولا اثاث ولا حتى قشة واحدة ، ومن كانوا فيها هربوا ، استاجروها ودفعوا الايجار ولم يمضوا فيها سوى ثلاثة أيام ، ثم انشقت الأرض وابتلعتهم .. صاح المقدم عثمان فى انفعال :

ـ صدق حدسك يامقدم صلاح ، الزيبق كان آخر من راى من فيها .

قال صلاح الكلبى :

ـ هم .. ليس غيرهم من سرق الرسائل و .. والأشياء الأخرى . والزيبق على صله بهم ..

ثم صاح يصدر اوامره فى صوت حازم :

ـ يا عباس اغلق منافذ المدينة كلها ، وليفتش كل من يخرج منها بحثا عن الرسائل المسروقة من هذه القاعة . وانت يا مقدم عثمان خذ بعض الرجال واذهب احضر الزيبق فى الحال .

قال المقدم عثمان :

ـ احضره .. من اين ؟

صاح المقدم صلاح الكلبى فى صبر نافد :

ـ من بيته ، ومن فراشه ، من اى مكان احضره والسلام .
قال المقدم عثمان فى صوت متردد :
ـ ولكن السلطان اعطاه منديل الامان يامقدم .
صاح به المقدم صلاح الكلبى :
ـ السلطان نائم .. وانا اريد على الزيبق لانه مفتاحى الوحيد الى سرقة الرسائل ، اذهب ولا تعد الا بالزيبق مكبلا بالحديد .

- ١١ -

بالعلم نستعد

قال الشبح المتسربل بالظلام فى صوت هامس :

ـ افهمت يافاطمة ، هو قد رحل بعد العشاء ليحضر النفيلة ، والاقمشة انت طلبتها منه لتحل محل الاقمشة التى اعطيتهـــا لزينب .

همست فاطمة فى ثبات :

ـ فهمت يامقدم عمر ، تعال معى الى حجـرته لتاخذ كـل ملابسه وحاجاته حتى لا يجدوها حين يفتشون الدار .

وبسرعة قادت فاطمة ام على الزيبق المقدم عمر العيـــار الى حجرة الزيبق وهى تحمل مصباحا مضاء ، وقالت وهى تضـعه على منضدة صغيرة فى وسط الغرفة ، وتخـرج ملابس الزيبق وحاجياته وتضعها بعناية فى خرج كبير :

ـ ومتى سيرحل من القاهرة يامقدم عمر ؟

قال عمر العيار :

ـ بعد أسبوع من الآن ، ولكن لا تقلقى ، هو معنا فى امان .

قالت :

ـ كنت احب ان اراه قبل ان يرحل .

قال عمر العيار وهو يساعدها فى ربط الخرج وحزمه :

ـ لن تتاح لك الفرصة اذا كنت تحبين له النجاة ، فقد اطلق صلاح الكلبى كلابه المسعورة بحثا عنه وعنا ، واى خطأ منا هو فرصة لصالحه ..

قالت فاطمة وهى تنتهى من ربط الخرج :

ـ اذن ساراه على الطريق وبطريقتى الخاصة ..

ضحك عمر العيار وهو يحمل الخرج على كتفه متاهبـــا للخروج ، وقال :

ـ احمد بن البنى من جديد ..

قالت فاطمة فى حزم :

ـ ان احتاج على الى احمد بن البنى ، فهـو حاضر بسـيفه وفرسه ووجوده نفسه .

لم يملك العيار نفسه الا ان ضحك وهو يقول :
ـ الامر لا يحتاج الى كل هذا ..
اسكتته فاطمة باشارة من يدها ، وقالت :
ـ انا آمن عليه معكم .. هذا حقيقى ، ولكنى ـ لن أنام ـ انا يقظة عليه ما وسعنى الجهد ، وما وسعتنى الطاقة .. وكلكم شىء ، وانا وحدى ـ أمه ـ شىء آخر ..
ماتت الضحكة فى حلق عمر العيار ، واحس بالخجل يملأ وجوده ، فقال مطرقا :
ـ ماقصدت هذا ، ولكنى اعنى أننا سنحافظ عليه قدر طاقتنا ..
فجأة قطع حديثها طرق عنيف على باب المنزل الخارجى ، قالت فاطمة فى توفز :
ـ انهم هم ـ جاءوا قبل الموعد الذى توقعناه ..
همس عمر العيار وهو يتجه الى خارج الغرفة حاملا خرج على الزيبق على ظهره :
ـ بل هم فى الميعاد ..
وكما دخل من السطح ، خرج أيضا من السطح ، كان سلم الحبال فى مكانه حيث تركه ، فعدل وضع الخرج على كتفيه ، واخذ يرتقيه ، وهو يسمع وقع أقدام فاطمة وهى تتجه نحو باب المنزل ..
ولم تكن فاطمة تخشى ان يحس القادمون بعمر العيار ، فهى تعرف مهارته وقدرته على أن يتحول الى شبح لا يرى حين يريد ، بل كانت خشيتها من هؤلاء القادمين الذين لم يراعوا حرمة المنزل ولا توغل الليل ، ففتحت الباب وهى تقول فى غضب :
ـ من الذى يطرق الباب بمثل هذا العنف ، وفى مثل هذه الساعة ؟
وتدافع الرجال الى الداخل وقد شهروا سيوفهم وعيونهم تتلفت حولهم فى ترقب واستعداد ، وقال المقدم عثمان :
ـ أين هو ، اين غرفته ؟ ..
رفعت فاطمة يدها محذرة وهى تقول فى تهديد واضح :
ـ لا يتحرك واحد من مكانه ، واخبرنى ياهذا من تريدون : ؟
ذهل المقدم عثمان لثباتها ورباطة جاشها ، وقال فى تردد :
ـ أنا من الاصل لم ارحب بهذه المهمة .. اين على الزيبق ؟
قالت فاطمة :

ـ على انتم ارسلتوه الى حتفه ، الم تطلبوا منـــه النفيلة من المدينة المرصودة ، ماذا تريدون اكثر من هذا ؟

قال عثمان وهو يتنهد فى ارتياح :

هل تقصدين انه سافر . ترك البلاد وغادرها .

قالت فاطمة بنفس الهدوء :

ـ تركنا بعد صلاة العشاء حاملا ملابسه وحاجياته رغم كل توسلاتى له أن يترك أمر النفيلة وشانه ، فهـــذا شرك اعددتموه له ..

قالَ المقدم عثمان :

ـ لا علم لى بكل هذا ، انما اوامرى ان احضر على الزيبق .

قالت فاطمة فى حدة :

ـ لماذا تريدونه ، لقد حصل على منديل الامان ، ولم يعد لصلاح الكلبى عليه سلطان .

قال المقدم عثمان وهو يتلفت حوله :

ـ لا نريد به شرا ، انما يريد المقدم صلاح ان يساله ســؤالا او سؤالين .

قالت فاطمة فى سخرية :

ـ فى وسط الليل ؟

قال المقدم عثمان فى حزم :

ـ مادام قد سافر فقد وفر على المشقة ، ووفر على نفســـه الكثير ، فدعينا نفتش البيت وننظر فى غرفته لنؤدى المهمـــة فى سلام ، ولن يضار احد .

ضحكت فاطمة فى سخرية ، وهى تتنحى عن مكانها أمامه ، وقالت وهى تشير بيديها الى ارجاء المنزل :

ـ البيت امامكم ففتشوه ، وليس معى الا الخدم ، فلا تخشوا شيئا ..

وتجاهل المقدم عثمان سخريتها ، واشار بيده الى الرجـــال الذين اندفعوا يجوسون خلال غرف البيت ، ويفتشون كل القاعات بدقة وعناية ، بينما قالَ لها :

ـ اصحبينى الى غرفته افتشها بنفسى :

ودون أن ترد على حديثه اتجهت فاطمة فى ثبات الى غـــرفة الزيبق ، وفتحت الباب ، وتنحت له ليدخل ، ولاحظت ان وجهه قد شحب قليلا وهو يتحسس مقبض سيفه ويسبقها الى داخـــل الغرفة ، ثم لاحظت حركاته الحذرة وهو يدخل بسرعة ويلتصـــق

بالجدار ويجول بعينيه فى ارجاء الغرفة ، فابتسمت ساخرة ، وقالت :

ــ قلت لك الحجرة خالية ، وعلى قد سافر منذ الامس ، فهل انت تخاف من شبح على ..

تمتم المقدم عثمان بغضب هز شواربه الكثة ، وتقدم نحو دولاب الملابس يفتحه ويفتش فيه ، وقال :

ــ لا اجد من ملابسه شيئا ، حتى الملابس الداخلية .. هل اخذ كل شيء معه ، أم انت اخفيت كل الملابس عن عمد .. ؟

والجمته نظرتها ، فعض على نواجذه فى غبظ وقد ادرك ان كلامه لا معنى له ، وأنه يشي باضطرابه وقلقه ، بل وربما يشي بخوفه .. وكان يعرف أنه يخاف حقيقة ، يخاف من الزيبق وملاعيبه التى جعلت منه ومن مقدمه صلاح الكلبى أضحوكة مصر كلها ، كما كان يخاف من الأمر كله ، فالسلطان قد اعطى على الزيبق الامان ، والخروج عن طاعة السلطان حتى بامر صلاح الكلبى شيء له عواقبه الوخيمة ، كما ان مسالة سرقة الرسائل وكتاب الشفرة ، واقتحام قاعة الزعر ، وسرقة بيت بيرجوان ، وحكاية دكان الاقمشة الذى لم يعد دكان أقمشة ، وتبخر من استاجروه ، كلها مسائل تثير الخوف . وفى حنق شديد دفع مقعدا كان يعترض طريقه ، وهو يخرج من الحجرة مسرعا ويقول :

ــ لو كان قد سافر قبل صلاة العشاء فقد افلت من الحصار .

وأحس انه اخطأ للمرة الثانية ، فنظر اليها وفى عينيه توسل ، ولكنها نظرت اليه بحدة وقالت :

ــ حصار ، أى حصار تعنى ..؟

هز كتفيه ومضى مهرولا وهو يشير الى رجاله ليتبعوه ، وكأنما يخشى أن تبقيه لتعرف السر الذى كشفته زلة لسانه ، ومضى يخرج من باب الدار وهو يلعن فى سره اللحظة التى ارغمه فيها المقدم صلاح الكلبى على القدوم الى هذه الدار . نائب مقدم الدرك ، أو حتى مقدم الدرك ذاته ، هو لا يحب أن يواجه هذه المراة ابدا .. فهو يحس انها تسخر منه بنظراتها التى تعريه وتكشف صغار نفسه .. واغلقت فاطمة الباب وراءهم ، وقد امتلأت ملامح وجهها بالقلق .. فما معنى هذا الحصار ، وهل يريد صلاح الكلبى القبض على الزيبق حتى قبل ان يبدأ رحلته ، وظلت تفكر لحظات ، ثم انسحبت ملامح القلق تدريجيا من وجهها ليحل محلها عزم وتصميم ، ففى الغد لابد ان تسأل السلطان هل هو

يعرف ان منديل الأمان الذى اعطاه لعلى الزيبق لا قيمة له .. وهل يعلم بامر هذا الحصار .. ومضت بخطو وئيد الى حجرتها لتدخل فراشها فى ليلة مسهدة لا تعرف النوم ..

عندما فتح على الزيبق عينيه اغشاهما ضوء الصباح الوهاج ، فهب من نومه مذعورا وهو يحس بالخجل لأنه ترك نفسه للنوم حتى غلبت أشعة الشمس الكون كله وغمرته .. ونظر حوله وهو يطرد النوم من عينيه ، كانت نفس الحجرة الصغيرة التى أوى اليها امس وقد غلبه النوم حتى لم يعد يفهم ما يدور حوله من حديث الا انه كان يحس أن هناك شيئا قد تغير فيها .. ولم تطل حيرته اذ سرعان ماشاهد ملابسه كلها مكومة فوق مقعد مستطيل ، فمضى اليها يقلبها ويتأمل فيها ، كانت ملابسه هو لا شك ، تلك الملابس التى تركها فى الدار امس ، كيف جاءت الى هنا ومتى ، ومن الذى احضرها ، ولماذا جيء بها الى هذا المكان .. هل هى امه استشعرت خطرا يهدده فجاءت بملابسه هنا حتى لا يعود الى الدار ويتعرض لهذا الخطر الذى طرأ فجاة .. ولكنه تذكر ان امه لا تعرف هذا المكان ، وما تعرفه عن وجهته لن يوصلها الا الى اول القرافة ، ثم ينقطع الأثر تماما . وهز راسه فى حيرة ، ثم ترك التفكير فى الأمر كله ومضى يغتسل ويغير ملابسه فى سرعة ، ثم يفتح الباب الزجاجى الذى كان يتوهج بنور الصباح لتطالعه حديقة الأمس بجمالها ورقتها وهوائها المعطر برائحة الزهور .. ومد ساعديه يستنشق الهواء النقى المعطر ويحتويه فى رئتيه فى استبشار وسعادة واقبال على الحياة .. وامامه عند النافورة كان الشيخ زكى البتوكى يجلس تحت مظلة تقيه لفح الشمس ، وفى يده كتاب كبير ، وقد استغرق فى القراءة ونسى كل ما حوله من جمال وتفتح وحياة .. وتقدم على الزيبق نحوه على استحياء ، فأحس الشيخ بوقع اقدامه ، فرفع راسه ينظر اليه بعينيه النفاذتين ، وتنهد واغلق الكتاب ، واشار اليه ليجلس الى جواره ، وهو يقول :
ــ فكرت أن اوقظك قبل هذا ، ولكنى آثرت ان اتركك تنعم بنومك وراحتك ..
جلس على الزيبق الى جوار الشيخ زكى البتوكى ، وهو يتلفت حوله ويقول :
ــ واين الآخرون ؟
قال الشيخ زكى وهو يبتسم ابتسامة غامضة :
ــ بعضهم عاد منذ قليل ، ودخل حجرته ليحظى ببعض

النوم . والبعض الآخر ذهبوا يعدون العدة اللازمة لتنفيذ البرنامج الذى اتفقنا عليه لاكمال استعدادك لرحلتك ..

رفع على الزيبق راسه فى حدة ، وقال وهو ينظر الى الشيخ زكى :

ـ بعضهم عاد منذ قليل ، هل بعضهم هذا هو من احضر ملابسى من المنزل ؟

ضحك الشيخ زكى ، وعبث بيده فى لحيته ، وقال :

ـ ذكاؤك الحاد سيجنبك الكثير من المزالق ياعلى ..

قال على رافضا ان ينصرف الشيخ عن الاجابة عن سؤاله :

ـ أيهم الذى جاء بالملابس ، ولماذا ؟ وهل أصاب امى مكروه ..

قبل أن يجيب الشيخ زكى البتوكى على أسئلة على الزيبق المتلاحقة .. جاءه صوت هادىء من خلفه يقول :

ـ لقد جئت أنا بملابسك وحاجياتك ، والسيدة فاطمة بخير ، وكانت تود ان تأتى معى لتراك ولكننى آثرت أن لا نخاطر بشىء ..

التفت على وراءه فوجد المقدم عمر العيار مبتسما ، فابتسم لابتسامته ، وقال :

ـ كنت احسبك نائما مثلى ..

قال عمر العيار وهو يأخذ مجلسه الى جوارهما :

ـ لم ينم أحد منا الليلة الفائتة ، فقد كانت ليلة حافلة ، اكتشف فيها صلاح الكلبى أننا فى القاهرة ، ولو أنه لم يعرف وجودنا بالذات ، ولكنه اكتشف وجود أيد تعبث به ، واكتشف ملاقاتك بدكان الاقمشة فى الكحكيين ، وجن جنونه ، فأصدر أمرا بالقبض عليك ، كما فرض حصارا كاملا على مداخل القاهرة ومخارجها .

قال على الزيبق فى دهشة :

ـ كل هذا وانا نائم .

ضحك الشيخ زكى البتوكى ضحكته الهادئة ، وقال :

ـ كم يحدث من أحداث ونحن فى غفلة عنها ، اما لاننا نائمون ، واما لاننا صاحون ، كالنائمين ..

شارك عمر العيار الشيخ زكى ضحكه ، وقال :

ـ هذا نفس راى المقدم صلاح الكلبى ، فقد ادرك انه صاح كالنائم ، وهذا هو الذى استفزه ، ودفعه الى اجراءات خرقاء تثير حوله الشك .

قال صوت وقور عريض :

ـ بل هو يؤكد الشك القديم الذى ثار فى نفوسنا ناحيته .
والتفت على خلفه وهو يحس بالضيق ، وراى ما توقع أن يراه، المقدم احمد الدنف ومعه حسن شومان وشحادى ابو حطب ينظرون اليهم فى هدوء وهم يبتسمون ، فقال فى اندفاع :
ـ اليس لاقدامكم وقع على الأرض ؟
ضحك أحمد الدنف ، وهو يشير بيده لاصحابه لياخذوا اماكنهم مع الجالسين ، وقال :
ـ اتريد أن تكون وحدك الذى لا وقع لاقدامه على الارض ، الم يسمك الجميع الزيبق لانه لا وقع لاقدامك ، ولا ظل لجسدك، مهارتك هذه بعض من مهارات نتعلمها كلنا فى البدء . وقد آن الاوان لان نبدأ فى تعليمك المهارات الاخرى .
قال عمر العيار كأنما يستأنف كلام أحمد الدنف السابق :
ـ اتشك بانه يميل للفرنجة ... أهذا ما تعنيه ؟
قال احمد الدنف :
ـ لم يعد الأمر شكا ، بل غدا يقينا ، فالرسائل التى اخذناها من قاعة الزعر مكتوبة بالشفرة المعقدة ، وقد استطعنا حلها كلها عن طريق كتاب الشفرة الذى أخذناه من بيت بيرجوان
قال شحادى ابو حطب متدخلا فى الحديث لأول مرة :
ـ وهى صلة قديمة جدا ، بل اظنه ما حاز مكانه الا بمؤامرة الفرنج وعملائهم وعلى راسهم دليلة ، وأعوانها فى القاهرة .
قال على الزيبق فى دهشة :
ـ ودليلة هى الأخرى عميلة للفرنج ؟
ضحك حسن شومان ضحكة خشنة وهو يقول :
ـ هذه لا شبهة فى أمرها ، فهى تلعب لعبة كبيرة ستودى بها كما اودت بغيرها من الخونة ..
واستأنف احمد الدنف حديثه قائلا :
ـ لقد ورثت الحقد على الاسلام والمسلمين من قومها المجوس، فهى رغم اسلامها لا تنسى امجاد قومها التى قوضها الاسلام ليبنى مكانها صرح التسامح والحب .. فى نفوس ورثت احقادا تفرز الصديد والعلقم داخل قلوب مريضة فيخون أصحابها كل عهد ، وكل معنى اسلامى حر ... مهما طال الزمن ، وتقادمت الايام وهؤلاء لا يجدون باسا ان يتحالفوا مع أعداء الدين من الفرنجة الطامعين فى أرضنا وعرضنا وثرواتنا .
وسكت أحمد الدنف ، فساد صمت عميق ، كأنما كلماته ـ

خلال هذا الصمت ـ تحفر لها طريقا فى النفوس التى استمعت اليها .. ووجمت لهولها وبشاعتها .. وسعل الشيخ زكى البتوكى ، وقال :

ـ نحن نحس هذا الخطر من زمن ، ولذا نخفى ابحاثنا عن كل العيون ، ولا نرسلها الا معكم الى الخليفة فى بغداد لتحفظ وتحرس فى خزانة الحكمة ، ولا يطلع عليها الا اهل العلم والصناعة الذين يثق فيهم الخليفة ، ليحولوها من مجرد ابحاث علمية الى آلات تخدم الحياة وتحفظ الوطن وانسان الوطن .

قال أحمد الدنف :

ـ فى خلال هذا الاسبوع اعد كل ما تريد أرساله ، وساوصله بنفسى الى خزانة الحكمة .

وقال حسن شومان :

ـ هذه الرسائل اشارت الى عملاء فى جهات من ارض مصر ، احب أن تسمح لنا أن نكشف أمرهم بأنفسنا ، فقد يكونون مخدوعين بوعود زائفة او كلمات براقة ، ونستطيع بالاقناع أن نعيدهم الى جادة الصواب .

قال أحمد الدنف :

ـ فى الليل نتدارس كل ما تجمع عندنا من معلومات ، ويقصد احدكم الى النوبة ، والثانى الى الصعيد والثالث الى الدلتا فى نهاية الأسبوع .

قال على الزيبق مندفعا :

ـ ولماذا التأجيل لمدة اسبوع ، لا احب أن اكون سببا لتعطيلكم عن مهامكم ..

ضحك أحمد الدنف وهو يقول :

ـ تأهيلك لمهمتك الآن هو الشيء الأهم ، أما الباقى فهو عملنا المعتاد ، ونحن نحتاج هذه المهلة لتدارس الأمر ..

ظل على الزيبق فى اندفاعه قائلا :

ـ ولكنى جاهز من الآن .

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ لن تهرب من التعلم ابداً ، ففى عملنا الموهبة والذكاء وحدهما ليسا كافيين .

قال على الزيبق :

ـ لماذا سأتعلم ؟

ضحك أحمد الدنف وهو يقول :

- ستبدأ كل صباح معى تتعلم الفروسية والسلاح ، خدع الحرب والقتال راكبا وراجلا ، بالحربة والسيف والخنجر والسهام والدبوس .. ثم تبدأ دروسك مع شحادى ابو حطب فى فنـــون المصارعة والملاكمة والنزال رجلا لرجل ورجلا لعدة رجـــال ، وليست المصارعة التى تتعلمها هى مصارعة الرميلة وقرة ميدان ، بل ستتعلم كل ما تفننت فيه الشعوب من ضروب العراك باستعمال المعرفة بمراكز الاعصاب ومواطن الضعف ، والمقاتل فى جســد الانسان . ثم نتركك الشيخ زكى ورجاله وهؤلاء سيتولون تعليمك العلم والحساب والفلك بحيث توظفهم فى حياتك ومهمتك ، كيف تهتدى بالنجوم فى الصحراء ، وكيف تعرف الشرق من الغرب ، وكيف تستولد النار الحارقة ، والعبوات الناسفة والابخرة التى تشكل الحركة وتخدر الجموع الحاشدة ، كيف تستخرج طعامك من الجماد ، وكيف تفرق بين ماهو سام وماهو غير سام من انواع النبات والحيوان ... دنيا من المعرفة لابد لك منها كانسان من ناحية ، وكمقدم من مشاديدى من ناحية أخرى .

قال على الزيبق فى ذهول :

- كل هذا فى سبعة ايام .

استانف احمد الدنف حديثه قائلا :

- اهم ما طلبت أن يعلمك اياه هو فنون الآلة ، واسرار الحركة ، والمعرفة العلمية التى تتحكم فى الاشياء كظواهر طبيعية وآلات من صنع الانسان يحرس بها اسراره ، ويبعد بها الفضوليين عن كنوزه ، ويصنع بها آلات المعرفة والحكمة ، وآلات الدمار والحرب ، والمدينة المرصودة ، والشخص النحاسى ، والسيوف المتحركة فى الجـزيرة المعزولة .

قال الشيخ زكى البتوكى بصوته الوقور ونبراته الهادئة :

- ومن يعرف ماذا ستلقى فى طريقك مما صـــنع بالحكمة ، واستغلت فيه المعرفة من فخاخ واخطار تحتاج منك أن تتســلح بما ينير لك طريقك لتجاوزها ، والافلات منها ..

قال على الزيبق فى سذاجة :

- تعلمت ان ادخل على كل خطر بقلب جســور ، والصرف بذكائى ، وفهمى ، وبكل ماعندى من امور العياقة والشـــطارة فاذا كل خطر يزول ، وتختفى حتى الشياطين من امامى ..

ضحك الشيخ زكى البتوكى ضحكته الهادئة ، وقال فى تأن :

- القلب الجسور مطلوب يابنى فى كل حين ، ولكن الذكاء والفهلوة

والشطارة لا تصلح امام العلم ولا امام ما صنع بالعلم والمعرفة ...
العلم لا يغلبه الا العلم .. وقد آن لك ان تتسلح به الى جوار
الشطارة والعياقة ، فعدونا قد بدا يستعمله ويسبقنا وكنا السابقين .
ضحك عمر العيار وقال :
ـ هل تهرب من التعلم ياعلى .. ؟
قال على وهو يطرق :
ـ بل أنا مبهور بما أسمع .. وساكون تلميذاً مطيعا .
قال احمد الدنف :
ـ وبعد العلم يأتى دور الشطارة والعياقة ، فبعد الظهر
يعلمك حسن شومان فنون تسلق الجدران ، وفتح ما يستعصى
من اقفال ، والقفز من مكان الى مكان ، وخفة الحركة واليد ،
وحدة الملاحظة ، وسرعة التصرف ، اما فى الغروب فمعلمك هو عمر
العيار ، ليعلمك فنون التنكر ، واستعمال الشعر والادهان والاصباغ ،
ويعلمك تقليد الأصوات باتقان ، وكيفية التحكم فى عواطفك لتلبس
لكل شخصية تقلدها لبوسها .
ضحك الشيخ زكى البتوكى وهو يقول !
ـ البرنامج حافل يابنى ، وسنبدأ الآن بعد أن نتناول افطارنا
ولاسبوع كامل .
وصفق الشيخ زكى البتوكى ، فظهر خدم الامس من جانب
من الحديقة ، فأشار اليهم بيده ، وسرعان ما امتدت امام الجميع
مائدة افطار شهية ، تذكر على الزيبق حين رآها انه جائع ، فنسى
هموم اليوم ، والعناء الذى ينتظره خلال اسبوع كامل ، وانقض
على الطعام فى رغبة واشتهاء .

- ١٢ -

رياح الخوف

كان جائعا جدا وكانه لم ياكل منذ زمن طويل ، واخـذ يصفق بيده فى الحاح حتى يأتى الخدم بالطعام ، وكان يريد لحما دسما قد تم شواؤه ونضجه وتنزت دهونه حوله ، وحول اللحم ارز بالمكسرات، تفوح منه رائحة التوابل والافاويه ، وكان فى البستان ، حوله أشجار ضخمة ، ولكن الزمن كان غريبا ، فهو ليل مغبش بضوء شاحب ، اهو الغروب ، أم هو الشروق ، ام أن البستان يتسرب اليه ضوء مشاعل من ردهة بعيدة ، وعاد يصفق من جديد ، فظهرت الجارية من خلف الشجرة ، واختفت الشجرة ، هل الجارية هى الشجرة ، أم الشجرة هى الجارية ، كانت حلوة ، قدها مياس ، وشعرها طويل أسود كث ، واقتربت منه وهى تبتسم ، وأشار اليها بيده فوقفت مكانها وهى تنظر اليه ، وكان فى نظرتها شىء يبعث القشعريرة فى الجسد ، كانها جائعة ، وكانها تريد أن تأكل ، وعاد يشير اليها بيده من جديد ، فابتسمت ، ورفعت كفيها وصفقت ، فبدأ الخدم يتوافدون من كل انحاء البستان ، يحملون الصوانى الثقيلة تفوح منها ابخرة الطعام ، ووضع الطعام أمامه ، لحم كما أحب فوق ارز بالمكسرات ، ودهن كثير ، ومد يده يغوص فى الطعام ، ويحمل اللحم الى فمه وياكل ، وياكل وياكل ، ويحمل حفنات الارز الى فمه ، ويحطم بأسنانه المكسرات فتحدث صوتا له وقع رقيق فى اذنيه ، والدهن يملأ يديه ، واللحم لا ينفد ، وهو لا يشبع ، ولكن ما ياكله ليس لحما ، هو جلد ، هو طين ، يملأ فمه ولا يستطيع ان يتخلص منه ، ومعدته تمتد امامه وقد امتلأت ، ثم تمتد وقد اتسعت ، ويضع يده على بطنه ، ولكنه لا يستطيع ان يمنع تضخمها ، والمكسرات فى فمه حصى ، حين يمضغها تتكسر اسنانه ، ويبلع هو اسنانه التى تكسرت ، والمراة تنظر اليه وفى عينيها جوع ، ورفع يده ينظر الى الدهن اللزج يغطيها ، ولكن ليس دهنا ، هو دم ، دم احمر قان ، ثم دم اسود ويتحول لونه الى الزرقة ، وصرخات من الردهة ، تعلو وتقترب ، وتعلو وتقترب ، صرخات عذاب ، وصرخات احتضار ، ووقع سياط تمزق الظهور ، وبكاء طفل ، وعويل امراة .. والمراة

امامه تقترب منه وتفتح فمها ، اسنانها انياب ذئبة ، وتمد يديها ، اظافرها مخالب حداة . ومد يده الى سيفه ، كان ثقيلا ، وكانت حركته هو بطيئة والمراة تقترب منه ، شعرها لفحة هواء ساخن ، ومن عينيها يقدح شرار ملتهب ، وضرب بالسيف ، واختفى راس المراة قطعه السيف ، وظهر راس افعى ، ورفع يده مرة اخرى بالسيف ثقيلا وبطيئا ، ثم ضرب راس الأفعى ، وتحطم السيف ، تمزق حده كأنه قطعة لحم ، قطعه عنق الافعى ، وتفح وهو يضرب بسيفه ، ويضرب والسيف قبضة بلا حد يسقط فوق الارض فيحدث خبطات ثقيلة وعالية ، وهو يضرب ، والخبط يعود ، خبط ثقيل ، وهو لا يستطيع ان يتحرك ، سمرته مكانه ، عينا الأفعى ولسانها المدلى .. وهى تقترب .. وهز نفسه بعنف وانتفض ، ثم فتح عينين ذاهلتين حوله ، ومضى يجفف عرقا منداحا فوق جبهته وصدره بيد مرتجفة مترددة .. وازداد الطرق عنفا ، ولكنه كان صادرا من باب الغرفة هذه المرة ، كان طرقا حقيقيا ، وكان مستيقظا تماما ، وان كانت حواسه مشتتة مضطربة .. وقام عن فراشه متثاقلا ، ومضى الى الباب يفتحه ، وطالعه وجه خادمته السوداء التى تعنى بشئون المنزل وهى تقول فى انفعال :

ــ الا تستيقظ .. نحن الضحى الآن ، والناس فى الردهة ينتظرونك ..

ومر بيده المرتجفة على شعره المشعث ، وأسرع الى قلة عند الشباك فرفعها يشرب ماءها فى دفعات متتالية وهو يتركه ينساب الى عنقه وصدره ، وعادت تقول فى الحاح :

ــ مالك ، هل انت مريض ؟.

لم يجبها ، وانما اخذ يتطلع الى وجهه فى المرآة فهاله شحوبه ، فهمس :

ــ ربما كنت مريضا ، ولكنه الحلم ..

صاحت فى انفعال :

ــ حلم ، خيرا ان شاء الله ، احك لى ربما ..

صاح المقدم صلاح الكلبى فى عنف :

ــ اخرسى ، واذهبى بسرعة فاعدى حماما ساخنا ..

قالت فى احتجاج :

ــ والناس الذين ينتظرون فى الردهة ..

صاح :

ـ قولى لهم ينتظرون .. فالعالم لن ينتهى .. واريد حمامى .. والا فراسى سينفجر ..

وهرولت المرأة مسرعة تعد له حمامه الساخن ، بينما استند المقدم صلاح الكلبى الى حافة سريره وتأوه فى تعاسة والم .. كانت هذه الكوابيس المخيفة تعاوده هذه الايام كثيرا ، حتى اصبح يخشى ان ينام .. نفس الشراهة فى أول الحلم ، ونفس الطين فى فمه فى وسط الحلم ، ونفس الرعب فى نهايته ..

كان المقدم عثمان يذرع ردهة بيت المقدم صلاح الكلبى فى قلق وضيق ، وقال للمرة العاشرة :

ـ تأخر المقدم كثيرا .. لست ادرى ما الذى جرى له هذه الايام .

اجابه المقدم عباس الأشول فى ضيق :

ـ هل جلست فقد داخت راسى من حركتك التى لا تنتهى هذه .. وأنا قلق مثلك ، ولكن كان لابد لنا من الانتظار ، فلننتظر فى هدوء يليق بنا ، ولسنا صبية صغار يهزنا أى حدث ويذهب باتزاننا ..

توقف المقدم عثمان وهو فى وسط خطواته .. وحملق فى وجه عباس الأشول المتقع ، ثم ابتسم وهو يقول :

ـ صدقت يا مقدم .. صدقت .. وما كان لى ان اقلق وكل شىء تمام والحال عال ، والسلطان لم يرسل الحاجب ثلاث مرات حتى الآن ، مرتين الى القاعة ومرة هنا فى الدار ليستعجل حضور المقدم صلاح الكلبى الى الديوان .. ولكن لا باس ، علينا ان ننتظر فى هدوء يليق بنا ..

قال المقدم عباس الاشول فى حدة :

ـ كأنك تسخر منى بهذا الكلام يا مقدم عثمان ..

وتجمع غضب المقدم عثمان فى صدره ، وتجمعت احباطات الامس كلها وضيقه وغضبه ، وكاد ينفجر فى عباس الاشول بما لا يحب من القول ، لولا دخول المقدم صلاح الكلبى الى القاعة ، ولولا منظره الشاحب المرهق ، الذى الجم لسانه ، وجعله ينظر اليه فى دهشة وقد نسى غضبه ، ومضى يساله فى اهتمام :

ـ ما الخبر يا مقدم صلاح .. هل أنت مريض ؟

ادار المقدم صلاح الكلبى فى تابعيه عينين محمرتين مجهدتين ، وهز راسه فى ضيق ، وقال :

ـ هذه الايام اصبح النوم عندى عناء وتعاسة ..

قال المقدم عثمان فى اشفاق :
ـ انت تخطف النوم خطفا يا مقدم ، فانت لم تدخل فراشك الا مع فجر اليوم الجديد ..
تنهد المقدم عثمان وهو يقول :
ـ ومع هذا لا اهنأ بالنوم ، وتنتابنى الكوابيس ..
صاح المقدم عثمان فى تعاطف :
ـ كوابيس ، ابعد الله الشر عنك يا مقدم ، هى من عمل الشيطان فاقرأ الصمدية قبل ان تنام وهى تبعد عنك كل رجس ..
قال المقدم عباس الاشول فى ضجر :
ـ اذا ما انتهيتم من هذا الكلام ، اخبرونى متى سنذهب الى الديوان فالسلطان ينتظر .
انتبه المقدم صلاح الكلبى على نبرات صوت عباس الاشول ، فنظر اليه فى حدة وقال :
ـ السلطان ينتظر .. ينتظر من ؟.
قال المقدم عباس الاشول :
ـ أرسل أحد الحجاب الى القاعة يحسب انك نزلت اليها مبكرا كالمعتاد ، فلما اخبرته انك لم تصل بعد ، عاد وأرسله الى هنا ، وهو يطلبك فى عاجل الحال ..
قال المقدم عثمان :
ـ قلبى لا يحدثنى بخير ، لعل فاطمة ذهبت تشكو هجومى امس على بيتها بحثا عن الزيبق .
قال المقدم صلاح الكلبى :
ـ أتظن ان على الزيبق له مثل هذه الاهمية عند السلطان ..
قال المقدم عباس الأشول :
ـ المهم ان نسرع ، ولا ندع السلطان ينتظر ، فربما كان الامر ان أهل القاهرة اشتكوا من الحصار الذى ضربته أمس ، ومن أننى كنت أفتش كل الخارجين من ابوابها ..
قال المقدم صلاح الكلبى :
ـ ماذا ننتظر ؟. هيا بنا الى الديوان وسنعرف كل شىء هناك ، ومواجهة البلاء خير من انتظاره ، فلعله كابوس الامس سيتحقق بشكل او بآخر .

فوجىء القاضى نور الدين وهو يتابع حركات ذراع عباس المبخراتى تتحرك بالمبخرة فى انحاء الدكان بفاطمة تقف فى مدخل الدكان وهى تقول :

ــ اريدك معى يا ابى ، فاصرف عم عباس ، واغلق الدكان ، وتعال معى ..
نظر اليها ابوها لحظات متاملا ، وقال :
ــ لم ارك فى مثل هذا القلق يا فاطمة ، حتى تحية الصباح نسيت ان تقوليها .
قالت فاطمة فى توتر :
ــ اريد ان اذهب الى الوالى فقد نقض صلاح الكلبى منديل الامان الذى اعطاه لعلى ..
قطب القاضى نور الدين حاجبيه ، وقال :
ــ الهدوء يا فاطمة .. هو والى الخليفة على مصر ، ولكن هنا اسمه السلطان ، ولن ينفع ذهابى معك ان لم تعدى بالتزام الادب فى خطابه ــ اما على ابنك هذا فلا خير فيه ، هذا رأيى فيه منذ طفولته .
قاطعه صوت عم عباس المبخراتى وهو يقـول ، ويده تروح وتجىء بالمبخرة التى يملأ دخانها الدكان :
ــ حى .. قيوم .. وحدوه .. على يا سيدى القاضى كان زينة الصبيان ، وانجب الفتيان ، وهو فخر الشباب اليوم ، الم يحصل على منديل الامان بالشطارة والعياقة والشجاعة .
ــ صاح به القاضى نور الدين فى ضيق :
ــ تزج انفك فى كل حديث يا مبخراتى ، اانت تنشر البخور ، ام تتسمع على ما يقوله الناس ، اتق الله فى شيبتك يا رجل .
قالت فاطمة وهى تبتسم :
ــ هو رجل طيب يا ابى ، وهو يحب ابنى على .
تنهد القاضى نور الدين وهو يقول :
ــ ومن لا يحبه يا فاطمة ، انما كنت ارجو له مستقبلا آخر فى دنيا العلم والمعرفة ، لا دنيا الشطارة والعياقة كابيه .
قالت فاطمة :
ــ هذا حديث معاد لا طائلَ من ورائه ، هلْ ستجىء معى ، ام اذهب وحدى الى الديوان ؟.
قال القاضى نور الدين وهو يتنهد :
ــ بل انا قادم معك ، فلا يليق ان تذهبى وحدك امام السلطان.
ومضى يجمع الاجولة المرصوصة خارج المحل ، وهو يقـول لعم عباس المبخراتى :
ــ اترك هذه المبخرة وتعال ساعدنى لأغلق الدكان ..

ولم يتكلم عم عباس ، وانما ترك مبخرته خارج الدكان ، ومضى يحمل مع القاضى نور الدين اجولة التمر والكركديه والخروب الى داخل الدكان . ولما انتهى حمل مبخرته ، واقترب من فاطمة قائلا :

ـ ابنك منصور يا سيدة فاطمة ، ونحن كلنا ندعو له .. سبحان الله .. حى ... قيوم ..

ومضي مبتعدا بينما امسك القاضى نور الدين بعصاه فى يد ، وبالمسبحة فى اليد الاخرى ،وهو يقول لابنته فى رقة :

ـ هيا بنا يا فاطمة ، وليكن اعتمادنا على الله ..

ومضى يسير وهى تتبعه ، ويده تدور بالمسبحة ، وشفتاه تنطقان فى همس بتسبيحاته ، ولكنه حين التفت وراءه وجد فاطمة قد تلثمت تخفى وجهها ، فوقف حتى حاذته وسألها :

ـ ولماذا اللثام يافاطمة ؟ .

قالت :

ـ لا اريد لأحد أن يعرفنى فى الديوان قبل أن أعرف ماذا يجرى حولى ..

ـ ضحك القاضى نور الدين ضحكة خافتة ، وهو يقول :

ـ من لم يعرفك من رؤية وجهك ، عرفك بوجودى معك ..

ثم هز كتفيه وتنهد وقال :

ـ ولكن لك ما تشائين ..

ثم مضى الى الديوان ، وهى تتعقبه فى صمت ..

***

كان الاضطراب والقلق يسودان الديوان هذا الصباح ، وقد كثر به الحراس المسلحون بشكل واضح ، وكان السلطان يجلس ومعه الوزير والقاضى فى صدر الديوان يتحدثون فى همس ، وبين الحين والآخر ينضم اليهم السلحدار والمفتى ، ثم يتركونهم ليفسحوا اماكنهم لقائد الجيش والمحتسب والكاتب ، ويترك هؤلاء أماكنهم بعد حين لغيرهم من رجال السلطة واعمدة الديوان ، بينما وقف أصحاب الحاجات فى ناحية يتململون فى وقفتهم وهم يتهامسون فيما بينهم ..

همست فاطمة فى اذن ابيها القاضى نور الدين قائلة ، وهى تجول بعينيها فى أرجاء القاعة :

ـ انهم خائفون يا ابى ..

همس القاضى نور الدين مجفلا :

ـ خائفون ! ما هذا الكلام يا ابنتى ..

همست فاطمة من تحت لثامها :

ـ أحس ريح الخوف يسرى فى هذه القاعة ، الوجوه مذعورة ، والعيون قلقة ، والحركات مضطربة وكانهم فى انتظار شىء ، أو أحد .

وقبل ان تتم حديثها حدث لغط عند الباب فتطلعت كل الانظار اليه ، ودخل المقدم صلاح الكلبى ومعه المقدم عثمان وعباس الاشول، وكانوا جميعا مدججين بالسلاح ، تبدو العجلة والانفعال مع حركاتهم، وهم يتقدمون نحو السلطان الذى التفت من حديثه الهامس مع الوزير والقاضى ، ورفع راسه ناحية المقدم صلاح الكلبى ، ورد تحيته فى عجلة ، وهو يقول :

ـ تأخرت يا مقدم صلاح حتى قلقنا عليك .

قال المقدم صلاح الكلبى وهو يتقدم فى ثقة ناحية السلطان :

ـ انها أمور الدرك يا مولاى ، فقد كان الأمس يوما حافلا ، أما ليلة أمس فلم أنم لا انا ولا كل رجالى ..

قال السلطان :

ـ تقصد أن أحدا من رجال الديوان لم ينم فى هـــذه الليلة الحافلة ؟ .

قال المقدم صلاح الكلبى فى دهشة :

ـ رجال الديوان ؟ وما دخل رجال الديوان فى أحداث الامس ؟.

التفت السلطان الى الوزير الى جواره ، وقال :

أخبره يا وزير .

سعل الوزير ، وعبث فى لحيته ، ثم قال :

ـ سرقت دارى أمس ، دخلها اللصوص وعاثوا فى أرجائهـــا ، ونقبوا فى كل جزء منها دون أن يحس بهم أحد ، ولولا أرق زوجتى ما أحس بهم احد . وقبل أن ننبه الحرس كانوا قد هربوا .

نظر المقدم صلاح الكلبى نحو الوزير فى حدة ، وهو يسأل :

ـ وماذا سرقوا ؟.

ضحك الوزير فى ارتباك ، وعاد يعبث فى لحيته من جديد وهو يقول :

ـ هذا هو الشىء المدهش حقا ، لم يسرق شىء ..

فغر المقدم صلاح فاه فى دهشة وهو يردد :

ـ لم يسرق شىء . كيف ؟.

قال الوزير وهو يضحك ضحكة جوفاء :

ـ انت تسأل ، وانا اسأل .. ولا أحد يجيب ، كيف يدخـــل اللصوص بيتا مليئا بالمال والجواهر والتحف ، ويعبثون بكل شىء ،

ويفتشون فى كل مكان ، ويخرجون خاوى الوفاض رغم كل ما عثروا عليه من مال وجوهر ؟.
تمتم المقدم صلاح الكلبى لنفسه بصوت مسموع :
ـ الحكاية تتكرر من جديد .
فقال السلطان :
ـ اذن فانت تعرف ، لقد تكررت نفس الحكاية مع القاضى والمفتى والكاتب والمحتسب والسلحدار ، بل مع كل واحد من رجال الديوان ..
صاح المقدم صلاح فى ذهول :
ـ تكررت معهم .. تعنى يا مولاى انهم ..
اكمل السلطان قائلا :
ـ نعم تم السطو على منازلهم ولكن لم يسرق شىء .
ووجم كل من فى الديوان ، وهمست فاطمة فى اذن ابيها قائلة :
ـ الم اقل ان رياح الخوف تملأ الديوان هذا الصباح .
ثم تقدمت فى ثبات الى ناحية السلطان وهى تقول بصوت جهورى اسكت كل التمتمات فى القاعة الواسعة :
ـ مولاى السلطان ، جئتك شاكية اليك نفسك ، فاعطنى الأمان لاتكلم ..
ووجم السلطان وهو ينظر اليها متحيرا ، فرفعت فاطمة اللثام من وجهها ، وهمس المقدم عثمان فى اذن المقدم عباس الأشول :
ـ هذه فاطمة امرأة حسن رأس الغول ، وام الزيبق ، مصيبة جديدة ..
همس المقدم عباس الأشول فى اذنه :
ـ اسكت ، وتمالك نفسك ، وانتظر ..
قال السلطان وهو يعتدل فى جلسته :
ـ من السيدة ..
تقدم القاضى نور الدين الى ان حاذى ابنته وقال :
ـ انها ابنتى يا مولانا زوجة مقدم دركك السابق حسن راس الغول ، وام مقدم الدرك القادم على الزيبق الذى وعدته بالقدمية ان احضر النفيلة ، واعطيته منديل الأمان .
واندفع السلطان دون تفكير قائلا :
ـ مرحبا بالسيدة الجليلة ، وما شكايتك ، نحن عند وعدنا .
قالت فاطمة :
ـ بل لقد نقضتم الوعد يا مولاى حين هاجم رجال دركك دارى

بعد منتصف الليل بحثا عن ابنى الذى اعطيته فى هذا الديوان ، وأمام كل من فيه ، منديل الامان ..

وارتج على السلطان فالتفت الى المقدم صلاح الكلبى محرجا ، وقال :

ــ كيف حدث هذا دون علمى يا مقدم صلاح ..

شحب وجه المقدم صلاح الكلبى ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

لم يكن هناك وقت لأستئذانكم يا مولاى السلطان ، كان لابد من البحث عن هذا السارق الذى أقلق المدينة كلها أمس ..

قالت فاطمة فى غضب :

ــ تعنى انك تشك فى على ؟.

ضحك المقدم صلاح الكلبى ضحكة صفراء ، وقال :

ــ كل لص معرض للشك .

صاحت فاطمة فى غضب متزايد :

ــ ليس على لصا يا مقدم ، ومنديل الامان من السلطان يعنى أنه عفا عنه .

استمر صلاح الكلبى فى لهجته المستفزة قائلا :

ــ اللص . لص ، اعطى منديل الامان أم لم يعط .

قالت فاطمة بنفس لهجته :

ــ أو غدا مقدما للدرك أم لم يغد .. أليس كذلك يا مقدم صلاح ..

قال السلطان منهيا حوارهما الحاد :

ــ هذا يكفى ، لقد صدقت السيدة فاطمة لقد اعطينا عليا منديل الامان ، وما كان يجب البحث عنه او تفتيش داره دون استئذانى .

قال صلاح الكلبى وهو ينظر الى فاطمة نظرات نارية :

ــ هذه ضرورة الأمن يا مولاى .

وهنا ثارت ضجة بين صفوف اصحاب الحاجيات ، فرفع السلطان رأسه ناحيتهم وصاح :

ــ ما هذا ؟ ما كل هذه الضجة ؟.

تقدم الحاجب نحوه وهو يقول :

ــ أصحاب الحاجيات اليوم كلهم من التجار ، تجار الاقاليم ، وكلهم يروون شكوى واحدة ، ان الدرك استوقفهم امس وفتشهم ، ومنعهم من العودة الى بيوتهم ، وهم يريدون عرض شكاواهم .. على مولانا السلطان ..

قبل ان يجيبه السلطان أسرع صلاح الكلبى قائلا :

ـ دواعي الأمن يا مولاى ، كنا نبحث عن المسروقات ..
ضحك القاضى نور الدين وتدخل فى الحديث لأول مرة قائلا :
ـ ولكن الكل يقول انه لم يكن هناك مسروقات .
قال صلاح الكلبى فى عناد :
ـ كنا نبحث عن اللصوص وحاصرنا المدينة حتى لا يهرب واحد منهم ..
قالت فاطمة :
ـ تبحث عن لصوص لا تعرفهم يا مقدم صلاح ، وتهاجم منزل رجل تعرف انه قد سافر فى مهمة أنت الذى ارسلته فيها .. كل هذ « باسم دواعى الامن ..
وقال القاضى نور الدين :
ـ مولاى السلطان ، لا شىء هناك يبرر ترويع الآمنين ، ومهاجمة البيوت بعد منتصف الليل ، ومنع العائدين الى قراهم ، وتفتيش المسافرين ..
قال المقدم صلاح الكلبى فى عناده :
ـ انا ادرى بما يجب فعله لحفظ الأمن ..
ضحكت فاطمة فى سخرية وهى تقول :
ـ تقوض أمن الناس باسم الحفاظ على الامن .. هـذا هـو العسف .
قال السلطان فى صوت متردد :
ـ الناس لا ذنب لها يا مقدم صلاح ..
قال المقدم صلاح الكلبى فى اصرار :
ـ انا أعرف ماذا كان هؤلاء اللصـوص يريدون ، وعم كانوا يبحثون ، وهى أشياء لو حصلوا عليها لانكشفت أسرار كثيرة تمس أمن البلاد ، وامن مولاى السلطان ..
وتراجعت نظرات السلطان امام نظرات صلاح الكلبى ذات المعنى ، وقال :
ـ لا .. امن البلاد اهم من كل شىء ..
قالت فاطمة
ـ يا مولاى انت تطلق يد صلاح الكلبى فى رقاب العباد باسم أمن البلاد .
عاد السلطان يكرر فى اصرار وبلادة ..
ـ بل أمن البلاد اهم ـ افعل ما تراه صالحا يا مقدم صلاح ..
قالت فاطمة :
ـ ومنديل الامان لعلى هل سحبته يا مولاى .

أسرع المقدم صلاح الكلبى يقول :
ـ انت تقولين انه سافر ، غادر البلاد بالفعل ، وما دام قد سافر فلن يتعرض له أحد بسوء ، ومنديل الامان كما هو لم يمسسه أحد ..
قال السلطان :
ـ صدقت يا مقدم صلاح .. لم يمسسه احد .
أسرعت فاطمة ، وهى تمد يدها الى كتف ابيها ، لتدفعه الى الخروج معها ، وهى تقول :
ـ هذا سلاح ذو حدين يا مولاى ، فتقويض الامن باسم الأمن يضيعه بلا عودة ..
قال المقدم صلاح الكلبى فى خبث :
ـ هل تهددين مولاى السلطان .
قالت فاطمة وهى تتجه الى باب الديوان مع أبيها ..
ـ حاشا لله أن افعل ، وانما هى كلمة حق أحببت أن قولها فى حضرته ، وليأذن لنا مولاى السلطان .. ثم غادرت قاعة الديوان وسط وجوم شامل عم اهل الديوان والعسكر وأصحاب الحاجات ، والجم لسان السلطان ..

- ١٣ -
فى الصحراء

كسر على الزيبق بقية الاغصان الجافة التى كان يحملها معه ورمى بها الى النيران امامه ، فتوهجب ، وهى تشتعل متكسرة ، ودخان باهت يتصاعد منها ودفء يتصاعد الى جسده المقرور القابع أمام (بورة) النيران عند حنية تل صغير وسط الصحراء الخالية الساكنة الباردة .. ومد يديه المقرورتين تستقطران كل الحرارة المنبعثة من نيرانه الباهتة وهو يتأمل انسحاب الليل فى بطء ، وذلك النور الشاحب يبدأ عند الافق . وهمس لنفسه :

- بعد حين قليل ستشويك نيران الشمس من جديد ..

وضحك ضحكة جافة وهو يقول :

- قر بارد مخيف طوال الليل ، ثم هذه الدقائق المريحة ، ثم الحر اللافح اللعين طوال النهار .. ترى كيف يمكن للحيـاة أن تدوم فى مثل هذا التقلب بين البرد والحر ..

وتلفت حوله كأنما يتوقع أن يسـمع جوابا لسؤاله من خـلاء الصحراء الممتدة .. ثم عاد يضـحك وهو يرمى فى الاناء أمامه باقى حبات القهوة التى تبقت فى جرابه فهو يحتاج اليها ليبدأ رحلة اليـوم الجديد ، وهز رأسه فى أسى ، كانت هذه هى آخر حبات القهوة ، وكان الماء هو كل ما تبقى لديه ، لم يعد يملك الا جـرعات قليلة فى اليـوم الثالث من أيام رحلته فى الصحراء القاحلة . وتذكر تحـذير المقدم أحمد الدنف له وهو يودعه :

- هذه الرحلة تنتهى فى يومين أو ثلاثة ، اياك أن تخدعك دروب الصحراء فتبقى فيها حتى اليوم الرابع .. وها هو المحذور قد وقع .. هذا هو ثالث الايام ولا يبدو للصحراء من نهاية ، لم يخطىء فى تنفيذ التعليمات ، ولا انتهاج الطريق ، ولكن الايام تمضى والصحراء لاتزال تمتد أمامه ..

ورفع بصره الى نجمة الفجر اللامعة يحدد مكانها فى السماء الصافية الداكنة اللون تلوح من بعيد أشباح حمرة شاحبة تريد أن تطل عليها عند الافق ، وحدد وجهته بالنسبة لها ، هى هاديته وعليه أن لاينسى مكانها عندما تفرقها اشعة الشمس وتخفى بريقها .. ومد يده الى اناء القهوة يمسكه بحذر بين كفيه اللتين ارتاحتا الى سـخونته ، ومضى يرشف قهوته فى تأن واستمتاع ..

بعد قليل يركب ناقته المتعبة ، ويأخذ سمته من جديد فى اتجاه المدينة المرصودة ، ولم تكن المدينة المرصودة هى بغيته الان ، بل كان هدفه المحدد هو أن يصل الى الواحة حيث البئر المسماة ببئر النجاة، وابتسم لنفسه وهو يردد اسم البئر (بئر النجاة) ·· لاشك أن من أسموه بهذا الاسم مروا بمثل ما يمر به الان من محنة ·· من يدرى وربما كانت المحنة عليهم أقسى وأمر ··

وفرغ من شرب القهوة حتى آخر قطرة فى الاناء ، ورمى حبات القهوة فوق النار فأحدثت هسيسا خافتا ، وانبعث دخان مغبر بينما فاحت فى الجور رائحة القهوة المحترقة ·· وتنهد وهو يجمع حاجياته ويضعها فوق الناقة المنتظرة فى صبر ، وركزها فقامت به متثاقلة، ثم حرك مقودها الى الاتجاه الذى حدده، ومضت تستقبل رحلة النهار فى نشاط وتوثب ·· وأدرك على الزيبق سر اصرار المقدم احمد الدنف أن تكون رحلته بالناقة لا على متن جواد ، فالناقة لاشك أقدر ، لقد صدق حسن شومان حين قال حين أبدى نفوره من ركوب الناقة :

ــ سيأتي عليك وقت فى رحلتك هذه تعرف قدر الناقة، وفضلها فى مثل هذه الرحلة على أقوى جواد ركبته فى حياتك ··

وما كان له أن يشك فى كلام المقدم حسن شومان ، فقد عهده فارسا لا يشق له غبار ، وعرف فيه حبه للخيل وعنايته بها ، وقد صدق فى كلامه ·· وابتسم على الزيبق لنفسه وهو يذكر هذا الاسبوع الحافل الذى قضاه بين هؤلاء الرجال يتعلم منهم ضروبا جديدة فى النزال ، وحيلا جديدة فى العياقة وفنونا جديدة من الحيل ، وعلوما ما كان يعرف عنها شيئا ·· لو ترك له الامر لمد هذا الاسبوع الى شهور وشهور ، فما كان يمر يوم جديد الا وهو يحس بضآلة ما يعرف وقلة ما يدرك ، وصغار ما يتقن ·· وكان كل يوم يزداد معرفة وعلما، وتتفتح مداركه ، ويزداد اتقانه لما يتعلم ·· ومر الاسبوع بسرعة غريبة ما يكاد يضع رأسه على الوسادة فى نهاية كل يوم حتى يروح فى نوم عميق لا أحلام فيه ليبدأ اليوم الجديد فى اقبال ونشوة ·· ورغم أهمية كل فترات اليوم الحافلة الا ان جلسة السمر قبل النوم التى كانوا يتحلقون فيها عند النافورة حول الشيخ زكى البتوكى كانت أهم هذه الفترات عند الزيبق ، اذ كان يعرف فيها الكثير عن نشاط أحمد الدنف ورجاله ، وعن أسرار ما يجرى فى القاهرة ودمشق وبغداد ·· كان هذا العالم الرحب بعيدا عنه لا يعرف منه شيئا ، عدل الخليفة فى بغداد واهتمامه بأمور الرعية وحرصه على تحقيق الامن لكل مسلم فى بقاع ملكه الواسع ، ورعايته لحقوق الذميين وحفاظه على أموالهم

وكرامتهم وحرياتهم ، ربط أجزاء الخلافة بالبريد والطـرق المعبدة الامنة . الضرب بشدة على أيدى اللصوص وقطاع الطرق والخارجين على القانون ، كل هذا مع الغزو المستمر لبلاد الافرنج ، وتأمين الحدود معهم ، والتنبيه الدائم لمؤامراتهم ودسائسهم ، والقضاءعلىعدوانهم الذىلايفتر ولا يهدأ أبدا ـ فأطماعهم فى بلاد المسلمين شىء فىأعماقهم، وحقدهم على ثروات الخلافة وازدهارها وتقدمها ينهش قلـوبهم . هو شىء مقيم فى أعماقهم ، كان منذ نور الاسلام العالم بوجوده ـ فكرا وعقيدة وسلوكا وعبادة ـ ويظل الى الابد ـ هى حرب سـجال لاهدنة فيها أبدا ـ ولا سلام ، الا اذا كان بين الذئب والشاة سلام، أو بين أسد الصحراء والبقرة الوحشية سلام ، أو كان بين النسر الجارح وحمامة الارض المسالمة سلام .

ووقفت الناقة فجأة، فانتبه .. كان امام تل صخرىناتىء وسط الصحراء ، وكان لابد له ان يدور حوله ليجوزه ـ ولكن كان لابـد له أن يفعل هذا فى حذر وتؤده ، حتى لا يفقد توجه طريقه فيضل ويضيع وسط الصحراء .. الناقة نبهته بوقفتها المفاجئة ، وهـو افاق من تأمله على العقبة التى تواجهه .. وأحس بالعرق ينـداح على جبهته ، ويغطى عينيه ، ويملأ اعطافه كلها ... متى حـدث هذا وكيف .. ؟ استغرقته أفكاره حتى نسى انه على الطريق .. وان الشمس الحارقة تصب قيظها فى رأسه ، فتختلـط أفكاره وتضطرب وتوهن من عزيمته حتى لا يستطيع أن يتحكم فى مقود ناقته التى وقفت فى عناد رافضة كل محاولاته لدفعها لاستئناف السير من جديد .. كان التل كأنه حائط من صخر ، تنعكس أشعة الشمس على صخوره فينبعث منها شواظ كأنها سياط من نيران تلهب الهواء وتجعله ثقيلا قاسيا على الرئتين ، وعلى العينين ، وعلى جلد الوجه واليدين .. وعاد يحث الناقة على الحركة دون جدوى .. فدفعها لتبرك ، ونزل عنها ، ثم دفعها من جديد ، وأمسـك بمقودها ، ومضى يسير امامها وهو يجرها وراءه جرا ، وهى ترفض الانسياق لجذبه فى عناد .. وفجأة سمع الهسيس .. كان الصوت غريبا عليه ، ومع هذا فقد عرفه فى الحال .. كان صـوت افعى الصحراء السامة المخيفة التى يرتعد من ذكر اسمها أعتى الرجال، والتى تقضى عضتها على الرجل فى دقائق ، وعلى الدابة مهما كبر حجمها فى ساعات .. ورفع على الزيبق رأسه يبحث عن مصـدر الصوت ، كان ساكنا فى مكانه لا يتحرك ، فقط كانت عيناه تجولان باحثة فى الصخور التى تواجهه .. وفجأة تجمد فى مكانه ، وسكتت

يده التى كانت تشد مقود الناقة .. فقد رآها .. كانت منتصبة ترفع عنقها وتهس فى فحيح رتيب وهى تحرك راسها فى كل اتجاه ، بينما ارتكزت على باقى جسدها المتكوم .. وكان راسها عند عنق الناقة تماما .. وادرك سر تجمد الناقة فى مكانها ، فقد رأت الحية فسكنت فى مكانها ، وسكنت الحية هى الأخرى فى ترقب وحذر . فلما حاول هو أن يحرك الناقة من مكانها استفزت الحية ، واعتبرت هذه الحركة العصبية استفزازا لها فى خورها ، ومد على الزيبق يده الى سيفه ، بينما استندت قبضته الثانية على مقود الناقة يبقيها ساكنة فى مكانها .

الا ان حركته المفاجئة جعلت الناقة تجفل ، وتهز راسها فى عنف كانما لتتخلص من قبضته على مقودها .. وحدثت الحركتان معا فى وقت واحد وفى سرعة مذهلة .. انقضت الحية على رأس الناقة فلدغتها لدغتها القاتلة تحت الأذن تماما ، وانقض سيف على الزيبق يطيح براس الحية ويجعلها كومة من لحم مختلج اختلاجة الموت الأكيد .. واحس على الزيبق رغم حرارة الجو اللافحة بعرق بارد يملأ جبهته وكفيه ، وارتجف جسده وهو يرقب الناقة تقفز عدة قفزات وهى تجرى كأنها اصابها العمى ، ثم تنطرح على جنبها على بعد قليل منه .. وبقلب مثقل أخذ يتقدم نحوها ، وهو يعرف - حتى قبل أن يفحص الثقبين القانيين تحت أذنها، انها وصلت الى نهاية الطريق، وانها تحتضر تحت عذاب السم القاتل . وكان جسدها ينتفض ويتقلص وهو يتقدم نحوها ، بينما كانت تحدق فيه بعينين متعبتين ضارعتين ، فأغمد سيفه فى قرابه ، واخرج خنجره ، وهو يعض على ناجذيه فى تعاسة ، فلابد له أن يخلصها من عذابها .. ولابد أن يواجه باقى الرحلة وحيداً .

كان ينقل خطواته فى تثاقل وهو يرغم نفسه على السير ارغاما، كان كتفه ينوء بحمل الخرج الثقيل الذى اضطر الى حمله بعد أن ماتت الناقة هناك خلفه ، وخلف هذا التل الصخرى اللعين ، ومسح جبهته ووجهه بطرف ثوبه ليزيل حبات العرق التى يحس وجودها دون ان تكون هناك ، فالشمس تجففها فور انعقادها على جبينه ولا يبقى منها الا مجرد الاحساس بانه يعرق وسط هذا الوهج ، فتمتص اشعة الشمس كل ما فى جسده من ماء ، ويزداد احساسه بالعطش والجفاف .. كان قد اضطر الى ارتقاء التل ، ليجتازه دون أن يفقد اتجاهه ، أكثر من مرة كاد ينزلق من فوق الصخور الملتهبة ، واكثر من مرة توهم أن هناك ظلة تحت صخرة ناتئة فاوى

اليها ، وطرده لهيب الصخر من حوله ، واستمر فى طريقه حتى اجتاز التل وتركه وراءه ، كما ترك وراءه عند جثة ناقته الصريعة كل أمل فى أن يحقق رحلته فى الوقت المفترض لها .. ومضى يرفع قدما ثقيلة ليضعها ، ثم يرفع قدما ثقيلة أخرى ليتحرك فى بطء ، ولكن فى اصرار .. لم يكن يملك الا أن يستمر فى السير .. فلا تراجع هناك ، الأمل أن يصل الى بئر النجاة قبل أن يفقد قدرته على الاستمرار فى الحركة .. والصحراء تمتد ولاشىء يلوح فى الأفق ، والأشعة المحرقة تنصب عليه من كل اتجاه ، وهو يعرق ، وعرقه يتبخر ، وهو يعطش وعطشه يبقى .. ينبغى أن يفكر فى شىء آخر يصرفه عن فكرة العطش ، لو ترك نفسه لما يحس لما احتمل ، وربما فقد قدرته على التحكم فرقد وسط الرمال المحرقة واستسلم للأشعة الحارقة تذيب جسده ، وتخلط عظمه بالرمال ، وارتجف حين طافت بذهنه هذه الفكرة ، ومضى يحاول أن يسرع فى سيره ، وأن يجر قدميه جرا فوق الرمال ... كان لابد له أن يرغم ذهنه أن يعمل ، فنجاته فى أن يبتعد عن هذا الواقع القاتل الى أن يجتازه بسلام ..

ووسط الضباب المغبش على ذهنه ، بدأت تدريجيا صورة الجلسة المسائية المريحة عند النافورة تعود اليه ، ومعها أحس بنسمات رقيقة عذبة تهدىء عقله ، فابتسم ، ليست هناك كقدرة العقل فى استدعاء الأشياء - كانت الهمسات رقيقة وهادئة ، ووسطها كان صوت الشيخ زكى البتوكى الهادىء يقول :

- معظم امراض الجسد مركزها أجزاء دقيقة من المخ ، فمداواة الجسم وحده لا تكفى ، بل يجب أن يداوى العقل أيضا ، واقصد بالعقل مراكز التوجيه فى جسم الانسان ، وهى مراكز تمتد من الراس الى كل جزء من الجسم حتى اصابع الأقدام .

وضحك المقدم حسن شومان وهو يقول :

- نحن فى صنعتنا فى المصارعة نعرف مراكز حساسة من جسم الانسان لو ضغطنا عليها بالقدر الكافى شلت من حركته ووعيه ما نريد ، ولو ازداد الضغط تعرض العدو للموت ..

وقال المقدم عمر العيار :

- لقد فسرت لى سرا كان يحيرنى من زمن ، فحين كنت أتنكر فى زى رجل عجوز ، واستمر على هذا التنكر زمنا سرعان ما كنت احس بالوهن الحقيقى ، والضعف الكامل يحل باجزاء جسدى حتى لتصبح حركاتى طبيعية وبلا جهد منى فى تمثيل دور العجوز

الضعيف الواهن ، بل هناك شيء ، اذ أنني كنت لو تماديت بالتظاهر بمرض معين أو عجز معين ، سرعان ما أحس فى جسدى بهـذا المرض ، وسرعان ما يصيبنى هذا العجز ، بل تظهر على أعراض طبيعية للمرض والعجز لا تحتاج الى اصباغ أو ادهنة لاحداثهـا فى مواطن ظهورها ..

وضحك المقدم شحادى أبو حطب وهو يقول :

كثيرا ما شاهدت رجلا قد خدشته ضربة سيف فى ذراعه يظن ان ذراعه قد قطع فلا يقوى على تحريك اصابع كفه ويسـقط السيف من يده ، وكثيرا ما رايت رجلا يصاب بسهم قاتل وهـو لا يحس به ويمضى يقاتل زمنا طويلا قبل أن يسقط عن جواده ..

قال المقدم احمد الدنف فى تؤده :

ــ صدقت ياشيخ زكى ، أن جسد الانسان مرتبط بعقله ، واذا أراد المخ أن يمرض عضوا أمره فمرض ، واذا اسـتطاع انسان أن يؤثر على مخ آخر فيوحى له بالمرض مرض هذا الانسان ، وقد رايت هذه الحيلة يلعب بها من يدعون لأنفسهم السـحر والكهانة ، بل يلعب بها بعض مدعى الطب ، اذ يوحون للمريض انه شفى فيخرج من عندهم سليما معافى ، وسرعان ما يعاوده المرض بعد حين ..

المرض ــ المرض ــ يعاوده المرض ــ العطش ، العطش ــ يعاوده العطش ، التعب ، التعب ، يعاوده التعب .. هو متعب ، عطشان ــ بل هو أيضا جوعان .. ويحس بالغثيان ، وثقل راسه ، ويتوقف فى مكانه ، ثم يرفع عينيه فيغشيهما ضوء الشمس المتوهج ، ويجول بهما حوله فتلهبهما شواظ منعكسة من الرمال المتوهجة ، ويحس بالغثيان من جديد .. ثم يتنهد فى اصرار ، ويعدل خرجه فـوق كتفيه ، ويدفع قدميه دفعا الى السير من جديد .. فمضى يسير متثاقلا وراسه يدور ، وكلمات متنافرة متباعدة تدور فى راسـه وتدور ..

ــ هم يثيرون العشائر فى كل مكان على الخليفة ..

ــ وهم يثيرون الفتن بين المسلمين والاقباط .

ــ وهم ينشرون الدعوة لبنى أمية .

ــ وهم ينشرون الدعوة للشيعة .

واعتدلت رأسه على صوت المقدم أحمد الدنف القوى يقول :

ــ أموال كثيرة تبذل فى هذا المجال ، وليست المسائل محض

صدف ، أو مجرد دعوات تخرج ممن يعتقدون بصحتها .. نحن أمام مؤامرة ضخمة تبذل فيها أموال ، وتخطط لها عقول ..

ويقول الشيخ زكى البتوكى بصوته الهادىء وهو يتنهد :

ـ حكاية قديمة ومعادة . لقد شهدتها قبل هذا وقضى عليها فى مهدها ، وأشهدها الآن وستنتهى باذن الله كما انتهت سابقاتها ، وساشهدها من جديد .. فمادام فى الانسان حب الظهور ، وشهوة المال الرخيص الذى لم يبذل فيه عرق أو جهد ، وضيق الأفق الذى لا يجعله ينظر الا الى مصلحته الان ، ومصلحته وحده ، فستظهر هذه الدعوات ، وتستهوى السذج وضعاف النفوس ، والباحثين عن دور يؤدونه فى الحياة ، والاغبياء ، ومن ملأ الجشع قلوبهم فانساهم مصلحة الأمة ، وامن الناس ، ومسئولية الغد .

جاء صوت شحادى ابو حطب يقول فى حدة :

ـ الخطابات التى عثرنا عليها وشت بوجود تنظيم له فروعه ونظامه ، فليست المسألة مسألة تحزب لفئة أو تشيع لمجموعة . وليست المسألة دينا اسلاميا أو قبطيا ، المسألة سياسة من أولها الى آخرها ..

ـ سياسة ، سياسة ، المسالة .. المسالة ، من اولها الى آخرها ، آخرها .. اخرها .

وتوقف الاهتزاز ليسمع صوت حسن شومان وقد غلظ صوته وتضخم :

ـ صلات بعشائر فى الصعيد ، وأخرى فى الوجه البحرى ... وصلات بعشائر فى الواحات الغربية ، وأخرى مع بدو سيناء واسر وقبائل ، وتجمعات من شباب ومن شيوخ ..

جاء صوت الشيخ زكى البتوكى بطيئا متثاقلا متقطعا يقول :

ـ هذه مؤامرة يلعب فيها الافرنج الدور الخفى ، تعمقوا فى الأمر ستجدون أصابعهم تلعب فى الخفاء ، فلهم عملاؤهم وجواسيسهم وعيونهم .

وقال المقدم احمد الدنف وصوته اكثر بطئا وتثاقلا وتقطعا :

ـ يقولون للقبط سيهدم الخليفة كنائسهم ، ويبطل صلواتكم .. ويقولون للمسلمين ، الخليفة يسمح فى مقر الخلافة بالمجون ويسمع أشعار أبى نواس ، ويترك شعر عمر بن أبى ربيعة وبشارا يتداول بين الناس ، انهم يشربون الخمر ، لا مفر من الانفصال عن الخلافة ، والبدء هنا فى مصر من جديد .. نبدأ المجتمع الاسلامى الصحيح بعيدا عن الخلافة ، نستقل ونتعبد ، ننفصل ونتهجد ، ونتحنف ..

وكان صوت المقدم شحادى ابو حطب ابطأ من كل ما سمع من أصوات ، واشد تثاقلا وتقطب ، وهو يقول :

ـ وحين تنفصل الاقطار عن الخلافة وتتفرق ، يسهل على الافرنج ابتلاع كل قطر على حدة ، ونصبح كلنا كمن ضل طريقه فى الصحراء ..

ـ ضل .. ضل .. ضل فى الصحراء .. طريقه .. أين طريقه .. ضل .. لقد ضل .. نعم ضل طريقه فى الصحراء .. وهو عطشان ، لسانه تضخم فى فمه من الجفاف والظمأ .. كلنا ضل .. لا انا وحدى ضل .. ضل وتاه .. تاه ..

ومد يديه وبسط ساعديه ، واطبق بكفيه فامتلأتا بالرمال الساخنة ، وادرك انه سقط فوق وجهه ، وانه لم يعد يسير .. واحس بالتعب ينتشر فى كل اجزاء جسده ، وود لو نام .. دقائق فقط يسترد فيها قدرته على السير . ينام .. مجرد لحظات ..

أمامه من بعيد وسط غبش من ضياء ، وريح متربة وقفت أمه تحمل له آنية الماء ، يعرف ان هذا الماء بارد وانه ممزوج بماء الورد .. وضعت هذه الآنية الفخارية فى آخر الشرفة ، فى ملتقى ناحيتين يتخللهما الهواء الذى يهب فى ساعات (العصارى) رقيقا حانيا .. وعند آذان المغرب فى رمضان ، وبعد يوم من الصيام فى صيف خانق ينزل الماء فى حلقه زلالا عذبا شهيا ، يتفتح له كل جسده ، وتهدأ أنفاسه ، ويترطب حلقه .. هى تقف هناك رافعة الاناء الفخارى بين يديها ، والغبش يحيط بها ، انه الغروب ، اذن المؤذنون لصلاة المغرب ونهار الصيام انقضى .. والصبية يتصايحون منفضين من أمام أبواب المساجد حيث تحلقوا من قبل المغرب بكثير ، يعلنون انهاء الصيام ، وان الطعام مباح ، وان الشراب مباح ، وان الماء مباح .. موجود ، معطر بماء الورد ، عذب ، زلال .. وسيشرب ، ويشرب ، ويشرب ، ويشرب .. ، وهب من جلسته ، رقدته ، سقطته .. أمامه كانت أمه تميل الاناء الفخارى فينزل منه الماء الى الرمال ، ويغمر الرمال ، ويستمر سقوط الماء ، والرمال تتحول الى ماء ، الى بقعة من ماء الى بحيرة من ماء ... وهب صارخا وهو يجرى نحوها ضاربا الهواء بذراعيه ، سيشرب ، سيشرب ، وكانت تبتسم ، ولكنه حين اقترب منها ، تحول وجهها وتغير .. انها دليلة المحتالة تضحك ساخرة وهى ترفع الجرة بين يديها وتميلها ، وتنزل الجرة رمالا ناعمة تنصب فوق الماء فتتحول المياه الى رمال ، بحر من رمال يطبق عليه .. وكف عن الجرى ، واختفت دليلة ..

ورفع راسه ، كان مايزال فى مكانه راقدا فوق الأرض ، وكانت الشمس قد مالت الى الغروب ، وبدأ ريح بارد يزحف نحو جسده المنهوك فيرجفه ، واعتدل ، وجلس .. وعاد يحدق أمامه من جديد .. ليس الا الرمال وقرص الشمس يحترق نحـــو الارض التى ابتلعت منه جزءا عند الافق ، وهو يغوص تدريجيا وفى بطء حزين .. وانعشه الهواء البارد تحامل واقفا ، ورفع الخرج الذى وقع الى جواره على الأرض ، ومضى يسويه على كتفه فى عناية واهتمام .. وابتسم لنفسه فى مرارة ، هذا الذى مر به كان جنونا أو قريبا من الجنون .. وجاءت الى ذهنه أحاديث طويلة سمعها من شحادى ابو حطب عن مخاطر الصحراء ومخاوفها ، وان أخطر ما يصـيب الانسان من الحر والعطش والاجهاد والوحدة هو التخيـــلات ، واشباح لا وجود لها ، وماء حيث لا ماء ــ أسماه السراب ، الشىء الخادع الذى يدفع الانسان نحو الأمل الكاذب والموت أو الى الجنون الأكيد .. ونظر الى قرص الشمس المودع ، وضم ملابســـه الى جسده ، وهو يحسب لليل فضله ان ازاح عنه الوهج المحرق ، ولكنه كان يعرف من تجربة ليلتين سابقتين ان أمامه تجربة مريرة مع البرد القارص .. فى هاتين الليلتين كانت معه حصيلة من الحطب كفلت نارها له الدفء والأمان .. أما الليلة ، فهو سيواجههـــا بلا نار .. ووثبت الى راسه فكرة .. لماذا لا يقضى هـــذه الليلة سائرا ، فالسير سيدفئه ، واغفاءته من لحظات جددت نشاطه .. وهب واقفا وحمل خرجه ، ونظر الى السماء يهتدى بنجومهـــا واستأنف السير فى سرعة ، وقد تجدد أمله فى الوصول الى غايته ..

فى ليلة مثل هذه خرجوا جميعا بعد أن ودعوا الشيخ زكى البتوكى ، وكل واحد منهم يحمل خرجه فوق كتفيه ، ومضـــوا كالاشباح الصامتة يعبرون أزقة ودروبا الى أن وصلوا الى حافة النيل ، وهناك تسللوا الى مركب شراعى كبير ، وما ان دخل آخرهم جوف المركب ، حتى رفع الريس مراسيها وفرد أشرعتها وأبحـر بها نحو الصعيد ، وحين اختفت أنوار مصابيح القاهرة والمركب يدفعها الريح فى سرعة قال حسن شومان :

ــ أتظن صلاح الكلبى مازال يفرض الحصار حول مخارج القاهرة ؟

ضحك المقدم احمد الدنف وقال :

ــ كل مخارجها نحو الشمال محروسة . أما نحن فينتظرنا أخوان لنا عند بنى سويف ، وهناك نفترق .

وكان يسير وكأنه مازال فوق مركب تتحرك منسابة على سطح

النيل ، وكل شيء مظلم الا من نجيمات فى السماء تهديهم الى الطريق كما تهديه الآن ، والجو مشبع بالرطوبة ، وهو يرتجف ، وصور عديدة من حياته تقفز الى رأسه فى اضطراب وقلق ، ويريد أن يمسك أى صورة من الطريق ليحتفظ بها معه ، وكلها تنفلت لتحل محلها صورة أخرى .. فقط هو يذكر انهم تركوا المركب عند مدينة صغيرة مظلمة ، وعند المرسى كان فى انتظارهم شيخ وقور صحبهم الى داره حيث قضوا الليل ، وفى الفجر صحبهم الى زاوية صغيرة حيث صلوا الفجر ، وتودع كل منهم من الآخر ، وقال المقدم أحمد الدنف :

— من هنا تبدأ رحلتك ياعلى مع المقدم عمر العيار حتى حافة العمار فيتركك لمهمته فى الصعيد الأوسط ، اما حسن شومان فيعود الى المركب ليواصل رحلته الى الصعيد الاعلى ، ويركب المقدم شحادى أبو حطب الى الفيوم ومنها الى الدلتا ، أما أنا فأعود شرقا الى السويس ، ثم أترك مصر الى بغداد .. وسنعرف كيف نلتقى ومتى ..

وامتطى هجينه ومضى دون كلمة اخرى ، وكذلك فعل المقدم شحادى أبو حطب ، بينما ركب هو جمله ومعه المقدم عمر العيار ، تاركين المقدم حسن شومان مع الشيخ الوقور عند حافة الزاوية الصغيرة .. وتحدث عمر العيار كثيرا ، وعبرا ترعا ، واكلا الى جوار شجيرات ، وناما فى مسجد ، ومر يومان ، وذات فجر ، ودعه عمر العيار ، وتركه وحيدا يواجه الصحراء ، والليل ينسحب من سماء صافية ، وشبح قرص الشمس يلوح من بعيد وهو يوجه مقود ناقته نحوه ، ويسرع فى فرحة الانطلاق الى عالم جديد .. وقرص الشمس يصعد فى بطء ، وهو يتجه نحوه . ولكنه لا يركب ناقته ، وهو يسير ، ناقته قتلها الثعبان ، وقرص الشمس أمامه .. أهو سراب جديد .. لا ، ليس سرابا ، هى شجيرات بالفعل تلوح أمامه ، والليل انقضى ، وهذا فجر يوم جديد .. وأسرع يجرى نحو الشجيرات وقد نسى كل عناء .. لقد وصل ، لقد نجا .. انه بئر النجاة . وهذه الشجيرات تنمو حوله ، فهذا ماء .. لقد أصاب حين ارغم نفسه على السير طول الليل ، فعند الفجر ، لاح الأمل ، ومدت الشجيرات المخضرة افرعها نحوه تدعوه نحو بئر النجاة ..

- ١٤ -
بئر النجاة

لمح علي الزيبق فوهة البئر تحت شجرة عالية من الشجيرات التى أحاطت به . فاسرع يرمى بخرجه على الارض ، واندفع نحو البئر . وعند فوهته وجد حبلا طويلا ، ولكنه لم يجد دلوا ولا جرة .. واحتار ماذا يفعل .. وأخذ يبحث خلف الشجيرات وحول البئر عن الدلو الذى كان مربوطا فى نهاية الحبل ولا شك ، ولكن لم يجد شيئا ، وازداد احساسه بالعطش ، كما زاد احساسه بالضيق .. وفكر أن يربط شاله بطرف الحبل وان يدليه فى ماء البئر ليبتل فيرطب حلقه الجاف وشفتيه المتشققتين .. ونزع الشال من فوق راسه وبسطه ، وربطه فى طرف الحبل ، ثم أخذ يدليه فى البئر فى رفق ، وكان يميل فوق فوهة البئر متتبعا حركة الشال فى هبوطه التدريجى ، حين اهتز الماء الساكن لملامسة طرف الشال له ، ثم سكن اهتزازه تدريجيا ، وامام عينى على الزيبق لاح وجهان يطلان عليه من ماء البئر الذى يرتج فى بطء ، حتى سكن الارتجاج ، فاتضح الوجهان ، وادرك على الزيبق أنه يرى انعكاس صورة وجهين يرقبانه من أعلى الشجرة خلفه. وعاد يدلى طرف الشال حتى مس وجه الماء من جديد ، فاهتز وتذبذب الماء واختفى الوجهان ليعودا الى الظهور من جديد عندما عاد الماء الى سكونه وقد وضحت حول الوجهين أوراق الشجرة وغصونها .. ولم يعد عند الزيبق شك فى حقيقة ما يرى .. فتظاهر بالاندماج فى أنزال الحبل ، ومد يده اليسرى الى نطاقه فاخرج ضد البنج وهو من الاشياء التى زوده بها الشيخ زكى البتوكى فاخذه ، ثم أخرج (تعفيرة) بنج ، ووضعها فى سهم نفط ، واشعل سهم النفط وهو يرميه تحت الشجرة .. وعاد ينظر الى سطح ماء البئر فوجد الوجهين مكانهما ينظران اليه دون أن يبدوا انهما أحسا بما فعل .. وتامل على الزيبق جيدا فى الوجهين ، فلم يتعرف على أصحابهما ، فتاكد لديه احساسه الفطرى الاول انهما من الاعداء ،وتاكد لديه انهما سبقاه الى بئر النجاة بتوجيه ممن يعرف انه لابد أن يمر من هنا ، وانهما قطعا الدلو من الحبل وكمنا فوق الشجرة حتى اذا ما اضطر تحت ضغط العطش والاجهاد أن ينزل الى البئر ليشرب من مائها ، انقضا عليه وهو عاجز عن الحركة وقتلاه - ولمح الوجهين يتحركان حركة عصبية وقد احسا بالخطر ولكن بعد أن فات أوان تداركه .

وابتسم الزيبق وهو يرى الوجهين يختلجان فى عنف ، ويحاول صاحباهما الحركة ، ولكنهما يعجزان عنها ، فيهمد الجسمان ويستترا الوجهان فى جمود الغيبوبة ، وعرف ان البنج قد فعل فيهما فعلهالاكيد .. ورفع راسه من فوهة البئر ، ونظر الى اعلى ، واحس براسه يدور ، فاستند بيديه الى حافة البئر وانتظر لحظات حتى عادت راسه الى اتزانها .. لا يدرى أهو فعل ضد البنج الذى أخذه قبل اطلاق سهم النفط ، أم هو طول اطراقته عند حافة البئر ، أم هو العطش والتعب والجوع .. وحين استقر كل شيء حوله تحرك فى حذر نحو الشجرة ونظر الى جذعها الضخم وغصونها العديدة المتشابكة ، وتعجب من قدرة الله ، ان تنمو مثل هذه الشجرة وسط كل هذه الرمال القاسية، ولكنه الماء .. وعاد يحس بالعطش من جديد .. ولكنه كبت هذا الاحساس ، وتغلب عليه ، فامامه الآن صاحبا الوجهين .. فوق الشجرة .. ومضى يرقى الشجرة حيث وجد الرجلين وقد فقدا الوعى، يستلقى كل منهما على وجهه فى همود ، فمضى يحملهما واحدا اثر الآخر وينزل بهما من فوق الشجرة الى الارض . ولمح الدلو مختفيا وسط أغصان الشجرة ، فمضى يرقاها مرة أخرى ليعود به الى البئر .. وفى لهفة اخذ يعقد الحبل على يد الدلو وقد ملأ العرق يده ، وتضخمت أصابعه حتى أصبح لا يحس باطرافها وهى تعبث بالحبل ، وتتعثر فى الامساك به ، وربط عقدة على يد الدلو ، ومضى يمسح كفيه فى ردائه، ويمسح بشاله أمبتل على وجهه الملتهب ، ثم أتم ربط يد الدلو ودلاه فى البئر ..

وسمع صوت اصطدامه بالماء فامتلات نفسه نشوة ، والدلو يمتلىء بالماء ويعود به الى حافة البئر ، رطبا عذبا .. ومد كفيه يملاهما من الماء ومضى يرشف فى بطء واناة ، وهو يمنع نفسه الاندفاع فى عب الماء دون حذر .. ثم مضى يغسل وجهه وراسه ويديه ، وهو يحس بالانتعاش التدريجى ، ثم مضى يشرب مرة أخرى فى هدوء واناة .. وكان يهمس لنفسه :

ـ ماء النيل رائع وعذب ، ولكن هذا الماء أعذب ما ذقت فى حياتى .. انه ماء الحياة ..

وعاد يملأ الدلو من جديد ليغسل ملابسه التى امتلأ بالرمال ، ويغسل شعره وراسه وجسده كله ، وكلما خلا الدلو عاد فملأه من جديد ، وقد تملكه احساس بانه يولد من جديد ، وانه طفل يلعب فى

الماء وليس يعنيه من الدنيا شيء ، فلا هم يشغله الا هم الاحســـاس بالعودة الى الحياة ..

وانتهى من عبثه على خاطر وثب الى ذهنه ، فهؤلاء الرجال جاءوا على رواحل ، فأين هى هذه الرواحل ، لو عثر عليها لوفر على نفسه عناء رحلة شبيهة برحلة الامس .. هما رجلان ، تكفيه راحلة واحدة لركوبها اما الثانية .. فهو جائع ، وهى تكفى لتسد جوعه الآن ، وتكفل له الطعام باقى الرحلة .. وأسرع يرتدى ثيابه ، ويتقلد سلاحه ، ويجوس خلال الاكمة بحثا عن الناقتين ، كانت الاشجار كثيرة ومتباعدة ،وكانت طويلة فارعة ، ولكن أغصانها كانت خالية من الثمار ، فلم يكن الموسم موسم اثمارها . الا ان الطيور كانت تفــزع من حركته ، فتغــادر اغصان الاشجار التى يقترب منها هاربة .. وخشى أن تكون الناقتان غير محكمتى الوثاق ، فتجفلا من حركته ويجد نفسه بلا راحلة من جديد ، فأخذ يتحرك فى بطء وروية ، وهو ينتقل من جذع شجرة الى جذع شجرة فى حذر ، ثم يكمن مكانه فى سكون وهو يجيــل عينيه حوله فى سرعة ، وكتم أنفاسه حين لمح حركة سريعة بطـرف عينـه ، واعتدل فى بطء وهو يركز بصره حيث لمح هذه الحركة وقد غزت كل أعصابه ، وتهيأ جسده للفعل السريع .. وأمامه لمح الغزال الصغير وقد رفع راسه عن مجموعة الاعشــاب الكثيفة التى كان يرعاها بين شجرتين صغيرتين .. وكان الغزال لا ينظر نحوه ، انما كان مشرئبا بعنقه الى الناحية المضادة وقد بدا مجفلا متوترا قلقا .. ولم يشغل على الزيبق نفسه بالذى جعل الغزال يجفل ، بل اسرع فى خفة يمسك قوسه ، ويخرج سهما من قراب السهام فيهيئه ويصوب فى دقـة . ويطلق السهم فى احكام .. وقفز الغزال فى الهواء ، ثم هبط الى الارض يختلج واندفع اليه الزيبق وقد استل خنجره ، وما أن وصل اليه حتى لف يدا حول جسده ، واجتز عنقه بيده الاخرى ، ثم أسرع يبتعد عنه حتى لا تلوث الدماء المتدفقة من العنق المذبوح ثيابه وجسده ..

كان على الزيبق يراقب الجسد الصغير المطروح أمامه والحياة تغادره مندفعة مع الدماء السائلة ، وهو موزع بين عاطفتين ـ عاطفة الرثاء للظبى الصغير ، وعاطفة الرغبة المتجددة فى الحياة ، فالان سيسد جوعه ، بل وسيحمل معه من الطعام ما يكفيه باقى رحلته .. وحمل الظبى بين يديه الى البئر ، وهناك وضعه على الارض ، فالتقت عينـاه بجسدى الرجلين المخدرين وابتسم لنفسه فى مرارة وهو يدلى الدلو فى البئر ليملأه بالماء من جديد . لو لم يلتفت الى صورة الوجهين على ماء

البئر لكان الآن مكان هذا الغزال ، مجزور الراس هامد الجسد ، غارقا فى دمائه .. واقشعر جسده ، وكاد الدلو يسقط من يده ، فتماسك ووضعه على فوهةالبئر ، ثم أنزله فى بطء الى الارض.. ومضى نحو الرجلين المجهولين يربط ايديهما واقدامهما ربطا محكما .. ثم أعطاعما ضد البنج .. وتركهما لينهمك فى سلخ الغزال وتنظيف جوفه ، سيمضى وقت طويل حتى يعود كل منهما الى وعيه ، وله معهما بعد هذا حديث طويل .. وما انتهى من عمله حتى مضى يغسل لحم الغزال بالماء ، ثم حفر حفرة وضع فيها كل المخلفات وردمها وسواها ، وعاد يغسل يديه وما تلوث من ثيابه .. ونظر الى الرجلين ، كانا مازالا فى غيبوبتهما وان انتظمت أنفاسهما مما يشى ببدء زوال أثر البنج .. وتلفت حوله يبحث عن حطب يشعل به نارا يشوى عليها صيده .. وكانت الاشجار حوله كبيرة سامقة ، ومن بعيد كانت تلوح اشجار صغيرة ، وأكمات مليئة بالعشب الجاف ، والاغصان المتساقطة ، واتجه على الزيبق نحو هذه الشجرات وهو يحمل بلطته ، ومضى يضرب الاغصان الجافة ويقطعها ثم يكومها الى جواره ، واحس بالعرق يملأ وجهه ، فمسحه بشاله ، وغير مكانه الى مكان ظليل ، ومضى يختار الاغصان الجافة القريبة منه وينظفها بحد البلطة ، ثم يقطعها ويكومها من جديد ، وحين اكتفى بما حصل عليه من حطب يسوى عليه صيده ويدفىء ليلته التى اعتزم ان يقضيها الى جوار البئر ليعوض سهر الامس المتواصل ،حمل الكومة الثانية ، وذهب بها الى حيث الكومة الاولى ، ومضى يربط الكومتين بحبل ورفع الحمل على كاهله ، ومضى به وئيد الخطو نحو البئر ..

وحين وصل على الزيبق الى البئر وهو يحلم بغذاء طيب ونوم هنىء وقف ذاهلا وقد طارت كل الاحلام من رأسه .. فلا الظبى المسلوخ فى مكانه ، ولا الاسيران المقيدان حيث تركهما .. ورمى بحمله فوق الارض وهو يحدق أمامه فى ذهول .. وفرك عينيه بكفيه كأنما يزيد من قوة ابصارهما .. ولكن الحقيقة بقيت كما هى ، اختفى الظبى كما اختفى الرجلان المقيدان .. واحس بالخوف يتسلل الى قلبه ، وامتدت يده بحركة تلقائية الى سيفه فجرده من قرابه ، ووقف شاهرا اياه ، وهو يجيل بصره حوله فى حذر وترقب فقد أدرك انه ليس وحده فهو لم يغب عن البئر مدة كافية لكل هذا .. وتذكر الظبى ووقفته المجفلة، ورأسه الذى يتجه فى ترقب الى الناحية الاخرى .. ولعن نفسه لاهماله

.. فقد كان فى حركة الظبى هذه الانذار الكافى له ليتنبـه لوجـود غرباء غيره وغير الرجلين الاسيرين فى المكان . ولكنها لهفته الى اقتناص الظبى ، وجوعه ، وتعبه ، كلها تضافرت لتجعل تفكيره مشوشا وغير واضح ، ولتجعل ردود أفعاله لا تتناسب مع ما ينبغى لهـا من حـدة وسرعة ، ويقظة حذرة دائما ..
وطالت وقفة على الزيبق المتحفزة حتى أحس بالسيف ثقيلا فى يده ، فرده الى قرابه ، وقد بدأ يستجمع رباطة جاشه ، وسكون نفسه فليس هذا وقت الهلع او ترك الذعر يذهب نفسه شـعاعا وفرقا .. وتقدم ناحية المكان الذى كان الظبى فيه يتأمل الارض حوله فى عناية .. وسرعان ما راى ما كان يتوقعه ، آثار أقدام رجلين حول المكان ، احدهما ثقيل تغوص اقدامه فى الرمال بوضوح ، والثانى خفيف تمس اقدامه الرمال مسا دون أن تحفر لها مكانا عميقا .. ثم تقدم ناحية المكان الذى ترك فيه الرجلين المقيدين ، وهنا زاد تأكده مما يرى ، نفس الاثار لنفس الرجلين ، مجموعة من الاثار قادمة نحو المكان ، ومجموعة اخرى تغادر المكان ، ومع المجموعتين ، اثار حفرتها أعقاب الاسـيرين وهما يجران جرا خلف القادمين الجديدين .. وبدأت الصورة تتضح أمامه تماما جاء غريبان وهو منهمك فى قطع الاحطاب الى البئر ، وحمل حدهما الظبى المسلوخ ، ثم اتجها الى الاسيرين ، وجر كل واحد منهما اسيرا وراءه .. وقد غطى صـوت البلطة وهى تقطع الحطب على كل ما أحدثاه من أصوات ، ان كانا قد أحدثا أصواتا ما ، فما يحسب على الا انهما كانا على غاية الحذر والحرص .. وتمكنا من سرقة غنيمته واسيريه قبل أن ينتبه اليهما .. بل لعله ساعدهما بتوغله فى الاكمة بحثا عن ظل يحتمى به من وطأة الشمس وهو يقطع الحطب .. ولكن من هما ..؟ وأين اختبأ ؟ وهل كانا هنا قبل ان يجىء الى بئر النجاة لو حدث هذا لكانا من زملاء اسيريه . ولما كان الاسيران يكمنان له وفى نيتهما الغدر به ، فهذان الشخصان الجديدان اذن من الاعـداء الذين يتربصون به شرا ، وعليه أن يحذرهما حتى لا يوقعا به .. وعاد يتأمل الاثار الواضحة ، كانت تتجه مبتعدة عن البئر ومتجهة الى الاكمة حيث تخفيهما منطقة من الاعشاب الجافة التى برزت وسط الرمال.. واتجه على الزيبق نحو هذه المنطقة ، وهو يركز كل حواسه فيما يرى ، فقد تعلم اقتفاء الاثر من اساتذة لا يجارون ، واستطاع أن يتابع المجموعة المتراجعة من خلال تقوس العشب فى ناحية أو خروجه من مكانه لاحتكاك كعب احد الاسيرين اللذين يجران منه .. وكان يسير ويده على مقبض

سيفه ، وعيناه تنتقلان بين العشب الجاف أمامه ، وبين الاشجار التى يمر بها فى سيره البطىء ، بينما كانت اذناه يقظتين لأى صوت يصدر من اى ناحية حوله .. ولهذا فحين جاء صهيل الحصان المفاجىء ، سمعه على الزيبق بوضوح رغم انه كان يصـــدر من بعيد ، ووقف على الزيبق فى مكانه جامدا للحظات ، ثم أنطلق يجرى صـــوب مصــدر الصوت الذى سمعه ، وقد نسى كل شيء عن آثار الاقدام او جر الاسيرين فوق العشب الجاف .. وكان يجرى واذناه مرهفتان عله يسمع صوت الصهيل من جديد ، ولكن الذى سمعه بوضوح ومن مســافة اقرب بكثير من المسافة التى صـــدر منها صـــوت الصهيل ، صـــوت حصان يجرى خببا ، وضاعف الزيبق من سرعته وهو يتتبع هــذا الصوت الواضح الاكيد والقريب ، وهو يتوقع أن يرى الحصان وراكبه بعد قليل .. ودفعته رغبته فى مواجهة هذا العبث الذى يستهدفه هو وحده ، الى الاسراع فى جريه ، ولكنه سرعان ما لاحظ ان صوت وقع اقدام الحصان تحول الى جرى سريع ، فلما زاد من سرعته اكثر وأخذ يجرى بكل قوته ، تحول صوت وقع اقدام الحصان الى جرى سريع .. ووقف فجـــأة والعـــرق يتصبب من كل جزء فى جســـده ، وانفاســـه تتردد فى صـعوبة فى صـــدره ، وتهـــاوى الى جذع شجرة متعبا مكدودا ، وجلس .. واحس ان جسده كله ينحط على الارض تدريجيا وهو ينزلق من استناده الى جذع الشجرة حتى يستقر تماما فوق الارض الصلبة ، وفى ذهنه ركض الجـواد المسرع يتلاشى من بعيد ، حتى ينتهى تماما الى لا صوت .. فقط أنفاسه اللاهثة تملأ اذنيه ، ومعها وجيب قلبه المسرع الخفقان كانه طبول تدق فى غابة .. والتف ذهنه وتوقف عند هذا المعنى .. طبول تدق فى غابة .. ترى ماذا يعنى هذا له ، انه شيء مهم لا ينبغى أن يفلته .. ينبغى أن يعرفه ، ينبغى أن يعيشه ، هـــو يغيب فى تلافيف عقله المـكدود المتعب ، ولكنـــه لابد أن يستدعيه ، وأن يفهمـــه .. وفجـــأة استقر كل شيء فى ذهنه وهـــدأ .. وتنهد ، وهو يريح ســـاقيه الى الارض ، ويزيح العرق المنداح فوق جبهته .. لقد أدرك الامر الذى كان يحيره ، لقد كان يظن أنه فى واحة معزولة ، اذا ما غادر هـــذه الاشجار المحيطة بالبئر عاد الى الصـــحراء من جديد ، بينما هو كلما توغل فيها زادت كثافة ، وتحولت الى دغل يزداد فيه عدد الاشجار وترتفع فيه الاعشاب ، ويختفى منه كل اثر للرمال أو الصحراء ، هو فى بداية غابة اذن ، وقد انقطعت صلته بكل ما يمت للصحراء منذ لحظة وصوله الى بئر النجاة .. ولابد ان هذا هو السر وراء تسميته ببئر

النجاة ،فمن هنا لاعناء ولا عطش ولا قيظ ، من هنا تبدأ النجاة الحقيقية من اخطار الصحراء ومخاوفها .. ولكنه وحيد ، عاد الظمأ يلح عليه ، وعاد الجوع يفرض نفسه ، لقد نسي متى أكل اخر مرة ، وهو جوعان ومتعب ، وجوعان والظبي راح ، ولا ناقة هناك ، ولا شيء الا الجوع . والشجرات حوله بلا ثمار .. وهو وحيد .. أين دفء القاهرة ومائدة العشاء في بيت أمه ، ورائحة البخور تملأ البيت كله ، رائحة .. نعم رائحة .. هو يشم رائحة واضحة تتسرب الى انفه ، ومنها الى أمعائه لتعيد احساسه بالجوع .. هو متأكد انها رائحة شواء .. نعم لحم يشوى فوق نار .. فرائحة الشواء تختلط برائحة احتراق خشب نعم .. وأعشاب اختلطت بدهن متساقط .. هناك من يشوى لحما فوق نار هادئة .. هذا أمر لاشك فيه .. واستند الى جذع الشجرة وهو يقف متثاقلا بطيئا ، وانفه يتحرك حوله حتى حدد مصدر الرائحة التى تثير جوعه ، وتكاد تدفع الجنون الى عقله ووعيه .. ومضى يسير فجأة يتبع أنفه ، والرائحة ، رائحة الشواء التى استهوته .. كان يسير مترنحا ، من ساق شجرة الى ساق شجرة ، يكاد يقع ، ليستند الى جذع متاح ، ثم يستمر في سيره ، وهو يقع فيصطدم جسده باغصان جافة ميتة ، وبقايا أعشاب جافة ، ورمل وطين ، وهو يسير . ويسير .. أهو سراب ما يقصده .. في الصحراء عرف سراب العطش ، وبشاعته وكذبه ، هل هو في الغابة ، سيعرف سراب الجوع ، وهل سيكون بشعا وأكذوبة .. وسار وتحامل ووقع ، ثم سار ، كان يسير حيث يهديه أنفه ، لم يعد من فائدة أن يبحث عن اثار الاقدام فوق عشب جاف ميت ، كل شيء تركز في الرائحة ، هو يسير نحوها ، وقد اختلطت امامه الاشياء وهو جائع ، وحيث يسير سيصل الى حيث يأكل اللحم المشوى فوق أغصان جافة تحترق .. هناك الامان والشبع ، وهناك سيشرب من ماء بئر النجاة ، ويأكل من هذا الشواء .. وينام .. وينام .. كلا ليس هنا ، فلو نام هنا لمات لابد أن يسير ، ويسير نحو الرائحة ، فهناك النجاة ، والشبع ، والرى . والنوم . والراحة وهناك الامان .. ووقع ، وقاوم رغبته في النوم ، وقام ، ومضى مرة أخرى يسير ، وامامه لاحت الباحة أمام البئر .. نار موقدة ، وفوقها الظبي يدور حول عصا ، يشوى في هدوء ، وقد قارب لحمه على النضج .. وأمامه رؤى مختلطة منبعثة عند حافة النار ، الاسيران مقيدان ، ملقيان الى جوار حافة البئر كما تركها منذ زمن طويل .. والسكون يعم الكون كله حوله ، وهو يتقدم متعثرا نحو الماء والطعام ، والامان

.. ولكن صوتا داخليا فيه كان يصيح بالتحـــذير بان يتنبه ، بان ما امامه فخ ، بانه نسى كل الحذر لحظة ترك لمعدته أن تســوقه الى حتفه .. ووقف مترنحا مترددا ، ثم مد يده الى مقبض ســيفه ، وهو يترنح متقدما ومتعثرا فى ان واحد .. ثم جرد جزءا من الســيف فى محاولة بائسة ، ولكن السيف ثقيـــل ، ولكنه لابد أن يتأهب ، وجر جزءا آخر من السيف ، وهو يتقدم ويتعثر ، وجرد السيف كله..لم يكن يعرف ان السيف ثقيل ثقيل ، وســـقط السيف من يده ، وهو يرى حول النار شخصان انتصبا ، احدهما يمتشق سيفا ، والاخر يفوق سهما ، وهما ملثمان .. وهو لا يســتطيع أن يرفع يده الخـالية من سيفه ، وهو ينزل الى الارض ، هو يتمدد ، غمـامة تحيط بوجوده . وشيء مر يرتفع الى حلقه ، ضعفه هزمه ، وانه جائع ، وانه عطشان. وانه متعب ، وتمدد الى الارض وعيون الشخصين تحاصرانه وهو يبتسم فى مرارة ، هزم نفسه وهزمه ضعفه .. وتمدد على الارض ، وراح فى غيبوبة عميقة ..

■ ١٥ ■

عد ظافرا

كانت السحابة سوداء كثيفة ، وكان يريدها أن تمطر ، ولكنها تركزت حول راسه ، لا تتحرك ، ومن خلالها تمر الاشعة قائظة لشمس لافحة ، تركز كل اشعتها على مخه .. وهو يذوب ، ويذوب .. عقله نفسه يذوب ، ويده ثقيلة لا تتحرك ، وساقه استقرت كجذع نخلة قطعه الحطاب واستقر فوق الارض فهو لا يتحرك .. ولسانه متضخم ملأ فمه كله ، فهو لا يستطيع ان يحركه ، جفاف مخيف فى حلقه وفمه ، وهو جائع ، جائع ، كما لم يجع من قبل . وهو يشعر أن راسه ثقيلة ، لا يستطيع أن يحركها .. زينب تلوح له بابتسامتها المشرقة تحمل له الأمل والحياة ، وتختفى زينب وتظهر دليلة بابتسامتها البشعة ، متشفية قاسية .. وتحرك شفتيها فى كلمات لا يدركها ولا يعرفها ، ولكنها لا شك كلمات تحمل له اليأس والهزيمة ، ويضحك صلاح الكلبى فى تشفى مقيت ويرفع يديه ليرد الضحكة ، ولكن كفيه يذوبان .. لا كف عند آخر ساعده .. لا شىء .. ساعده ثابت فى مكانه ، وهويتلقى ضحكات صلاح الكلبى الساخرة كأنها الصفعات — ولا يدرى من أين يظهر وجه المقدم عثمان . ما له المقدم عثمان ؟ ما دوره ؟. فقط هو ينظر اليه فى اشفاق .. نعم فى اشفاق ورحمة — المقدم عثمان ؟ من كان يظن أن عنده القدرة أن تكون فى عينيه هذه النظرة الحانية المشفقة .. كان يريد ان يقول له شيئا ، ولكن الغيمة تحط على راسه ، ويضيع ، لا يحس بشىء .. هو مستريح الى النهاية المقبلة — ويبتسم .

كان هناك شىء بارد عند جبهته ، والماء يقطر فى فمه ، وكان الهواء حوله رطبا ، وكان كل شىء عذبا — هادئا .. بلا مرارة ، ولا تعاسة ، ولا تعب ..

اراد أن يفتح عينيه ، ولم يحس ثقلا ، فتح عينيه فى راحة ، ولاح أمام عينيه ضوء غروب هادىء لا يتعب عينيه ، بل يهدهدهما ، ويهدهد وجوده كله — وقال صوت حبيب ملهوف :

— افق يا على .. افق .

ورد صوت آخر اكثر لهفة وحنانا ..

— اثقلنا عليك ، ولكن انظر يا على انظر .. نحن حولك الآن ..

ومس الصوت قلبه ـ هو يعرف هـذا الصوت وسط آلاف الاصوات ، يحلم او لا يحلم ، هذا صوت امه .. فاطمة .. وهمس :
ـ امى ..
وسكت .. وعاد الصوت الملهوف :
ـ يا حبيب امك ، افق ، واجبنى .
وقال :
ـ وكانى احلم من جديد .
قال الصوت :
ـ بل أنت صاح يا بنى ، انت صاح يا بنى .. انت صاح يا على ..
وهمس وهو يحس الكلمات تتعثر بين شفتيه :
ـ بل انا ضعت يا ام ، تهت فى الصحراء ، ثم تهت فى الغابة ، ثم قتلنى الظمأ والجوع .. ثم .
واحس بيد تمس جبهته ، تمسها فى قوة وحنان وحزم .. فسكت بينما عاد الصوت يقول :
ـ افق يا على .
وماء بارد فوق جبهته من جديد ، وكل التعاسة تغوص بعيدا : فهذه امه ، ولم يعن نفسه بان يسأل ، كيف ولماذا ؟. هذه امه وكفى وبللت شفتيه قطرات رقيقة عذبة ، ومر الماء فى حنجرته الى جوفه ، وسكت الظمأ ، وعاد الصوت يقول :
ـ انت وسط أصدقاء أحبه .. أفق يا بنى ، واسمعنى صوتك وقل انك عدت حيا .
هل يفتح عينيه ليجد انه لا ام هناك ، أم يظل يغلقهما ليسمع هذا الصوت الحنون ، الدافىء بالحب والعطاء .. ولكن كان يحس ان الحياة تدب فى جسده من جديد ، انه مرتاح .. وانه مرتو ، وانه يريد الحياة من جديد فتح عينيه ونظر حوله .
فارسان مقنعان امامه ، ولكن لا سيف مشهر ، ولا سهم مفوق ، فقط ينظران اليه فى اهتمام وعناية .. وحول بصره عنهما ، الاسيران مقيدان ، مكممان على الارض ، والغزال يشوى فى هدوء على نار متوهجة حرى ـ اراد أن يضحك ـ ولكن الضحك وقف فى حلقه ، وتحركت أحشاؤه جوعا ، ودارت رأسه تعبا وعناء .. وقال الصوت :
ـ اجتاز حدود الخطر ، وعاد الى الامان .
فقال فى ضعف :
ـ ولكنكما شبحان ، أنتما سراب الغابة ، لستما حقيقة ..

ومال الفارسان فوقه ، ومد كل منهما يده الى لثامه يرفعه .. وطالعه وجه أمه بابتسامتها الحانية ـ الملهوفة ، ووجه عمر العيار المشفق الباسم . وقالت أمه :

ـ لسنا شبحين يا على بل نحن حقيقة ..

قال على وهو يجيل بصره بينهما :

ـ احمد بن البنى ، وعمر العيار ..

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ صدقت ونحن صحبة قديمة .. والآن اشرب هذا الماء حتى أعد لك نصيبك من الشواء ثم ابتسم وعاد يقول :

ـ نصيبك من صيدك ..

قال على وهو ينقل بصره من وجه امه الى وجه عمر ثم يعود به الى وجه امه مرة أخرى :

ـ ولكن لماذا ؟.

قالت فاطمة فى مرارة وهى تعض شفتها السفلى :

ـ بدأ الامر كله من اجل سلامتك .. وما كنا نظن أن ما بدأ من اجل سلامتك كاد فى النهاية أن يهلك . ومد على يده الى قدح الماء الذى يحمله عمر العيار فمضى يشرب منه فى بطء ، وقد بدأت أنفاسه تنتظم ، كما بدأ ذهنه يعود الى صفائه ، وقال عمر العيار :

ـ لقد أدركتنى السيدة فاطمة بعد أن تركتك مباشرة ، وقبل ان اذهب الى المهمة التى حددها لى المقدم احمد الدنف ..

واكملت فاطمة كلام عمر العيار قائلة :

ـ اكلنى قلبى عليك يا بنى منذ أخذ عمر العيار ملابسك ، واخبرنى انك سترحل فى موعد لا أعرفه . وازداد احساسى بالقلق لما أثاره صلاح الكلبى من ذعر فى المدينة ، ثم جاءنى من أكد لى انك فى خطر داهم ، وفى هذا المكان بالذات ـ بئر النجاة . فعرفت أن قلب الام لا يخطىء احساسه ابدا ..

وغلبها انفعالها ، وتندت عيناها بالدموع ، فسكتت ، وناول على الزيبق قدح الماء الى عمر العيار ..وهو يقول كأنما ليشغل أمه عن خواطرها التى دفعت الدموع الى عينيها :

ـ اين هذا الشواء ، فأنا أتضور جوعا .

ضحك عمر العيار ، وهو يقول :

ـ لقد تم نضج غزالك يا على ، كانت اصابة مباشرة ورائعة رغم تعبك واجهادك ، ولكنك رام ماهر .. سأذهب لاحضر لكل منا نصيبه ..

وتمالكت فاطمة نفسها ، وجففت عينيها ، وهى تقول :

ـ لو عرفت من الذى اخبرنى بالخطر المحدق بك هنا يا على ، ما صدقتنى ..

ووثب الى ذهن على رؤيته الغامضة فى سراب الغابة الذى افقده وعيه ، وهمس دون أن يحس :

ـ المقدم عثمان ..

اجفلت فاطمة ، وقالت فى دهشة :

ـ كيف عرفت ؟.

قال على وهو يعتدل فى جلسته ، وقد أحس بالنشاط يدب فى جسده :

ـ انه سراب الغابة يا أم ، بدا لى وجهه وفيه تعبير غريب كله حنان ، وكله رقة ..

اطرقت فاطمة وهى تقول :

ـ بل انه استشراف الروح .. والا فقد صدمت حين رايته يطرق بابى ذات مساء ، ويدخل على استحياء ويقول :

لم يكن بينى وبين المقدم حسن رأس الغـول عداء ، ولا بينى وبينك يامقدم احمد بن البنى ، وما فعله ابنك الزيبق معى ومع صلاح الكلبى نحن نستحقه .. ولكنه لا يستحق أبدا النهاية التى تدبر له .. وقد جئت لأحذرك ، ولكنى لا أستطيع أن أخون مقدمى ـ فقط التفتى لابنك فهو فى خطر ـ والتفتى له عند بئر النجاة ، وهذا هو كل ما استطيع ان اقوله لك ـ وصمت ، وحاولت أن أعرف منه تفاصيل هذا التحذير عبثا ، التزم الصمت ، ثم مضى .. ومن ساعتها وانا لا استطيع ان آكل أو انام أو أعيش .. فلبست زى احمد ابن البنى ، وتبعتك الى بئر النجاة ، وعند حافة الصحراء التقيت بالمقدم عمر العيار ..

وقطع عليهما الحديث صوت المقدم عمر العيار وهو يقول :

ـ هذا الشواء سيعيد اليك ما ذهب من قواك .. فاعتدل فى جلستك وخذ الصحن فى يدك ..

وتناهت الى انفه رائحة الشواء ، فأحس بالجوع الشديد ، ومد يده يتناول الطعام الساخن ، ويدفع قطع اللحم الى فمه وهو لا يبالى بسخونتها التى كانت تلسع شفتيه ولسانه .. وضحكت فاطمة وهى ترى لهفته على الطعام ، وقالت :

ـ للكلام أوان ، وللطعام أوان .. أين نصيبى يامقدم عمر ..

وناولها المقدم عمر العيار طبقا مليئا باللحم المشوى ، فاخذت

تلتهم قطع اللحم الساخنة وكانما تقلد ابنها فى لهفته على الطعام ، وافضى عمر العيار الى جوارهما وهو ياكل من صحن فى يده فى تأن وتؤده ، وقال :

ـ بعد أن تكسرا حدة الجوع ، عودا الى التأنى فى الطعام ، فالاكل بهذه الطريقة سيؤدى بكما الى المرض ، وساجد نفسى أمام مشكلة العناية بمحمومين .. وليس هناك وقت لكل هذا الترف ..

قالت فاطمة وهى تبتلع ما فى فمها ، وتتنهد ، وتبعد الصحن عنها قليلا :

ـ صدقت يا مقدم عمر .. ولكنى حين شاهدت الطريقة التى ياكل بها على ، أحسست بجوع ولهفة على الطعام . قال على وفمه مملوء بالطعام ..

ـ لم اذق طعاما منذ يومين ، ورائحة الشواء هذه تثير كل كوامن الجوع ، وكل ما فعلتموه بى زادنى جوعا على جوع .

قال المقدم عمر العيار :

ـ لم نقصد بك سوءا يا على ، وانت تعرف هذا ، لقد اقتحمنا الصحراء وراءك ونحن نعرف انك مستهدف لخطر عظيم .. وحين اوصلتنا آثار راحلتك الى حيث ارتمت مسمومة مذبوحة ، والى جوارها جسد الحية مقطوع الراس تأكد لنا ان الاخطار التى تتعرض لها اكثر مما قدرنا .. فحثثنا الخطى وراءك عسى ان نوفر عليك السير فى الصحراء المهلكة ، ولكنك كنت تسبقنا بزمن ، فلم نلحق بك الا وانت على بئر النجاة تربط شالك بحبل البئر بحثا عن قطرات ماء يأتيك بها بلل الشال ..

تنهد على الزيبق ، وهو يستانف طعامه فى تأن وهدوء ، وقال :

ـ كنت أرى وجهيهما فى ماء البئر .

قالت فاطمة :

ـ ونحن وجدنا راحلتيهما ، فأخفيناهما وراء الدغل ، ثم عدنا اليك فوجدناك قد أسرتهما بعد ان بنجتهما .

ضحك المقدم عمر العيار ، وهو يقول :

خدعة سهم النفط هذه هى بداية استفادتك من دروسك الجديدة ..

وقالت فاطمة :

ـ وانتهزنا فرصة انشغالك بالحطب لناخذ الأسيرين والغزال بعيدا حتى تحاول أن تتعقبنا فتبعد عن هذه المنطقة التى راينا انها مركز خطر يتهددك .. ليسهل لأحدنا أن يفتشها جيدا ويتاكد من

تلتهم قطع اللحم الساخنة وكأنما تقلد ابنها فى لهفته على الطعام ، واقعى عمر العيار الى جوارهما وهو يأكل من صحن فى يده فى تأن وتؤده ، وقال :

ـ بعد ان تكسرا حدة الجوع ، عودا الى التأنى فى الطعام ، فالاكل بهذه الطريقة سيؤدى بكما الى المرض ، وسأجد نفسى أمام مشكلة العناية بمحمومين .. وليس هناك وقت لكل هذا الترف ..

قالت فاطمة وهى تبتلع ما فى فمها ، وتتنهد ، وتبعد الصحن عنها قليلا :

ـ صدقت يا مقدم عمر .. ولكنى حين شاهدت الطريقة التى يأكل بها على ، أحسست بجوع ولهفة على الطعام . قال على وفمه مملوء بالطعام ..

ـ لم اذق طعاما منذ يومين ، ورائحة الشواء هذه تثير كل كوامن الجوع ، وكل ما فعلتموه بى زادنى جوعا على جوع .

قال المقدم عمر العيار :

ـ لم نقصد بك سوءا يا على ، وانت تعرف هذا ، لقد اقتحمنا الصحراء وراءك ونحن نعرف انك مستهدف لخطر عظيم .. وحين اوصلتنا آثار راحلتك الى حيث ارتمت مسمومة مذبوحة ، والى جوارها جسد الحية مقطوع الراس تأكد لنا ان الاخطار التى تتعرض لها اكثر مما قدرنا .. فحثثنا الخطى وراءك عسى ان نوفر عليك السير فى الصحراء المهلكة ، ولكنك كنت تسبقنا بزمن ، فلم نلحق بك الا وانت على بئر النجاة تربط شالك بحبل البئر بحثا عن قطرات ماء يأتيك بها بلل الشال ..

تنهد على الزيبق ، وهو يستأنف طعامه فى تأن وهدوء ، وقال :

ـ كنت أرى وجهيهما فى ماء البئر .

قالت فاطمة :

ـ ونحن وجدنا راحلتيهما ، فأخفيناهما وراء الدغل ، ثم عدنا اليك فوجدناك قد اسرتهما بعد أن بنجتهما .

ضحك المقدم عمر العيار ، وهو يقول :

خدعة سهم النفط هذه هى بداية استفادتك من دروسك الجديدة ..

وقالت فاطمة :

ـ وانتهزنا فرصة انشغالك بالحطب لنأخذ الأسيرين والغزال بعيدا حتى تحاول أن تتعقبنا فتبعد عن هذه المنطقة التى رأينا انها مركز خطر يتهددك .. ليسهل لأحدنا ان يفتشها جيدا ويتأكد من

ان اسيريك جاءا وحدهما .. بينما يحاول الثانى ابعادك أطول مسافة ممكنة باستعمال حيلة الفرس ..
قال على الزيبق فى مرارة :
ـ كاد يبعدنى عن الحياة نفسها ..
قال المقدم عمر العيار :
ـ ما كنا نقدر انك وصلت الى هذه المرحلة من التعب والاجهاد ..
وعاد يأكل فى صمت ، بينما استأنفت فاطمة طعامها فى فتور ، وضحك على الزيبق فجاة وهو يضع صحنه على الارض ، ويقف محركا عضلات يديه وساقيه ، وقال :
ـ كفت الارض عن الاهتزاز وعرفت راسى أخيرا مكانها ، وانها فوق كتفى ، لا وراءهما ولا أمامهما ولا على أحد جانبيهما .. كما كانت تصر نهار أمس بطوله ، وليل أمس كله ..
قالت فاطمة :
ـ فعل الطعام والشراب فعلهما ، ولو أخذت قسطا وافرا من النوم لتمت عودتك الى حالتك الطبيعية .. بينما قال المقدم عمر العيار :
ـ يعجبنى فيك انك تأخذ كل المصاعب بضحكة ساخرة ، وتعليق ضاحك .. هذا بالفعل يهون الأمور ..
قال على الزيبق :
ـ العويل والبكاء لن يصلحا شيئا فسد ، أو يعيدا شيئا فقد..
قال المقدم عمر :
ـ آن الاوان لنسأل اسيريك عن سر الكمين الذى نصباه لك ..
قالت فاطمة :
ـ يحسن ان يتكلما ، ولا يبقيا عندهما ما يهمنا معرفته ..
واتجه الثلاثة نحو مكان الاسيرين اللذين حدقا فيهم فى جمود ، وقد اكتسبت ملامحهما تحديا وعنادا واضحين ..
وقال على الزيبق :
ـ مرحبا بالطائرين المهاجرين عبر الصحراء .. كيف وقعتما من عشكما الدافىء الأمين فوق الشجرة ؟.
وظل الرجلان يحدقان فيه فى صمت ، بينما قال المقدم عمر العيار وهو يعبث بخنجر فى يده :
ـ لقد كمنتما لعلى هنا بعد أن أخفيتما دلو البئر ، حتى يضطر ان ينزل بحثا عن الماء ويفقد أى قدرة على مواجهتكما .. كانت نية

القتل واضحة فى تصرفاتكما ، ولذا فلا تنتظرا منا ان نظن فيكما حسن النية ..

تغير وجه الرجلين ، وقال احدهما فى صوت أجش :

ـ هذا مجرد ظن لا دليل عليه ..

وقال الآخر :

ـ ولا أحد ياخذ الناس بما يظن انهم يبيتون عليه النية ..

قالت فاطمة فى صوت متوتر :

ـ نحن نعرف من ارسلكما .. ولم ؟.

قال الأول فى تحد :

ـ انت لا تعرفين شيئا ، فلم يرسلنا أحد ..

قال على الزيبق فى سخرية :

ـ ولم يضعكما أحد فوق الشجرة ، فقط تعبتما من الطيران ، فاستقر بكما الرحال فوق الاغصان ..

نظر اليه الرجلان فى جمود ، بينما قال المقدم عمر العيار :

ـ لا فائدة من الحديث العاقل او الحديث الساخر معهما ، هذان رجلان عاشا والعنف هو تجارتهما ، وهما لهذا لا يفهمان الا حديث العنف ..

شحب وجه الرجلين ، وقال الاول :

ـ ماذا تعنى يا مقدم ؟.

هز المقدم عمر العيار الخنجر فى يده ، ولوح بحده نحو الجمرات المتوهجة تحت الظبى المشوى ، وقال :

ـ هذا الظبى عرف ملمس خنجرى ، كما عرف ماذا تفعل النار بالجلد واللحم ..

ازداد شحوب وجهى الرجلين ، واهتزت شفتا الرجل الثانى وهو يقول :

ـ ليس لدينا ما نخفيه ، اسال ونجيب ..

قالت فاطمة :

ـ الم يرسلكما صلاح الكلبى ؟.

كان السؤال مفاجئا للاثنين ، فنظر كل منهما الى الآخر ، وقال الاول :

ـ لقد طردنا المقدم صلاح الكلبى من القاهرة ، وحرم علينا دخولها ..

قال على الزيبق :

ـ اذن فانتما تعرفان صلاح الكلبى ، فمن انتما من رجاله ؟.
قال الثاني :
ـ لقد طردنا من خدمته شر طردة كما قال المقدم حسن ابن الحصرى ..
قال عمر العيار :
ـ آه ، عرفنا الآن أحدكما ، المقدم حسن بن الحصرى الفاتك ، قاطع الطريق ، وعميل صلاح الكلبى فى سرقة القوافل ، وسلب التجار والمسافرين .
صاح الرجل فى بلاهة :
ـ ماذا ؟ كيف عرفت كل هذا ؟ من انت ؟
ضحك عمر العيار وهو يقول :
ـ وزميلك عرفته ايضا .. وسجله فى اللصوصية لا يقل اظلاما عن سجلك ..
صاح الثانى فى ذهول :
ـ أنا ، ما هذا الكلام ؟.
قالت فاطمة :
ـ لقد وعدت أن تقول الصدق ، وقلت أننا ان سألنا أجبت ، والآن نسأل ، ولا نريد اكاذيب فى الاجابة .
هز الرجل رأسه فى حيرة وقال :
ـ الم تسمعى ما قاله ، اهو يعرفنى حقا ؟.
عاد عمر العيار يضحك وهو يقول :
ـ المقدم على بن البيطار ان لم تخنى الذاكرة ، صاحب الرحلات الدائمة بين بلادنا وبلاد الافرنج .. والذى اشتكى من جبروته وسطوته التجار هنا وهناك ..
قال الرجل :
ـ هذه أكاذيب ووشايات .. فلم أكن أبدا فى خدمة الافرنج..
قالت فاطمة :
ـ لماذا اختلفتما مع صلاح الكلبى ؟ ولماذا طردكما من خدمته.
قبل ان يجيب أحدهما عن سؤالها ، قال المقدم عمر العيار :
ـ من قال انهما اختلفا معه ، أو انه طردهما من خدمته ..
هما الى الآن فى خدمته ، ومهمة القضاء على الزيبق عند بئر النجاة هى آخر مهمة كلفهما بها رئيسهما صلاح الكلبى .
قالت فاطمة :
ـ هذا ما اكده لى الرجل الذى زارنى فى الفجر .
قال حسن بن الحصرى :

ـ مهلا ، مهلا .. من هذا الذى زارك عند الفجر ؟.
ضحكت فاطمة فى سخرية وقالت :
ـ احد المقدمين امثالك استيقظ ضميره ، ورأى ان قتل انسان برىء اعطاه السلطان منديل الامان جريمة .
قال على بن البيطار ، وفى صوته رنة صدق :
ـ وكان هذا رايى منذ البداية ، وتأكد هذا الراى حين رايت الشاب على الزيبق عرفت انه ليس الشقى الغليظ الذى صوره لنا المقدم .. اعنى رسول صلاح الكلبى .
قالت فاطمة فى اصرار :
ـ ومع هذا كنت تنوى قتله ؟.
اشاح على بن البيطار بوجهه ، وهو يقول :
ـ لن تصدقينى لو قلت لك الحقيقة ، فما الفائدة ..
قالت فاطمة :
ـ لست افهمك يا مقدم على .. ماذا تريد ان تقول ؟.
ضحك المقدم عمر العيار ، وهو يقول :
ـ هو يعنى ان ضميره استيقظ ، ولكن بعد ان تورط فى عفن صلاح الكلبى .
بسرعة قال على بن البيطار :
ـ هذا صحيح .. صدقتمونى ام لا .. فالمسالة اننى انفذ الاوامر حقا ، ولكنى فى بعض الاحيان احس بالضيق عند التنفيذ ، وبالندم بعده ...
قال على متدخلا فى الحديث :
اذن فانتما لا تنكران انكما دسيسة صلاح الكلبى ؟.
قال المقدم حسن بن الحصرى :
ـ ولماذا الانكار .. انتم تعرفون كل الحقائق بالفعل ، والانكار لن يجدى ، بل سيزيد موقفنا سوءا .
وقال المقدم على بن البيطار وهو يشير براسه الى الغزال المشوى :
ـ حتى لو كنتم تريدون قتلنا ، الا ناكل شيئا من هذا الشواء حتى نموت على شبع ..
ضحك على الزيبق ، وقال :
ـ عرفنا ما نريده منكما ، ولست احبذ ان يعانى احد من الجوع بعد ما مررت به منذ قليل ..
قال المقدم عمر العيار وهو يعيد خنجره الى قرابه :

ـ انتما مجرد ادوات لا قيمة لها ، ولا تهمنا فى شىء ..
قال المقدم حسن بن الحصرى وهو يحرك يديه المقيدتين :
ـ واذن ...
قال على :
ـ سأفك قيودكما وتأكلان ، ثم تنصرفان بلا عودة ، ولو رأيت وجهيكما بعد هذا فلوما أنفسكما ..
قالت فاطمة :
ـ وستتركان راحلتيكما معنا فعلى يحتاجهما فى طريق العودة الى الوادى .
قال على :
ـ ولكن يا أم ..
قالت فاطمة :
ـ كفاك ما حدث حتى الآن ، لن يطمئن قلبى الا بعودتك معنا الى القاهرة ..
قال عمر العيار وهو يشهر خنجره ويقترب من الأسيرين :
ـ لقد قرر على أمركما ، وحياتكما ملكه فلا ينس احدكما ذلك، ولكن هيا الى الطعام ..

- ١٦ -

المدينة المرصودة

كانت الشمس تختفى وراء الافق ، وقد بدأت نسـمات الغروب الرطبة تحرك اغصان الأشجار عند بئر النجاة ، ووقف على وأمه وعمر العيار يرقبون الرجلين المبتعدين فى سرعة ، لا يلتفتان خلفهما ، وكأنما لا يصدقان انهما نجوا من موت محقق ، وتنهدت فاطمة وهى تقول :

ـ لن يتوقفا قبل أن يصلا الى الوادى .

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ امرهما لا يعنينا الآن ، المهم هو أن ينام على فى امان هذه الليلة ولا يستأنف رحلته الا فى الصباح ..

قال على فى دهشة :

ـ سأكمل رحلتى اذن .

قالت فاطمة فى حزم :

ـ أنت خرجت فى مهمة يا على ولابد لك من اتمامها ، وعندما تستيقظ فى الصباح لن تجدنى ، ولن تجد المقدم عمر العيار ، وانما ستجد فرسا كريما عند حافة البئر .

صاح على فى دهشة :

ـ فرسا .. ولكن الصحراء ؟

ضحك المقدم عمر العيار وهو يقول :

ـ ليس هناك بعد بئر النجاة صحراء ، بل بداية الغابات الكثيفة ولذلك سمى المكان باسم بئر النجاة فمن وصل اليه كتبت له السلامة الكاملة ..

قال على :

ـ والمدينة المرصودة فى الغابة ..

قالت فاطمة :

ـ المدينة المرصودة على حافة بحيرة ضخمة وسط الغابات ، وجزيرة صندوق التواجيه ليست بعيدة عنها .

قال على :

ـ تعنين انها جزيرة وسط البحيرة .. ؟

قال المقدم عمر العيار :

ـ لقد قطعت اخطر مراحل رحلتك بسلام .. واحسبك ستوفق يا علي ..

قالت فاطمة :

ـ والآن جسدك محتاج الى كل الراحة ، فنم الى جوار راكية النار هذه وسنترك لك جزءا من الشواء لافطارك ، واستودعك الله يابني .. عد ظافرا فلن يرضيني الا هذا .

ورقد علي الى جوار الركية وهو يريد أن يحتج على تركه وحيدا ، ويريد أن يقول لامه أن تبقى ، ويريد أن يظل مستيقظا حتى يعرف ماذا ينتويان .. ولكن لم يقدر مدى الارهاق الذي تحمله جسده ، فما أن وضع راسه على جرابه الى جوار الجمرات المتوهجة حتى راح في نوم عميق ..

كان شيء ما يأكل ذراعه ، وكأن الذراع كله قد غدا مضغة في فك حيوان مفترس ، وعند انفه تصاعدت روائح لحم محترق .. وتحرك ، وأحس أنه يرفع يدا ثقيلة ، وأنه يحرك قدما أكثر ثقلا .. وحاول مرة ومرة ثم استطاع أخيرا أن يفتح عينيه ، وطالعته السماء وهي تشرق بالنور الوليد ، ونظر الى ذراعه فأجفل ، كان ذراعه العاري يرقد فوق جمرات النار الملتهبة ، وأسرع يرمي بنفسه بعيدا عن راكية النار ، وارتجف حين أدرك ان رائحة اللحم المحترق التي كان يشمها في نومه كانت رائحة لحمه هو .. وكان ذراعه قد مسته الجمرات في أكثر من موضع بدت لعينيه ملتهبة محمرة ، وتذكر (حرندان) الادوية الذي أعطاه له الشيخ زكي البتوكي ، فمضى الى حيث ترك جرابه ، وأخرج الحرندان ، وجعل يبحث في محتوياته حتى عثر على وعاء صغير مكتوب عليه (مرهم الحروق) .. وفتح الوعاء ، ومضى يدهن مواطن الالتهاب في ذراعه ، وسرعان ما أحس بالبرودة تسري في مكان الالتهاب ، وبالألم يزول تدريجيا فأعاد الوعاء الى مكانه ، وهو يبتسم .. في هـذا الحرندان أوعية مختلفة تحوي أدوية من كل نوع ، تعالج كل مرض . الحروق ، والجروح ، والتسمم ، والام المعدة . ولدغة الثعبان ولسع الحشرات والهوام . حتى أمراض البرد وأوجاع الراس ، لم يترك الشيخ زكي البتوكي شيئا من علمه وطبه لم يضع له منه ما يكفيه . واعاد الحرندان الى مكانه في الخرج فاصطدمت يده بحرندان آخر ، واخرج الحرندان ومضى يتامل مافيه ، زجاجات النفط ، تشعل الفتيلة في مقدم الزجاجة فاذا هي جيش كامل يقضي على عشرات من الاخرين . ثم ملاعيب الصين هكذا أسماها الشيخ زكي البتوكي ، تخرج اضواء واصواتا والوانا ،

لحظة أن تشعلها ·· وابتسم الزيبق ، وهو يعيد كل شيء الى الحرندان
وسمع صهيل جواد ، قطع عليه تفكيره ـ وقام منتصبا يبحث عن مصدر الصهيل ·· وهناك عند حافة الدغل ، وجد جوادا أصـــيلا ، يقف قلقا ، يضرب الأرض بحوافره ـ واحس منذ اللحظة الأولى بعشق للجواد ، وباشفاق عليه ، فلا شك أنه جوعان ، فما حوله من العشب قد أكل كله ، ولا شك انه عطشان ، ولاشك أن قيده طوال الليل قد ضايقه ، وأضجره ·· وتقدم من الجواد الذى أجفـل لمقدمه ، ولكنـه همس اليه بكلمات مطمئنة وهو يمد يده بحذر الى عنقه ، ليربت على عرفه ، وسيل الهمسات المطمئنة ينثال من فمه ·· واستكان الجواد اليه وهز رأسه ، وهو يتشمم على الزيبق ، الذى حله من وثاقه ، وأخذ يقوده الى البئر ، وما أن وضع الدلو المملوء امامه حتى اخذ يشرب فى شراهة وظمأ ·· وهمس على الزيبق فى أذن الجواد :
ـ لم نخلق انا ولا انت لهذا التيه من الرمال ، ورحلتنا من الآن ستكون تحت ظلال أشجار الغابة ··
وكأنما فهم الجواد حديث الزيبق ، فرفع رأسه من دلو الماء لحظات ليصهل ويهز جسده كله ، كأنما يؤمن على كلام الزيبق ·· وفى هدوء حمل عليه السرج ، وأعد الجواد وثبت لجامه ، ثم وضع عليه خرجه وجرابه وما به من حرندانات ، وتلفت حوله فوجد الى جوار راكية النار بقايا شواء تركتها له أمه وعمر العيار ـ فمضى يأكل على مهل وهو يتأمل الدغل حوله ، كان كل شيء ساكنا حوله فى هذه اللحظات الأولى من النهار ، وكانت تأتيه من أعماق الدغل أصـــوات طيور مبكرة ، وحيوانات تتحرك فتحرك معها العشب النامى ، وتشكل فيما بينها مجموعة من النغمات الرقيقة لمعنى الحياة الآمنة الوديعة ، وارتد بصره الى الصحراء القاحلة تمتد من الناحية الاخرى ، فارتجف وهو يتذكر معاناته المميتة فيها ، وعاد يرد بصره الى الدغل ، هنا حياة ، وهنا موات ، والفيصل بينهما هذا البئر ·· مجرد نبع ماء ·· وتنهد وهو ينهى طعـــامه ، ويطوى ماتبقى منه بعناية ويضعه فى الخرج ، ثم يملأ قربة الماء من ماء البئر ، ويشرب كفايته ، ثم يقود جواده عبر الباحة التى تحيط بالبئر فاذا ما وصل الى حافة الدغل امتطاه ، وهو يمضى فى طريقه على مهل ، فهو لا يريد أن ينهك الجواد ، كما لا يريد أن يضل طريقه فيجد نفسه مرة أخرى وسط الصحراء ·

مع اشعة نفس الفجر استيقظ رجلان منهكان كانا ينامان فوق

مشتاقا أن أنازله ، ثم جاءت هذه الوقعة ، فتأكدت مما سمعت .. ولكن
وصمت لحظات في وجوم ، وعاد يقول :
ـ ولكن لابد لى أن أهزمه ، وأتفوق عليه ..
ضحك على بن البيطار وقال فى مرارة :
ـ تتحدث عن التفوق ، ونحن هنا جوعانان ، عطشـانان ، هدنا التعب ، وما زالت الصحراء أمامنا على اتساعها ، وان لم يقض علينـا الجوع والظمأ ، قضت علينا رحلة النهار فى شمس الصحراء القائظة..
قال حسن بن الحصرى ، وهو يزيد قبضته انطباقا على ذراع على بن البيطار :
ـ ألم أقل لك ان الحظ ما زال الى جانبنا ..
قال على بن البيطار :
ـ كيف ، ونحن راجلان بلا رواحل ، وأمامنا هـذه الصـحراء القاتلة ؟
قال حسن بن الحصرى :
ـ لم نعد راجلين ، ولا جائعين ولا ظامئين .. فهذه القافلة ستحل كل مشاكلنا ..
ارتفع صوت على بن البيطار رغما عنه وهو يسأل فى حدة :
ـ أتظن حقا أنهم سيقبلون اعطاءنا الطعام والمـاء ، وراحلتين لرحلتنا عبر الصحراء .
ضحك حسن بن الحصرى ساخرا وهو يقول :
ـ هل تعتقد انهم من المجانين ليتخلوا لاثنين لا يعرفون عنهما شيئا عن ماء وزاد فى مثل هذه المرحلة من الرحلة .. أو أن يتخلوا عن دابتين قد يكونان الفيصل لهما بين الحياة والموت فى هذه الصحراء المخيفة القاسية ؟
صمت على بن البيطار لحظات يفكر فى كلام حسن بن الحصرى ، ثم قال فى بطء :
ـ اذا كنت تعنى ما فهمته من كلامك .. فلن ننتظر دعوة من أحد
ترك حسن بن الحصرى ذراع رفيقه ، وهو يقول :
ـ هناك لحظات فى حياتك أحس فيها ان لك مخا فى رأسك ومنها هذه اللحظة .
قال ابن البيطار فى تردد :
ـ ولكنها دقائق وتظهر الشمس وتكشف كـل تحـرك لنا فلا

نستطيع أن نتسلل الى المضارب ، أم تريد أن نقود هجوما مباشرا عليهم نحن الاثنان فقط وليس معنا سلاح ولا خيل .
ضحك ابن الحصرى وقال :
ـ سأحسدك لو استمرت هذه الموجة من الذكاء تعتريك طويلا .
قال ابن البيطار فى ضيق :
ـ وما أقوله تقرير لواقع لا يحتاج الى ذكاء ..
قال ابن الحصرى :
ـ تقرير الواقع شيء ، والاستفادة منه شيء اخر ، وما تقوله معناه أننا اذا أردنا أن نحصل على ما نريد فعلينا أن نتحرك الان وفى الحال.
نظر اليه على بن البيطار ، وقال فى تردد :
ـ تعنى أن نهاجمهم الان .
تنهد ابن الحصرى وهو يقول :
ـ بل اعنى أن نتسلل الى المخيم الان ، وفى غبش الفجـر المخيـم ، وعلينا بسرعة فائقة أن نحصل على راحلتين ، وعلى الطعام والشراب ، فى وقت واحد ، وأن نختفى كالأشباح مع آخر أشعة الظلام حتى يهزمها الفجر الان ..
وجم ابن البيطار ثم قال هامسا بعد لحظات صمت طويلة :
ـ المغامرة محفوفة بالمهالك ، فنحن لا نعرف عددهم ، ولا حقيقة قوتهم ، ولست أحب أن أتسلل الى مكان لم أدرســه من قبــل ، ولم اعرف عنه كل كبيرة وصغيرة .
قال حسن بن الحصرى فى اصرار :
ـ للضرورات احكام يا صاحبى ..
قال ابن البيطار مترددا :
ـ قد يكون فى هذا هلاكنا ..
أمن حسن بن الحصرى على حديثه قائلا :
ـ نعم قد يكون هذا وقد يكون فيه نجاتنا ، ومثلنا لا يعرف طعما للحياة الا اذا اقتربت من خطر الموت .. ماذا قلت ؟
ضحك على بن البيطار فى استهتار ، وقال :
ـ صدقت ، ليس مثلنا من يتحدث عن الموت ، ونحن الذين نزرعه فى طريقنا .. عليك أنت بالماء والزاد ، وسأتولى أنا أمر الرواحل ..
قال حسن بن الحصرى :
ـ ولماذا الرواحل ؟
ضحك على بن البيطار وقال :
ـ لا تنس انني بيطار بن بيطار ، ولى مع الدواب صحبة طويلة..

وفى صمت تسلل الرجلان نحو المخيم تحميهما اشعة الفجر المريضة ، وتحكم حركاتهما خبرة طويلة فى عالم اللصوصية ، ومهاجمة القوافل الآمنة .

أحس على الزيبق بالنشاط يدب فى اعطاف الحصان فجأة ، وانه بدأ يسرع فى مشيته وهو يرفع رأسه يتشمم الهواء أمامه وربت على الزيبق على عنق جواده ، وترك له الحبل على الغارب ، ورفع رأسه هو الآخر وقد أحس بنسمة منعشة تملأ الهواء حوله ، وعرف انهما مقبلان على نبع ماء ، وكانت الرحلة طوال الصباح قد انهكته ، وكان الحر رغم أشجار الغابة وخضرتها قاسيا ، وفجأة ازدادت سرعة الجواد ، وتطلع الزيبق أمامه ليجد غديرا وسط الحشائش والاشجار ، يلمع ماؤه تحت أشعة الشمس المتوهجة ، فتنهد فى ارتياح وهو يسرع بجواده الى حافة الغدير ، وهناك ترجل ، ورفع عن جواده أحماله ، وسرجه ولجامه ، وتركه يندفع الى الماء ليشرب ، ويغوص برأسه فى الماء ، ويبعد عن حافة الغدير ، ثم يصهل فى سعادة وهو يهز جسده المبلل هزا .. ومضى على الزيبق يخلع ملابسه ، ويدفع بنفسه الى الغدير يستحم فى مائه ، وقد نسى نفسه ، ونسى متاعبه وهمومه .. وكان ماء الغدير عذب المذاق يروى العطش ، كما كان باردا يزيل الحر ويرفع عن الجسد الاحساس بالتعب ، ولم يخرج على الزيبق من الغدير الا احساسه بالجوع فمضى الى حافته ، وساق حصانه معه ، ومضى يزيل عن جسد الجواد الاتربة والماء ، ويجففه فى عناية ، ثم ساقه الى الحشائش يرعى وجمع الزيبق حطبا جافا ، واوقد نارا يطهو عليها طعامه ، ويأكل فى استمتاع .. ثم ارتدى ملابسه ، وأسرج جواده ، ورفع عليه الأحمال من جديد ، ومضى فى طريقه ، وهو يحس انه يزداد اقترابا من هدفه .

خلف الكثبان الرملية التى اقترفا عندها ، التقى اللصان من جديد ، وقد غمرت أشعة الشمس الكون ، وبدأت حرارتها تثقل جسديهما .. ونظر كل منهما الى ما جاء به زميله وعلى شفتيه ابتسامة رضا عريضة ، وقال حسن بن الحصرى وهو يتأمل الجوادين اللذين ساقهما زميله وقال :

ـ لقد أحسنت الاختيار ، وحقا انك يا على بيطار ابن بيطار ..

هز على بن البيطار كتفيه فى استخفاف وهو يقول :

ـ الخيل تألفنى وتعرف رائحتى ، ولا تنفر منى أبدا ، والحراس

اكتفوا بربط أقدامها بحيث ترعى ما تجد من عشب جاف ، فقد كان الحراس متعبين ، ولا طاقة لهم بالبحث عن مرعى ، وكان الامر بالنسبة لى سهلا فقد رقدت بجسدى وسط أقدام الخيل ، والخيل لا تطأ جسد رجل فوق الارض ، حتى أخذت هذين الجوادين ، وظللت أهمس لهما بحديث تعرفه الخيل حتى تمكنت من ربطهما بحبل ، وأخذت اتحرك ببطء ، وهما يتبعانى وباقى الخيول تفسح لنا مكانا ، وأى مراقب لهما كان سيظنهما يبحثان عن بقايا العشب الجاف وسط هذه الصحراء القاحلة ، وما ان ابتعدت عن حافة المضارب حتى أسرعت بهما الى هنا ‥ الا ترى ، كان الامر سهلا بالنسبة لى ، فقد قمت به فى زمانى عشرات المرات ‥

وضحك وهو ينظر الى الاحمال التى ينزلها حسن بن الحصرى من فوق كتفيه ، وقال :

ـ وأنت ماذا أحضرت ؟

قال حسن بن الحصرى :

ـ مهمتى كانت أسهل من مهمتك بكثير • فواضح ان القافلة تضم عدة مجموعات اجتمعت متوحدة لضمان الامان فى العدد ، فأخذت أنتقل بينهم ومعهم فى ثقة وهدوء وكأنى واحد منهم ، وكل مجموعة تظن أننى أنتسب للمجموعة الاخرى ، وحملت معهم أحمالهم ، ونصبت معهم الخيام ، ومن خلال حركتى ، أخذت زقين من الماء ومجموعتين من الزاد ، لك ولى ‥

قال على بن البيطار فى دهشة :

ـ جئت بزقين ومجموعتين من الزاد ، لماذا ؟

ضحك حسن بن الحصرى وهو يحمل نصيب بن البيطار ويضعه أمامه :

ـ ربما أكملنا الطريق معا ، وربما كان لك رأى آخر ‥

ثم مد يده يتناول الحبل الذى يقود أحد الفرسين ، ومضى يربت على ظهره فى اعجاب وهو يقول :

ـ أنت فعلا تفهم فى الخيل يا ابن البيطار •

قال على بن البيطار متجاهلا كلمات المديح :

ـ ألن نعود الى مصر معا ‥

قال حسن بن الحصرى :

ـ بل انا عائد الى على الزيبق ، اعرف الان انه يتجه الى المدينة المرصودة ، وسأسبقه اليها ، فالأمر بينى وبينه لم ينته بعد ‥

قال على بن البيطار :

ـ ولكنك قلت :
قاطعه حسن بن الحصرى قائلا :
ـ أعرف ما قلته من قبل ، ولكن الآن هذا قرارى ، فاذا كان هو قادرا على احضار صندوق التواجيه ، فانا قادر على هذا أيضـــا ٠٠ ولا تنس أن أوامرنا هى أن نقضى عليه ٠
هز على بن البيطار كتفيه ، وقال :
ـ لك طريقك ولى طريق ، انا عائد الى مصر وكفـانى مالاقيت من ملاعيب الزيبق ، ولا تنس ان بيننا خائنا أفشى سرنا ، ولابد أن يعلم المقدم صلاح الكلبى بالامر حتى يأخذ حذره ٠٠
ضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :
ـ اذن الامر كما قدرت أنا ٠٠ لك من الان طريق ، ولى طريق ٠٠
وفى صمت حمل كل منهم نصيبه من الزاد والماء فوق جواده ، دون كلمة وداع ، أخذ كل منهما طريقا غير طـريق الاخر ، واحـد الى مصر ليشى بما يعرف لصلاح الكلبى ، والثانى الى المدينة المرصـــودة رسول موت وخطر لعلى الزيبق ٠

قبل الغروب بقليل خرج على الزيبق من الغابة ليجـد نفســه فى منطقة صخرية تتخللها الأعشاب والاشجار ، وما أن سار فيها قليلا حتى وجد أمامه تلا عاليا ٠ ووقف يتأمل التل ويريح جواده من سيره الطويل ، فلاحظ قطعان الماشية التى ترعى فى سلام فى مناطق متفرقة من منطقة الاعشاب ، وتلفت حوله بحذر باحثا عن راع مع الماشـــية ، فلم يجد أحدا ، وتأكد أنه وصل الى منطقة اهلة بالســكان ، وحدثه قلبه انه اقترب من غايته ، ان لم يكن قد وصل اليها بالفعل ، وقــرر أن يتوخى الحذر فى كل ما يفعل من الان ، فترجل عن جواده ، وقاده الى التل ، وظل يبحث بعينيه وهو يصعد التل حتى وجد مدخل مغارة فقاد اليها الجواد ، وربط قدميه حتى لا يبتعد ، ثم تخفف من ملابسه وتقلد سيفه ، ومضى يصعد التل فى حذر ٠٠ وكلما ازداد صـعودا كلما ازداد تأكدا من وجود بشر يستوطنون المنطقة ، فهناك أثار قطـع الحجارة لبناء المنازل ، وهناك اشجار كثيرة مقطــوعة ، وهنـاك اثار قطعان من الابقار مرت من جانب التل الى جانب ٠٠ وحين وصـــل الى قمة التل تأكد من ظنونه كلها ، فأمامه تمتد منطقة واسعة من الاعشاب تليها أسوار مدينة ضخمة وكبيرة ، وكان يستطيع أن يرى شوارعها خلف السور تموج بالحركة والنشاط ، كما استطاع أن يميز بيوتهـا

المصنوعة من الحجارة على نمط واحد ، ولونها كلها بلون تراب التل الاحمر •• واختبأ خلف صخرة ناتئة وهو يتابع بعينيه سور المدينة الذى يحيطها كلها ، الى أن وصلت عيناه الى البوابة الضخمة المفتوحة والتى لا تكف عندها حركة الدخول والخروج ، وارتفعت عيناه فوق البوابة ليجد تمثالا ضخما لرجل نحاسي يمسك بوقا نحاسيا ..وخفق قلبه ، فهذه لاشك بغيته •• المدينة المرصودة ، وهذا هو الرصد حارسها الذى ينفخ فى البوق ان دخلها غريب •• وظل على الزيبق فى مكانه يشاهد الحركة الحية فى المدينة الى أن بدأت الشمس فى المغيب وأخذ الظلام يطبق تدريجيا على الوادى تحته •

ـ ١٧ ـ

بنت السلطان

كان الرعاة يعودون بقطعانهم الى المدينة ، ومن ناحية الجنوب اقبلت قافلة من الجمال تدخل من البوابة المفتوحة ، بينما خرجت كوكبة من الحراس راكبى الخيول يطوفون بسور المدينة من الخارج، وبدأت أضواء المشاعل والمصابيح تلمع فى شوارع المدينة ، ومن نوافذ منازلها .. وظل على الزيبق فى مكانه يرقب الحركة عند البوابة حتى بدأت تبطىء من ايقاعها ، وعادت كوكبة الحراس من جولتها ، ودخلت من البوابة ، ثم تصاعدت نداءات الحراس هنا وهناك ، واغلقت البوابة فى بطء ، وسكن حولها كل شىء .. وأدرك على الزيبق أن المدينة تستعد لقضاء ليلة هادئة ، لا أحداث فيها .. فعاد منسحبا الى الكهف الذى ترك فيه جواده وقد قر قراره أن يريح جسده حتى منتصف الليل حتى تنام المدينة تماما ، وتطفأ الانوار فى منازلها وشوارعها ، فيفكر فى حيله يدخل بها المدينة متخطيا عقبة الرصد صاحب البوق .. وحين وصل الى الكهف حياه صهيل الجواد ، فربت على رقبته يطمئنه ، ثم رقد عند مدخل الكهف ، ووجهه الى خارجه ، ويده على سلاحه ، وسرعان ماراح فى سبات عميق ..

فتح الزيبق فجاة عينيه ، وان ظل جسده ساكنا فى مكانه لا يتحرك ، فرغم عمق استغراقه فى النوم الا أن حواسه كلها كانت منيقظة ، ولهذا فقد أحس بالحركة التى تدور على مقربة منه .. وظل فترة يتتبع هذه الحركة باذنيه ، وان كانت عيناه لا تستطيعان اختراق الظلام الذى يحيط بمصدر هذه الاصوات الخافتة التى كانت تبدو وكأنها وقع أقدام عديدة حذرة تسير فوق الصخور على مقربة منه .. واستجمع الزيبق حواسه ، ثم نهض حذرا ، وتسلل الى خارج الكهف ، ثم سار قاصدا مصدر الصوت وهو حريص على أن تكون كل حركاته بلا صوت يشى بوجوده ، ودلت أذناه على أن هذه الاصوات تتجه الى مكان ما على يمينه . فتحسس طريقه باقدامه قبل أن يخطو ناحيتها ، وهو يمد يديه ، يتلمس صخور

التل ، ويحمد الله ان القمر هذه الليلة سيتأخر طلوعه ، فلاشيء الا الظلام الحالك يستر حركاته ، ولا يعكس له ظلا .. وفجأة توقفت الأصوات ، وكفت الأقدام عن الحركة ، وكأنها تلاشت فى السماء ، او ابتلعها جب فى الارض ، وابتسم لنفسه ، وهز راسه ، لابد ان أصحاب الأصوات التى سمعها دخلوا كهفا عميقا أخفى أصواتهم عن أذنيه .. واحس بفضول حاد يدفعه الى أن يكشف سر هذه الأصوات ومصدرها ، فلا نجاح لمهمته الا اذا كان يعرف كل ما يدور حوله ، وكل من يتحركون مثله حول المدينة ، فمضى يتحرك بحذر وقد ارهف أذنيه ، الى أن التقط أصواتا خافتة مكتومة تصدر من مكان امامه تماما .. وفجأة لمح ضوءا ذابلا يتذبذب ، ولكنه يلمع وسط الظلمة الداكنة ، وحين ازداد اقترابه لمح ضوءا ثانيا ثم ثالثا، ثم رابعا .. وأدرك الزيبق انهذه الاضواء تصدر عن مشاعل مضاءة فى الكهف الذي استطاع انيحدد مكانه ، وأن يرى فتحته من مكانه بوضوح .. ثم بدأ يسمع همهمة اصوات تتبادل الكلمات فى صوت مرتفع ، تتخللها ضحكات خشنة فيها نشوة ، وفيها قسوة فى آن واحد .. وأدرك على الزيبق أنالكهف الضخم يضم مجموعة كبيرة من الرجال ، وانهم تسللوا فى الظلام حتى لا تشعر بهم المدينة ، وانهم وجدوا الأمان فىالكهف فأضاءوا المشاعل ، وتركوا لأنفسهم الحبل على الغارب مطمئنين الى أن باب المدينة مغلق ، ولن يخرج منها أحد حتى الصباح .. ولم يسترح على الزيبق لما أوصله اليه تفكيره ، فهناك رائحة شر تفوح من الأمر كله ، وتؤكدها هذه الضحكات الخشنة العربيدة المتصاعدة من الكهف .. وتقدم فى حذر الى حافة الكهف ، ثم انبطح على وجهه ، ومضى يزحف فى سكون حتى وصل الى الفوهة ، ثم سكن فى مكانه تماما.. ولما لم يصدر أى صوت يشى بأن احدا قد احس به ، أزداد جراة ، ودخل الى داخل الكهف ، واختار مكانا لا تصل اليه أضواء المشاعل ، ثم سكن يرقب ما امامه فى صمت وترقب .. واصابته رؤيته للفتاة المقيدة بصدمة كادت تدفعه الى حركة تكشف وجوده ، ولكنه تمالك نفسه بسرعة وعاد ينظر اليها بامعان ، كانت بارعة الجمال ، ترتدى ثيابا غالية ، واسعة العينين ، سمراء البشرة ، غزيرة الشعر .. وكانت عيناها مليئتين بخوف واضح ، جعلهما يبدوان اكثر اتساعا وجمالا .. وكان شعرها قد فقد نظامه ، وتساقطت جدائله المضطربة فوق كتفيها ، وكانت تجلس فى وسط الكهف تنعكس على شعرها وعينيها

اضواء اكثر من مشعل ، وكانت يداها وقدماها مقيدة بحيث تعجز عن الحركة ، ولكنها كانت تدور بعينيها الواسعتين المذعورتين فى الرجال العديدين الذين جلسوا يأكلون ويشربون، ويتبادلون النكات والضحكات فى مجاميع متناثرة من أنحاء الكهف .. ولاحظ على الزيبق ان جميع الرجال كانوا سود البشرة تسود بشراتهم حمرة تجعلها تبدو كالنحاس، بينما كانت ملامحهم تنطلق بالشر والاجرام والقسوة وكان هناك اثنان يتنقلان بينهم بأوعية الطعام ، وآنية الشراب . بينما جلس وحده فى ناحية من الكهف رجل ضخم الجثة ، شرس الملامح ، يعبث بسوط ضخم فى يده اليسرى ، بينما يلتهم قطع اللحم المكومة امامه فى شراهة ، وبين الحين والحين يرفع زق شراب وضعه الى جواره ، ويشرب منه حتى يتدفق السائل من فمه الى ذقنه وصدره العارى .. وحين اعاد الزق الى مكانه ، مسح فمه بظهر كفه اليمنى .. وقال فى صوت جهورى أجش ، وعيناه مثبتتان فى شراهة على الفتاة المقيدة المذعورة .

ـ هل رأى أحدكم من قبل مثل هذا الجمال المتكبر .. أليس خسارة أن يصبح كل هذا الجمال ملكا لرجل واحد يغلق عليه الأبواب ، ويخفيه وراء الستر .

توقف أحد الرجلين المتحركين بالطعام بين الرجال ، وحدق فى العملاق الأسود ، وقال :

ـ ولكن يامونجو هذا الرجل سيكون ملكنا سلطان ، ملك بحر الغزال ..

ضحك مونجو فى وحشية ، وهو يمسك بعظمة ثرية باللحم الذى يكسوها ، يمزقه بأسنانه ويلوكه ثم قال من فمه المحشو بالطعام :

ـ قد يكون ملكك انت يالومبا فانت من رجاله ، أما انا فاعمل له بالأجر ، ومن وراء الظهور ، وفى مهماته القذرة التى لا يستطيع ان يكلف بها رجاله المعروفين مثلك ..

قال لومبا وهو يضع صحاف الطعام على الأرض ، ويتوجه اليه بكليته :

ـ قد تكون يامونجو فاتكا وقاطع طريق لا ولاء لك لأحد ، ولكنك فى هذه المهمة بالذات تعمل من اجل الملك وبأجر معجز ، وعلى وعد بعفو عام عن كل جرائمك السابقة ، فلا تنس هذا أبدا ، والا جلبت على نفسك وعلى رجالك غضب الملك سلطان وحنقه ..

ضحك مونجو ، واشار بالعظمة فى يده الى الرجـــال المتفرقين فى نواحى الكهف ، وقال :

ـ هؤلاء الرجال لا يعرفون معنى العفو او الأمان ، نحن ناخذ ما نريد ولا نبالى .. وليس لهم ولاء الا لى اناوحدى ، فانا الذى اقودهم الى المال والمتعة ، واناالذى اخرجهم من المازق وانقذهم من الاخطار .

وضع الرجل الثانى حمله من صحاف الطعام على ارض الكهف، وانضم الى لومبا فى وسط الكهف وهويقول :

ـ لم ارتح منذ الأصل الى المهمة التى كلفك بها الملك ســـلطان انت ورجالك ، فهى مهمة غادرة وخسيسه ، أن تخطف بنت سلطان المدينة المرصودة التى رفضت الزواج به لفارق السن بينهما ، ولما تناهى الى سمعها من اعمال تصدر عنه ولا ترضاها هى . ولكنه الملك ، وامره مطاع ، ومادمنا قد قبلنا امره فعلينا أن ننفذه كاملا .

عاد مونجوبضحك من جديد ، وهو يضرب فخذيه بكفيه ، كأنما يجد متعة فيما يحدث ، ثم سكت عن ضحكه فجأة ، وضرب الأرض امامه بسوطه فى قسوة ، وقال فى صوت مدو :

ـ اسمعنى يامافى ، وانت يا لومبا .. لقد ارسلكما الملك سلطان معى لكى تراقبانى انا والرجال ، فهو لايثق بى منذ البداية .. وانا اشاركه عدم الثقة هذه ، فمن أين لى انه سيفى بوعوده بعدان اسلمه بنت السلطان .. ولماذا أسلمها له هى الآن فى يدى ، اســتمتع بها انا والرجال ، ثم نبيعها فتاتينا باضعاف اضعاف ما وعـدنى به الملك ..

واشار بيده ، فاذا بالرجلين وسط الكهف محاطين بســيوف عديدة مسلولة مهددة . ووقف الرجلان يتبادلان النظرات فى وجوم ، وعاد مونجو يقول امرا :

ـ جردرهما من السلاح ، وقيودهما حتى ننظرا ما نفعل بزوجة ملكهما المنتظرة ، وبعد هذا نستمتع بعذابهما وقتلهما .. فانا لا احب الجواسيس ، ولا رجال الدرك المغرورين بقوتهم ..

وادرك على الزيبق خطورة ما سيحدث ، فانتهز فرصة الهرج الذى ساد الكهف ، والرجال يتدافعون نحو لومبا ومافى لتقييدهما ، ونزع سلاحهما ، فانسل خارجا من الكهف ، ومضى يجرى نحـو الكهف الذى اخفى فيه جواده ..

قبل ان يصل على الزيبق الى الكهف توقف فجاة ، فقد ارتفعت حوله ضجة كبيرة ، ولمعت من ناحية المدينة اضواء مشاعل متعددة، وانتهك صمت الليل صخب ونداءات ، وصهيل خيل ، وأصوات جربها بسرعة ، وتوقف فى مكانه حائرا ، ثم بدأ يرقى التل الى مكانه الاول الذى كان يرقب منه المدينة اول وصوله . وما ان وصل اليه حتى تكشف له الوادى المؤدى الى المدينة وقد امتلأ بالحركة والنشاط ، كما تبدت له المدينة وقد فتحت بوابتها الكبيرة ، واعداد كبيرة من الفرسان تخرج منها مسرعة الى كل نواحى الوادى ، وهم يحملون المشاعل ، ويهزون فى أيديهم الرماح والسيوف .. ولم يفهم على الزيبق السر فى كل هذه الضجة اول الأمر ، ولكنه سرعان ما تذكر الفتاة المقيدة فى الكهف ـ بنت السلطان ـ فادرك أن اختطافها قد اكتشف ، وأن البحث عنها وعن مختطفيها قد بدأ .. وأدرك أن الخطر الذى يحدق بالخاطفين يحدق به هو ايضا ، وانه ينبغى عليه أن يسرع بالعمل ان كان يريد النجاة ، فلو استطاع انقاذ بنت السلطان من أيدى مختطفيها لفاز برضاء السلطان عنه ، ومن يدرى ربما كانت هذه خطوته الأولى نحو الفوز بصندوق التواجيه .. واسرع يغادر مكانه الى كهفه من جديد ..

اطمأن على الزيبق على جواده ، وربط مقوده بصخرة ناتئة داخل الكهف حتى لا يدفعه الجوع الى الخروج منه فيكتشف أمره ، واخذ من جرابه ما يحتاج اليه من ذخيرة ، وتقلد سلاحه ، وعاد يتسلل من جديد الى كهف اللصوص وبنت السلطان ، وكان يسير مسرعا متنقلا من صخرة الى صخرة كالشبح لا يعنيه أن يخفى وقع اقدامه على الصخور ، فالضجة الآتية من ناحية المدينة كفيلة أن تبتلع داخلها اى صوت آخر ، وحين وصل الى الكهف وقف متحيرا ، فقد كان مظلما تماما وقد اطفئت كل المشاعل التى كانت تنيره منذ حين .. ووجف قلبه حين خطر له انه وصل متاخراً ، وان اللصوص قد قتلوا الفارسين من بلاد الغزال لومبا ومافى وهربوا بالفتاة الى حيث لا يعلم أحد .. ولكن هناك همهمات من أعماق الكهف أعادت له الاطمئنان فهم مازالوا هنا ، وأن اطفأوا الانوار واختبأوا كالفئران فى جحر من الجبل .. وحين تسلل على الزيبق الى مدخل الكهف ليكمن خلف الصخرة التى كمن وراءها أول مرة ، سمع صوت مافى الهادىء يقول فى سخرية :

ـ وكنت تظن انك ستفلت بغنيمتك دون أن يشعر بك احد .
قال مونجو في صوت أجش :
ـ لابد انهم يبحثون عن الغريب الذى دخل المدينة فنفخ الرصد النحاسي في البوق .
ووجف قلب علي الزيبق ، وكتم انفاسه في ترقب ودهشة ، وسمع لومبا يقول :
ـ البحث عن الغريب بدأ منذ أول الليل ، وقد اشرت عليك ساعتها أن تنتهز فرصة انشغالهم في تفتيش المدينة بحثا عنه لكى نتسلل الى القصر ونخطف الفتاة .. وكانوا حريصين على أن يظل باب المدينة مغلقا حتى لا يتسلل الغريب هاربا منها ..
ـ نحن تسللنا من النفق الخلفى الذى حفرناه لندخل الى المدينة، ولم يشعر بنا احد ..
ضحك مافى في تشف وهو يقول :
ـ هذا ما أريد أن افهمك اياه ، لو كانوا يبحثون عن الغريب لظلت بوابة المدينة مغلقة فهم لا يعرفون عن أمر النفق شيئا ، اما وقد فتحوا الأبواب ، وخرج الحراس الى الوادى فمعنى هذا أن طلبتهم الآن ليس الغريب وانما طلبتهم بنت السلطان ، ومن اختطفت بنت السلطان :

***

قال مونجو ، وقد بدأت نبرات الخوف تتسلل الى صوته .
ـ هكذا بسرعة ، لقد قدرنا انهم لن يكشفوا غيابها الا في الصباح .
ضحك مافى في سخرية وقال :
ـ لاشك ان ضجة البحث عن الغريب ايقظت الجميع ، وان الفضول دفعهم الى قاعة السلطان ، ولاشك انهم لاحظوا أن الأميرة ليست بينهم ، ولعلهم اندهشوا ان الضجة لم توقظها ، وان الفضول لم يدفعها لان تلحق بهم ، فبحثوا عنها في غرفتها ، وهناك :
صاح مونجو في عصبية :
ـ كفى ، انتما تحاولان بث الرعب في قلوب الرجال .. وهذا لن يجديكما ..
وتحدث أحد رجاله لأول مرة فقال في صوت مرعوب :
ـ نحن محاصرون بامقدم في هذا الكهف ، وفرسان السلطان قاسم سلطان المدينة المرصودة تحاصر الوادى والجبل ، وحين يعرف الملك سلطان ملك بحر الغزال اننا غدرنابه ، واخذنا الفتاة لأنفسنا

سيندفع الى مطاردتنا بكل رجاله ، فلا نخرج من هذا الوادى — ان خرجنا منه — الا الى سيوف سلطان ورجاله ..

صاح مونجو فى حنق :

— ومن الذى سيخبر الملك سلطان اننا استحوذنا على الفتاة ، حين تغيب عنه سيظن اننا فشلنا فى مهمتنا .. صاح نفس الرجل فى عصبية بالغة :

— هذان الرجلان يامقدم ، اليسا من رجال الملك سلطان ؟ اليسا من رجال الدرك

ضحك مونجو فى وحشية وهو يقول :

— اشعلوا أحد المشاعل ، ومزقوهما بسيوفكم ..

وافاق على الزيبق من ذهوله ، فاسرع يخرج سهم النفط بحمولته من البنج ، واطلقه فجاة فى سقف الكهف .. وتوهج السهم كالشهاب ، ثم سقط منطفئا وهو يصدر هسيسا كالفحيح .. وساد الوجوم الكهف لحظة ، تعالت بعدها صيحات مذعورة هنا وهناك ، وحركة مفاجئة ، وكانما يريد الرجال أن يندفعوا هاربين الى خارج الكهف ، وجاء صوت مونجو أمرا فى عصبية واضحة :

— ليثبت كل منكم فى مكانه ، لعلها حيلة لاخراجنا من الكهف حيث تنالنا سهام مجهولة تقتلنا جميعا ..

قال الرجل الذى تحدث من قبل فى ذعر واضح :

— انه الشيطان يامقدم ، أرسل شرارة من جهنم لتحرقنا حيث نحن ..

ومن الظلام جاء صوت لومبا المتهكم الهازىء يقول :

— الشيطان يحرق أعوانه .. حتى الشيطان سيدكم ومولاكم انقلب عليكم ..

صاح مونجو :

— اسكت ، فى الكهف افعى ، ولعلها قفزت الى داخل الكهف فلمع جسدها فى ضوء القمر وحسبناه شرارة من نار .. وعاد الوجوم يسود الكهف من جديد ، بينما سكت صوت الهسيس فجاة ، فارتفعت أصوات خائفة ، وهمهمات مرعوبة ، وحركات مضطربة — وعاد مونجو يصيح :

— كفوا عن الحركة حتى يتضح لنا صوتها ، فان سمعتموه من جديد ، مزقوها بسيوفكم ..

وعاد الهدوء القلق يسود الكهف من جديد ، بينما انسحب على الزيبق فى هدوء الى خارجه ، حيث طالعه ضوء القمر الذى طلع متأخرا هذه الليلة ، فاستنشق على الزيبق هواء الليل النقى ،

وحبسه فى صدره طويلا ، ثم زفره فى راحة ، وهو يتحرك نحو قمة التل حيث مكمنه الذى يراقب منه الوادى والمدينة .. وجلس على الزيبق خلف الصخرة يتامل الحركة المتزايدة التى اصبحت واضحة فى ضوء القمر .. وأدرك أن استنتاج لومبا وماق كان فى محله ، فهؤلاء قوم يبحثون عن هاربين ، أحسوا انهم افلتوا بأميرتهم من أسوار المدينة وبابها المغلق ، وكان واضحا من حركاتهم المضطربة ان القلق بدأ يغزو قلوب قادتهم ، كما كان واضحا انهم ينتظرون نور الصباح ليبداوا حملة منظمة للبحث فى كل مكان فى هذا التل .. ولا يدرى على الزيبق كيف طالعه وجه زينب الجميل المتبسم ، ماذا كان يفعل لو كانت هى المختطفة بدلا من هذه الأميرة السمراء ، وذهب من قلبه كل تردد أو رحمة بالمختطفين .. هؤلاء ينبغى أن يلقوا عقوبتهم كاملة ، فما أقدموا عليه جرم لا يغتفر .. وازداد حنقه حين تذكر الكلمات الداعرة التى رددها مونجو فى الاستحواذ على الفتاة ، وأباحتها لرجاله ، ثم بيعها فى سوق النخاسة . وحين اتجه آخر الأمر الى الكهف كان يرتجف حنقا وغضبا على مونجو ورجاله ، فاقدى الضمير والخلق ـ وكان متأكدا أن البنج قد فعل فعله فى شاغلى الكهف ، فمد يده فى الحرنذان واخرج ضد البنج وتناوله ، ثم دخل الكهف فى هدوء ليطالعه صمت مطبق ، وعلى ضوء القمر المتسلل من مدخل الكهف راى احد المشاعل المطفأة ، فتقدم منه وأشعله ، واسنده الى جوار صخرة بالكهف، وانبعث من المشعل ضوء خافت كشف عن اجساد الرجال ملقاة وقد تمكن منهم البنج هنا وهناك حيث كانوا يجلسون أو يرقدون من قبل ، واتجه نحو الفتاة فحملها الى خارج الكهف ، ثم مضى يخرج مجموعة من الحبال من الحرنذان ، ويقيد بها مونجو ورجاله قيدا وثيقا ، يقيد ذراعى كل واحد خلف ظهره ، ثم يقيد قدميه خلف ظهره ويتركه ملقى على الأرض ووجهه الى أرض الكهف .. وحين انتهى من مونجو ورجاله، اتجه الى لومبا وماق فقيد أيديهما أمامهما ، وقيد قدميهما بحيث يستطيعان الوقوف فوقها ، وتحريكها فى نطاق ضيق ، ثم حملهما واحدا واحدا الى خارج الكهف ووضعهما الى جوار الجارية المقيدة .. ثم انطلق يبحث عن صخور كبيرة يسد بهامدخل الكهف .. فدحرج الصخرة الاولى فسدت نصف فتحة الكهف ، ودحرج صخرة ثانية سدت نصف الفتحة الثانى ، ثم دحرج صخرة ثالثة أسندها الى الصخرتين السابقتين ، وجمع بعض الأعشاب والأغصان الجافة فرماها فوق الصخور وحولها وأمامها ..ونظر الى ما فعل فى ضوء

القمر ، فاطمأن ان مدخل الكهف قداختفى تماما ، وان احدا لن يدرك ان هناك كهفا فى هذا المكان الا اذا كان يعرف مكانه من قبل ..

حمل على الزيبق الفتاة فى رفق ، ومضى يسير بها نحو الكهف الذى أخفى فيه جواده ، فوضعها برفق فـوق الأرض ، ثم فك قيودها ، وأخرج ملاءة فرشها فوق أرض الكهف ، وارقدها فوقها، ومضى يدلك قدميها ويديها فى رفق حتى عادت الدماء تجـرى فى عروقها ، واعطاها ضد البنج ، وخرج الى حيث ترك رجلى الدرك من بلاد بحر الغزال فحملهما واحدا أثر الآخر الى داخـل الكهف وتركهما فوق ارضه مقيدين كما كانا .. ثم عاد الى جرابه يخـرج طعاما منه ، ومضى يجمع حطبا جافا، ويوقد نارا يضع عليها الطعـام لينضج فقد كان قد ابتدأ يحس بالجوع ، كما انه توقع أن تكـون الفتاة جائعة اذ لم يقدم اليها الرجال فى الكهف أى طعام .

جلس على الزيبق القرفصاء يرقب اللحم وهو ينضج وافكـاره تعود به الى زينب ، لابد انها وصلت الى بغداد الآن ، وأصـبحت هناك آمنة عند أمها ..وربما كان المقدم سالم يستعد للعودة الى القاهرة من جديد ..ترى هل تذكره زينب كما يذكرها ، وانتبه من أفكاره على صوت تنهيدة تصدر من الفتاة ، ثم عطست ، وهمست فى صوت خافت لا يكاد يبين :

ـ أين أنا ..

وقام على الزيبق من جلسته ، واتجه اليها ، فرآها تتطلع اليه بعينيها الواسعتين وقد ملأتهما دهشة وذعر واضحان ،وقال فى صوت رقيق :

ـ انا صديق ، انتهى اسرك ، وانت الآن حرة ..

مضت تدلك رسغيها من آثار القيود ، وتجيل بصرها فى الكهف ، وهى تقول :

ـ هذه روائح شهية ، هل تطهو طعاما .

ضحك وقال :

ـ الطعام جاهز ، ومرحبا بك لتشاركينى فيه ..

وفجاة صرخت فى ذعر وهى تشير الى الرجلين المقيدين ، وهبت من جلستها تتراجع بعيدا عنهما فى الكهف ، فضـحك على الزيبق مطمئنا وهو يقول :

ـ عرفت صديقيك لومبا وماق ، لا خطر منهما فهما مبنجـان ومقيدان ايضا ..

قالت وهى تحلق بعينيها فيهما :

ـ كانا مع من اسرونى ، وفهمت انهما من رجال الملك سلطان ملك بحر الغزال ..

قال على الزيبق :

ـ أحكى لك من أمرهما ما لا تعرفين ، وتحكين انت لى حقيقة ما مر بك .

قالت فى دهشة :

ـ انت تعرفهما .. ؟

قال وهو يشير الى الطعام الذى تفوح منه روائح شهية :

ـ عرفتهما منذ ساعات ، وعرفت انهما كانا سيدفعان حياتهما ثمنا لانقاذك من مصير مخيف .. هيا الى الطعام . نقلت بصرها بينه ، وبين الطعام ، ثم اتجهت اليه ، وجلست مترددة ، وهى تقول :

ـ لقد سمعت كل شىء ، ورأيت كل شىء ، فرغم كل ماكنت فيه من عذاب القيد ، ورعب توقع المصير المخيف ، كنت أعى كل ما حولى :

قال الزيبق وهو يجلس الى الطعام قبالتها :

ـ اذن فانت تعرفين ، وفرت على الحديث الطويل الذى لا داعى له .. هيا الى الطعام .

ولم يطل ترددها ، بل مدت يدها الى الطعام فى لهفة الجائع ، وقالت له :

ـ من انت ؟ وماهى حكايتك مع هؤلاء اللصوص ، فليس فيك ماينبىء بانك منهم ..

قال لها الزيبق :

ـ ستعرفين من انا ولماذا جئت الى مدينتكم ، ولكنى اريد ان اعرف ما اسمك .

قالت :

ـ انا بنت سلطان المدينة المرصودة ، واسمى زينب ..

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ زينب ، ما اعجب هذا ..

ونظر اليها .. ثم مضى يضحك من جديد .

- ١٨ -

حديث فى الكهف

توقفت يد بنت السلطان وهى تحمل قطعة اللحم الى فمها ، ونظرت الى على الزيبق فى دهشة وهى تقول :

ـ ما الذى يضحك ، هل فى اسمى ما يضحك ؟ اسم زينب اسم شائع ومعروف فى بلادنا ، وانا زينب بنت السلطان قاسم سلطان المدينة المرصودة ..

توقف على الزيبق عن ضحكه ، وأمسك بقطعة لحم ، ومضى يأكل منها فى نهم ، وهى تنظر اليه فى قلق ودهشة ، ولما انتهى من مضغ قطعة اللحم وبلعها ، ابتسم فى وجهها ، وقال :

ـ ليس فى الاسم ما يضحك ، ولكن فى الامر ما يحير ، فمنذ بدأت رحلتى الى هذه البلاد انستنى المخاطر وجها حبيبا الى ، لصيقا بقلبى ، ولكن منذ رأيتك مقيدة فى الكهف ، وهذا الوجه يطالعنى بالحاح ، وهو يطالعنى مرتبطا بك كأنما يدفعنى الى انقاذك دفعا .. فاذا عرفت أن صاحبة هذا الوجه اسمها زينب ، عرفت سر حيرتى ودهشتى ، وسر ضحكى حين سمعت اسمك ..

نظرت اليه فى هدوء ، ومدت يديها تعيد ترتيب شعرها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة ، وهى تسأله :

ـ اهى جميلة ؟

ضحك فى حرج تحت وقع نظراتها العابثة ، وقال :

ـ هى فى مثل سنك ، وهى .. ايضا جميلة ..

ضحكت فى مرح ، وقالت وهى تعود الى الطعام من جديد :

ـ اذن فانا جميلة مثلها ، واذكرك بها ، وهى التى دفعتك الى انقاذى رغم بعدها .. هل هى حبيبتك .. ؟

قال على وهو يغض من بصره محرجا :

ـ ستتزوج ، وانا هنا لاتم مهمة لابد منها قبل أن أتقدم اليها ..

صفقت بيديها ، وقالت فى مرح :

ـ الفارس النبيل يثبت جدارته باميرة قلبه .. ما أجمل هذا ، كأننى اسمع قصة من قصص الحب التى كانت تحكيها لى جدتى وانا طفلة ..

ظل على الزيبق يرقبها وهى تأكل فى صـــمت وقد أحس بعزوف كامل عن الطعام ، واخذ يقلب النار التى اخذت تخمد بقطعة حطب فى يده ، وانتبه على صوتها وهى تقول مشيرة للرجلين المقيدين فى ناحيـة من الكهف :

ــ وماذا تنوى ان تفعل بهما ٠٠ ؟

تنهد على الزيبق ، وهو يتابع حركة يدها ، وقال :

ــ سأسلمهما الى والدك ليعيدهما الى ملك بحر الغزال ، ليحكيا له كيف كان رجاله المأجورون ينوون بك .. وليؤكدوا له خطأ الملوك حين يلجأون الى قطاع الطرق واللصوص لاداء مهمات قذرة كهذه ٠٠

ضحكت بنت السلطان ، وقالت :

ــ سيقتلهما أبى فور رؤيته لهما ، فقد كانا ضمن الوفد الذى أرسله الملك ســـلطان لخطبتى ، وقد فهما ردى ورد أبى ، وهو الرفض ، فلو عرف انهما شاركا فى خطفى ، ومحاولة ارغامى على مالا أحب ، فلا جزاء لهما عنده الا القتل ٠

هز على الزيبق رأسه وهو يقول :

ــ ان كان متعطشا الى القتل فعنده مونجو ورفاقه فليفعــــل بهم ما يروقه ، لكن لومبا ومافى ليسا من ســـفاكى الدماء ٠٠ وموقفهمـــا الشجاع ضد مونجو يغفر لهما ٠٠

قالت فى حنق :

ــ لا ٠٠ هما شريكان فى جريمة اختطافى ٠

هز على الزيبق كتفيه ، وهو يقوم من مجلسه ، ويتجـه الى ناحية الرجلين المقيدين الغائبين عن الوعى فقالت زينب بنت الســـلطان فى فى انزعاج :

ــ ماذا ستفعل ؟

مد على الزيبق يده فى حرنداته واخرج ضد البنج ، وأعطاه لهما ، وقال دون أن يبالى لهجة الاحتجاج فى حديثها :

ــ اعطيهما ضد البنج ليفيقا ، وريسمعا منك انت الحكم باعدامهما ٠

صاحت زينب بنت السلطان فى غضب ، وهى تترك الطعـــام ، وتهب واقفة :

ــ من قال اننى اوافق على عودتهما الى وعيهما ، الافضل ان نسلمهما الى جند ابى السلطان وهما غائبان عن الوعى ، حتى لا يقاوما ..

قال على الزيبق فى سخرية :

تقصدين نسوقهما الى الذبح كالنعاج ، وهما غارقان فى غيبوبتهما

وقبل ان ترد زينب بنت السلطان عطس لومبا عدة مرات ، وفتح عينيه ، ثم عطس مافى عطسات متكررة وفتح عينيه ، وقالت زينب بنت السلطان فى غضب :

ـ لقد تسرعت ، لقد أمرتك ان تتركهما كما كانا ..

ضحك على الزيبق وهو يقول :

ـ أنا الذى أسرتهما ، وانا الذى اقرر ما يتم فى أمرهما ، واجلى اصدار الاوامر حتى تصلى سالمة الى قصر إبيك السلطان ، وتصبحى الامرة الناهية فى رجاله .. اما هنا فأنا صاحب الأمر والنهى، أفعل ما اراه صالحا .

وتدافعت الكلمات الغاضبة الى شفتى زينب بنت السلطان ، ولكنها وقفت عند شفتيها جامدة حين تنهد لومبا وقال :

ـ أين أنا ؟

فالتفتت أنظار على الزيبق والاميرة زينب اليه ، وكان يجيل حوله عينين زجاجيتى النظرة ، تتحركان فى محجريهما دون ان تريا شيئا .. وانتبها على آهة تصدر من مافى ، وسؤال هامس يند عنه قائلا :

ـ أين أنا .. ؟

قالت الاميرة زينب فى سخرية :

ـ أليس على لسانهما سوى هذا السؤال : أين أنا ؟

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ لو سمعت نفسك حين أفقت من البنج لما سخرت منهما ..

قالت فى تردد ودهشة :

ـ هل سألت نفس السؤال ؟

ردد لومبا سؤاله من جديد فى صوت ضعيف ، وقد بدأت نظراته تصفو ، وبدأ الادراك يدب فيهما وهو يدير عينيه فى المغـارة ، وفى الواقفين أمامه ، حتى استقرتا على رفيقه المقيد مثله ، فقال على الزيبـق للاميرة :

ـ نعم نفس السؤال .. يبدو ان كل من غاب عن الوعى يسأله حين عودته الى وعيه ..

ثم التفت الى لومبا وهو يقول :

ـ انت فى مكان أمين يالومبا بعيدا عن مونجو وأعوانه ..

حرك لومبا رأسه ليستطيع ان ينظر الى على الزيبـق ، واجال فيه عينيه ، ثم قال :

ـ لم ارك من قبل .. ومع هذا فأنت تعرف اسمى ..

قال على الزيبق ، وهو يتقدم نحوه ، ويجلس قبالته :

ـ اسمى لا يهمك ، ولا يهم احدا فى هذه النـواحى ، فأنا قادم من بلاد بعيدة ، ولكنى أعرف اسمك واسم مافى .

بلاد بعيدة ، ولكنى أعرف اسمك واسم مافى فقد سمعت مونجو في الكهف يخاطبكما باسميكما ..

جاء صوت مافى الخافت الملىء بالخوف يقول :

ـ مونجو الخائن الملعون .. ولكن .. لكنى مقيد .. مازلت مقيدا كما قيدنى رجال مونجو ..

عاد لومبا يقول ، وقد أسترد صوته وهدوءه :

ـ اهدأ يا مافى ، نحن حقـــا فى الأسر ، ولكننـــا لسنا فى خطر الموت ، وآسرنا فارس كريم ..

ثم التفت الى على الزيبق وهو يبتسم ويقول :

ـ الست انت مطلق ذلك الثعبان الذى أثار حين اصـــطدم بجدار الكهف ، ثم اخذ يفح حتى ارعب كل عصـــابة مونجو .. وحين كف عن الفحيح كنا جميعا فى سبات عميق ؟

ضحك على الزيبق وهو يقول :

ـ يعجبنى ثباتك ، وذكاؤك ، لقد وصلت الى لب الحقيقة برميتك .

عاد مافى يقول ، وقد بدأ الخوف يزايل صوته :

ـ ولكن اذا كنت صديقا فلماذا القيد .. ؟

قال على الزيبق وهو ينهض من جلسته ويسير الى مدخـل الكهف فيطل منه ، ويعود اليهما ليواجههما من جديد :

ـ أمركما موكول الى سلطان المدينة المرصودة ..

شحب وجهاهما وارتجف صوت لومبا وهو يقول :

ـ اتريد أن تسلمنا اليه .. ؟

تدخلت الاميرة زينب بنت السلطان فى الحديث لاول مرة قائلة :

ـ هما يعرفان ماذا ينتظرهما على يدى أبى ..

ازداد شحوب وجهيهما ، وتبادلا نظرات يائسة ، وقال مافى :

ـ ولماذا انقذتنا من مونجو ان كنت تريد أن ترمى بنا الى السلطان قاسم ؟

قال على الزيبق :

ـ لقد سمعتكما وأنتما تدافعان عن الاميرة ، بل لقد سمعتكما هى أيضا بنفسها ..

ضحك لومبا فى سخرية وهو يقول :

ـ كنا سندفع حياتنا ثمنا لالسنتنا الطويلة ·
قال على الزيبق :
ـ ونحن نعرف هذا أيضا ، ولذلك فلست أظن ان السلطان قاسم يقتلكما ·
قال لومبا فى مرارة :
ـ لقد كنا نؤدى واجبا ، وننفذ أوامر الملك سلطان ملكنا ، ملك بحر الغزال ·
صاحت الاميرة زينب وهى تضرب الارض بقدمها :
ـ هل تعترفان انه هو الذى أمر باختطافى ؟ ··
نظر لومبا اليها طويلا ، ثم هز رأسه وقال :
ـ لقد عرفت الحقيقة كلها أيتها الاميرة مما سمعت فى الكهف، فلماذا السؤال ؟
قالت فى اصرار :
ـ لابد أن يعرف ابى حقيقة الملك سلطان ، ويعرف ايضا أن حسى كان صادقا حين رفضت الزواج منه ، فهو ليس أكبر من أبى وحسب ، بل هو قاس لا يرحم، ومتغطرس مغرور ، لا يكبح جماح شهواته ولا نزواته ولا شره ··
أطرق لومبا ولم يجب ، بينما قال مافى :
ـ نحن نخدم بلادنا بأن نخدم الملك ، وعلينا الطاعة وعليه الامر ·
قبل أن تجيبه الاميرة زينب بنت السلطان ، قال على الزيبق :
ـ ولاؤك لمليكك يا مافى لم يمنعك من الدفاع عن الاميرة ، ومقاومة مونجو حين ظهرت نواياه الخبيثة القذرة ··
قال مافى وهو يتنهد :
ـ نحن فرسان ايها السيد ، ولسنا لصوصا مأجورين ، فنحن فى درك الملك ··
وقال لومبا مكملا حديث رفيقه :
ـ وعلينا حماية زوجة الملك المستقبلة مهما كلفنا الامر ·
قالت الاميرة زينب فى مرارة :
ـ زوجة الملك المستقبلة التى يحظى بها الملك بالخطف والقسر ، وعن طريق لصوص وقطاع طرق لا ضمائر لهم ·
لم يجب الرجلان ، بل تبادلا النظرات فى صمت ·· قال على الزيبق وهو يعود الى مدخل الكهف ينظر من خلاله من جديد ، ثم يعود ليواجههم جميعا :
ـ أين يضعكما كل هذا ·· ؟ فى كفة الشر ام فى كفة الخير ؟

ضربت زينب أرض الكهف بقدميها وهي تقول في حنق :
ـ بل في كفة الشر ، منذ البدء ، وهما قد مهدا للصوص خطفي ..
قال مافي مستسلما :
ـ كانت أوامرنا ان ننتهز غفلة من الحرس ونحضر الاميرة للملك ، ليرغم سلطان المدينة المرصودة على الموافقة على زواجه من ابنته ، زواجا حقيقيا وشرعيا ، ولم نجد غضاضة في هذا ، فقد كان تصورنا جميعا ان الذى رفض هو السلطان ، وأنه يترفع عن مصاهرة ملكنا ، وهذه اهانة للملك ولنا ، ولمملكة بحر الغزال كلها ، فليست المدينة المرصودة من القوة والثقل بحيث ترفض مصاهرة مملكتنا والارتباط بها مثل هذا الرباط المشرف .
صاحت الاميرة زينب في غضب :
بل نحن أكفاء له ، ولو تعرض لنا بقتال لهزمناه ..
ضحك لومبا ، وصمت لحظات ، ثم قال :
ـ هذا ما كنا نحاول ان نتجنبه .. الحرب بين البلدين ، فقد كانت هذه الحرب ضرورية يوم رفضت ايتهـا الاميرة يد الملك ، وجاء هذا الحل الوسط ، ان نأسرك ، فيرغم السلطان على الموافقة على مصاهرة الملك ، وتتجنب البلدان حربا ضروسا ، يسقط فيها شباب البلدين صرعى ، بلا مبرر حقيقي .
قالت الاميرة زينب بنت السلطان :
ـ من اجل كرامتي وحرية اختيارى تقوم الحروب .. لماذا لا .. ؟
ضحك على الزيبق ضحكة خففت من التوتر في جو الكهف ، وقال :
ـ هذا حقك ايتها الاميرة ، ولكن من حق شباب البلدين أن يتمتع بحياته ومستقبله ، ولا يهدرها من اجل لا شيء .
صاحت الاميرة وهي تضرب أرض الكهف في غضب فائق :
ـ وهل أنا لا شيء .. ؟
لم يفقد على الزيبق هدوءه ، بل قال في بطء :
ـ لو نجح مونجو فيما انتوى عليه لكنت لا شيء الآن ، وغدا ، وكل غد مقبل ..
افحمت الاميرة ، فصمتت ، ثم جلسـت الى أرض الكهف ، وفي عينيها الم وتعاسة ، وضحك مافي وهو يقول :
ـ انت تفهم ايها الفارس موقفنا ، فلماذا القيد .. ؟
قال على الزيبق :
ـ حتى احتفظ بكما هنا الى حين اقدمكما للملك .
قال لومبا فجاة :

ـ لك هدف .. أقسم ان لك هدفا تريد أن تحققه .

قال علي الزيبق مبتسما :

ـ بالطبع ، فقد جئت الى المدينة المرصودة لهدف معين ، وساقت الى الظروف وجودكما ، والاميرة ، ومونجو ـ ليسهل كل هذا الى السبيل الى حصولى على هدفى .

ساد الصمت الكهف فترة ، وفجأة ضحك لومبا وقال :

ـ صندوق التواجيه .. ليس من هدف لمغامر من الخارج الا الصندوق ، فكم تكسرت عليه رغبات المغامرين .. أنت تريد صندوق التواجيه .. اليس كذلك ..

وصمت الزيبق ، فقد أذهله ان يصل لومبا الى لب القضية بهذه السهولة .. ثم قال :

ـ وماذا فى انى أريد صندوق التواجيه .

فوجىء الزيبق بضحك يملأ الكهف ، ضحكت الاميرة زينب ، وضحك لومبا ، وضحك مافى .. حتى امتلأ الكهف بالضحك واحاطه ودار به ، كل الموجودين يضحكون ، ويضحكون ، كانهم يخرجون من اعماقهم كبتا مخيفا خيم عليها زمنا ، ووجد فى كلماته ما ينفس عنه ، فانطلقوا يضحكون ـ ووجد نفسه بعد حين يضحك معهم ، ويضحك وهو لا يدرى لماذا يضحك .. وقال لومبا :

ـ هذا شىء معجز لا طاقة لبشر به .

وقال مافى :

ـ لقد احببتك أيها الفارس فاصرف النظر عن هذا الهدف المستحيل

وضحكت زينب بنت السلطان ، وقالت :

ـ كم من الفرسان قتلوا اما داخل المدينة حين دل عليهم الرصد وبوقه ، أو عندما دخلوا الجزيرة فقتلتهم السيوف المسحورة .

قال على الزيبق :

ـ اذن فقد تجاوز بعض الفرسان الرصد وبوقه ..

قالت زينب :

ـ من تجاوزوه تجاوزوه باذن ابى ، ولم يفلح أحدمنهم ابدا ، بل من غادر مدينتنا بعد ان دل عليه الرصد ، تلقفته السيوف فى الجزيرة فقتلته ..

ونظرت اليه طويلا تتأمله ، ثم قالت :

ـ انت حرام على الموت فمازلت صغيرا :

ضحك لومبا فجأة وقال :

ـ المدهش ان خطتنا لخطف الاميرة ما كانت لتنجح لولا ان طفيليا

مثلك حاول ان يدخل المدينة، فاحس به التمثال الراصد ونفخ فى البوق ، واستفر كل فرنسان المدينة المرصـــودة للبحث عنه داخل المدينة المغلقة ، وكنا قد تسللنا من نفق حفرناه تحت سور المدينة ، فسهل علينا وسط هرج فرسان المدينة بحثنا عن الغريب الذى دل عليه بوق الرصد ، ان ندخل مخدع الاميرة ونأسرها .. والكل مازال يبحث عن الغريب المقتحم ، ولو وجدوه لاوسعوه طعنا وقتلا ، حتى لينسوا امر وجودنا .

قال على الزيبق متسائلا :
ــ بالامس دخل غريب الى المدينة .. من هو ؟
ضحك لومبا وقال :
ــ من يدرى لعله أنت .
قال الزيبق فى جدية :
ــ لا لست أنا ، ولكنه بالقطع احد الذين يتعقبون خطواتى .
قال مافى :
ــ هم فى بحث عنه منذ الامس داخل اسوار المدينة ، وهم لم يفتحوا باب المدينة الا حين عرفوا بغياب الأميرة .
قالت زينب بنت السلطان
ــ لابد انهم امسكوه وأعدموه .
ضحك على الزيبق وهو يعـــود مرة أخرى الى فوهة الكهف ينظر عبره ، ثم يعود فى سكون . ويقول :
ــ لم يعدموه بعد .. ولم يعثروا عليه بعد .
قالت زينب :
ــ ماذا تعنى ياهذا .. ؟
وضحك لومبا ضحكته الهادئة وهو يقول :
ــ هذه هى العقدة ، واحد هارب يطاردونه ، والثانى هنا يمســك رهينة سلامته .
قال الزيبق :
ــ لم أقصد هذا ابدا ، ولكنى لن أترك الاخر يموت ، كما لم أترككما لمصيركما المظلم .
قال مافى :
ــ تعنى مصير مونجو وعصابته .
قال الزيبق :
ــ هؤلاء لابد ان أسلمهم الى ســـــلطان المدينة لاعدامهم ، اما انتما

فاحسبكما جديران بالثقة ، سأطلق سراحكما ، على وعد منكما ان تتعاونا معى بلا سؤال ٠

تبادل الاثنان النظرات لحظات ، ثم قال لومبا :

ـ أيها الفارس لقد كنت شهما معنا ، ونحن نعدك ان نكون معك ٠

اتجه على الزيبق اليهما يحل قيودهما ، وصاحت الاميرة :

ـ سيغدران بك ٠

قال الزيبق ، وهو يحررهما تماما من قيودهما :

ـ أنا أثق فيهما ٠٠ والآن امكثا هنا مع الاميرة حتى اعرف مايحدث خارج هذا الكهف ٠٠ فمنذ حين والحركة والاصوات تعنى ان شـــيئا ما يحدث فى الوادى عند اطراف المدينة ٠

قال لومبا وهو يدلك رسغيه :

ـ لك وعدنا ٠٠ وسنظل هنا حتى تعود ٠

- ١٩ -

ملاعيب الصين

كان على الزيبق قد لاحظ هذه الضجة في الوادى منذ فترة،وخرج أكثر من مرة من الكهف يستطلع أمرها ، فلا يطالعه الا صوت معركه ضارية تدور في الوادى ـ وكان لابد أن يعرف معنى هذه الاصوات ومغزى هذه المعركة ، فتسلل فى حذر حتى لا يكشفه ضوء القمرالذى يغمر التل والوادى ، ومضى يتسلل متنقلا من صخرة الى صخرة ، وهو يقترب تدريجيا من حافة الوادى ، وكلما ازداد اقترابه ، علت اليه أصوات تحدد مكان المعركة الضارية التى تدور هناك أسفل التل وعلى مشارف الوادى ـ ولكن حين أشرف من أعلى التل على مكانها كان كل شىء قد انتهى أو كاد .. فارس واحد كان يذود عن نفسه ببراعة وشجاعة فائقتين ، وكانت الاعداد التى تهاجمه من الفرسان تفوق الحصر ، ولكنه كان يدفعهم عن نفسه ، ويصد ضربات سيوفهم بسيفه وخنجره ، ثم يقفز من وسطهم فى خفة ليصبح بعيدا عن متناول ايديهم وسيوفهم ، وسرعان ما يحاصرونه من جديد .. وكان من الواضح انه مثخن بالجروح فقد كانت ملابسه ملوثة بدماء غزيرة ، الاانه كان من الواضح كذلك أن المهاجمين قد دفعوا ثمنا غاليا فقد كان سيفه مضرجا بالدماء ، كما كانت الدماء تقطر من خنجره كذلك .. وعجب على الزيبق من سير المعركة ، فقد كان الاجهاد يبدو واضحا فى حركات الفارس الوحيد الذى بدا فى غاية التعب ، وكان واضحا ان قواه قد خارت ، وان الارادة وحدها هى التى تبقيه واقفا على قدميه،الاانه زال عندما أدرك ان المهاجمين لا يريدون قتله ، وانما هم يريدون أسره ربما ليلقى مصيرا أتعس من الموت السريع بطعنة سيف وتسلل على الزيبق عائدا الى الكهف بسرعة ، وبادرته الاميرة بسؤال ملهوف :

ـ ماذا يحدث ، هل فك مونجو قيوده ، وهرب من الكهف الذى حبسته فيه ، هل هذه المعركة تدور بينهم وبين فرسان أبى ؟

لم يرد عليها على الزيبق فى الحال ، وانما أخذ يعبث فى جرابه حتى أخرج حرندانا خاصا فحمله فى رفق ورفع رأسه قائلا :

ـ انه فارس وحيد ، وليس مونجو ورفاقه فهم ما يزالون يغطون فى نومهم فى الكهف ، ابق هنا ياماقى، وتعالمعى يالومبافاناساحتاج مساعدة منك ..

هب لومبا واقفا ، بينما اعترضت الاميرة زينب طريق الزيبق قائلة :

ـ هل ستذهب لتقابل رجال ابى ...؟!

ضحك على الزيبق وهو يقول :

ـ ان عددهم يفوق الحصر ، وسأكون مجنونا لو فكرت فى الاشتباك معهم ، ولكنى أريد ان أخلص الفارس الذى يهاجمونه منهم .. فأظن اننى أعرفه ..

قال لومبا :

ـ ولكنك قلت انك غريب عن هذه الديار .

قال الزيبق :

ـ وهو أيضا غريب عن هذه الديار .

ـقال لومبا :

ـ غريب ، لعله اذن الذى صرخ عليه الرصد ، ونفخ في البـــوق حين دخوله المدينة ، فهاجت المدينة وماجت ، وتمكنا وسط هذا الهرج أن نأخذ الاميرة من حجرتها دون أن يتعرض لنا أحد .

قالت الاميرة فى غضب :

ـ سيمزقونه بسيوفهم .

قال الزيبق :

ـ الغريب انهم لا يريدون قتله ، واضح انهم يريدون أسره حيا ، وهذا هو الذى أبقاه قادرا على مقاومتهم حتى الان .

قال مافى :

ـ واحد ضد هذا الجمع لابد أنه فارس ماهر شجاع .

ضحك على الزيبق وقال :

ـ لو أنه كان من أظن ، فسيدفعون ثمن أسره غاليا ..

قال لومبا :

ـ لعلهم يظنون انه واحد من الذين اختطفوا الامــيرة ، ويريدون بأسره أن يدلهم على مكانها .

قال على الزيبق وهو يتأهب لمغادرة الكهف :

ـ هذا ما أظنه أيضا ، هيا يا لومبا اتبعنى عن كثب .

حين وصل على الزيبق الى المكان الذى كان يطل منه على الوادى ، وجد أن ما توقعه قد حدث بالفعل ، فقد سقط الفارس فوق الارض واحتاط به جنود المدينة المرصودة يقيدونه وهم يركلونه ويلطمــونه ويصفعونه ويسبونه فى آن واحد ، وسمع لومبا الى جواره يتحرك فى قلق ، فأشار اليه بالصمت ، وقال لومبا هامسا :

ـ سيموت تحت وطأة غضب الجنود الذين اثخنوه بالجراح .
قال على الزيبق :
ـ امكث مكانك ، وساعود اليك حالا ..
وحمل الحرنداك وانطلق حتى احدى الصخور ، فكمن وراءها واخرج من الحرنداك شيئا ثبته بحبل الى الصخرة ، ثم انتقل الى صخرة اخرى بعيدة عن الصخرة الاولى ، وعاد يعبث فى حرنداته ليخرج منها شيئا يثبته اليها ، ثم انتقل الى صخرة ثالثة واخرى رابعة وخامسة ، وفي كل مرة كان يخرج من حرنداته شيئا يثبته الى الصخرة ثم عاد وهو يلهث الى مكان لومبا ، الذى نظر اليه متسائلا ، فقال له على الزيبق :
ـ قف متحفزا فساعود لاشعل هذه الاشياء واحدة اثر الاخرى ، وعندما تنطلق سترى الهول بعينيك فلا تخف ، وتمالك نفسك ، واسرع الى حيث يرقد الفارس الاسير فاحمله وعد به رأسا الى الكهف، واتركه مقيدا كما هو ..
قال لومبا متسائلا :
ـ والجنود الذين يحيطون به .. ؟
ضحك على الزيبق ، وربت على كتف لومبا وهو يقول :
ـ لن يبقى منهم أحد فى مكانه ، وما أظنهم سيكفون عن الجرى الى أن يدخلوا منازلهم ويغلقوها عليهم ..
والان تذكر ، اياك أن تفقد رباط جاشك ، واياك أن تفك قيود الفارس ..
وقبل أن يجيبه لومبا كان على الزيبق قد انطلق الى الصخرة الاولى فكمن وراءها ولمح لومبا من مكمنه وراء الصخرة لهب نار ، ورأى الزيبق يشعل مشعلا صغيرا فى يده ويمس به هذا الشىء الكامن فوق الصخرة . وفجأة انطلق هذا الشىء الاسطوانى الى السماء محدثا دويا مخيفا ثم انفجر فى السماء ليتحول الظلام الى نور براق وهاج والف شهاب يندفع الى السماء ، وكل شهاب فى لون ، ثم يتحرك فى السماء فى شبه دائرة ليندفع الى الارض متوهجا .. وارتفعت صرخات حادة من الوادى ، وصهيل خيول ، واندفاع اقدام .. وافاق لومبا من ذهوله على صيحة على الزيبق وهو يقول له :
ـ لومبا افق ، ولا تلق بالا الى ما يجرى ، اسرع الى الفارس المقيد .
ثم انطلق يجرى الى الصخرة التالية والمشعل فى يده .. وما أن مسه حتى انطلق مارد من ضوء وصوت يرج السماء رجا ليرسم دوائر زرقاء وحمراء وصفراء كانها اذرع تنين مخيف تتعقبه من السماء ..

وهز لومبا نفسه لينتزعها من حالة الذهول التى أصابتها ونظر الى الوادى فاذا هو يخلو من الرجال وقد أسرعوا الى المدينة يتدافعون ليسبق كل منهم الاخر ، يدوسون من سقط ، وهم يصرخون فى ذعر وهلع .. ولم ينظر لومبا الى السماء وانما اندفع منحدرا من الجبل فى سرعة نحو جسد الرجل فاقد الوعى ، مقيد اليدين والقدمين الراقد مضرجا بدمائه فوق الارض .

وحمله فوق كتفيه ، وانتصب .. ولكنه سرعان ما تجمد مكانه وقد شل الرعب حركته ، وانداح العرق من جسده المرتجف كله ، ففى السماء اندفعت ثعابين ملونة ، تدور وتدور ، وهى تطلق أصواتا أبشع من أصوات الرعد القاصف ، ثم تتحرك وكأنما ستتجه نحوه لتبتلعه .. وصاح لومبا رعبا وهو يجرى نحو الكهف كأنما يلتمس النجاة منه ، من شياطين الضوء المجهولة التى ملأت السماء بصراخها ، وحركاتها المخيفة وعيونها اللامعة وذيولها المضيئة ، والهول الذى تهدد به الارض ومن عليها ..

لم يتوقف لومبا فى جرية حتى وصل الى الكهف ، وهناك وجد مافى والاميرة زينب يقفان فى فتحته وقد تجمدا من الرعب ، ونظراتها الخائفة مثبته فى السماء ، بينما كان الحصان داخل الكهف يصهل فى صوت مذعور ، ويضرب الارض بحوافره كأنما يريد أن يتخلص من قيده ليجرى بكل قوته بعيدا عن هذا الهول المرعب .. ورمى لومبا حمله على الارض ، ولم يلتفت اليه أحد ، ووقف مثبتا عينيه فى السماء وسرعان ما دوى القصف من جديد وامتلأت السماء بنجوم لامعة ملونة ، كل نجمة ما أن تلمع حتى تنفجر الى مئات النجوم التى تندفع نحو الارض كالشهب الحارقة ، وجرى لومبا الى الكهف يحتمى به ، يتبعه مافى ، وتتبعهما الاميرة التى جلست منهكة الى الارض وهى تخفى عينيها فى كفها ، وجسدها كله يهتز فى عنف ، ثم انخرطت فى بكاء مرير ..

وفجأة ملأ مدخل الكهف ظل كثيف ، فانتبه الكل فى ذعر ، وتقاربت اجساد لومبا ومافى والاميرة والحصان .. واشتعل ضوء ، ثم خفت ، ولمع ضوء المشعل فى يد الزيبق وهو يثبته الى نتوء صخرة بارزة فى الكهف ، وقال الزيبق :

– انتهى المهرجان ، فكفى ذعرا وخوفا – سيهدأ كل شىء الان ، وتعود السماء صافية تحت ضوء القمر ، ولا خوف علينا ان أشعلنا هذا المشعل فلن يراه احد ، فكل أهل المدينة فى بيوتهم مذعورون وأسوار المدينة خلت من الحرس ، وبوابة المدينة أغلقت .. والكل يلجأ الى ما يعصمه من الهول الذى رآه .

قال الزيبق :
ـ انه العلم ، هذه ملاعيب الصين ، ذخيرة اعطانيها الشيخ زكى البتوكى تنفع حين يحزب الامر ، وحين لا تريد أن تريق دماء لا داعى لاراقتها ..
تحرك لومبا فى حذر ، وهو يتحسس اعضاءه ليتأكد انها فى مكانها الذى اعتاده منها ، ثم قال :
ـ أنت ساحر قدير ، ولم أشهد ساحرا مثلك ، يطلق أعوانه من الشياطين فيدمرون كل شىء ، ويردعون كل انسان كما فعلت وليس فى بلادنا ساحر مثلك ، ولا كبير السحرة وعظيمهم .
وقال مافى :
ـ انا لم أشهد مثل هذه الروع أبدا ، ان شياطين الجن كلها تأتمر بأمرك أيها الفارس . مرة ترسل ثعبانا مضيئا يصطدم بسقف الكهف ثم يفح ، فالكل بعد حين ينام ، ومرة ترسل هذه الشياطين الى السماء فالكل يهرب واذا انت تنال مبتغاك ، وتخلص فارسك من أسر اكيد .
ضحك على الزيبق وهو يقول :
ـ افهماما تشاءان ، المهم انك فى منجاة من كل شىء ، وان فارسا نجا من الاسر ، والموت البطىء ، هاته يا لومبا .
نظر لومبا فى حذر الى على الزيبق ، بينما اتسعت عينا الاميرة زينب وهى تنظر اليه ، وقال لومبا :
ـ هل أخرج من الكهف فى أمان .
ـ قال على الزيبق :
ـ اخرج .. وهاته ، فانت تركته مربوطا عند مدخل الكهف .
قال لومبا وعيناه تدوران فى محجريهما :
ـ ولن تصعقنى صاعقة من السماء ؟.
ضحك الزيبق وهو يقول :
ـ انتهت الصواعق ، فلا تخف ، اخرج ، وهاته .
قال مافى فى صوت مذعور :
ـ حذار يالومبا ، ان السماء تمطر شياطين .
قال الزيبق :
ـ قلت انتهت كل صواعق السماء ، اخرج يالومبا ولا تخف .
قالت الاميرة زينب :
ـ كيف فعلت هذا ، هل انت ساحر ، أم حكيم تسخر الشياطين

ضحك الزيبق وهو يقول :
- ليس في الامر سحر ولا شياطين ، ومع هذا ، فانا أعطيكم كلمة الامان .. اخرج يا لومبا ولن يحدث لك شيء .
واتسعت حدقتا لومبا حتى بدت عيناه واسعتين ، تتحركان في كل اتجاه ، وتلمعان في وجهه الاسود ، وقال :
- سأخرج ، فأنا لست جبانا ، ولكن ما فعلته كثير ، ومخيف .
قال الزيبق :
- أعطيك الامان ، اذهب واحضر الفارس المقيد .
ثم مضى الزيبق الى الجواد ، يربت على عرفه وعنقه ، ويهمس له كلمات رقيقة حانية ، وهدأ الجواد ، وكف عن صراخه وقلقه .. وحين هدأ الجواد خرج لومبا من الكهف ، وعاد يجر وراءه جسد الفارس المقيد ، ووضعه في وسط الكهف ، وقال :
- لم أشهد فعلا كقتال هذا الفارس ، وانت تقول انك تعرفه ، هل أحل قيوده .
قال الزيبق ، وهو يفحص الفارس المقيد الذى لطخته الدماء :
- سأدواى جروحه أولا ، ثم نتكلم بعد هذا .
ومضى الزيبق الى جرابه ، يخرج حرندانا جديدا ، وجعل يبحث فيه حتى وجد بغيته ، فأخرج أوعية ، ومضى يدهن جراح الفارس الغائب عن الوعى بعد أن يغسلها وينظفها جيدا ، ثم مضى يربط الجراح بعناية ودقة ، وحين إنتهى من عمله تنهد وهو يعيد كل الاوعية الى مكانها ، وقال :
- سيشفى من جراحه بسرعة ، فكلها جراح سطحية لاقيمة لها .
ثم جمع حرنداناته وأعادها الى جرابه ، والتفت الى رفاقه في الكهف وقال :
- لنهدأ ونتكلم بلا رعب ولا ذعر .
قالت الاميرة زينب بنت السلطان :
- انت ساحر ، وسحرك فوق كل سحر عرفناه .
قال الزيبق وهو يتحسس ذراعه حيث الحرق القديم :
- ليس في مداواة المرض سحر ، انما هو دواء ، قد يشفى ، وقد لا يشفى .. ولكنه الشيخ زكى البتوكى أعطانى ما يشفى فعلا ، فذراعى رغم الحروق التى عاناها قد شفى ، واعتقد ان جراح هذا الفارس ستشفى بفعل هذه المراهم والادوية كما شفيت جراح يدى من قبل .
قال مافى وهو ينظر اليه في اكبار ورهبة :

– أنت تملك سر الموت وسر الحياة معا ، هذا شيء يدعيه سحرتنا ولكنهم لم يوفقوا الى اثباته كما فعلت أنت اليوم .

قال الزيبق :

– مالا يعرفه الانسان يظن انه السحر ، ولكنه ياصديقي حقائق وعلم ، ولست في مجال الشرح والابانة يكفي أن تعرف ان فارسنا سينجو من جراحه كما قلت لك .

وكأنما كان حديثه على موعد مع افاقة الفارس الجريح ، الذى اهتز فى رقدته ، وتنهد ثم همس :

– ماء أريد ماء

وتحرك الزيبق الى حيث رقدت قرب الماء ، وانتقى واحدة ، وفتح فوهتها ، ثم سكب قطرات فى فم الفارس ، الذى ابتلعها فى شوق ، ثم انتظر غيرها .. وقال الزيبق :

– حذار ياصاحب – اشرب فى بطء حتى لا يضرك الماء .

ثم قرب من فمه الماء .. فمضى الفارس يشرب فى بطء وهدوء ، وحين رفع الزيبق قربة الماء ، قال الفارس :

– شكرا ياعلى ، كنت أريد قتلك فكنت حياتى .

وذهل كل من كانوا فى الكهف ، وقالت زينب بنت السلطان :

– اتسمع ، كان يريد قتلك .

ضحك الزيبق وهو يقول :

– هذا حسن بن الحصرى ، الذى كلفه رئيس درك مصر بقتلى فكمن لى عند بئر النجاة ليقتلنى ، ثم تبعنى الى هنا ليكمل ماطلبه منه مقدمه.

صمت حسن بن الحصرى لحظات ، وهو يجيل بصره فى المتحلقين حوله وقال :

– نعم كمنت لقتلك فى بئر النجاة ، واردت ان اسبقك الى المدينة المرصودة لادبر لقتلك ، فاكتشفنى الرصد وأنجيتنى أنت .. وكنت كريما مرتين ، ومن هنا والى الابد لا عداء بينى وبينك يازيبق ، فانت خلقت لان تكون الفارس والقائد والمنتصر ، وأنا أسلم لك بكل هذا ، صدقنى ، او لا تصدق ، ولكن هذه هى حقيقة ما احسه وانتو به ، وانمل بى ما تشاء .

التفت الزيبق الى لومبا وقال :

– فك قيوده فهو من الان منا ، وليس علينا .

صاحت الاميرة زينب فى انفعال وغضب :

– ألم تسمع ؟ هو اراد قتلك

قال الزيبق وهو يضحك :

- انا اثق فى صدق كلماته - ففارس مثله قاوم كل رجال المدينة المرصودة جدير بالثقة .

قال لومبا :

- هو فارس مجيد

وقال الزيبق :

- وهو حليفى منذ الان لو أراد .

قال حسن بن الحصرى :

- من الحقد يتولد الحب - وانا منذ الان رجلك ، فافعل بى ماتشاء

قال على الزيبق :

- قلت لكَ يالومبا : حل قيوده ؛ فهو من الآن منا .

■ ٢٠ ■

رجال الاقدار

قالت زينب بنت السلطان وهى تتامل فى حسن بن الحصرى ، مقيدا وملقى فى أرض الكهف :

ـ تثق فيه ، ومع هذا تتركه مقيدا .

ضحك الزيبق ، وقال :

ـ فك قيوده يا مافى ، فهو منذ الآن واحد منا .

ضحكت زينب بنت السلطان فى ازدراء وقالت :

ـ واحد منكم ..؟ ومن انتم ؟.

نظر على الزيبق اليها طويلا ، ثم اطرق براسه وقال :

ـ نحن رجال غرباء ، كل منا لم يكن يعرف الآخر ، حتى القت بنا الاقدار لنلتقى فى هذا الكهف ، لا ندرى ماذا تريد بنا القدرة ، ولا ماذا تريده منا ..

نهض حسن بن الحصرى ، وهو يزيل القيود الممزقة عن رسغيه ، ويدلكهما بيديه فى شدة :

ـ لن تندم على هذه الخطوة ابدا يا على .

قال لومبا :

ـ ما زلنا حيث بدانا ، واذا كانت ملاعيب الصين المخيفة هذه قد ارست الرعب فى قلوب اهل المدينة المرصودة ، فسرعان ما سيتصورون ان الشياطين التى تهددهم قد انصرفت عن مدينتهم ، ويعودون الى البحث عنا من جديد ..

قالت زينب وهى تنقل ببصرها بين الرجال المحلقين حولها فى الكهف :

ـ لن يحميكم شيء من غضب ابى وانتقامه ..

قال على الزيبق :

ـ غضبه ، لقد انقذناك من اسر الملك سلطان ، ومما هو شر من اسر الملك سلطان ، ذلك المصير المخيف الذى كان ينتظرك على يد مونجو ورجاله ..

قالت زينب ، وهى تشير باصبع الاتهام اليهم واحدا اثر الآخر:

ـ هذان لومبا ومافى ادخلا رجال مونجو الى المدينة عبر النفق السرى وكمنا لى ، لا يريدان بى الا الشر .. وهذا الذى اطلقت

فيوده تسلل الى المدينة لا يريد خيرا لأحد ، ولو كان ينتوى خيرا لاستسلم لرجال ابى كما فعل الدرويش الصالح حين دخل المدينة ونفخ عليه التمثال بالبوق المرصود ..

صاح على الزيبق وهو ينتبه فجاة :

ـ الدرويش الصالح ..؟ أى درويش صالح ؟.

تحول اصبع زينب ليستقر فى اتجاه الزيبق ، وهى تقول متجاهلة سؤاله :

ـ وانت ايضا لم تكشف عن نواياك ، حاربت اعداء ابى ، ولكنك حاربت رجال ابى ، وحررتنى من الاسر ، ولكنك ما زلت تحتفظ بى اسيرة ..

قال على الزيبق فى اهتمام :

ـ انت لست أسيرة ايتها الاميرة ، بل ساصحبك الى ابيك فى الحال ، ولكن ما امر هذا الدرويش الذى حدثتنى عنه منذ حين ؟.

تاملته الاميرة زينب ، وقد ظهر التردد والحيرة على وجهها ، وقالت :

ـ الدرويش الصالح .. انه رجل طيب لا يعرف الا العبادة والصلاة ، ولا ياكل الا الخبز الجاف ، ولا يعرف الا ترديد التسابيح ، ولا يقيم الا فى الزاوية الصغيرة فى نهاية المدينة ، ليفرغ لعبادته وصلاته .

لا يدرى على الزيبق لماذا انقبض قلبه عند سماعه لحديثها ، ولكنه عاد يسالها :

ـ وهو غريب عن المدينة المرصودة ؟.

قالت الأميرة زينب وقد أدهشها اهتمام الزيبق بأمر الدرويش :

ـ منذ أسبوع تقريبا صاح بوق الرصد ، فخرج الحراس ليجدوا هذا الدرويش جالسا فى مدخل البوابة وهو يتلو تسابيحه ، وعندما سألوه ، قال انه ضل عن طريقه ، وأنه غريب من بلاد بعيدة يحج الى الأرض الحرام ماشيا ، وقاده الحراس الى ابى الذى اعجبه صلاحه وتقواه ، فعرض عليه الطعام فرفضه مكتفيا بكسرة خبز ، وازداد اعجاب ابى به ، فلما عرض عليه ان يرتاح بالمدينة ليسترد قواه ، ويعاود السفر الى بلاد الحجاز ، وافق على ان يقيم فى الزاوية المتواضعة الصغيرة وينام على الارض دون فرش تحته أو غطاء فوقه ، فآمن ابى بصلاحه واصبح يستشيره فى أموره ، ويقربه فى مجلسه ، وكان دائما صاحب راى سديد فى كل ما يشير به عليه.

قال على الزيبق مكررا كلامها كانما يريد أن يفهم وراءه شيئا خفيا :

ـ يسير الى ارض الحجاز من بلاد مجهولة ، ويضل طريقه الى هنا فى المدينة المرصودة ، ولا يريد فيها الا الراحة حتى يستانف الرحلة ..

صاحت زينب بنت السلطان فى غضب وهى تضرب الارض بقدمها :

ـ لماذا تردد كلامى ، كأنك لا تصدقنى .

هز الزيبق راسه ، ثم ابتسم وهو يقول :

ـ كيف لا اصدقك وانت اميرة البلاد ، وادرى الناس بما يحدث فيها .

ضحك حسن بن الحصرى ضحكة خشنة وهو يقول :

ـ تحيرك الصدفة . ثلاثة غرباء فى خلال اسبوع واحد يقصدون المدينة المرصودة ، انت ومهمتك لابد أن تمر عبر المدينة المرصودة ، وانا وتعرف اننى اتعقبك لقتلك ، أما هذا الثالث فيحيرك امره .

صاحت الأميرة فى اصرار :

ـ قلت انه درويش صالح لا شأن له باطماعكم واحقادكم ..

تنهد على الزيبق ، وهو يلوح بيده منهيا الأمر ، وقال :

ـ سنعرف كل شىء عنه فى حينه ، اما الآن ، فسأحملك على جوادى الى المدينة .

قال لومبا :

ـ ونحن ؟.

قال الزيبق :

ـ ستنتظرنى انت ومافى وحسن هنا حتى اسوى الموقف بالنسبة لكم ، واعود اليكم ..

قال حسن بن الحصرى :

ـ ولكن لو فشلت ، ولم يصدق السلطان انك انقذت الاميره فيقتلك باعتبارك واحدا ممن اختطفوها ..

ضحك الزيبق فى استخفاف ، وهو يفك قيود جواده ، ويسوقه الى خارج الكهف ، وقال :

ـ لن تعرف الاميرة الطريق الى هذا الكهف ، اما انا فلن ادل عليكم ، ولو تاخرت عنكم الى نصف النهار ، ساعتها تعرفون اننى فشلت ، واننى اسير ، فليذهب كل منكم الى حاله ..

عاد حسن بن الحصرى يضحك ضحكته الخشنة ، وهو يقول :

ـ تعجبنى رباطة جاشك يا على ، واعرف الآن اننى لم اخطىء

حين انحزت الى صفك ..

ثبت على سرج الجواد ولجامه ، وهو يربت على عنقه وكتفيه ، والجواد يتواثب تحفزا ، ورغبة فى الانطلاق والجرى بعـد سجنه الطويل فى الكهف ، وقال :

ـ حتى الظهر ، بعد هذا كل فى طريقه .. والآن ايتها الاميرة ، ستركبين امامى فوق الجواد حتى المدينة .. وتقدم اليها وحملها ، وكانها طفلة صغيرة ، ليضعها فوق السرج ، ثم قفز وراءها ، ولوح بيده للرجال الواقفين ينظرون اليه عند فوهة الكهف ، وقال :

ـ استودعكم الله ..

واخذ الجواد طريقه بين الصخور حتى ابتلعه الظلام .

***

كانت اشعة الفجر تزيل من امامها فلول العتمة ، والجواد يخب خبا براكبيه الصامتين متجها الى بوابة المدينة المغلقة ، وفجاة مزق هدوء الفجر بوق ينفخ فى صوت صاخب ، وارتفعت الصيحة فى المدينة ، وقالت الأميرة بنت السلطان :

ـ لقد استدل الرصد عليك ، ووشى بوجودك ..

قال الزيبق وهو يعدل من وضعه على الجواد لتصبح يده اليمنى قريبة من مقبض سيفه :

ـ سنستمر ولنر ما سيحدث ..

ضحكت الأميرة زينب ، وهى تسوى خصلاتها التى تداعبهـا نسمات الفجر ، وقالت وهى ترمق يد الزيبـق القريبة من مقبض سيفه :

ـ لن ينفعك هذا فى مواجهة فرسان أبى ..

قال الزيبق فى هدوء :

ـ لست أعتمد عليه الا من اندفاعات الحمقى ، انما انت تذكرة امانى .. اما لو حوصرت فانت تعرفين ماذا أستطيع أن أفعل بفرسان أبيك ، لقد جروا منذ قليل مذعورين امام واحدة من ملاعيبى .

ارتجف جسد الأميرة وهى تقول :

ـ هذه الشياطين الملونة التى تقافزت عليهم من السماء .. كيف فعلت هذا ؟.

ربت الزيبق على كتفها يهدىء خوفها ، وهو يقول :

ـ هذا سر من أسرارى ، ولعبة من ملاعيبى ، وهى هذه المرة لم تضر احدا ، فقد اكتفيت باخافتهم وتفـريقهم ، اما لو حاولت ايذاءهم وقتلهم ، فسترين العجب ..

ارتجفت الأميرة زينب ، وارتجفت شفتاها وهى تقول :
ـ تريد أن ترعبنى ..
وقبل ان يرد عليها الزيبق ، انفتحت بوابة المدينة الضخمة ، وخرجت منها كوكبة من الفرسان المدججين بالسلاح ، وما أن راوا جواد الزيبق ، حتى صاح قائدهم ملوحا بسيفه ، فتحركوا بسرعة مشكلين قوسا يواجه الفارس الوحيد ، واخذوا يتقدمون فى بطء وسيوفهم مشرعة ، وخيولهم تتحرك ببطء وحذر ، وقالت بنت السلطان فى دهشة :
ـ لا اظنهم يخافون منك ، وانت فارس وحيد .. لماذا يتقدمون فى حذر ؟.
ضحك الزيبق وهو يمتشق سيفه فى يده ويلوح به ، وقال :
ـ لقد تعلموا الدرس منذ الليل ، فالفارس الوحيد الذى ظنوا انهم تمكنوا منه ظهرت شياطين السماء والارض لانقاذه من بين أيديهم .
ثم قال فى جدية :
ـ ناد عليهم وعرفيهم من انت حتى لا يتهور أحدهم فتسيل دماء لا نريد لها أن تسيل .
ولم تنتظر بنت السلطان كلمة أخرى ، فرفعت راسها فى كبرياء ، ثم رفعت يدها وكفها مفتوح وموجه الى الفرسان القادمين ، وصاحت فى صوت جهورى آمر :
ـ اخفضوا سيوفكم ، انا زينب بنت السلطان أعود سالمة بفضل هذا الفارس الى أبى ومدينتى ..
وتوقف الفرسان اثر اشارة من قائدهم الذى وقف وسطهم حائرا ، ثم صاح بجنوده ان يقفوا حيث هم ، واغمد سيفه ، ومضى مندفعا بجواده نحوهما ، فتنهد الزيبق فى راحة واغمد سيفه ، وهمس للأميرة :
ـ يبدو أن الامر سيمر بسلام ، فهذا الرجل عاقل ولا شك .
ابتسمت بنت السلطان ، وداعبت شعرها الذى يعبث به النسيم وقالت :
ـ هذا باسم قائد الفرسان ، وهو يظن انه يكن لى معزة خاصة ، وماأظن أنه نام هذه الليلة بحثا عنى، وقلقا على .
ضحك على الزيبق ، وهو يلكز جواده ليزيد من سرعته ، فيقابل الفارس المتقدم فى نصف المسافة التى تفصل بينهما وقال :
ـ هذا ضمان أكيد لى ..
قال باسم وهو يوقف حصانه فجاة ويمشق سيفه :

ـ كفى الى هنا ايها الفارس ، قف وحرر الأميرة ، وافصح عن هويتك ..

اوقف على الزيبق جواده ، ثم حمل الاميرة وانزلها الى الارض ، وترجل الى جوارها وهو يمسك بمقود فرسه ، وقال :

ـ هذه هي الاميرة زينب بنت السلطان قاسم سلطان المدينة المرصودة تعود آمنة سالمة الى بلادها ومدينتها ، وقومها وفرسانها ، بعد أن تم انقاذها من شرذمة اللصوص بقيادة الفاتك اللص مونجو ، ورجال الملك سلطان ملك بحر الغزال بقيادة فرسانه لومبا ومافى .

استندت الاميرة زينب الى عنق الجواد ، وقالت :

ـ صدق هذا الفارس فلولاه لكنت جارية تباع فى الاسواق ان شاء مونجو ، أو زوجة ذليلة فى بلاط الملك سلطان او نجح لومبا ومافى .

ترجل الفارس باسم ، واعاد سيفه الى قرابه ، وتقدم حتى اقترب منهما ، فانحنى أمام الاميرة زينب وهو يقول :

ـ حمدا لله على سلامتك أيتها الاميرة ، لقد ازعجنا غيابك ، واسعدنا الآن أن تعودى الى ديارك ..

ثم التفت الى الزيبق ، وقال :

ـ أيها الفارس الغريب ، نحن نرحب بك فى المدينة المرصودة ، منقذا لأميرتنا وسيدتنا ، ورمز سعادتنا كلها .

قال على الزيبق وقد هز وجدانه اخلاص الفارس وصادق مشاعره :

ـ ايها الفارس ، اميرتكم تعود اليكم عالية الراس مرتفعة الجبين ، اما اللصوص فهم فى أسرى ، ولم يستطع كلب منهم أن يؤذيها بشىء ..

رفع الفارس باسم راسه متطلعا الى على الزيبق ، وظل يتأمله لحظات ثم قال :

ـ لو صدقت فيما قلت أيها الفارس لكنت قرة عين السلطان ، ولكنت فى نفس الوقت أخى .

امتشق على الزيبق سيفه ، فاجفل الجميع ، وتحركت الخيول براكبيها فى قلق ، ولكنه قدمه الى الفارس باسم ، ومقبضه يتقدمه وقال :

ـ اسلم نفسى اليك ايها الفارس ، فتقبل سيفى .

ونظر اليه الفارس باسم لحظات ، ثم تقدم نحوه فى تؤدة ، واخذ السيف وهو يقول :

ـ ايها الغريب انت فى حمايتى .
قالت زينب بنت السلطان فى صوت غريب :
ـ وانتما معا ايها الفارس تحميانى اميرة لهذه المدينة من كل شر ..
نظر اليها باسم فى دهشـــة ، بينما ابتسم الزيبق وصمت ، واستمرت الاميرة زينب تقول فى لهجة آمرة :
ـ قدنا ايها الفارس باسم الى السلطان ، واحفظ حياة هذا الفارس كما تحفظ حياتى الى ان نصل اليه .
ردد الفارس باسم بصره بين الاميرة زينب بنت السلطان ، وبين على الزيبق ، اكثر من مرة ، واحس بشىء مر يملأ قلبه وصدره ، ولكنه لم يسعه الا ان ينحنى أمامها ويقول :
ـ تفضلا أمامنا .
وتحرك الزيبق يقود حصانه والى جواره الاميرة زينب ، ووراءه الفارس باسم عابسا مفكرا ، ووراءهم كوكبة الفرسان التى خرجت من المدينة عند الفجر ، عندما أطلق التمثال المرصود صيحته المزعجة الصارمة فى بوقه .

كانت فرحة المدينة بدخول الاميرة غامرة ، ففى كل مكان كان الموكب يدركه كانت زغاريد النساء تنطلق فرحة ملعلعة فى السماء ، وكانت صيحات الرجال عالية مرحبـــة بالأميرة المحبوبة وموكبها ، وكانت فرحة الصبيان والبنات غامرة فقد انطلق الجميع فى أهازيج فرحة تتعقب الموكب ناثرة الزهور ، ومرددة كلمات الحب والوفاء ..
وقال الزيبق وهو يسير الى جوار الاميرة :
ـ هم يحبونك ايتها الاميرة ..
قالت زينب فى جمود :
ـ لاننى احبهم ايها الفارس ..
قال الزيبق :
ـ فرحتهم بعودتك ، انستهم اننى غريب دل على الرصد .
قالت زينب فى نفس الجمود :
ـ انت لا تعنى عندهم شيئا الآن ايها الفارس .
قال الزيبق :
ـ بل أعنى الكثير ، فانا الذى اعدت الاميرة المحبوبة الى مدينتها .
ضحكت الاميرة زينب بنت السلطان ضحكة جافة وقالت :
ـ سنرى رأى السلطان فى هذا ..

ونظر اليها الزيبق ، ولكنها رفعت رأسـها فى انفة ومضت فى طريقها تتلقى تحية الجماهير فى ابتسامة عريضة ، وقد نسيت كل شيء عن على الذى يسير الى جوارها الى أن وصل الجمع كله الى بيت السلطان .

***

فى القاعة الكبيرة المليئة بالناس المزركشى الازياء ، قال السلطان وهو يحتضن الاميرة :

ـ مرحبا بك أيتها الاميرة زينب ، ازعجنا غيابك ، حتى ظننا اننا لن نراك ، ولكن شعب المدينة المرصودة الآن يحتفل بعودتك سالمة الينا ، وانا ايضا أعلن فرحتى وسعادتى بعودتك .

واحس الزيبق ان فى هذا الاعلان شيئا غريبا وغير طبيعى ، فالأب لا يقول كل هذا الكلام احتفاء بابنته .. ولكنه سكت وهو يرقب ما حوله ..

كان مجلس السلطان منيرا فى هذه اللحظات الاولى من النهار ، وكان الرجال المتحلقون حوله ينظرون الى الأميرة فى انبهار وفرحة .. وكان الفرسان يتحلقون حول الفارس باسم فى ولاء واضح لقائدهم ، وحب حقيقى لاميرتهم .. وقال السلطان وهو يأخذ مجلسه فى صدر القاعة فوق كرسى سلطنته :

ـ ولكن هذا الغريب حكايته لا تعجبنى ، فقد دل عليه الرصد ، ولا اطمئن الى صدق نواياه ، تقدم أيها الفارس حتى اراك .. فقد تنبأ الدرويش الصالح انك ستظهر وسط النار ، والدخان ، لتكون ايذانا بانهيار ملكنا فهل انت هو هذا الفارس الذى يحمل سيفه النار والدخان .

سكت الزيبق ولم يجب بينما قالت الاميرة زينب :

ـ يا أبى لقد انقذنى هذا الفارس من فرسان الملك سلطان ملك بحر الغزال الذين كانوا يريدون اسرى وتقديمى اليه زوجة طائعة دون ارادتى ..

قال السلطان وهو يهز راسه فى تؤدة :

ـ احقا ..؟

قالت الاميرة زينب بنت السلطان :

ـ لقد اسر مونجو وعصابته الذين ارسلهم ملك بحر الغزال لأسرى ، كما اسر لومبا ومافى سفيرى الملك الذين تقدما الى خطبتى ، ثم سافرا مقهورين الى ملكهما ، وعادا مع عصابة مونجو لاختطافى واعادتى اليه أسيرة وغنيمة باردة ..

ضحك السلطان ، ثم سعل وقال :

ـ هل سمعتم ، انا وافقت على زواج زينب بسلطان ملك بحر الغزال وها هي تسمى رجاله عصابة ، ومحاولته الحصول عليها أسرا ـ وجريمة .. هي لا تفهم ولا تريد أن تفهم ..

ووجم البلاط كله ، ولم يجبه أحد ، وتلفت حوله ، فاذا الصمت يحيطه ، فاهتز في مكانه ، وقال :

ـ هي ابنة متمردة حقا ، ولكننا نرحب بها ، فهيا نرحب بعودتها سالمة الينا .

وارتفعت الصيحات .. من كل مكان في القاعة ، مرحبة بعودة الاميرة التي اخذت مكانها في هدوء الى جوار السلطان والرجال جميعا يصيحون ويحيون .. والزيبق في مكانه يرقب ويحاول أن يفهم في صمت ..

- ٣١ -

الدرويش الصالح

جعل على الزيبق يتامل الموجودين فى قاعة السلطان حوله ، وسرعان ما احس أن هناك شيئا غير طبيعى يحيط بالجو كله .. فالذى لا شك فيه ان الفرحة تعم الجميع لعودة بنت السلطان سالمة ، الا أن هناك من ينظرون اليه نظرات كلها ترحيب وود ، وهناك من ينظرون اليه بعداء وكراهية . وتذكر كلمات السلطان ، وبدت له غريبة ، فالسلطان رغم احتفائه بالأميرة ليس سعيدا بعودتها ، وكلامه كله لا صدق فيه ولا حرارة ، بل بدا فى بعض عباراته لائما لها ، متهما اياها ، بعصيان امره ، ورفض موافقته على زواجها من ملك بحر الغزال .

وسمع الزيبق صوتا هادئا وقورا يقول له :

ـ مرحبا بك فى بلادنا ايها الغريب ، لست اعرف كيف نشكرك على اعادتك الأميرة بنت السلطانة الينا .

والتفت على الزيبق الى مصدر الصوت الوقور .. ووجد كهلا يرتدى ثوبا ابيض وقد غزا الشيب شعره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية رقيقة ، وكان يمد اليه يدا رقيقة ، فصافحها الزيبق وهو يحس بارتياح الى الرجل والصوت ، ولمسة اليد جميعا ..

وعاد الرجل يقول بنفس صوته الهادىء الوقور :

ـ ارجو الا تؤثر فيك لهجة السلطان ، فهو لا يقصد الا خيرا ..

قال الزيبق :

ـ لا اكتمك انها حيرتنى ، ولكن من انت ايها السيد الطيب ..

ضحك الرجل الوقور ضحكة هادئة ، وقال :

ـ انا الوزير مروان ، كنت وزير هذه السلطنة منذ تكونت واستقلت عن مملكة بحر الغزال ، وما زلت وزيرها الى الآن .

قال الزيبق وهو يتنهد فى مرارة :

ـ ترحيبك بى ايها الوزير ينسينى لهجة السلطان العدائية ، ولكن لحظة ، من هذا الرجل الطويل المتسربل فى الخرق البالية الذى يرحب به السلطان ؟.

تابع الوزير مروان نظرات الزيبق حتى وقعت عيناه على الرجل

الطويل الذى يتقدم فى بطء ناحية مجلس السلطان ، وتغير وجهه ، وقال فى لهجة ساخرة :
ـ هذا غريب وفد الى المدينة ولم يقتل .
وضحك ، ومس ذراع الزيبق بيده مسا رقيقا وهو يقول :
ـ ولن يقتل فقد آمن به وبورعه وتقواه السلطان ، وهناك غريب آخر دخل مدينتنا امس ولم يقتل ، حين حاصره فرساننا ، انطلقت قوى الجن فى السماء فزلزلت الارض وتوهجت فى السماء منذرة مرعدة ، فارتد عنه فرساننا بعد أن قيدوه ، وحملته قوى الجن خارج المدينة .. وأنت الغريب الثالث الذى لم يقتل فانت عدت الينا بابنة السلطانة .
التفت اليه الزيبق وقال وعيناه تتابعان حركات الدرويش والسلطان :
ـ هذه هى المرة الثانية التى تسمى فيها الاميرة زينب بابنة السلطانة ، اليست هى بنت السلطان ؟.
ضحك الوزير مروان وقال :
ـ هذه مسالة بسيطة ، فالاميرة زينب بنت السلطانة كوثر التى كانت تحكمنا وتزوجت من السلطان قاسم ، وحين ماتت السلطانة كوثر ، تولت بعدها الاميرة زينب ، ولكنها كانت صغيرة جدا حين ماتت السلطانة كوثر فتولى مكانها زوج السلطانة كوثر حتى تصل الاميرة زينب الى سن الرشد .
قال على الزيبق فى دهشة :
ـ فهى ليست ابنته اذن ..
ضحك الوزير مروان وقال :
ـ هى فى حكم ابنته ، وهو يظل يحكم حتى تبلغ سن الرشد فينتقل حكم السلطنة اليها .
صاح الزيبق دون ان يدرى أن صوته قد علا ، وقال :
ـ لهذا كان يريد تزويجها من ملك بحر الغزال رغم ارادتها .
تلفت الوزير مروان حوله محاذرا ، ثم همس :
ـ خافت من صوتك أيها الغريب ، فليس هذا الكلام مسموحا به هنا .
وصمت الزيبق واجما وعاد يتأمل الدرويش والسلطان وهما فى حوارهما الهامس البعيد .. وعاد الوزير مروان يقول :
ـ وقد اقتربت الاميرة من سن الرشد ، وآن الاوان ان تشهد المدينة المرصودة سلطانة جديدة ..

وهمس صوت رقيق على يمين الزيبق قائلا :
ـ بل هذا هو العام الذى يجب أن تعلن فيـه الاميرة زينب سلطانة على المدينة المرصودة ، ايها الفارس الغريب .
التفت الزيبق فاذا بعينى الفـارس باسم تطـالعانه فى ضحكة مرحبة ، فقال :
ـ اهلا بك ايها الفارس ، كانك تتابع حوارنا .
ضحك الفارس باسم وهو يقول :
ـ نحن فداء الاميرة ايها الغريب ، نفديها بارواحنا ـ نحن نرسانها ..
نظر على الزيبق الى عينيه اللامعتين ، وقال :
ـ لم تحسنوا حراستها حين خطفت .
شحب وجه الفارس باسم وقال :
ـ من كان يدرى ان هناك نفقا يدخل منه المختطفون ..
قال الوزير مروان :
ـ النفق لا يعرفه الا الأميرة والسلطان .
قال الزيبق :
ـ أحدهما اذن هو الذى دل مونجو ولصوصه عليه .
قال الوزير فى تؤدة :
ـ او دل فرسان ملك بحر الغزال .
قال الزيبق :
ـ تعنى لومبا ومافى ؟.
قال الوزير :
ـ انا لا أعنى احدا .. فهذان الفارسان كانا ضمن سفارة دولة صديقة ، ولست استطيع أن اتهمهما بشىء .. انما هو مجرد كلام ..
قال الفارس باسم فى اندفاع :
ـ والكلام يتحول الى همس يتناقله الجميع ، وكلنا لا نعرف ماذا نقول ، وماذا نصدق ؟.
وفقد على الزيبق اهتمامه بكلام الفارس باسم والوزير مروان ، اذ تحول الدرويش بوجهه ناحيته فى هذه اللحظة ، فأحس الزيبـق بيد قاسية تقبض على قلبه حتى ليكاد يكف عن الخفقان ، لعله واهم، ولعل الخيال يلعب به ، ولكنه واثق انه يعرف هذا الوجه كل المعرفة، فلو رفعنا اللحية الكثة ، وازلنا الشعر الكثيف من فوق الحواجب ، وازلنا اللون الشاحب فوق جلد الوجه ، والغضون .. لكان هذا الوجه ، هو وجه ..

وقطع عليه وجومه صوت الوزير مروان وهو يهز كتفيه هزا :
ـ لعلك فهمت ما نريد ان نقوله لك فهو يعنى انك وقفت دون ان تدرى فى وجه طموحات بعض الناس ..
والتفت اليه الزيبق شاحب الوجه وهو يقول مشيرا ناحية الدرويش والسلطان :
ـ منذ متى وهى هنا ؟.
تتبع الوزير اشارته ، وهز كتفيه فى دهشة وهو يقول :
ـ هى ، من تعنى ، لا أحد حيث تشير الا السلطان والدرويش الصالح ..
وهمس الدرويش فى اذن السلطان وهو يتابع همساته بحركات يديه ، وهز السلطان رأسه ثم اشار الى رئيس الحرس الذى تقدم نحوه وانحنى أمامه يسمع أوامر السلطان الذى كان يهمس بها وهو يشير بيده الى حيث وقف الزيبق ، وردد رئيس الحراس كلام السلطان كأنما فى استفسار ، وعاد السلطان يردد أوامره الهامسة فى صرامة ، وهز رئيس الحراس كتفيه فى استسلام ، واتجه الى حيث وقف الحرس ، بينما ارتسمت ابتسامة مقيتة على شفتى الدرويش ، فندت عن الزيبق آهة لا ارادية وقال :
ـ هى دليلة لا شك .
قال الوزير مروان وهو يتابع حركة رئيس الحرس بعينيه :
ـ انا لا ارتاح الى هذا ، هناك شىء يدبر .. وشىء شرير لا شك ..
همس الزيبق :
ـ حيث توجد دليلة لا يوجد الا الشر ..
قال الفارس باسم :
ـ ان الحرس يتجهون نحونا ..
بينما قال الوزير مروان :
ـ عن اى دليلة تتحدث أيها الفارس الغريب .
وكانت كوكبة من الحرس تتجه اليهم ، وفى مقدمتها رئيس الحرس ، وايادى الرجال على مقابض سيوفهم .. بينما علت همهمات بين الموجودين فى القاعة ، وهم يفسحون للحرس طريقا للمرور ..
وصاح الفارس باسم وهو يشير بيده فى انفعال :
ـ الاميرة ..
ولفتت صيحته الجميع ، لتتجه الانظار الى الاميرة التى كانت تقف ، فوق خشبة عالية وتصيح فى صوت منفعل ، وعيناها

الواسعتان تديران نظرات واجفة فى وجوه الجميع :

ـ اسمعونى جميعا .. أنا سعيدة بحفاوتكم بى ، وبسعادتكم لعودتى سالمة الى بيتى ورعيتى .. ولكن يجب ان تعرفوا انه لولا هذا الفارس ما عدت حية ومصونة اليكم ..

واشارت بيدها الى حيث وقف الزيبق ، فاتجهت الانظار كلها اليه ، بينما تردد قائد الحرس ووقف مرتبكا فى مكانه ، وتابعت الاميرة حديثها المتحمس قائلة :

ـ لولاه لفقدت ما هو اغلى من حياتى ، كرامتى وحريتى ، وقد كان مونجو وعصابته يدبرون لى ما هو اسوأ من الموت ، ولولاه لتمكن رسولا ملك بحر الغزال لومبا ومافى من حملى الى ملكهم سبية لا تملك من أمرها شيئا .. وارتفعت الهتافات بحياة الفارس الغريب ، وارتفعت الدماء الى وجه الزيبق حرجا ، بينما لم تترك عيناه موقع الدرويش والسلطان ، وعادت الاميرة تقول فى حزم :

ـ أنا اعرف انه على موعد عند الظهيرة ، فاتركوه يمضى الى موعده بسلام ..

وتعالت الصيحات تحيى الزيبق من جديد ، بينما أخذ السلطان والدرويش يتبادلان الهمســـات ، وقال الوزير مروان الى جوار الزيبق :

ـ لقد أمنت لك طريق الخروج .. فاخرج الآن ولا تتردد .

وامتشق الفارس باسم سيفه ، وهو يقول :

ـ ساصحبك لأؤمن لك مع رجالى طريق الخروج ..

وقال الوزير مروان فى الحاح :

ـ هيا تحرك ، اخرج الآن أيها الفارس الغريب ، فهذه فرصتك.

وكانت عينا الزيبق معلقتين بالسلطان ، فرآه يهب واقفا فجأة وهو يهز راسه كأنما يوافق على ما يقوله له الدرويش ، ورفع يده طالبا الصمت من الجميع ، وقال :

ـ ما معنى هذا .. ابنتها الاميرة لقد تجاوزت الحد فى الكرم والاعتراف بالجميل ..

ووجم الجميع ، واتجهت الابصار الى السلطان الواقف امام مقعده فى صدارة القاعة ، بينما ابتسم الدرويش ابتسامة خفيفة ، واتجه متسللا الى خارج القاعة ، وعاد السلطان يقول :

ـ الاميرة طيبة صدرت فيمـا قالت عن طيبــة قلبها ، وهى ايضا قليلة التجربة لا تعرف من أمر الرجال وخبثهم شيئا .. رصدى أن هذا الفارس جزء من المؤامرة التى استهدفت خطفها ، والا كيف

بتغلب وهو فرد على مونجو وعصابته ، وهى العصابة التى دوخت كل رجال الدرك فى كل بلدان منطقتنا ..
وتبادل الجميع النظرات الحائرة ، بينما اهتزت رءوس توافق السلطان على حديثه ، وهمس الوزير مروان فى حنق :
ـ انه يهيج الجميع ضدك .. ويقلب الحقائق لتعود كلها اصابع اتهام تشير اليك ..
وعاد السلطان يقول فى ثقة وحزم :
ـ ولومبا وماق وهما من اقدر فرسان الملك سلطان ملك بحر الغزال كيف نجا منهما الا اذا كان شريكا معهما من أول الامر ..
وسكت وهو يجيل نظرة منتصرة بين الجموع فى القاعة . ونظر الى قائد الحرس منبها ، ثم اشار الى الزيبق قائلا :
ـ لقد حذر الحكيم من زمن أن الغريب الذى يدخل مدينتنا ويدل عليه الرصد بالنفخ فى البوق ، عدو لنا لابد من قتله فى الحال . وهذا الرجل دل عليه الرصد ، وسمعنا هذا الصباح نفخة فى البوق وهو على مشارف المدينة . فكيف نعتبره صديقا وهو عدو دل عليه الرصد ؟.
ولم ينطــق احد ممن فى القاعة حــرفا .. واحس على الزيبق بنظراتهم تتحول اليه فى اتهام ، بل وفى كراهية ، كانوا جميعا ينظرون اليه ، وهو لا يرى منهم احدا ، وكلما تجول بعينيه فيهم لم يجد الا نظرات حانقة تستعد للوثوب عليه ، والاقتصاص منه لما حدث لأميرتهم .. وهو وحده وسط بحر من الكراهية ، واحس الزيبق انه محاصر . وانه وحيد .. ومد يده الى مقبض سيفه ، فهذه معركة لا مهرب منها ..
واشار السلطان الى قائد الحرس وهو يقول بلهجة آمرة :
ـ اقبضوا عليه ..
واندفع الحرس نحو الزيبق ، وانفجرت الجماهير تفسح لهم طريقهم اليه ، بينما امتشق الفارس باسم سيفه ، وصاح فى رجاله :
ـ الى يا رجال ، فهذا منقذ الأميرة زينب بنت السلطانة ..
واندفع نحوه نفر قليلون يمتشقون سيوفهم ، ويحيطون بالزيبق ، بينما تقدم الوزير مروان رافعا يده نحو قائد الحرس ، وقال :
ـ انتظر لحظة ايها القائد .
ثم التفت الى السلطان قائلا :
ـ ما تعودنا أن تصدر احكامنا دون أن نسمع كلام من نتهمهم ، والأمر فى هذه الحالة بالذات يتعرض لحياة انسان ، وانسان اسدى

السلطنة خدمة كبيرة حين انقذ الاميرة ، فلابد ان نسمع دفاعه قبل ان نسرع الى ادانته ..

وارتفعت صيحات ثانية ضعيفة ، بينما ارتفعت صيحات استنكار جارفة ، وصاح السلطان وقد أحس ان مد الجماهير معه :

ـ هل نسمعه ؟.

وارتفعت كلمة :

ـ كلا .. كلا ..

من كل مكان فى القاعة ، بل اندفع نحو الزيبق مجاميع من الناس يحيطون به وبكوكبة الفرسان شاهرى السيوف الذين يحيطون به لحمايته ، وكأنما يريدون باندفاعهم ان يخترقوا حاجز السيوف اليه ليمزقوه ، وعاد الوزير مروان يرفع ذراعه وهو يقول فى صوته الهادىء الوقور :

ـ الا يجوز ايها السلطان أن يكون قادما الينا برسالة من قبل خليفة المسلمين فى بغداد ..

وتوقفت الصرخات ، وسكنت حركة المندفعين نحو الزيبق ، بينما كان على نفسه يفكر فى هذا الموقف الغريب من السلطان وشىء فى اعماقه يردد دائما اسم دليلة .. دليلة ..

وضحك السلطان ، وجاءت كلماته التالية فاكدت شكوك الزيبق ، اذ قال :

ـ الخليفة فى بغداد ، ومالنا والخليفة فى بغداد وهو بعيد عنا مشغول بقهر دويلات العجم التى تريد أن تتحرر من بطشه وجبروته .. واين هو خليفة بغداد وهو لا يكاد يقوى على صد حملات الافرنج التى سرعان ما ستقوض عرشه ، وتحرر أمثالنا من حكمه ..

وهمس الزيبق لنفسه وهو يذكر كلام أحمد الدنف :

ـ دليلة .. دليلة ..

وصاح الوزير مروان :

ـ ما هذا يا مولاى ، نحن من رعايا الخليفة هارون الرشيد ، وهذا الكلام يعرضنا لعقابه ..

عاد السلطان يضحك فى وحشية ، وهو يلوح بيديه ، ويقول :

ـ لن يصلنا الخليفة الا عن طريق الوالى ، وانا معى حجة بولاية السلطنة من والى مصر ، وهو الذى يريد منا أن تكف أيدينا عن أعداء الخليفة ، فلا نحارب حروبه ، ولانضحى باموالنا واولادنا من أجله ، ومن اجل ان يزداد ثراء وسطوة وفجورا .

قفز الزيبق فجاة من وسط الدائرة التى تحيط به حتى واجه السلطان وصاح فيه :

ـ خسئت أيها الكاذب الفاجر ..

وجم السلطان ، وارتبك الحرس ، وساد الصمت القاعة ، وقبل ان يدرك احد ما ينتويه ، كان الزيبق يعتلى عرش السلطان وهو يستل سيفه ويضع ذبابة السيف على عنق السلطان ، وقد امسك به بيده الاخرى بحيث قيد ساعديه جميعا .. وجال ببصره بين المتحلقين حوله ، وقال فى صوت مهدد آمر مخيف :

ـ لو اقترب واحد منكم خطوة واحدة ، نفذ حد سيفى فيه الى ان يحز العنق ، وارمى لكم الراس القذر تحت اقدامكم .

ارتجف السلطان بين يدى الزيبق ، بينما تراجع رئيس الحرس وحرسه ، وتقدم الفارس باسم ورجاله فأحاطوا بالزيبق ، الذى قال :

ـ هذه كلمات خائنة لا يقولها الا عملاء الافرنج الذين يريدون تمزيق وحدتنا ، حتى نتفرق شيعا وامما ، وممالك فينشبوا اظافرهم فى كل جزء على حدة .. وهذا السلطان خائن ، وعميل للافرنج ، ولممالك العجم التى انقضت على سلطة الخليفة بتحريض خبيث من الافرنج .. أين هذا الدرويش القذر اللئيم ، فهو رسول والى مصر الخائن الى عميله الخائن فى المدينة المرصودة ، هذا الكلب الذى يرتجف بين يدى امامكم .

وتلفت الجميع يبحثون عن الدرويش الذى اختفى ، وكانما انفتحت فتحة فى الأرض وابتلعته ، بينما كان السلطان يصدر أصواتا غير مفهومة وهو بين ذراعى على وذبابة السيف مسلطة على عنقه ، وقال الزيبق :

ـ أين هذا الدرويش المدعى ، ابحثوا عنه فهو سبب كل هذه المصائب ..

ولا اثر للدرويش وهاتف فى اعماق الزيبق يقول :

ـ آه يا دليلة .. دليلة .

وقال قائد الحرس وهو يتقدم مع رجاله نحو الزيبق فى شجاعة :

ـ اترك السلطان ، والا مزقناك بسيوفنا وسهامنا .

ضحك الزيبق فى استهتار وقال :

ـ أول حركة تعنى موته .

وهنا وقفت الاميرة زينب فى مكانها السابق وهى ترفع ذراعيها وتقول :

ـ اسمعونى قبل ان تهجموا عليه لتخلصوا السلطان .

وسكت الجميع وهم يتطلعون اليها ، فابتسمت وهى تقول :

ـ امس حاصرتم احد الفرسان الذين دخلوا المدينة ، ودل عليه الرصد ، وكدتم تصلون اليه ، بل لقد أسرتموه وقيدتموه ، ثم ماذا حدث ؟. انطلقت شياطين الجحيم تملأ السماء بأيدى المردة والوان عذاب الجحيم . أنا كنت هناك ، هذا الفارس هو الذى أطلق كل هذا العذاب عليكم ليخلص الاسير دون ان يريق قطره من دماء فرسانكم .. وهو الآن امامكم .. من يريد ان يتعرض له فليتذكر جحيم الامس .

وملأ الخوف قلوب الجميع ، ونظر الكل الى الزيبق فى ذهول وروع .. وقال الزيبق :

ـ سأخرج الآن بالسلطان .. ولن يخرج احد من اسوار المدينة وابوابها حتى أخبره بذلك ، والا ضاع السلطان وضعتم جميعا ..

وفى وجوم شاهد الجميع سلطانهم وهو يساق أمام الزيبق وحوله كوكبة فرسان الفارس باسم ومعهم الوزير مروان والاميرة زينب وهم ينسحبون جميعا من القاعة ، ثم من المدينة بأسرها ..

- ٣٢ -

دليلة المحتالة

تلقى حسن بن الحصرى على الزيبق وأسيره عند باب الكهف ، ولاحظ على الزيبق انه يمتشق سيفه هو ولومبا ومافى ، فدفع اليه السلطان قاسم أسيره وهو يقول له :

ـ تأكد انه مقيد قيودا لا فكاك منها ، واحتفظ به داخل الكهف .

قال حسن بن الحصرى متسائلا :

ـ من هذا ؟ ملابسه تدل على انه انسان غير عادى .

ضحك لومبا ، وقال :

ـ هذا هو السلطان قاسم سلطان المدينة المسحورة .

صاح حسن بن الحصرى فى ذهول :

ـ أسرت السلطان ، تدخل وحدك الى المدينة ، وتخرج وسلطانها أسير بين يديك ، حقا يا على لا نهاية لألاعيبك .

قال مافى متدخلا فى الحديث لأول مرة ، وهو يبتسم :

ـ لعله استعمل الثعبان النارى الذى يطير ، أو لعله استعمل الشياطين الغاضبة التى تلون السماء ..

قالت الأميرة زينب :

ـ بل استعمل سيفه وذكاءه هذه المرة ..

وكان على الزيبق قد نسى الاميرة والوزير مروان وباسم قائد الفرسان ، ومن تبعه من فرسان لحمايته من غضب جنود السلطان ، فالتفت اليها وهو يقول :

ـ لا مكان لك هنا ايتها الاميرة ، فمكانك فى مدينتك وقصرك ..

قال الوزير مروان :

ـ انت محق لابد ان نعود ، ونعلن بلوغ الاميرة سن الرشد ، وحقها فى ان تتولى مكان امها السلطانة الراحلة ..

قال الفارس باسم :

ـ دون هذا معركة حاسمة مع رئيس حرس السلطنة ورجاله فهم من اتباع السلطان قاسم ..

قال على الزيبق فى حسم :

– السلطان فى يدى الآن ، وأنا أريده لاعرف ابعاد تآمره على الخليفة ، أما انتم فمدينتكم ملككم انتم ، وأميرتكم مسئوليتكم انتم .
مدت الاميرة زينب يدا لتضعها على كتف على الزيبق وهى تقول :
– لقد رأيت من أفعالك ما يجعلنى أعرف انتى ساحتاج اليك حتى يستقر لى الامر فى المدينة ..
ربت على الزيبق على يد الاميرة فى رقة وهو يقول :
– لن أتوانى عن تقديم اى عون يطلب منى .. ولكن ابتعادك انت والمخلصين من اتباع أمك الراحلة وأتباعك انت خطر وخطأ ..
تنهد الوزير مروان وهز رأسه الاشيب الوقور وهو يقول :
– كلامك عين الصواب ، وارجو ان نعود قبل ان يزيف رجال قاسم الحقائق امام أهل المدينة .. هيا بنا ايها الفارس باسم ، ولنصحب الاميرة الى المدينة المرصودة ..
نظرت الاميرة زينب طويلا الى على الزيبق ، واطرقت براسها وهى تقول :
– الن تعود معنا ..
وشحب وجه الفارس بسام وهو يرى هذه النظرة ، وكان الزيبق يراقبه فشاهد النظرة الحزينة التى ملأت عينيه ، وسعل الزيبق ، ثم قال :
– ايتها الاميرة نحن من عالمين مختلفين ، وعندما تنتهى مهمتى هنا لابد ان أعود الى عالمى ..
وعادت الدماء الى وجه بسام ، بينما ضحك الكهل الوقور ضحكة العارفين ، وقال :
– كلما ازددت معرفة لك ايها الفارس الغريب ازددت اعجابا بك .. سنعود الآن الى المدينة ، وساخطرك بما يحدث هناك ان كنت ستظل هنا ..
قال على الزيبق :
– سأستأذن الاميرة حين تصبح سلطانة المدينة فى قضـــاء حاجتى ، وقبل هذا انا هنا اعد أمورى ، وارقب نجاحكم فى تثبيت عرش السلطنة لها ، ولكن هناك شيئا لابد ان احصل عليه فى الحال ..
قالت الاميرة فى لهفة :
– لو استتب لى الامر فى المدينة فهى كلها وما يتبعها بدين لك دينا لا وفاء له ابدا ، وان ترد الحصول عليه الان فامرك مجاب ..
عاد الشحوب الى وجه الفارس بسام ، بينما قال الزيبق :
– دليلة !.

صاح الوزير مروان :
ـ دليلة ؟ اتبحث عن امراة ؟.
ضحك على الزيبق فى خشونة وهو يقول :
ـ بل ابحث عن افعى سامة ..
صاح حسن بن الحصرى فى دهشة :
ـ دليلة المحتالة هنا ، وسط الغابات ؟.. الذى اعرفه انها فى بغداد ..
قال على الزيبق :
ـ بل هى هنا ، ولابد من القبض عليها لنتجنب شرورها ، أريد الدرويش الصالح ..
قال الوزير مروان :
ـ اذكر حديثك عن هذا الدرويش وانه همزة الوصل بين الوالى وبين السلطان ولكن ما علاقته بدليلة هذه التى تتحدث عنها ؟.
قال الزيبق فى اصرار :
ـ هاتوا لى هذا الدرويش أكون قد حصلت على دليلة عدوتى وعدوة بلادى كلها ..
قالت الاميرة فى حماس :
ـ الدرويش الصالح فى المسجد المنعزل عند آخر المدينة ، لابد انه هناك يمارس صلاته وعبادته ، وسآتيك به بمجرد دخولى المدينة ..
ضحك الزيبق ضحكة جوفاء ، وقال حسن بن الحصرى :
ـ لو كان ما يعنيه الزيبق صحيحا ، فلن تجدو لهذا الدرويش الصالح اثرا ..
قالت الاميرة فى ثقة :
ـ سنجده لك ..
وقال الفارس بسام وقد تمالك نفسه :
ـ وسآتى به اليك بنفسى ..
قال الزيبق :
ـ امامكم فى المدينة مهمة شاقة فهيا اليها ، وان احتجتم لى ، فانا موجود هنا انهى حديثى مع سلطانكم ..

***

كانت الشمس قائظة من جديد ، تلفح الوجوه والاجساد بحرها ، وتعصر الاجساد لتمتص ما يخرج منها من قطرات عرق ، والزيبق والى جواره حسن بن الحصرى ، ولومبا وماقى ، يرقبون جميعا

نزول كوكبة الفرسان تحيط بالاميرة ومتجهة نحو المدينة ، وقال لومبا :
ـ الم يكن من الأوفق ان نصحبهم فهم سيلقون مقاومة عنيفة فى المدينة !.
قال الزيبق :
ـ هم يؤمنون بالحق الشرعى لاميرتهم ، وسينجحون يا لومبا ، فلا يقف امام الايمان بحق والدفاع عنه شىء .
قال مافى :
ـ ان قائد حرس المدينة شرير ، ومعه اتباع كثيرون ، وقد اقصى السلطان قاسم قائد الحرس الاصلى ، وعينه فى مكانه ، وجمع له مجموعة ممن لا ضمير لهم لمعاونته ، وهم يركبون المدينة بالقسوة والعسف منذ تولى السلطان قاسم مقاليد المدينة .
قال الزيبق فى اصرار :
ـ لست احب أن يقال انها عادت الى عرشها بمعونة من الخارج .. فهذا سيخلق لها الأعداء من داخل مدينتها .. لا ، نحن سنترقب من بعيد ، ولن نتدخل الا اذا ساءت الامور ، وسترى يا مافى أن اصحاب الحق حين يؤمنون به ينتصرون دون معونة أحد ..
تنهد حسن بن الحصرى وهو يقول :
ـ اما آن لنا ان نعود الى هذا الاسير الذى ينتظر داخل الكهف ..
قال الزيبق فى غضب :
ـ قل هذا الخائن الذى تجمعت عنده شبكات الخيانة والتآمر .
قال حسن بن الحصرى :
ـ اذن هيا بنا .

***

حين دخلوا الكهف الذى اضاءته اشعة الشمس المتسللة من الخارج ، كان السلطان قاسم حزمه من الثياب الفاخرة المتكومة فى رعب عند نهاية الكهف .. وعندما شاهدهم السلطان قاسم يدخلون عليه ، ازداد تكوما على نفسه ، ورفع ذراعيه امام وجهه كانما يحمى نفسه من هجوم متوقع ، وقال فى صمت مرتعش :
ـ انا اخطأت فى حقك ايها الفارس ، وانا اعفو عنك ، واجيبك الى كل ما تطلب ..
ضحك لومبا وقال :
ـ من يره الآن لا ير تغطرسه على عرشه ..

وقال مافى :
ـ ينبغى أن أقول لك الآن وأمامه ، هو الذى دلنا على النفق السرى الذى يسمح لنا بدخول المدينة دون ان يشى الطلسم صاحب البوق بوجودنا كاغراب .
اتسعت حدقتا السلطان فى رعب ، واخذ يجيل بصره بين الواقفين أمامه ، وقال فى صوت متخاذل :
ـ كان هذا فى صالح السلام بيننا وبين ملك بحر الغزال ، الملك سلطان كان يريد الأميرة ، وهى رفضته ، وهدد بشن الحرب ان لم يتزوجها ، وقد دللتكم على النفق حتى يحصل الملك سلطان على عروسه فتنتهى الحرب بيننا .
قال الزيبق :
ـ هى رفضته ، ولا تريده ، هو رجل عجوز ، وهى صبية فى اول شبابها ، كيف سولت لك نفسك أن تسلمها أسيرة ذليلة اليه وهى الأميرة بنت السلطانة ، وصاحبة الحق الشرعى فى السلطنة .
بدا الذعر جليا فى وجه قاسم ، وتراجع بجسده حتى التصق بجدار الكهف ، وقال :
ـ هى لا تعرف مصلحتها ، وهى كابنتى ..
قال الزيبق فى حسم :
ـ هى ليست ابنتك ..
ابتلع قاسم لعابه بصعوبة وهو يقول فى اندفاع :
ـ لقد منحتها كابنتى ـ احسن تربية ، احسن ملابس ، كل طلباتها ، كل التعليم والرحلات ، وكل .. كل كل ما تريد ..
قال الزيبق فى قسوة :
ـ بل قل كنت تريد أن تتخلص منها ، فتكسب شيئين معا ، السلطنة خالصة لك ، ورضا جارك القوى ملك بحر الغزال .
وازداد انكماش قاسم ، وبدأ يرتجف ، كل جسمه يرتجف ، كل وجهه يرتجف ، كل عضلات شفتيه ترتجف .. واشار بيديه ، وقد احتبس الكلام فى حلقه ، واتسعت عيناه ، وبدأ الزبد يغطى شفتيه .
قال حسن بن الحصرى فى ازدراء :
ـ من أى معدن صنع هذا الرجل ؟.
قال لوما فى تشف :
ـ من المعدن الذى يدفع رجلا ان يتزوج من السلطانة فيدس لها السم ليصبح سلطانا ، ثم يتآمر على ابنة السلطانة ليسلمها جارية

للك عجوز طامع فى شبابها ليغدو له الجو خاليا ، ليمارس شهواته ونفوذه وعظمته ..

قال الزيبق :

ـ هو معدن العملاء ، لقد عرف الفرنج كيف يدسونه فى الوقت المناسب ، ليكون المرشح للزواج من السلطانة ، وليكون أداة عمالتها باقى عمره فى السلطنة بعد ذلك .

صاح قاسم السلطان :

ـ لقد راعيت مصلحة شعبى ، كانت السلطانة تفرض عليه الفقر ، فأتحت له الثراء ، اعطيته الامن والامان ، وعلمته الطريق الى الربح ، يأخذ بقدر ما يشاء ولى أنا نصيبى، وللسلطنة نصيبها .. وقد انهيت الحرب بينى وبين ملك بحر الغزال فلا حرب بيننا منذ توليت الا حربا حررت فيها منطقة الامان بيننا ، فماذا تريدون .. اعطيت قلبى وعقلى وعبقريتى ووجودى لصالح شعبى ..

قال لومبا :

ـ واسلمته منطقة الامان يحكم فيها ويتحكم .

صاح السلطان :

ـ لا ، بل نستثمرها معا ، ونزرعها معا ، وتعود عليه وعلينا بالخير والسعادة ، ومن حق كل رجل فى شعب المدينة المرصودة ان يستثمر ماله فيها .. وأن يثرى ويسعد ، فقط يعطينى حقى ، ويأخذ حقه ..

قال حسن بن الحصرى :

ـ والاميرة زينب أيها السلطان أكانت جزءا من الصفقة ؟.

شد قاسم من قامته ووقف مستندا الى حائط الكهف ، وهو يلوح بيديه المقيدتين ، وقال :

ـ هى لا تعرف مصلحتها ، كانت ستغدو ملكة ممنكة بحر الغزال ، وتغدو المسيطرة على كل الأمور هناك ، فالملك كان سيعطيها كل ما تتمنى ويجعلها سيدة قصره وبلاده .. هل أخطأت .. لا .. بل أنا فعلت الصواب لها ، وضمنت وجود قوة تساندنى ، وتقف الى جوارى ضد كل اعدائنا ، أعداء المدينة المرصودة ، وأعداء مملكة بحر الغزال أيضا ..

قال الزيبق وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ ومن هم الاعداء أيها السلطان ؟.

وجم السلطان ، وأجال عينيه المذعورتين فى الرجال المتحلقين حوله ثم تمالك نفسه وقال :

ـ اعدائى .. انا سلطان المدينة المرصودة ، وكل عدو لى هو عدو للمدينة المرصودة .

قال الزيبق :

ـ حتى الخليفة هارون الرشيد .

صاح السلطان قاسم دون أن يتلبث :

ـ بل هو عدوى الاول .. يأخذ مني الخراج بدعوى حرب الافرنج ، وليس بينى وبين الافرنج عداوة ، مالى انا والافرنج .. ويأخذ منى الاموال ليحارب الخارجين عليه من العجم .. مالى انا والعجم .. لا .. هو طاغية مستبد ، يريد ان يقيم العداوة بينه وبين دول العجم .. ولكن مالى انا وهذه العداوات كلها ، انا رجل أريد السلام .. وأريد لبلدى السلام ..

قال لومبا :

ـ السلام مع ملكي ملك بحر الغزال عبث ، فهو يريد المدينة المرصودة كلها وما يتبعها وخاصة الجزيرة المسحورة ، فالسلام معه يعنى أنك تعطيه كل شيء حتى الجزيرة المسحورة ..

قال قاسم السلطان وهو يتمالك نفسه :

ـ انا لا أسمح لكم أن تحاكمونى ، من انتم ، من تكونون ، ليلتزم كل منكم مكانه ، انا السلطان .. أفهمتم ؟.

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ انت لا تدرك انك لم تعد السلطان ، انت أسير .

صاح السلطان فى عنف وهو يشير بيديه المقيدتين فى حركات عنيفة :

ـ بل انا السلطان شئتم أم أبيتم ، فعندى براءة من والى مصر ، وعندى تأييد من الافرنج ، وعندى موافقة من العجم ، وعندى اتفاق مع ملك بحر الغزال .. فما انتم الا قطاع طرق وسفلة .. انا السلطان ..

قال الزيبق فى صوت هادىء :

ـ ايها السلطان .. هل والى مصر موافق على ما تقول من مواقف مع الافرنج والعجم الغازين ، وملك بحر الغزال المتربص بك وبشعبك .

اندفع السلطان قائلا :

ـ حمل لى الدرويش الصالح براءة ولايتي وسلطتى على المدينة المرصودة من والي مصر وسلطانها .. فماذا تقولون فى هذا ؟.

قال الزيبق :

ـ أتعنى والى مصر ضد الخليفة ، هذه دسيسة لا اصدقها .
صاح السلطان :
ـ الدرويش الصالح قال لى هذا :
قال الزيبق :
ـ الدرويش الصالح ليس الا دليلة عدوة المسلمين وعدوة الخلافة الاسلامية كلها .
سكت السلطان قاسم لحظات يتأمل فيها الزيبق وقال :
ـ لم تقل لى حتى الآن من انت ؟. ما اسمك ؟.
قال الزيبق :
ـ اسمى على الزيبق .
صاح السلطان وهو يضرب بقيودة الجدران والارض :
ـ لقد حذرنى الدرويش الصالح منك ، وقال احذر هذا الغريب فهو عدوك ، وهو بألف جيش ، والاعيبه تفوق قدرة الفرسان والجيوش المجيشة ، اذن فانت عدوى .. أنت الزيبق ..
وهنا صاح صوت من باب الكهف ، فالتفت الجميع نحوه ودخل الفارس بسام وهو يقول :
ـ لقد اختفى الدرويش الصالح أيها الفارس الغريب ، ولم نعثر له على أثر ..
قال الزيبق :
ـ كنت أتوقع هذا ، وماذا عن معركتكم داخل المدينة .
قال الفارس بسام :
ـ أيدنا الشعب كله ، وما زلنا نحاصر قائد الحرس ورجاله الذين يقاتلون فى ضراوة .. ولكننا سننتصر .
قال الزيبق :
ـ لن تحتاجوا لنا .
قال الفارس بسام :
ـ نحن كفيلون باعدائنا ، وسننتصر ، فقط جئت اخبرك ان كل المحاولات التى بذلت للبحث عن الدرويش الصالح باءت بالفشل .
قال الزيبق :
ـ هذا ما توقعته .. امض الآن الى مدينتك ، واخبرنى بكل ما يستجد من احداث ..
ثم التفت الى لومبا قائلا :
ـ اذهب واحضر مونجو ورجاله من الكهف المغلق عليهم .
انصرف الفارس بسام مسرعا نحو المدينة ، بينما قال الزيبق :
ـ طالما دليلة طليقة ، فنحن بعيدون عن اى نصر .

وقال السلطان قاسم :

ــ الدرويش الصالح وعدنى بالنصر وهو كفيل باحرازه رغم كل القيود التى تحيطونى بها هنا ..

وفجأة عاد لومبا صارخا وهو يقول :

ــ لقد اختفى مونجو وعصابته ، الصخور حول الكهف اختفت ، وحين دخلت الكهف وجدت قيودهم ممزقة ، ولم أجد واحدا منهم .

صاح الزيبق :

ــ هذه دليلة .. دليلة المحتالة ، أطلقت سراحهم .

■ ٢٣ ■

كان يعرف أنك الزيبق

ساد الصمت الكهف ، والكل قد وجم فى ذهول ، وقطع الصمت ضحكة السلطان قاسم ، وهو يقول :

ـ قلت لكم نحن لا نقهر ، أنتم كتبت عليكم الهزيمة ، نحن لنا الغلبة ..

صاح لومبا :

ـ أسكت .. ولا تتكلم .

بينما قال مافى :

ـ كيف تخلصوا من قيودهم ، هذا شيء محير .

قال حسن بن الحصرى فى تؤده :

ـ ما دامت دليلة فى هذا المكان ، فلا شيء مستبعد ، فلا يعرف أحد كيف تعرف دليلة الحقائق ، ولا كيف تنفذ دليلة مآربها من خلال الحقائق ، فتفعل ما تشاء .

قال الزيبق :

ـ ماذا يا حسن ؟ هل فقدت ثقتك فى ؟

قال حسن بن الحصرى :

ـ أذهلنى خلو الكهف من المأسورين فيه .

قال الزيبق :

ـ لقد جعلنا هذا نعرف عن يقين ان عدونا هو دليلة المحتالة وليس غيرها ..

فجأة ارتفعت ضحكات السلطان قاسم ترج الكهف كله ـ ووجم الجميع ، وصمتوا ثم قال السلطان :

ـ أنتم مجرد أفراد لاقيمة لكم .. أما دليلة فهى القوة فوراءها الافرنج ووراءها العجم معا نعم هى دليلة .. لو انا منكم لاستسلمت، وطلبت النجاة والسلامة ، وأنا مستعد أن أتوسط لكم لتنجوا بأعناقكم

وعاد يضحك من جديد حتى هب حسن الحصرى من مكانه فى عصبية وهو يقول :

ـ ساسكت صوت هذا الكلب .

قال الزيبق :

ـ بل أتركه فنحن نعرف منه ، ومن عوائه الكثير .

ثم التفت الى قاسم السلطان فى قيوده وتعاسته ، وسال :

ـ والى أى حد سيساندك والى مصر أيها السلطان قاسم .
ضحك السلطان قاسم في عصبية وهو يقول :
ـ ألم يقل لى الدرويش الصالح ، الوالى سيساعدنى الى أبعد حد، فهو ليس وحده فى هذا ، هناك ولاة كثيرون معه . ويوم ننقض كلنا على الخليفة لن يبقى لبغداد أحد ، حتى بغداد نفسها فيها من سيقوض تماسكها من داخلها نفسه .. كل شيء محسوب وموقوت .. وأنتم تلعبون فى الوقت الضائع ، استسلموا تسلموا ، وسأعفوا عنكم ، واضمن لكم عفو الوالى نفسه ، فقط فكوا قيودى ، وسأقودكم الى النصر

ونظر كل منهم الى الاخر فى حيرة ـ هذا رجل مهزوم ، مقيد ، محاصر داخل كهف فى الجبل ، ومع هذا فهو يتحدث عن النصر ،ويحلم أن يقودهم .. وهو حتى لا يعرف من هم .. قال حسن الحصرى وهو يتنهد :

ـ كلهم من عجينة واحدة .. القصور فى النظر ، والفائدة الشخصية ، وتضخم الذات واحساس العظمة والسيطرة .

ثم توقف عن حديثه ، والتفت الى الزيبق فى عنف وهو يقول :

ـ متى تتركنى أجز رقبته ؟

قال الزيبق :

ـ حتى نسترد مونجو وعصابته ، ونعرف أين دليلة ، وحتى ندبر تحقيق الامان للمدينة المرصودة ولاميرتها زينب بنت السلطانة .

قال لومبا :

ـ وكلنا سنتعرض لخطر الموت .. ولكن دليلة التى أخرجتهم من الكهف لن تقف عند هذا الحد ، فلها خططها الاخرى ، وأخشى أن يكون فى مخططها خطف الاميرة زينب بنت السلطانة ، وحملها الى الملك سلطان .

قال حسن بن الحصرى :

ـ لقد قال هذا السلطان كل مانود معرفته حتى دون كلمة تهديد واحدة منا وهو يعنى ان المؤامرة كبيرة ، وان معرفتنا بها خطر علينا وعليهم فنحن أيضا مستهدفون ـ فنحن نعرف أكثر مما ينبغى ..

قال لومبا :

ـ الملك سلطان ملك بحر الغزال لن يهدأ له بال حتى يقضى علينا أنا ومافى لاننا فشلنا فى مهمتنا ، ولاننا نعرف أكثر مما ينبغى كما تقول أيها الفارس لا عن وضاعته الشخصية وحسب ، وانما عن تآمره على الاسلام والمسلمين كذلك .

قال الزيبق :

ـ بعد اختفاء مونجو ورجاله لا بقاء لنا هنا ، فلنحمل امتعتنـا ونرحل الى مكان اخر .
قال حسن بن الحصرى :
ـ الى أين يا على .. ؟
وقبل أن يكمل سؤاله .. قطع عليهم الحديث صوت صـادر من فتحة الكهف ينادى عليهم .. وحين اندفعوا الى خـارج الكهف ، كان الوزير مروان يركب على فرس اشهب ، ووراءه كوكبة من الفرسـان ، وكان يشير اليهم اشارة الامان ويقول :
ـ لقد استتب لنا الامر فى المدينة المرصودة ايها الفارس ، وهرب قائد الحرس ورجاله ، وترجو الاميرة أن تحضر أنت ورجالك الى المدينة لتشهدوا الاحتفال بأعياد تنصيبها سلطانة على المدينة .
وصاح مافى فى فرح :
ـ اذن انتصر الحق .
وقال لومبا :
ـ ستغفر لنا السلطانة دورنا فى مؤامرة خطفها ؟
قال الوزير مروان :
ـ لقد أصدرت عفوا عنكما .. وعن كل من أساء اليها ـ والان هيا معى الى المدينة .
قال الزيبق :
ـ نذهب معك ، ولكن السلطان يبقى هنا .
قال الوزير مروان :
ـ بل لابد لنا من السلطان قاسم لمحاكمته أمام الجماهير ، واعدامه
ضحك على الزيبق وقال :
ـ ان ما لدى السلطان من معلومات تهم الخليفة فى بغداد اكثر مما تهمكم هنا ، أما مسألة اعدامه فهى متروكة لعدالة الخليفة وحكمته .. اخر الامر أيها الوزير مروان لا سلطان لكم عليه طالما هو اسيرى ، فانا من رجال الخليفة ، واسيرى هو أسير الخليفة .
قال الوزير مروان محتجا :
ـ لقد ارتكب من الجرائم مالابد من محاسبته عليهـا فى المدينة المرصودة ..
قال الزيبق :
ـ هذا صحيح . ولا ينكره أحد ـ ولكن لو اسـلمناه اليـكم لا نستطيع بعدها أن نعرف منه حقيقة التآمر على الخلافة وعلى وحـدة المسلمين وامنهم ، وكذلك نحن نريد باقى الشركات ، أسـماء باقى

المتآمرين ، فان كان هذا السلطان قد وقع فى أيدينا وعزلتموه ، فان غيره من الخونة مازال يرتع فى بحبوحة من السلطة والنفوذ .
تنهد الوزير مروان وهو يحرك مقود فرسه ويومىء براسه الاشيب الى حيث تكوم الاسير ، وقال :
ـ سأترك هذا الامر للأميرة تقرره معك ، وهو الآن على عهدتك، وستقدمه اليها ان ارادت وقت أن تريد .
قال الزيبق فى ارتياح :
ـ نعم القرار أيها الوزير مروان ..
قال حسن بن الحصرى :
ـ ومن الذى يبقى معه لحمايته ، فبعد سرقة مونجو وعصابته من الكهف الاخر لا أمان هنا .
قال لومبا :
ـ سأحرسه أنا ومافى ، فوجودنا فى المدينة سيذكر الاميرة بالاوقات السوداء التى قضتها فى صحبتنا وصحبة مونجو ورجاله ، وكفى انها عفت عنا ، فلا داعى لنعكر صفوها فى يوم نصرها بوجودنا .
قال على الزيبق وهو يتجه الى جواده يسرجه :
ـ اذن أذهب أنا والمقدم حسن بن الحصرى .
وهنا أشار الوزير مروان الى أحد الفرسان فترجل عن جواده ، وقدمه الى المقدم حسن ، بينما ركب هو خلف أحد الفرسان الاخرين جواده .. وقال الوزير مروان :
ـ هيا بنا فالمدينة المرصودة تريد أن تشرككما معها فى أفراحها.

***

كان دوى الطبول يصلهم من بعيد ، مصحوبا بدق الدفوف ، وصليل الصنج ، وصيحات الابواق ، وضجة الجماهير وصخبهم .. وكانوا كلما ازدادوا قربا من المدينة ازدادوا ادراكا لمدى الفرحة التى عمت أهالى المدينة المرصودة .. وحين ازداد اقترابهم من الوادى شاهدوا الزينات والاعلام وهى تعلو سور المدينة وتبدو من البوابة المفتوحة تزين الدور والمبانى ، وقال حسن بن الحصرى وهو يخب بجواده الى جوار الزيبق والوزير مروان :
ـ هذه فرحة حقيقية ، هل يحب أهل المدينة الاميرة زينب كل هذا الحب ..
قال الوزير مروان وهو يعبث فى لحيته الشهباء :
ـ هذا جانب ، والجانب الاخر أنهم كانوا يكرهون السلطان قاسم كراهية عميقة ، ولكنها كانت مكبوتة فى الصدور ، محبوسة فى

القلوب ، فلما زال سلطانه ، انفجرت هـذه الكراهيـة تعبر عن نفسها فى هذه الفرحة الغامرة ..

وقال الزيبق ، وهو يجيل بصره حوله :

ـ وما اخبار دليلة ، أعنى الدرويش الصالح ..

ضحك الوزير مروان وهز كتفيه ، وهو يقول :

ـ مازال البحث دائرا عنه ، أعنى عنها ، فلم يجدها الفرسان فى المسجد الصغير فى نهاية المدينة ولا فى أى مكان اخر ، والفرسـان ينقبون المدينة كلها بحثا عن درويشك الصالح هذا .

قال حسن بن الحصرى فى مرارة ، وهو يربت على عرف جواده :

ـ ولن يعثروا لها على أثر ، فاذا كان الزيبق اشـتهر بافلاته من الشراك ، فدليلة لا تقل عنه مهارة وحيلة .

قال الوزير مروان :

ـ الزيبق .. ؟ وأين منا الزيبق الان .. ؟

التفت حسن بن الحصرى الى الوزير مروان فى دهشة وهو يقول مشيرا الى على :

ـ كل هذا ولا تعرف ان هذا الفارس هو على الزيبق ؟

وجم الوزير مروان ، وأوقف حصـانه ، فتوقف الركب كله ، وجعل يتأمل فى الزيبق وعلى وجهه ترتسم تغييرات مضـحكة .. ثم قال فى تردد :

ـ انت .. الزيبق ؟ .. كان يجب أن أعرف ، فهـذه أعمـال لا يستطيع الاتيان بها الا الزيبق نفسه ..

ثم ضحك فجأة ، وهو يهز رأسه فتهتز معها لحيته ، والكلمـات تتلاحق على شفتيه وهو يقول :

ـ اذن فهذا هو السر .. اذن فهذا هو السر .. كان السـلطان يعرف ، مؤكدا كان يعرف .

عبس الزيبق ، وهو يهدىء من حركة جواده الذى يريد أن يعاود السير ، وقال :

ـ أى سر ، وماذا كان السلطان يعرف ؟

قال الوزير مروان ، وقد تمالك نفسه :

ـ كان هناك من حذر السلطان قاسم بأن عيارا من مصر اسمه على الزيبق شديد الحيلة والخطورة سيأتى الى المدينة ليحصل على صندوق التواجيه .. وقد حذر قائد حرسه منه ، وبث العيـون والارصـاد لترقبه ، فقد كان المطلوب منه أن يقضى عليه فور اكتشاف امره ، ولا يمهله لكى يمارس حيله وملاعيبه ..

قال حسن بن الحصرى :
ـ لعلها دليلة أو الدرويش الصالح كما تسمونها .
هز الوزير مروان رأسه نافيا وهو يقول :
ـ لا ، كان هذا قبل وصول الدرويش الصالح الى البلاد .. ولكن المؤكد ان الدوريش دله على حقيقة شخصيتك يوم عدت بالاميرة ، ولهذا فقد حاول بكل الوسائل ان يقلب الناس عليك ، وأراد اعتقالك رغم ما قدمت للاميرة من خدمات ، وقد أدهشنى موقف السلطان غير المفهوم يومها .. أما الآن فقد ظهر السبب ، فقد كان يعرف أنك الزيبق ..
وتذكر الزيبق تلك الهمسات التى كان الدرويش والسلطان يتبادلانها يومئذ ، وفهم سر اشارات الدرويش الغامضة ، وسر موقف السلطان المحير ، فهز رأسه وقال :
ـ صدقت فى هذا أيها الوزير مروان ، السلطان كان يعرف ، اخبرته دليلة يومها .
هز الوزير مروان لجام فرسه ، واستأنف السير والى جواره الزيبق وحسن بن الحصرى ووراءه الفرسان عابرا الميدان الصاخب بالمبتهجين الفرحين من أهل المدينة ، ومقتربا من سور المدينة وبابها المفتوح .. وتعرف الكثيرون على الوزير مروان فصاحوا يحيونه ، وتعرف اخرون على الزيبق وعرفوا فيه منقذ ملكتهم فتعالى الهتاف تحية له ، وتعرف بعضهم على حسن بن الحصرى باعتباره الفارس الذى دوخ رجالهم فى قتال مر ، انتهى بانطلاق الشياطين المضيئة الملونة فى السماء .. وكان الركب كلما تحرك ازداد المنضمون اليه والسائرون وراءه ، كما ازداد صياح أهل المدينة وجلبتهم حتى تحول الركب الى مظاهرة حماسية صاخبة .. وضحك الوزير مروان وهو يقول مبتهجا:
ـ لم يحدث فى حياتى قط أن حظيت بمثل هذا الاستقبال الحماسى ..
قال الزيبق وهو يضحك :
ـ لم يحدث قط أن كنت بطلا شعبيا قبل الآن .
وكانوا يجتازون البوابة وسط الجمع الملتف حولهم ، فعاد الزيبق يضحك وهو يقول :
ـ لم ينفخ الطلسم فى البوق ، ونحن غريبان ..
ابتسم الوزير مروان وهو يقول :
ـ لم تعودا غريبين على الطلسم فقد سبق لكما دخول المدينة .
ثم لوح بيده ناحية القصر وقال :
ـ الاميرة تنتظرنا ، لابد ان كل هذه الضجة قد أنبأتها بقدومنا ..

والتفت الزيبق ليرى الاميرة زينب فى أحسن زينة ، وقد عقصت شعرها الكث فيما يشبه التاج ووضـــعت فوقه حلية مذهبة مليئة بجواهر لامعة ، وكانت تنظر نحوه بعينيها الواســعتين العميقتين ، وفيها تلك النظرة التى أصبح يخشاها ، والتفت على صوب الوزير مروان وهو يقول :

– وعلى كل حال فالرصد مشغول هذه الايام ، وبالامس فقط نفخ فى بوقه من جديد .

نظر اليه الزيبق فى حدة وقال :

– معنى هذا وجود غريب جديد فى المدينة .

قال الوزير مروان ، وهو يوقف جواده ويترجل ، ايذانا بوقوف الجميع وترجلهم :

– نعم ، يزورنا هذه الايام طبيب أفريقى ..

قال حسن بن الحصرى وهو يربط مقود جواده الى المربض العام الذى أقيم الى ناحية من مدخل القصر :

تعنى ساحرا ..

ضحك الوزير مروان وهو يقول :

– الساحر الافريقى يقوم هذه الايام بمهمة الطبيب بعد أن بدأ الناس يستغنون عن خدمات السحرة ..

وترجل الجميع عن جيادهم وربطوا خيولهم الى المربض ، بينما قال الزيبق :

– حدثنى عنه ..

وقبل أن يجيبه الوزير مروان ارتفع صـوت الاميرة بالترحيب ، واندفع الفارس بسام يصافح الزيبق ويرحب به وبالمقدم حســن بن الحصرى ، وتقدمتهم الاميرة الى القاعة ، فاضطروا الى السير وراءها فى صمت .. ولاحظ الزيبق تغيرا كبيرا فى القاعة التى سبق له أن دخلها ، فقد ازدانت ، وامتلأت بالورود والرياحين ، وظهرت مجموعة من الوصيفات يحطن بالعرش الذى وضعت أمامه منضدة صغيرة فوقها وسادة من المخمل الاحمر ، عليها صولجان ذهبى مرصـــع بالــدرر واليواقيت ، وكان الرجال يرتدون أفخر الملابس ، وبدا القاضى بينهم يختال بعمامته الضخمة وجبته الواسعة وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة مربوطة بشريط حريرى ، وقد أحس بأهميته فى هذا اليوم المميز ، وحين دخلت الاميرة ومن معها القاعة ساد الصــمت لحظة ، ثم اندفع الجميع بصوت هادر يحيون الاميرة وينـادونها بلقب الســـلطانة ، واصطف الفرسان صفين مرت من بينهما الاميرة ومعها الوزير مروان –

ويتبعها الزيبق وحسن بن الحصرى · فأشارت الى الوزير مروان ليكون الى يمينها ، كما أشارت الى الزيبق ورفيقه ليكونا الى يسارها ، ووقفت هى أمام العرش فى صدارة القاعة ·· ثم رفعت ذراعها ، فعاد الصمت ليسود من جديد ·· وقالت :

ـ ياأهلى واحبتى منـــذ توفيت أمى وانا اتوق الى هـــذا اليوم الذى أجلس فيه مكانها ، لاحكم كما كانت تحكم بالعدل والمحبة، ولاحقق لكم الرخاء والامان ، ولاثبت معكم معنى العزة والكـرامة التى هى سمة أهل المدينة المطلسمة التى لا يدخلها غريب حتى لا يفســد فيها ، وحتى لا يفسد على أهلها ما تعودوه من تسامح ومحبة .

وعادت القاعة تهدر بالتصفيق والهتاف ، وعادت الاميرة ترفع ذراعها ليسود الصمت مرة أخرى ، والتفتت الى يمينها مشيرة الى مروان ، وقالت :

ـ منذ شببت وكان الوزير مروان نعم الاب لى، وبديلا عن الاب الذى لا أذكره اذ مات قبل ان أعرف التمييز بين الناس والاشياء ، ثم تولانى برعايته بعد أن ماتت أمى السلطانة كوثر رحمها الله ، ولا أعرف ماذا كنت سأفعل ، وماذا كان سيكون مصيرى لو لم يكن الوزير مروان الى جانبى يجنبنى مؤامرات السلطان المغتصب الذى كان يتظـاهر برعايتى بينما هو يسعى لابعادى عن عرشى ، واغتصاب حقوقى ··

وارتجفت كلماتها ، وغصت بالدموع ·· وكادت تبكى ، فمد الوزير مروان يده القوية يمسك بيدها ويربت عليها فى حنان ، بينما تعالت الهتافات فى القاعة بحياته ·· ثم التفتت الاميرة الى يســارها ، واشارت الى الزيبق قائلة :

ـ وهذا الفارس الغريب تعرفون جميعا فضله على ، وقد أخبرتكم من قبل أنه حمانى من مصير رهيب كان يعده لى مونجو وعصـــابته بالتآمر مع ملك بحر الغزال الملك سلطان ، وبالتآمر مع الســلطان الغادر المخلوع ..

وارتفعت الهتافات من جديد لعلى الزيبق وللأميرة التى قالت :

ـ احببت أن أذكر لكم فضل أصحاب الفضـــل قبل أن تبدأ مراسم تنصيبى على عرشى ··

ثم أشارت بيدها الى القاضى ·· الذى تقـدم مسرعا حتى وقف أمامها وبسط اللفافة التى كانت بيده بعد ان ازال شريطها الحريرى، ومضى يقرأ منها بصوت جهورى رتيب ، وكان ما يقرؤه سلسلة نسب السلطانة منذ البداية البعيدة لعرش السلطنة وحق أمها السـلطانة كوثر . . ومضى على الزيبق يدير عينيه حوله يتفحص الوجوه ، ولا يدرى عمن كان يبحث ، ولكنه مضى يقف عند كل وجه متأملا . . سائلا نفسه

هل هو من وجوه أبناء المدينة المرصودة ، أم ان ملامحه تشي بانه غريب .. وأدرك أنه يبحث عن وجه دليلة بين هذه الوجوه المحتشدة ، وفجأة وقف عند وجه في اخر القاعة ، شديد السواد ، غريب الملابس ، كثيف الشعر متهدله فوق الكتفين ، وعلى الصدر قلادة من عظام ، وفي اليد صولجان غريب الشكل ، وعلى الصدغ وشم لثعبان ، وعند الشفتين اصباغ قاتمة .. ولكزه حسن بن الحصري وهمس فى اذنه، وعيناه على نفس الوجه :

ـ الساحر الافريقي ..

هل هو وجه دليلة ، ولكن دليلة اطول قامة من هذا الرجل ، حقا في الملامح شيء مألوف ، ولكنه بالقطع ليس وجه دليلة .. وأفاق على صوت القاضي الرتيب وهو ينهي حديثه قائلا :

ـ والآن يا سليلة ملوك وسلاطين وملكات وسلطانات هذه المدينة وقد بلغت سن الرشد آن الاوان لتتحملي مسئولياتك ، وتقومي بواجبك الذي أهلك ميراثك الشرعي أن تقومي به .. فأقسمي هنا على هذا المصحف الشريف أن تطيعي الله والرسول ، وأن تحكمي بما أنزل الله ، وان تراعي الله في رعيته ، وهم أمانة في عنقك الى يوم الدين .

ومد يده بمصحف صغير فوضعت الاميرة يدها عليه ، ومضت تردد القسم حتى اذا ما انتهت منه ، صاح القاضي :

ـ الان أعلنك سلطانة على المدينة المرصودة باسم السلطانة زينب بنت السلطانة كوثر والله شهيد على ما أقول، واقرأوا الفاتحة .

ومضى يردد ايات سورة الفاتحة ، والاميرة ترددها وراءه ، ومن في القاعة كلهم يرددونها وراءها حتى اذا ما انتهى منها وصاح :

ـ آمين .

تعالت الهتافات بحياة السلطانة ، ومد القاضي يده الى الصولجان الذهبي فاسلمه الى الاميرة ، التي تناولته من يده وجلست على عرشها في وقار وتؤده .. وهمس حسن بن الحصري في الحاح في اذن الزيبق :

ـ قلت لك هذا هو الساحر الافريقي .. اليس هو دليلة ؟

همس الزيبق قائلا :

ـ لا ، ليس هو دليلة ، ولكن لاتدع عينك تفارقه لحظة فقلبي يحدثني أن وراءه أمرا هاما ..

وقالت السلطانة زينب للزيبق :

ـ والآن ايها الفارس الغريب تمن ما تشاء فمن سلطاني الآن ان اقدم لك ما تطلب .

قبل ان يجيبها الزيبق ، ضحك الوزير مروان وقال :

ــ الفارس الغريب ، الا تعرفين من هو هذا الفارس الغريب .

قالت السلطانة :

ــ اعرفه منقذا لى وفارسا شهما .

قال الوزير مروان :

ــ هذا على الزيبق الذى حذرنا السلطان قاسم منه ، ورصد الحراس للبحث عنه والتربص به .

صاحت السلطانة زينب :

ــ الفارس على الزيبق المصرى ، كان يجب أن أعرف هذا وحدى .

ثم أطرقت برأسها لحظات ، وعادت تقول :

ــ فطلبك أيها الفارس الجزيرة المسحورة وصندوق التواجيه ؟

قال على الزيبق :

ــ لقد عرفت ما جئت من أجله .

قالت السلطانة زينب وهي تتنهد :

ــ ان كان هـــذا هو كل ما تريده من بلادنا ، فلك ماتريد ، وقد سمحت لك بعبور بلادنا الى الجزيرة امنا ، فان نجحت فى الحصول على بغيتك فهى لك لا يعارضك فيها أحد .

■ ٢٤ ■

الفارس الوحيد

قال الوزير مروان معقبا على كلام السلطانة زينب لعلى الزيبق :

ـ نعم الموقف ما ارتأيته أيتها السلطانة ، فالزيبق قد اكتسب حق الحصول على مايريد ، حين أنقذك من غائلة المتآمرين واللصوص ..

وامتلأت القاعة بصيحات التأييد والموافقة ، وابتسمت السلطانة زينب ابتسامتها الغامضة وقالت :

ـ نحن نوافق على طلبات الزيبق بشرط .

وساد الوجوم لحظات ، حتى عادت السلطانة زينب تقول :

ـ حين يعود الفارس على الزيبق من الجزيرة المسحورة سالما ومعه صندوق التواجيه . يظل هنا فى المدينة المرصودة شهرا كاملا ، حتى نتمتع بالصندوق قبل مغادرته بلادنا الى الأبد ..

ودهش على الزيبق من هذا الطلب الغريب ، وأحس بحسن بن الحصرى يلكزه فى جنبه وهو يهمس له :

ـ ما معنى هذا ؟

وقبل أن يجيب الزيبق التقت عيناه بعينى الساحر الافريقى القاهرتين ، كانتا كأنهما تبحثان عن عينيه عن عمد .. ووجد على الزيبق نفسه منجذبا الى هذه القاهرة ، وكان فى العينين رسالة تحاول ان تصل اليه . ولم تكن الرسالة عدائية ، ولم يكن الزيبق يحس بكراهية أو عداء تجاه هذا الانسان الشديد السواد ، والكثيف الشعر ، صاحب القلادة المليئة بالعظام ، والصولجان الغريب المزركش المليء بالاشياء الصغيرة المعلقة فيه ، فقط كانت هناك رسالة ، وكان لابد أن يفهمها .. وعاد حسن بن الحصرى يلكزه فى جنبه مرة أخرى وهو يهمس :

ـ انظر السلطانة والوزير يتهامسان ، لا أظن همسهما هذا سينتهى على خير لنا ..

هز الساحر الافريقى رأسه ، وفجأة فهم الزيبق الرسالة ، انه يحثه على الموافقة ، ولكن لماذا ؟ وماذا يهم هذا الساحر الافريقى من أمره ؟ وكيف يحس بالف غريب نحوه .. ؟ من هو ؟ وما رسالته هنا .. وسمع نفسه يقول فى صوت مرتفع :

ـ اوافق ايتها السلطانة على شرطك ، يبقى صندوق التواجيه بعد

حصول عليه فى مدينتك شهرا ، فهذا حقك ، وحق المدينة التى حرمته كل هذه الاعوام ..

وابتسمت السلطانة ، ونظرت حيث يقف الزيبق وقالت :

ـ حسن هذا أمر انتهينا منه ، ولكن بقى لى طلب آخر ..

واحس الزيبق بلكزة حسن بن الحصرى تكاد تخترق جنبه ، وسمعه يهمس فى الحاح :

ـ فى الامر شىء ياعلى فانتبه .

قال على الزيبق همسا :

ـ بعد كلمات السلطانة ، واضح ان فى الامر شيئا ..

قال حسن بن الحصرى بنفس الصوت الهامس :

ـ انه الوزير مروان ، كان يهمس لها طول الوقت ..

قال على الزيبق فى حيرة :

ـ ولكن الوزير مروان فى صفنا ياحسن ..

قال حسن بن الحصرى فى الحاح :

ـ لا يعنينى من فى صف من ؟ ولكن الذى يعنينى انه لم يرد بهمساته للسلطانة خيرا ، واظنك تذكر جدله لك فى الكهف حول قاسم السلطان السابق ..

وكانما كان حسن بن الحصرى يقرأ ما فى ضمير السلطانة ووزيرها من كتاب مفتوح ، اذ سرعان ما أيدت كلمات السلطانة شكوكه ومخاوفه، اذ قالت :

ـ نريدك أن تسلم لنا سلطاننا المخلوع ليحاسب على وحشيته وقسوته ، وخيانته للامانة ومؤامراته العديدة على ، والتى كان آخرها ما دبره هو والملك سلطان ملك بحر الغزال لابعادى عن سلطنتى الى الابد .

قال حسن بن الحصرى :

ـ ماذا قلت لك ؟

قال الزيبق همسا لحسن بن الحصرى :

ـ كان علينا ان نتوقع هذا .

ثم قال بصوت عال موجها حديثه الى السلطانة والوزير :

ـ ولكن السلطان السابق اسيرى ، وانا وحدى املك الحق فى تحديد مصيره

وثب الفارس باسم ، فاذا هو أمام عرش السلطانة ، وكانت يده على مقبض سيفه وهو يقول :

ـ وأنت وصديقك الآن أسيرا السلطانة .. لا تنس هذا . ولن تستطيع هذه المرة أن تقفز لتضع سن سيفك على رقبة أحد ..

مد حسن بن الحصرى يده الى مقبض سيفه ، فامتدت يد الزيبق لتستقر فوق يده مانعا اياه من سحب سيفه من قرابه ، وقال فى هدوء موجها حديثه الى السلطانة :

ـ لست أظن ان المسألة قد وصلت بنا الى هذا ..

ثم نقل بصره بين السلطانة والوزير والفارس باسم ، وقال فى لهجته الهادئة :

ـ نحن أصدقاء فيما أحسب ، ولسنا أعداء .

قالت السلطانة وقد احمر وجهها خجلا :

ـ صدقت أيها الفارس على ، نحن أصدقاء .. ونحن لا ننسى فضلك ..

ثم التفتت الى الفارس باسم غاضبة وهى تقول :

ـ ما معنى هذا أيها الفارس باسم ؟!

فى صعوبة شديدة تملك الفارس باسم نفسه، وببطء شديد أعاد سيفه الى قرابه ، وهو لا يحول نظره عن الزيبق الذى كان يبتسم ابتسامته الهادئة .. بينما قال الوزير مروان ، وهو ينتقى كلماته فى بطء وعناية :

ـ هذه المدينة لا تستطيع أن تتنازل عن ضرورة محاكمة الطاغية . لقد ساهمت حقا فى خلعه ولكننا أيدناك وحميناك . ولن نأمن على أنفسنا الا اذا احكمنا قبضتنا عليه .. وليس هناك عداء بيننا وبينك .. فاسلمنا السلطان المخلوع تسلم ، وتحصل على صندوق التواجيه وترحل فى سلام ..

وكانت عينا الزيبق تجولان فى الجموع بحثا عن الساحر الافريقى ، ولكن لم يجده ، كان قد ذاب فى وسط الجموع واختفى .. وهز كتفيه فى حيرة .. بينما شعر بحسن بن الحصرى يطلق زفرة ارتياح طويلة وسمعه يهمس فى أذنه :

ـ كنا قريبين جدا من النهاية ، وما كانت ملاعيبك تفيدنا هنا فى شىء ..

همس الزيبق وهو مايزال يبتسم :

ـ صدقت ، ولكنهم لا يعرفون هذا ..

وعاد الوزير مروان يقول فى نفس الصوت المتئد :

ـ نحن لا نقصد اغضابك أيها الفارس على ، ام اسميك بالمقدم الزيبق .. ؟

وضحك ضحكة مفتعلة لم يشاركه فيها أحد .. وسعل عدة مرات ، وهو يتلفت حوله فى حرج ، ثم عاد يقول :

ـ لو كنا نريد مضايقتك لاحتجزناك هنـــا ، بينمـــا نقبض على السلطان ، ونأتى به من الكهف الذى قيـــدته فيه ، ولكننا كما ترى نحاول أن نقنعك بتسليمه بنفسك لنا ..

وهمس حسن بن الحصرى :

ـ ان هذا الكهل الاشيب ملىء هو نفسه بالملاعيب والخدع .

قال الزيبق موجها حديثه للسلطانة زينب :

ـ لم يكن قصدى تحدى ارادتك ايتها السـلطانة ، ولكن ما لدى قاسم من معلومات تهمني وتهم رجال الخليفة ، فهو قادر على ان يكشـف لنا خيوط مؤامرة دنيئة هو أحد أطرافهـــا ، ونريد أن نعـرف باقى الاطراف قبل أن يستفحل الامر ، ويخرج عن طاقة ردعه ..

ابتسمت السلطانة لاول مرة ، ولمعت عيناها الواسعتان الجميلتان ، وقالت :

ـ نعدك أن تحصل على ماشئت من معلومات ، قبـــل أن ننفذ حكم العدالة فيه .

هز الزيبق كتفيه استسلاما ، وقال :

ـ لم يعد أمامى الآن خيار ، سأذهب انا والمقدم حسن لاحضـــار السلطان المخلوع .

تقدم الفارس باسم الى الامام خطوة ، وقال فى تحد :

ـ بل سأذهب أنا والفرسان لاحضاره .

قال الزيبق محتجا :

ـ ولكن مافى ولومبا سيقاومانكم لو ذهبتم من غيرى ..

ضحك الفارس باسم فى استهتار وقال :

ـ وهل نخشى بأس فارسين أثنين ؟

تدخل الوزير مروان قائلا فى صوته الوقور المتأنى :

ـ لسنا نريد سفك الدماء .. فلو اعطيتنا سيفك لنريه لهمـا لاقتنعا أنك تريد تسليم السلطان المخلوع لنا ، ولسلماه دون قتال ..

ضحك الزيبق فى سخرية وهو يقول :

ـ لا اظن أننى سأسلمك سيفى أيهـــا الوزير الطيب .. ولكن ما تقوله صحيح ، ولهذا ساعطيك صديقى المقـــدم حسن ليذهب مع فرسانك ، وهو كاف ليبلغهم رسالتى بتسليم قاسم ..

صمت الوزير لحظات يعبث فيها فى لحيته ، ثم قال :

ـ لا أظن أننى أحبذ ذهاب المقدم حسن ، فسيصبحون ثلاثة فى مواجهة فرساننا لا اثنين ، وضحك ضحكته الجوفاء ، وعاد يقول :

ـ ثم اننا رأينا قتاله ، ولسنا نظن أننا نحب أن نتعرض له مرة اخرى ، وخاصة وانه ينهى معاركه باستدعاء البرق والرعد ، والشياطين الملونة تملأ السماء وتتساقط فوق الجنود كالشهب اللامعة .. لا .. يا مقدم على .. ابحث عن بديل آخر ..

توترت عضلات حسن بن الحصرى ، وعاد يمد يده الى مقبض سيفه ، وعاد الزيبق يضع قبضته فوق كفه يمنعه من تجريده ، وتنهد وهو يقول :

ـ أنت لا تترك لى خيارا أيها الوزير .. وأنا لا أستطيع ان أعطيك سيفى ، ولكننى سأعطيك خنجرى بدلا منه فهما يعرفانه ، اذ به قطعت قيودهما ، وقيود السلطانة ..

واحمر وجه السلطانة ، وهو يخرج خنجره ويسلمه الى الوزير مروان ، الذى أسلمه بدوره الى الفارس باسم ، قائلا :

ـ حاول أن تحضر السلطان المخلوع دون معركة ، فليس بيننا وبين الزيبق دماء مسفوكة حتى الآن ..

تحدث حسن بن الحصرى لاول مرة بصوت عال قائلا :

ـ لو سفكت أى دماء فلن نكون نحن السبب فيها ، وعلى من يؤدى الى سفكها ان يتحمل تبعتها وحده ، ولا يلومنا أحد ..

احمر وجه الفارس باسم وقال فى غضب :

ـ هل هذا تهديد ؟

قال الزيبق فى ابتسامته الهادئة التى اصبح الكل يعرفونها ، ويخشونها معا :

ـ هو تحذير ايها الفارس باسم .. هو تحذير ..

وضحكت السلطانة وهى تصفق بيديها ، وتقول :

ـ هذا حفل فرح وبهجة ، فهيا ايها الفارسان خذا اماكنكما امام الطعام ، وليبدأ العزف والغناء احتفالا بتتويجى على عرش السلطنة ..

وبينما انصرف الفارس باسم ورجاله ، انطلقت فى القاعة أصوات عزف موسيقى بديع ، وخرجت فتيات يحملن الورود والرياحين ، ويرقصن على الايقاع ، بينما دخل القاعة مجموعة من الخدم يحملون أوانى الطعام يضعونها امام مجالس القوم فى أنحاء القاعة المختلفة .. واختفى الجو القلق المتوتر من القاعة ، وتعالت الضحكات هنا وهناك ، وأشارت السلطانة الى مكان قريب منها زخر باطايب الطعام والفاكهة

وزين بالورد ليجلس الزيبق وصديقه ، وأخذ الاثنـــان مجلسهما في صمت ، وهما يدوران باعينهما في أرجاء القاعة ، وكل مافيها من مظاهر البهجة والفرح لا يدخل الطمانينة الى قلبيهما .

***

قال حسن بن الحصرى وهو يمد يده الى الطعام الشهى أمامه :

ـ لقد تذكرت الان انني لم آكل من زمن طويل ، وهذه فرصـة لن أدع القلق يحرمني فيها من سد جوعي واشباع معدتي ..

ضحك الزيبق وهو يمد يده بدوره الى الطعام :

ـ الدرس الأول الذى تعلمته في دنيا « الفتوة » أن تأكل حين يتاح لك الاكل فلست تدرى اين ولا متى ستجد الطعام ، ولا الوقت الكافي لالتهامه .

قـــال حسن بن الحصرى ، وهو يبتلع ما في فمـه ، ويمد يده الى الصحون مرة أخرى :

ـ هذا درس مفيد لم يلقنه لى أحد من قبل ، ولكني سأحفظه عنـك من الآن .

ضحك الزيبق وهو يرفع كوبا مليئا بالعصير فيفـــرغه في جوفه وقال :

ـ وستجد انه درس عام حين ينسيك الخطـــر مجرد التفكير في البحث عن الطعام .

قال حسن بن الحصرى :

ـ كنت أظن الوزير مروان في صفنا :

ضحك الزيبق وقال :

ـ هو في صفنا ..

كف حسن بن الحصرى عن التهام طعامه ، وقال في دهشة :

ـ كيف يكون في صفنا ، وهو يكاد يســـلمنا الى الموت بحديثه الوقور الخبيث ؟

عاد الزيبق الى ضحكه ، وقال :

ـ هو في كل صف يحفظ له نفوذه ومــكانته ، كان في صـــف السلطانة كوثر حتى ماتت ، فغدا في صف السلطان قاسم حتى بلغت الاميرة زينب سن الرشد ، وهو في صفنا حتى أزحنا له الســـلطان قاسم ومكنا للسلطانة زينب ، وهو في صف السلطانة زينب ليـؤكد نفوذها وحدها ، ويضخم لها في ذاتها ، وفي أهميته لحفظ هذه الذات .

افاق حسن بن الحصرى من دهشته ، وضحك ، ثم ضرب بيديه على فخذيه ، وهو يقول :

ـ لقد فهمته تماما يامقدم على .. واحسب انك مصيب فيما تقول عنه .

قال الزيبق :

ـ لقد شككت فى حقيقته منذ لقائنا الاول اذ أخذ يلمح فى كلامه بما يشتم منه انتشار حالة التذمر من قاسم ، كما أخذ يصرح بانه مغتصب لحق زينب ، وانها قد بلغت سن الرشد وأصبح العرش من حقها .. ورغم براءة الكلام فى ظاهره الا أننى أحسست فيه قطرات دهاء ، وتخطيط مقصود ..

قال حسن بن الحصرى وهو ينقض على الطعام من جديد :

ـ هذا رجل لا صديق له الا نفسه ..

قال الزيبق :

ـ هو صديق النجم الصاعد ، أما اذا اوشك النجم على الافول فالويل له ..

قال حسن بن الحصرى ، وكلامه لا يكاد يبين من فمه المحشو بالطعام :

ـ وكنت أظنّ الفارس باسم فى صفنا ..

ضحك الزيبق ، وهو يعود الى تناول طعامه وقال :

ـ هو فى صف السلطانة زينب .. فهو يضحى بحياته نفسها من اجلها .

قال حسن بن الحصرى وهو يبتلع طعامه :

ـ ولكن السلطانة فى صفنا فلماذا يعادينا ؟

مضغ الزيبق الطعام الذى فى فمه ، ثم ابتلعه فى تؤده ، وشرب جرعة ماء ، ثم قال :

ـ انت لم تر نظرة السلطانة .. ولذا ، فانت لا تعرف شيئا عن الموضوع كله .

فتح حسن بن الحصرى فاه فى دهشة وقال :

ـ نظرة السلطانة ؟

قال الزيبق :

ـ لقد استهواها اننى انقذتها من هذا الكهف المظلم الكئيب ، واننى اخرجتها من أسر مونجو وعصابته ..

قال حسن بن الحصرى :

ـ معنى هذا نظرة متطلعة الى شىء لا علاقة له بالأحداث والناس .

قال الزيبق فى جدية :

ـ ماذا تعنى ياحسن ؟
قال حسن وهو يتجاهل الطعام امامه لأول مرة :
ـ أعنى يا على أنها تريدك انت ـ والفارس باسم قد فهم هذا ، ومن هنا كانت عداوته لك ، ولنا جميعا .. فهو لا يريد للسلطانة أن تنظر الى غيره .. وغيره هو أنت .. وهى بالفعل تنظر اليك .
أطرق الزيبق مفكرا لحظات ، ثم رفع رأسه وقال :
ـ لقد لاحظت هذا ، وهو ما أرقنى ، وذهب بسلام نفسى فى هذه القضية كلها ..
قال حسن بن الحصرى :
ـ هو يريد أن تؤيدها بسيفك ، وان تنصرها بملاعيبك .. ولكن هذا هو الحد عنده ، بعد هذا أنت فى دنياك وهى فى دنياها ، ولا علاقة بين العالمين .
قال الزيبق فى ضجر :
ـ ماذا تريد أن تقول بحديثك الطويل هذا ؟
قال حسن وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :
ـ أريد أن أقول أن السلطانة تريد منقذها لا حاميها .. آسف أعنى السلطانة تريد الرجل الذى أعادها الى العرش .
ترك الزيبق ما بيده من طعام ، والتفت الى حسن بن الحصرى فى اهتمام ، وقال فى تؤده :
ـ تعنى أن السلطانة ...
قال حسن بن الحصرى :
ـ نعم أعنى ، ان السلطانة تريد فارسها شريكا لها فى عرشها .
قال الزيبق فى ضيق :
ـ لقد أفهمتها منذ الدقائق الأولى أن قلبى معلق بزينب اخرى
ضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :
ـ كل فتنتها وجمالها وعينيها وشعرها ، وانها سلطانة ... وانت تائه عربيد لا يعرف له قرارا .. هى تحس انها صاحبة الكلمة الأولى فيك .
صاح الزيبق :
ـ ولكنى كنت حاسما فى هذا الأمر من البداية .
ضحك حسن بن الحصرى فى سخرية .. وسكت لحظات يتأمل

فيها الزيبق ويجول ببصره فى القاعة المليئة بالحركة والحيـــاة ، ثم قال :

ـ قل ما تشاء ، ولكن مثلك لا يخطىء ما فى عينيها وهى تنظر اليك ، ثم أنت تتبع حركاتها .. الفارس باسم رجل من لحم ودم ، وهو قد قضى عمره يتعبد فى سيدته السلطانة ، فلا تأت أنت آخر الأمر وتصبح الفارس الوحيد .

ضحك الزيبق فى مرارة وهو يقول :

ـ الفارس الوحيد ؟

قال حسن بن الحصرى ، وهو يوجه كل انتباهه الى الزيبق :

ـ فى قلبها .. الصراع عند الفارس باسم موهوم كله ، ولكنـــه عنده حقيقة مجسدة ، من هنا جاءت كل تصرفاته العدوانية الاخيرة تجاهك ، لابد أن يزيحك ، ليظل هو ـ لا انت ـ الفارس الوحيد .

لم يجبه الزيبق ، وانما أخذ ينظر حوله فى قلق ، وقد نسى أمر الطعام والشراب ، والحديث والجدل ـ وهمس فى صـــوت يحمل نذير الخطر .

ـ هناك شىء غريب يجرى حولنا يا حسن ، فانتبه .

كان حسن بن الحصرى قد استهواه الحديث عن غرام السلطانة بالزيبق ، كما استهواه الطعام والشراب حتى نسى كل حذر ، فجـاء تحذير الزيبق فوق أرض باردة ، اذ ضحك وقال :

ـ نحن فى أمان هنا يا مقدم على ، وتذكرتنا الى الامان هو حب السلطانة لفارسها الوحيد على الزيبق ، فلا أحد هنا يخالف رغبات السلطانة .

قال الزيبق فى صوته المتوفز :

ـ انظر حولك ، أين السلطانة ؟ وأين الوزير مروان ؟

قال حسن بن الحصرى وهو يجيل حوله نظرة غير مبالية :

ـ هما غير موجودين فى القاعة ، وماذا فى هذا ..؟ مالك يا زيبق تتوجس الشر فى لاشىء .. هذا احتفال ، وهذه سـلطانة ، وهـو وزير ، ومهام كل منهما كثيرة ومتعددة .

قال على الزيبق فى صوت حذر :

ـ هاهما يعودان ، فاحترس فى حديثك .

ورفع حسن بن الحصرى بصره ، فاذا بالسلطانة تعود ووراءها مروان ، وهمس :

ـ انظر ما أروع هذا الجمال ياعلى .

بالفعل .. كانت السلطانة تعود الى القاعة امرأة أخـرى ..

ارتدت ثوبا جديدا يكشف عن مفاتن جسدها الرائع التكوين ، وكانت قد بسطت شعرها الكث لينسدل فوق كتفيها فى ثراء ، والتاج على مفرقها يلمع بجواهره ، وابتسامتها المشرقة تثير القاعة كلها ، وكانت تتقدم نحوهما ، ووراءها خادم يحمل اناء فوق صينية مفضضة وعلى الصينية اكواب .. وحين وصلت اليهما ابتسمت فلمعت الدنيا وابتهج العالم ، وقالت فى صوت سحرى مسكر نعلى الزيبق :

ـ هذا شراب الزهر ، نخلطه بمقطر الزهر ، زهر اللارنج الذى يملأ حديقة القصر ، واحب أن تشرب منه انت وصاحبك ، تحية ود ومحبة منى لكما ..

ودارت بجسدها الملفوف اللدن ، فملأت كوبين من الاناء ، ومدت بيدها الرقيقة كوبا لكل واحد منهما ، وقد انحسر الثوب عن ذراعها البض المليء المهتز .. وقال حسن بن الحصرى :

ـ هذه رعاية لم أحظ بمثلها فى حياتى كلها .

ومد يده فتناول كوبه وشربه حتى الثمالة وهو يبتسم ، بينما مد الزيبق يده الى الكوب ، وشمه فى حذر ، وكانت رائحة الزهر تضفى منه على كل رائحة ، وقالت السلطانة :

ـ الا تشرب من يدى أيها الفارس .

ولمعت فى ذهن الزيبق كلمة حسن بن الحصرى عن الفارس الوحيد ـ فابتسم ومد يده الى كوبه ، ونظر الى العينين الواسعتين وتاه فيهما ، ثم رفع الكوب الى فمه وشرب ما فيه من ماء معطرا فى جرعات متتالية . وفجاة انتبه فمع رائحة الزهر كانت هناك رائحة شيء آخر ، ونظر فاذا حسن بن الحصرى متكو م الى جواره كالجثة ، ومد يده يحاول أن يلمسه ، ولكن خدرا مخيفا كان يمس يده وجسده كله ، وكانت راسه تثقل وتثقل ، وشيء كالدوامة يحبط به ، ويرج وجوده كله رجا .. وأراد أن يتكلم ، ولكن لسانه كان مثقلا .. ومد يده ولكن يده لا تمتد .. وأمامه كانت العينان الواسعتان تتسعان وتتسعان ، لتحتوياه كله .

ولم يعد يعى شيئا ، فقد راح فى ظلام كثيف ، وثقل لسانه ، ووعيه ، وضاع فى غيبوبة عميقة ، كان شيئا لزجا يمتص جسده وعقله ، ويبتلع كليهما تدريجيا فى اصرار ، وفعل اكيد .. ولم يعد يقاوم وانما ترك نفسه يمتص ويضيع ، وينسى ، ويروح فى سبات عميق .

- ٢٥ -

الساحر الافريقى

كانت أمه تقول غاضبة :

- قلت لك ياعلى لا تهرب من الكتاب .

وكان جده القاضى نور الدين يمسك بمقرعته يضربه بهـا بين كتفيه وهو يصيح :

- هذا الولد لا يصلح لشىء ، لن يتعلم شيئا ابدا ..

وكان خاله منصور ، يصيح وهو يتعذب فى برميل القار :

- اقتلنى ياعلى ، لا أحتمل هذا القار ، لا فائدة ، أنا ميت ، لقد خدعونا بهذا البرميل الملىء بالقار المغلى .

وكان المقدم عباس يقول فى هدوء وثقة :

- فى الرميلة وقرة ميدان ، ستتعلم دروس الفتوة الصحيحة ياعلى ، ولكن لا ينبغى أن تعرف أمك شيئا عن انقطاعك عن درس الكتاب ، وانصرافك الى دروس المصارعين والرماة بالأقواس والرماح .

وتقول أمه فاطمة ، ووجهها قريب جدا ، ملىء بالفزع ، والحب معا :

- وضعوك على المشنقة ياعلى ، لن تبقى عليها طويلا ، فأنا أحمد بن البنى فارسك وصاحبك .

ويصيح المقدم صلاح الكلبى والماء المغلى ينهال على جسده .

- هذا ليس حانوتيا ومغسلا ، هذا على الزيبق .. أمسكوه ، امسكوه .

وكان صوت اليف يصيح :

- ياعلى .. ياعلى ..

وكان وجه أمه حزينا وهى تقول :

- ذهبت الى حيث صلب خالك وبكيته فنحن لابد ان نبكى موتانا ..

وكان وجه زينب اليفا حبيبا ، وهى تبكى .. وكانت تقول :

- خدعتك ياعلى وسقتك الى المشنقة ..

وصلاح الكلبى يضحك ، وسيوف تلمع ، ومعركة ، واحدهم يخطفه فوق فرس ويهرب به من فوق حبل المشنقة ، وصوت ملح يصيح :

ـ ياعلى .. ياعلى ..

وديك يصيح عند الفجر ، ومؤذن يؤذن فيرج صوته سكون الفجر الساجى ، ويلف حول المئذنة وهو يؤذن ، وصوته مرة يأتى خافتا من بعيد ، ومرة قريبا قويا كأنه عند رأسه تماما ، وصوت يلح :

ـ ياعلى .. ياعلى ..

واهتز جسده مرة ، ومرات ، وانزاحت عن رأسه غمامة مخيفة كأنها صوان أصم .. وهز رأسه فاهتز ، وحرك جسده فتحرك ، وفتح عينيه فى صعوبة بالغة ، وأمامه كان المقدم حسن بن الحصرى ، فى عينيه لهفة ، وفى وجهه رجاء ، وكان يقول :

ـ ياعلى .. ياعلى .. استيقظ ياعلى .. أفق ياعلى .

دوامة ، ظلام ، وظلام ، وعطش فى الصحراء ، وجوع عنيف عند البئر ، ورأسه يدور ، وهو يستحم فى ماء عند نهر والحصان يصهل ، والصوت الملح يقول :

ـ أفق ياعلى .. ياعلى .. ياعلى .

وخرج من دوامة ، الى دوامة ، ومن طبقة زيت معتمة ، الى طبقة زيت معتمة أخرى ، وابتدأ الهواء يرق ويصفو ، وفتح عينيه .. وأمامه كان وجه المقدم حسن بن الحصرى عريضا ، طويلا ، متجهما وهو يقول فى الحاح :

ـ أفق ياعلى .. أفق ياعلى .

وتنهد فانزاح عبء عن صدره ، وتمطى ، فانزاح عبء عن كاهله ، وهمس فى صوت ضعيف :

ـ أين أنا ؟

ضحك المقدم حسن بن الحصرى ، وهو يقول فى مرارة .. :

ـ أنت هنا معى .. فى الأسر ..

أحدثت هذه الكلمات أثرها فى الزيبق ، فاذا برأسه تستقر فوق كتفيه ، واذ بعقله يصفو تدريجيا ، ويخرج من الدوامة الكثيفة التى كانت تدور به ، واعتدل الزيبق فى جلسته ، ونظر حوله ، فاذا هو فى قبو مظلم وأمامه حسن بن الحصرى مقيد اليدين والقدمين ، وأراد أن يحرك يديه فمنعهما القيد ، ونظر اليهما الزيبق ، ثم نظر الى قدميه فاذا هما مقيدتان أيضا ، وقال فى تؤده .

ـ نحن الآن فى الأسر ..

قال حسن بن الحصرى فى مرارة :

- دست لنا السلطانة المخدر فى شراب ماء الزهر ، واخفى الزهر رائحة المخدر .
فجأة ضحك الزبيق ، كانت ضحكة جوفاء لا معنى لها ، كانت مجرد صوت يصدر عن حنجرته فيهز جسده كله هزا ..
وقال حسن بن الحصرى فى ضيق :
- أتضحك ، أفى هذا ما يضحك ، انت وانا تضحك علينا طفلة كهذه .. ؟
كف على الزيبق عن ضحكه ، وهز قيود يديه ، وتأملهما لحظات قبل أن يقول :
- لقد ضحكنا نحن على انفسنا يامقدم حسن .. ظننا أن جميلنا على السلطانة يكفل لنا الترحيب والأمان ، وظننا أن كل ما تريده منا هو السلطان قاسم ، واننا حين تركناهم يحضرونه من أسره فى الكهف قد دفنا كل عداء بيننا وبينهم .. ولكننا كنا واهمين ..
قال حسن بن الحصرى فى ضيق :
- ولكن لماذا ؟ لماذا هذا الغدر ؟
قال الزيبق وهو يختبر قيود قدميه بصعوبة بالغة ، اذ كانت قيود يديه تجعل الأمر متعسرا :
- أنا لا أحب هذه القصور ، فهى مليئة بالدسائس والتيارات الخفية ، ففيها ليس كل ما يقال لك هو الحقيقة ، وفيها ليس كل ما يعلن هو الصحيح .
قال حسن بن الحصرى :
- ليس كلامك هذا اجابة عن سؤالى ..
قال الزيبق :
- لقد احسست فى لحظة بان الماء الذى قدمته السلطانة فيه شىء غريب ، لعلها رائحة خفية ، ولعلها النظرة فى عين السلطانة ، ولعله هذا الجو القلق المتوتر الذى ساد القاعة فجأة ، ولكنى ماكدت التفت الى هذا الاحساس الا وكان الامر قد خرج من يدى فقد كنت قد شربت الكوب كاملا بالفعل ، وراحت شياطين الأمس تجول فى راسى ، الاحياء والاموات معا ، الناس والاصوات معا ، الحلو والمر معا ..
كان حسن بن الحصرى يستمع اليه فى ذهول وقال فى تخاذل :
- هل مسك المخدر فى رأسك الى هذه الدرجة .. هل انت بخير .. ؟
ضحك الزيبق ضحكته الخشنة التى لا معنى لها ، وقال :

ـ نعم أنا بخير يامقدم حسن ، ولكنى لم أعد واثقا أن الناس بخير ..

قال المقدم حسن :

ـ قد أستطيع ان افك قيودك ، او لعلك انت تستطيع ان تفك قيودى ، فنحن مانزال نتمتع بحرية الحركة ، ولو قفزا بالقدمين المقيدتين معا .

قال الزيبق :

ـ هم يظنون اننا مازلنا تحت تأثير المخدر والا ماتركونا هكذا .. اسمع ..

وسكت حسن بن الحصرى ، وقد التقطت أذناه أصوات وقع الأقدام التى سمعها الزيبق قبله ، فتبادل الاثنان النظرات ، وتراجع كل منهما إلى الحائط خلفه ، وجلسا القرفصاء فى سكون يرقبان الأقدام التى توقفت عند مدخل القبو .. وارتفع صوت الوزير مروان فى لهجة آمرة ، وفتح باب القبو فى ضجة ، ودخل الوزير مروان يتقدمه الفارس باسم ووراءهما مجموعة من الحراس شاهرى السيوف .. وساد الصمت القبو ، والزيبق يجيل النظر فى الداخلين فى صمت ، وقد تلاعبت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، واخيرا تحدث الوزير مروان فى صوته الوقور فقال فى تؤده :

ـ أين هو ؟ وكيف أخفيته وأنت معنا لم تغادر أبصارنا منذ خرجنا من الكهف سويا ..

قال الزيبق فى هدوء :

ـ تعنى أن السلطان قاسم قد هرب .. ؟

صاح الفارس باسم فى انفعال ، ويده فوق مقبض سيفه :

ـ لم يهرب قاسم المخلوع وحده ، لقد جرجر بقيوده الى خارج المغارة ، وكذلك لم يذهب معه فارسا بحر الغزال بارادتيهما ، فواضح من الآثار انهما قد جرا أيضا الى خارج المغارة حيث ظهرت آثار خيول حملتهما ومعهما السلطان الى مخبأ جديد .. وستخبرنا الآن بمكان هذا المخبأ شئت أم أبيت ..

تنهد حسن بن الحصرى ، وسعل ، وقال :

ـ وضح الآن كل شىء .. اذن فهذا هو السر فى المخدر وهذا القبو ، وهذه القيود .

قال الوزير مروان :

ـ ليس فى الأمر سر فانتما تعرفان كل شىء .

قال الفارس باسم :

- وستخبرانا بمكان السلطان قاسم ؟ والا لن تغادرا هذا القبو وانتما من الأحياء ..

ضحك الزيبق فى استخفاف ، وقال :

- لو كنا نعرف لأخذنا حذرنا ولما جازت علينا خدعة ماء الزهر المليء بالبنج ..

قال الوزير مروان فى هدوء :

- لقد كنت واثقا من نفسك ثقة زائدة ، ومن هذه الثقة اخذت ..

قال الزيبق بنفس اللهجة المستخفة :

- بل كنت واثقا فى العرفان بالجميل ، وفى كلام الصداقة المعسول ، وفى كلام الشهامة والفروسية .

صاح الفارس باسم فى غضب وقد احس أن الزيبق يعرض به :

- انه يراوغ ، ولا يريد أن يتكلم ، اتركنى معه وسأعرف كيف افك عقدة لسانه ..

ضحك المقدم حسن بن الحصرى فجاة ، وقال وهو يقف مستندا الى الحائط خلفه :

- أنت ؟ أنت تفك عقدة لسان الزيبق .. ؟

اندفع الفارس باسم وقد أعماه الغضب عن كل حذر نحو حسن ابن الحصرى ليلطمه ، فكشف ظهره للزيبق الذى استند الى الحائط بظهره ودفع بقدميه المكبلتين فى ظهر الفارس باسم الذى سقط الى الأرض وقد طار السيف من يده .. وانقض حسن بن الحصرى بركبته فوق ظهره بينما انشب يديه المقيدتين فى عنقه من الخلف ، وارتمى الزيبق ناحية السيف الساقط فوق الأرض ، ولكن الوزير مروان كان اسرع منه ، فضربه بحذائه ليبعده ، وانقض الجنود على الزيبق يشلون حركته ، بينما انقض آخرون على حسن بن الحصرى يرفعونه من فوق الفارس باسم رفعا .. وضحك الزيبق فجاة ، وقد وقف ساكنا بين من يشلون حركته من الجنود ، وقال :

- أنت ترى اننا لا نخشاكم .. مقيدين او غير مقيدين لستم من رجالنا ..

نظر اليه الوزير مروان فى صمت ، بينما وقف الفارس باسم يلهث وقد احمر وجهه انفعالا ، ثم ذهب الى حيث سقط سيفه فاستعاده ، وجعل يجيل بصره بين على الزيبق ، وحسن بن الحصرى ، ثم قال من بين انفاسه اللاهثة :

- من الآن ستقيدون الى الجدران ، وستضع فى أيديكم القيود

الحديدية .. وسنمنع عنكم الماء والطعام حتى تتدلى السنتكم من افواهكم كالكلاب المعطشى ..

قال على الزيبق فى هدوء :

ـ يدهشنى هذا التحول فيك ايها الفارس باسم .. عندما التقيت بك اول مرة كنت مثال الفارس الشهم الكريم ، اما الآن فصورتك غدت شوهاء وكريهة ..

وجم الفارس باسم وتخاذلت يده التى تقبض على السيف ، وتدخل الوزير مروان فى الحديث فقال فى صوته الهادىء المتزن النبرات :

ـ لقد كان هو وانا من اصدقائكم حتى ظهر عداؤكما لنا وللسلطانة ، فلم يعد للصداقة معنى ..

ضحك حسن بن الحصرى ، وقال فى صوت ساخر :

ـ نحن لم نعاد السلطانة ، ولا نحن عاديناكما ، ولا نحن عادينا المدينة المرصودة .

قال الوزير مروان :

ـ انتما رفضتما تسليم السلطان المخلوع ، ثم هربتماه منا ومن العدالة ، وهذا تآمر علينا كلنا ..

قال الزيبق :

ـ تعنى انك لا تأمن على حياتك بعد موقفك الأخير منه الا بموته ..

وقال حسن بن الحصرى :

ـ ويعنى انه لم يعد يأمن على نفسه منا ، فنحن اصبحنا نعرف عنه اكثر مما يجب ..

وقال الزيبق :

ـ اما الفارس باسم فهو أسير حماسه للسلطانة ، ولذا فهو العوبة فى يدك ايها الوزير ..

وقال حسن بن الحصرى :

ـ وما اسهل ان توهمه ان وجود الزيبق خطر يتهدد مكانته عند السلطانة ..

وقال الزيبق :

ـ لقد افهمت السلطانة بعد ان حررتها من مونجو وعصابته ان لى خطيبتى تنتظرنى فى بلادى ، واسمها أيضا زينب ، وهى جزء من الحوافز التى دفعتنى الى هذه الرحلة الخطيرة .

صاح الفارس باسم وقد ساءه ان تنكشف عواطفه امام الغريبين

بهذه الصورة :
ــ لقد زادت وقاحتكما من حدها ، السلطانة مليكتى ، ولهـــا على حق الولاء ..
قال الزيبق :
ــ وهل من الولاء ان تفقدها حليفا لها ومنقذها من الأسر ، وهى تحتاج الآن الى كل من يقف الى جوارها ، أم هل تظن ان الملك سلطان ملك بحر الغزال سيقف مكتوف اليدين بعد خلع حليفه عن العرش ، ام ان دليلة ستكتفى بالاختفاء من المدينة دون انتقام ممن دمروا خططها الخبيثة والتى كان السلطان قاسم يمثل عنصرا رئيسيا فيها .
قال الوزير مروان :
ــ قل لنفسك يازيبق هذا الكلام ، لو كان السلطان المخلـوع فى ايدينا لامكننا ان نحدد خططنا فى مواجهة اعدائنا ونحن مطمئنون، اعده الينا ، تنضم الى صفوفنا ..
وصاح الفارس باسم ، وهو يستعيد رباطة جاشه :
ــ لو ظننت لحظة واحدة انك تتطلع الى السلطانة زينب لقتلتك على الفور .
ثم اشار بيده الى الجنود فربطوا الزيبق وحسن الى وتدين متباعدين فى الحائط ، ثم ذهب بعض الجنود وعادوا يحملون القيود الحديدية والسلاسل الحديدية ليعيدوا ربط الزيبق وصاحبه بها ..
وقال الزيبق وهو يجلس الى الأرض :
ــ فى يوم ما ، سيدفع انسان ما ، ثمن حماقته .
ثم سكت ، لايرد على سيل السباب الغاضب الذى انثال من فم الفارس باسم ، بينما قال الوزير مروان فى صوته الهادىء الوقور :
ــ فى احوال ما ، تصبح تهديدات العاجزين أعلانا واضـــحا عن عجزهم ..
ثم انحنى لهما ، وامسك بذراع الفارس باسم يقوده الى خارج القبو ، والحرس يتبعونه فى جلبة ، واصوات وقع اقدامهم ، وقعقعة سلاحهم تصل الى الأسيرين الذين أطبق الباب السميك عليهمـــا ليتركهما فى شبه ظلام ..
وتنهد حسن بن الحصرى وهو يقول :
ــ هل كان لابد أن تستفزهما الى هذا الحد . ؟
قال الزيبق وهو يتحسس قيوده :
ــ كان لابد للفارس باسم أن يعرف حقيقه دوافعه ، ان غيرته على السلطانة اعمت بصيرته ، وابرزت اسوا ما فيه من خلق ، اما الوزير

مروان فكان يجب ان يعرف أننى افهمه على حقيقته ، وان لحيته الكثة ، وشكله الوقور ، وصوته الهادىء لم تعد كلها تخدعنى ..

قال حسن بن الحصرى فى ضيق :

ـ والنتيجة هى القيود الحديدية والجنـــازير ، والربط الى الحائط .. أيعجبك هذا .. ؟

ضحك الزيبق ، وهو يقول فى مرح :

ـ طبعا يعجبنى ، لعلى سعيت اليه بنفسى ، فانا قد تعلمت من زمن كيف اتعامل مع القيود الحديدية وعندما اهتدى الى الحيلة الصحيحة ساحرر رسغى من القيد ..

صمت حسن بن الحصرى لحظات ، ثم ضحك وهو يقول :

ـ نسيت ان قيود الحبال لابد ان تقطع بسكين ، أما قيود الحديد فتفك بالحيلة والصنعة ، أنا أيضا تعلمت شيئا من هذا ، ولو انى لم اجرب الفكاك من قيد حديدى من قبل ، وسأحاول .. وصمت ، وصمت الزيبق ، ولم يعد يتردد فى القبو الا صوت انفاســهما المترددة وهما يحاولان معالجة القيود الحديدية ، واصوات هــذه القيود وهى ترتطم وتحتك فى عنف مرة ، وفى حذر مرة ، وفى ياس مرات ، وتنهد حسن بن الحصرى فى مرارة وهو يقول :

ـ اما انا فقد عجزت ، فلا قبل لكل ما تعلمت بمعالجة هــذه القيود .. واملنا فيك أنت

فجاة قال الزيبق فى صوت حذر :

ـ اصمت ، وكف عن الحركة ، لسنا وحدنا فى هذا القبو ..

واطبق حسن بن الحصرى شفتيه ، وكتم أنفاسه ، وسرعان ما ادرك ما يعنيه الزيبق حين أحس بجسد يلمس جسده بسرعة ويتجه ناحية الزيبق ، وجمد فى مكانه وهو يسمع صوتا غريبــا يقول فى همس :

ـ لا تتحرك ياعلى ، وسافتح قيدك فورا ..

ثم سمع عبثا بقفل القيد الحديدى ، وصوت انفتاحه ، وصوت وقوع السلاسل فوق الأرض ، وميز شبحا ينحنى الى جوار الزيبق يعبث بقيد قدميه ، وعاد صوت العبث بالقفل ، وصوت انفتاح القيد وسقوطه مع السلاسل التى تربط الزيبق بالوتد المثبت بالجــدار وراءه .. وسمع صوت الزيبق وهو يقول فى مرح :

ـ لا ازعم اننى عرفتك من اول وهلة ياعمر .. ولكن قلبى دلنى عليك ، فرغم تنكرك البارع نفذ حبك الى فجعلنى احس بوجــودك معى ..

وقال الصوت الغريب مرة أخرى فى همس :
ـ اسكت ياعلى ، ولا تتحدث حتى تخرج من هنا بسلام .
ثم إقترب الشبح الغريب من حسن بن الحصرى واخذيعبث فى نبد يديه حتى فتحه ، ثم فتح قيد القدمين ، وازاح السلاسل وهمس :
ـ اتبعانى ..
وعندما تسللوا جميعا من باب القبو لمع ضوء مشاعل بعيدة فهمس حسن فى دهشة وقد كشف الضوء الضئيل ملامح الشبح :
ـ الساحر الأفريقي .
ضغط الساحر على كتفه فى عنف وهو يهمس فى غضب :
ـ مزيد من الصوت وينكشف أمرنا .. أتبعانى فى صمت كامل ..
واطبق حسن بن الحصرى فمه ، ومضى يتبع الزيبق والساحر الافريقى ، وهو يجيل فى خاطره ان الزيبق لا تنتهى ملاعيبه ابدا ابدا فمنذ التقى به عند بئر النجاة ، وكل لحظة يلقي مفاجاة جديدة ، تزيد عن سابقاتها غرابة ، وقد كان يظن ان اطلاق الشياطين الملونة فى السماء يفوق كل اعجوبة ، ولكن أن يفك الساحر الأفريقى الذى لا يعرفانه قيودهما بهذه السهولة ، ويخرج بهما من هذا القبو الملعون رغم أنف القيود الحديدية والسلاسل والحراس ، فتلك اعجوبة تفوق كل ما سبقها ، وابتسم لنفسه وهو يقول :
ـ لا عجب ان أسموه الزيبق .. فمن يستطيع أن يمسك هذا المفلات العجيب ..
وقطع عليه تأملاته توقف الساحر الأفريقى عند ناصية القصر ، حيث همس لهما :
ـ هذه المنطقة مكشوفة لحراس القصر ، ولسكان المدينة على السواء ، ولابد أن نقطعها لنصل الى هذا الدغل الكثيف فى مؤخرة المدينة حيث النفق الذي نفذ منه مونجو وعصابته يوم اختطفوا الاميرة ، وسنسلكه الآن فى الخروج منها ..
قال الزيبق فى همس :
ـ يمكننا أن نزحف فى بطء ولن يحس بنا احد ..
قال الساحر الافريقى
ـ يزحف واحد أمامى ، وواحد خلفى ، واسير انا وسطكما ، فلا احد يشك فى ولا فى انى اريد الهرب من المدينة ، ولو لمحكما احد لظن انه ظلى اما ان يتقدمنى أو يتبعنى ..
ضحك الزيبق وقال فى مرح :

ـ ويسموننى انا الزيبق .. ؟ هذه حيلة شياطين ..
قال حسن بن الحصرى :
ـ أنا وقعت فى غابة من الشياطين .. تقدم انت يازيبق ، وسابع هذا الساحر الافريقى زاحفا ، وسأحاول أن اتحول الى ظل امين .. ظل زاحف على بطنه ..
وضحك الساحر الافريقى ، ثم انتصب واقفا واخذ يسير فى بطء وتؤده ، وأمامه كان يزحف الزيبق على مهل ووراءه كان يزحف حسن بن الحصرى فى بطء ، ولوح الساحر بصولجانه لبعض الجنود ، فيللوا يحيونه ، وهو يسير ويسير ، خطوة ، خطوة ، الى أن وصل الى أول الدغل فتوقف ، وزحف الزيبق حتى اختفى داخل الدغل فى صمت ، ثم زحف حسن بن الحصرى منسللا كالافعى بين شجيرات الدغل .. ورفع الساحر الافريقى ساعديه يحيى القمر فى ابتهال صامت ، كان كل من يرقبه يحسبه صلاة أفريقية مخلصة ، تستمد جذورها من أعماق شعائر الغابة .. ثم اختفى بدوره فى صمت داخل الدغل .

■ ٣٦ ■

فى الغابة

ضحك الزيبق ضحكة طروب وهو يقول :

ـ بودى أن أرى وجه الوزير مروان حين يكتشف القبو الخالى

وضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :

ـ وبودى أ نارى وجه الفارس باسم وهو يرى قيوده الحديدية وسلاسله ملقاة على الارض ، وقد طارت العصافير من القفص •

قال الطبيب الافريقى فى تؤده :

ـ لا تسلخوا الغزال قبل أن تصيدوه ••

قال الزيبق :

ـ ماذا تعنى بهذا • ؟

قال الطبيب الافريقى :

ـ لقد نجوتما الان لان هربكما لم يكتشف بعد، اما لو بدأ البحث عنكما فلست واثقا من الافلات ، فهم أدرى بممرات هذه الغابة ودروبها منا ••

وكانوا يسيرون سيرا حثيثا متوغلين فى الغابة ، يشقون طريقهم على ضوء القمر المتسلل من بين الاشجار وقال الزيبق فى قلق :

ـ هل تعرف المكان الذى خبأت فيه السلطان المخلوع ؟

تنهد الطبيب الافريقى وهو يقول :

ـ لقد عثرت على مكان مثالى داخل شجرة ضخمة مجوفة ، ولكن كان هذا فى نور النهار ، أما الان فأنا أعتمد على الحدس ، وحاسة التوجه •

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ لن تخطىء طريقك ياعمر •

صاح حسن بن الحصرى فى حنق :

ـ منذ رأيت هذا الرجل وأنت تناديه بعمر •• فمن عمر هذا ، وكيف يكون عمر ساحرا أفريقيا ••

قال الزيبق :

ـ الا تعرفه حقا ياحسن ••

وقال الطبيب الافريقى :

ـ أنسيت خنجرى عند بئر النجاة يا حسن يوم كنت مقيدا كالشاة المذبوحة انت وعلى بن البيطار •• ؟!

كان صوت حسن بن الحصرى مترددا ، ونبرات التفهم تدب فى كلماته تدريجيا وهو يقول :

ـ أنت الفارس الذى سرقنا من أمام البئر . ؟ وهددنا بخنجره ، ثم أنقذنا من غضب الزيبق حين أمرنا أن نمضى ولا نعود .

ثم صمت فجأة وعاد يقول فى حذر :

ـ لقد توعدتنى بالموت لو وقع بصرك على مرة أخرى .. وها أنت ترانى هنا فى هذا الجانب من الصحراء ..

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ لم تعد عدوا للزيبق ، بل أنت حليف مخلص له ، فأنت منى فى أمان ..

تنهد حسن بن الحصرى فى اطمئنان وقال :

ـ ولكن كيف غدوت ساحرا أفريقيا ، ولم يمض على مغادرتك لنا فى بئر النجاة زمن طويل ؟

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ أنا هنا من زمن طويل ، وحين أكون هنا أكون الساحر الافريقى ، وحين أغادر هذه المنطقة أعود عمر العيار .. وتنكرى كطبيب جوال أو كساحر عالم باسرار الامراض والارواح ، وقادر على طرد الشياطين من أجساد المرضى والممسوسين ، وصنع الادوية والعقاقير والاحجبة الواقية ، يسمح لى بالتجول فى كل مكان ، والظهور متى أشاء ، والاختفاء متى أريد ..

قال على الزيبق :

ـ كنت اظنك تعيش فى بغداد مع أحمد الدنف وحسن شومان .

قال عمر العيار ، وهو يزيح اغصانا متدلية تعوق طريقهم :

ـ نحن ننطلق من بغداد لنتحرك فى كل مكان من أرضناالاسلامية نستطلع الاخبار ، ونتتبع جواسيس الفرنج وعملاءهم ، ونحبط كل غدر يراد ببلادنا قبل وقوعه ان أمكن .

قال حسن بن الحصرى :

ـ أنتم .. من أنتم .. ؟

قال على الزيبق :

ـ أنه يعنى عصبة الفتوة ، وأنا منهم الان ..

قال حسن بن الحصرى :

ـ ومتى أكون أنا منهم ، وكيف ؟

ـ منذ الان وأنت تحت الملاحظة والاختبـــار ، وحين يحين الاوان

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ستنضم الينا كما تحب، ولكن لابد أن تعرف انك فى وسط الخطر دائما وحدك ، وان أسرارك يجب أن تموت معك ، وأن أجرك هو رضاك عن عملك ونجاحك فيه .

قال حسن بن الحصرى :

ـ آن الاوان أن أعمل شيئا نافعا فى حياتى بدلا من اللصوصية والعيارة وقطع الطرق ..

وقال على الزيبق مكملا :

ـ وتنفيذ أوامر صلاح الكلبى ومهماته الدنيئة ..

فجأة وقف عمر العيار ، وأشار اليهما بالوقوف وهو يقول :

ـ هذا هو المكان، لقد وصلنا اليه دون عناء كبير .. انتظرانى هنا حتى لا تصيبكما سهام الحرأس وحرابهم .

وفجأة مضى يغنى ويرقص وهو يلوح بالصولجان فى يده ، ويهتز العقد حول عنقه فيصدر أصواتا عالية ، ومن جوف الظلام ، صاح صوت :

ـ أهذا أنت ايها الطبيب ؟

توقف عمر عن رقصته ، وصاح صيحات غريبة وهو مستمر فى حركاته الايقاعية ، ثم انحنى كأنما يقبل الارض ، ورفع يديه كأنما يحتضن السماء ، وقال :

ـ نعم هذا أنا .. السلام عليكم .

وجاء الصوت يقول :

ـ وعليكم السلام .. تقدم ، من معك ؟

قال عمر :

ـ أصدقاء .. مؤمنون بروح الكون العظيم ، مبدع أشجار الغابة ووحوشها وطيورها وزواحفها .. الله الواحد الاحد .

صاح الصوت :

ـ أصدقاؤك أصدقاء لنا ، فليتقدموا معك .

قال عمر :

ـ تقدموا فلا خوف فهذا سوهى الرئيس ، وهو رئيس قبيلة البونت ، وهو صديق قديم ، وهو وقبيلته كلها تركوا الوثنية الى الاسلام من زمن .. وولاؤهم لهذا مع الخليفة فى بغداد ..

قال على وهو يتقدم خلفه :

ـ لك صداقات عجيبة فى أماكن غريبة يا عمر ..

وفجأة بدأت المشاعل تلمع ، وهى تشعل ويرفعها رجال عديدون تنير الطريق للقادمين ، وقال حسن بن الحصرى :

ـ هؤلاء مجموع المقاتلين من أبناء القبيلة ، وهم لحسن حظك ياعلى سكان الجزيرة المسحورة ، جزيرة صندوق التواجيه ·

صدرت من على الزيبق آهة ارتياح عميقة وقال :

ـ أخيرا التقى بوجوه صديقة لا تبادر بالعدوان فى هـذه الرحلة المضطربة ··

قال عمر العيار وهو يدخل الى دائرة الضوء حيث وقف سـوهى رئيس القبيلة ·

ـ لا تقفز الى الاستنتاجات المتسرعة يا على ·· واحكم على كل شيء بعد حدوثه ··

وشاهد على الزيبق اجسادا أبنوسية فارعة تحمل المشاعل التى تعكس اشعة نيرانها على الاجساد الشديدة السمرة فتلمع فى الظلام ، ومع المشاكل كان الرجال يحملون الحراب والقسى والسـهام ، وقد زينوا الملابس القليلة التى يرتدونها بالنقوش الجميلة الزاهية ، بينما كان الرئيس يزين جيده بقلادة غريبة الصنع تتوسطها جوهرة ثمينة تنعكس عليها أشعة المشاعل فتلمع وتخطف الابصار ، وعمس حسن بن الحصرى مبهورا :

ـ أنظر الى هذه الجوهرة ، انه يحمل ثروة طائلة فوق صدره··

قال على الزيبق :

ـ انها جوهرة تليق بتاج الخليفة هارون الرشيد نفسه ·

وتقدم عمر العيار من سوهى فصافحه وهو يقول :

ـ هذا هو المقدم على الزيبق الذى حدثتك عنه ·

تراجع سوهى الى الوراء خطوات ، فدهش على الزيبق ، بينما حدق فيه سوهى فى انبهار وقال :

ـ الرجل الذى أخرج الشياطين الملونة الصارخة الى السماء ··

ازدادت دهشة على الزيبق وقال :

ـ هل رأيتها ·· ؟

فجأة أخذ الرئيس سوهى يتقافز وهو يصرخ مقلدا أصـوات الصواريخ الصينية ، ويحرك يده وأصابعه مقلدا حركات تساقط الالوان المنحدرة من السماء ·· ثم قال :

ـ لقد اصابت القبيلة كلها بالرعب ، واخذنا نجرى نحو معابدنا القديمة لنسترضى آلهة الشر التى عبدناها من قبل حتى ترفع عنا هذا الغضب المخيف المجنون ، لولا أن تصدى لنا صـديقنا الطبيب العالم

بالارواح ، فاخبرنا انها ليست شياطين ، وليست من غضب أرواح شريرة، وانما هى من صنع الانسان، وأن رجلا مهما وكبير المقام هو المقدم الزيبق ، هو الذى أطلقها ليخيف رجال السلطان المجنون قاسم ويبعدهم عن صديقه ومعاونه المقدم حسن الذين حاصروه وكادوا يفتكون به ..

وأشار الرئيس سوهى الى على الزيبق وحسن بن الحصرى ، وهو ينقل بصره بينهما ، ثم قال موجها حديثه الى عمر العيار :

ـ هل يستطيع انسان أن يطلق هذه الشياطين الملونة بارادته هو وحده ..

قال عمر العيار :

ـ بل بارادة الله أيها الرئيس ، فهذا خادم من خدمة الدين ، وخدمة المؤمنين ، زوده الله بنتائج المعرفة والعلم ليحقق ماكتبه له من فوز ونجاح ..

قال الرئيس سوهى وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

ـ لهذا نجح فى هزيمة رجال قاسم، والقبض عليه وأسره وتكبيله ونجح فى هزيمة رجال سلطان والقبض على كبار معاونيه ..

ثم تحولت الابتسامة الى ضحكة عالية ، وهو يمد يده الضخمة يحتوى فيها كف الزيبق وهو يصافحه فى حرارة ، ويقول :

ـ أهلا بك ، لقد أرسلك الله لتخلصنا من أعدائنا كلهم .. وهم الان أسرى بين أيدينا ، تعال أريك السلطان المغرور قاسم ، وأعوان الملك سلطان المتكبرين ..

واتجه بالزيبق الى ناحية شجرة ضخمة ، وأشار بيده ، فاندفع رجلان الى داخل تجويف واسع فى الشجرة ، وعادا يسوقان امامهما السلطان قاسم الذاهل النظرات ، المنهار القوى ، ووراءه لومبا ومافى وقد قيدت أيديهما ، وبدا عليهما الانهاك والتعب .. وهمس حسن بن الحصرى :

ـ ماذا فعلا بهما .. ؟ ولماذا هما أصدقاء .. ؟

همس على الزيبق :

ـ يبدو انهما ليسا من أصدقاء الرئيس سوهى .. فلنصبر ولننتظر ..

حين رآهما الاسرى ، لمعت عينا لومبا ومافى بالأمل ، ولاحت على شفتيهما ابتسامتان فرحتان ، وهز كل منهما رأسه تحية فى صمت، بينما لمعت عينا السلطان قاسم فى جنون ، وبدا الرعب على وجهه، وأخذ يصيح :

ـ الزيبق .. لا ، لا أريد الزيبق ، افعلوا بى ما تشــاءون فقط لا تسلموني الى الزيبق ، لقد حذرنى منه الدرويش الصالح .. قال هو السم الناقع، وانني لو تهاونت معه لكانت نهايتيعلى يديه .. صدق الدرويش الصالح .. صدق الدرويش الصالح ..

قال الطبيب الافريقى وهو يهز صولجانه فى وجه الســلطان المخلوع :

ـ أنت تعنى دليلة المحتالة ..

صاح السلطان قاسم وهو يلوح بيديه المقيدتين :

ـ أنا لا أعرف دليلة أو غير دليلة ، أنا أعرف الدرويش الصالح ، ومن كان يبعثهم من رسل قبل أن يجيء الينا بنفسه .. لقد قال أن الزيبق موت وهلاك .. وهو بالفعل موت وهلاك لى ولشعبى .

ضحك الرئيس سوهى ، وهو يقترب من الســلطان الاسير حتى كاد يلتصق به ، وقال :

ـ الهلاك لك نعم ، ولكن الهلاك لشعبك لا ، هل الخلاص لشعبك منك ، ومن ظلمك وجبروتك ، ومن خيانتك هلاك .. لشـــد ما أنت مغرور ..

صاح السلطان قاسم :

ـ أنا المدينة المرصودة ، وكل من يسبنى يسب المدينة المرصودة، وكل من يهاجمنى يهاجم شعب المدينة المرصـــــودة . فهو خائن ودسيسة لاعداء المدينة المرصودة .

قال الطبيب الافريقى ، وهو يلوح بصولجانه أمام عينى السلطان:

ـ ومن هم هؤلاء الذين يخونون المدينة المرصودة ايها السلطان ..

توقف السلطان عن صياحه ، وأخذ ينظر الى الطبيب الافريقى فى امعان ، ثم قال فى بطء :

ـ أنا أعرفكَ .. رأيتكَ قبلُ هذا مرارا ، وانت ترقص رقصات المطر رأيتك والناس يلتفون حولك يوم تدخل مدينتنا لتعـــالج المرضى ، وتصلح الخلافات .. رأيتك من قبل ولم أرتح اليك أبدا .. وسأصدر أوامرى أن تمنع من دخول المدينة ، وتعامل معاملة الاغراب فيهــا .. فتقتل فى الحال لو دخلتها ..

قال الطبيب الافريقى :

ـ الامر أمرك أيها السلطان ، ولكن لماذا تعتبرنى من أعدائك .. لماذا لا ترتاح الى ..

ازداد السلطان تأملا فى الطبيب الافريقى ، ثم قال :

ـ أحس انك لا تحترمنى كما يجب ، نظراتك ليس فيها علامات

الخضوع والطاعة التى ينبغى أن تظهر فى كل عين تنظر الى .. بل نظراتك فى بعض الاحيان تحمل معنى التعالى كأنك تعرف شيئاعنى.. كأن سرا من أسرارى مفضوح أمامك ..

ابتسم الطبيب الافريقى وهو يقول :

ـ بالعكس أيها السلطان أنا أقدرك، وأعرف انك محور حركة ضخمة تريد أن ترفع عنا فى افريقيا يد السلطان هناك فى بغداد ..

لمعت عينا السلطان ، وصاح :

ـ أنت تعرف ، اذن أنت تدرك مدى قوتى ونفوذى ، غدا أحكم القارة كلها .. ويركع الكل تحت أقدامى ، حتى أنت أيها الساحر .. بل وأولهم أنت يا من تعرف هذه الثروات الهائلة التى تعيش فوقها هنا ، نبيع بعضها للافرنج ونعيش كأروع ما يكون العيش بالدخل الوفير ، ونصبح أصدقاءهم لا أعداءهم .. وتتوقف الحرب بيننا وبينهم الى الابد ..

قال عمر العيار :

ـ لقد بلغت براعتك حدها الاقصى حين أقنعت بهذا الملك سلطان ملك بحر الغزال ..

ضحك السلطان قاسم وقال :

ـ هو عجوز مخرف ، كل ما يهمه هو الحصول على زينب ، وما أن لوحت له بها حتى انضم الى ، انما المهمة الصعبة كانت مع سلطان الاستواء ، وملك البحر الازرق ، ووالى السودان .

سأل عمر العيار فى عدم اهتمام :

ـ ووالى مصر ..

ضحك السلطان قاسم وقال :

ـ وتزعم أنك ساحر ، وأنك تعرف كل شىء .. ؟ والى مصر يظن نفسه الرأس الكبير ، وهو واهم ، كل فائدته ان مقدم دركه صلاح الكلبى همزة الوصل بينى وبين الفرنج ، ويوم نحقق انفصالنا ، سنقصيه ..

ضحك عمر العيار وقال :

ـ كل هذا خططته أنت والدرويش الصالح .. ؟

عاد السلطان قاسم يضحك ضحكته العصبية العالية،وهويقول:

ـ الدرويش الصالح مجرد رسول ينقل الاخبار ، وهو الذى كشف على الزيبق لى ، وهو الذى يحمل لى المال أوزعه على الرجال ..

سأل عمر العيار وكأنما عفوا :

ـ والوزير مروان ؟

استمر السلطان فى ضحكه العصبى وهو يقول :
ـ أنه يظن نفسه ذكيا ، ولكن دوره انتهى بمجرد أن أوصلنى الى أول الخيط ، لقد حاول مع السلطانة كوثر، ولكنها رفضت قالت أنها مسلمة لا تعصى سلطان المسلمين ، فانتهت السلطانة كوثر ، أما أنا فأفهم أكثر منه ، فأنا السلطان ، والسلطان على حق دائما، اماهو فوزير ، أغيره متى شئت .. الم إقل لك انك لا تقدرنى حق قدرى، والان ارنى هذه النظرة المتعاليةفى عينيك أيها الساحر الجاهل،ماذا تعرف أنت سوى التمائم والتعاويذ والرقى .. اعرف قدرك ، والزم مكانك ..
جال عمر العيار بعينيه فى الوجوه المتطلعة اليه ، وتوقف بصره عند الزيبق ، وقال وهو يهز كتفيه :
ـ أنت ترى ، هو على شفا الجنون ..
قال الزيبق :
ـ جنون العظمة والافراط فى حب الذات ..
قال عمر العيار :
ـ لقد قال كل ما عنده ، ولم تعد لى به حاجة ..
ثم التفت الى الرئيس سوهى ، وقال :
ـ ايها الرئيس ان منظر هذا الرجل يذكرنى بكل ما أكره من صفات ، هل أعدته الى محبسه .
أشار الرئيس سوهى بيده ، فدفع الرجال السلطان قاسم ومافى ولومبا الى داخل الكهف والسلطان يصرخ ويتخبط بعنف بين أيديهم، وهو يتوعد ويهدد ، ويبكى ويتوسل فى وقت واحد ، بينما انساق لومبا ومافى لآسريهم فى هدوء .. وقال الرئيس سوهى :
ـ سننفذ فيهم حكم عدالتنا ..
كاد على الزيبق يحتج ، لولا أن لكزه عمر العيار بيده فى جنبه ، فاطبق فمه ، وهمس حسن بن الحصرى الى جواره قائلا :
ـ لومبا ومافى معنا ، ويجب انقاذهما ، فكلام هذا الرئيس صاحب الجوهرة لا يبشر بخير ..
همس على الزيبق وهو يضحك قائلا :
ـ لن يتركهما عمر العيار فهو يعرف أنهما معنا وانس مسألة الجوهرة هذه ..
قال حسن بن الحصرى هامسا :
ـ كيف انساها ، وهى تكاد تعمى عينى .. قلت لك هى جديرة بتاج الخليفة هارون الرشيد .
قال الزيبق فى حسم :

ــ وأنا قلت لك أن تنساها تماما .
قال عمر العيار للرئيس سوهى :
ــ والان أيها الرئيس سوهى لنا حديث معا حول الاسرى الذين اسلمتهم اليك ، فأنا أعطيتك اياهم لحراستهم لا للانتقام منهم ..
هز الرئيس سوهى رأسه فى عنف فلمعت اشعة المشاعل على الجوهرة التى كان سناها يخطف الابصار ، وقال :
ــ فضلك أيها الطبيب لا ننكره ، فلولاك ما وقع أشد أعدائنا عداء لنا فى أيدينا ، ولكن هذا هو كل ماستناله . منا ومنهم، الشكرمنا والكراهية والسخط منهم ..
وضحك ، وكأنما أعجبته كلماته ومضى يتمايل ويهتز وكأنما استجابة لموسيقى داخلية تطربه وتهز أعطافه . وفجأة دوت طبول فى الغابة .. طبلة تدق دقات معينة لفترة ، ثم تتوقف وتعود لتدق من جديد . ثم تجاوبها طبلة أكثر قربا لتدق نفس الدقات وتتوقف لتعود فتدق من جديد ، وتتلقف الدقات طبله ثالثة ورابعة ، فى دق مستمر ومتشابه ومتصل .. وساد الوجوم الجميع .. وهمس عمر العيار فى حدة :
ــ طبول الغابة .. لقد اكتشفت المدينة المرصودة هربكما ..
قال الزيبق فى دهشة :
ــ تعنى .
قال عمر العيار مقاطعا اياه فى انفعال :
ــ أعنى ان الوزير مروان أطلق رجاله ككلاب الصيد تجوب الغابة بحثا عنكما .. ولن يطول بهم البحث كثيرا ، فهذه الطبول تنبه كل من الغابة من رجال المدينة المرصودة الى ضرورة العثور عليكما ..
تحدث الرئيس سوهى الذى أصابته أصوات الطبول بالوجوم لكف عن رقصه وطربه ، وقال فى صوت جاد وحازم :
ــ لن يستطيع أحد العثور عليهما ، فرجالى سيقومون بالتمويه اللازم ، هيا الى جوف الشجرة وبسرعة ..
ثم صاح فى رجاله فاطفئت المشاعل ، وساد الصمت ، ولم يبق الا مشعل واحد تقدم حامله الى جوف الشجرة يتبعه الرئيس سوهى والطبيب الافريقى ، وعلى الزيبق ، وحسن بن الحصرى ، الذى همس فى قلق :
ــ لو وقعنا فى أيديهم هذه المرة فلن تجدى ملاعيبك يازيبق ..
همس الزيبق فى حسم وهو يدخل الى جوف الشجرة مهتديا بالمشعل الذى يتقدمه حامله :
ــ فى مهنتنا هذه يا مقدم حسن ، لا نعرف اليأس الا مع آخر انفاس الحياة .

- ٣٧ -

فى قلب الشجرة

وقف حارسان الى جوار فوهة التجويف الكبير فى الشجرة ، بينما قال الرئيس سوهى :

ـ سنظل هنا بعض الوقت حتى يضلل رجالى المطاردين .. ولن يطول الامر حتى يبتعدوا عن هذه الناحية من الغابة تماما .

وضحك ضحكة خشنة ، ثم أشار بيده ، فأطفأ حامل المشعل مشعله ، وساد ظلام مخيف، صاح وسطه السلطان قاسم :

ـ أخرجونى من هنا ، لابد أن أعود الى مدينتى ـ أنا السلطان وساعاقبكم جميعا .

قال عمر العيار :

ـ لابد من تكميمه والا نبه المطاردين الى مكان وجودنا بصياحه .

قال الرئيس سوهى فى ضراوة :

ـ بل نقتله هو ورجال الملك سلطان وننتهى منهم جميعا ..

وصدرت من ناحيته مجموعة أصوات دلت على تحركه ، وتحرك سلاحه فى يده ، فجأة قال على الزيبق فى صوت محذر :

ـ مكانك ايها الرئيس سوهى والا ندمت ..

ساد الصمت مكان الرئيس سوهى ، وجاء صوته غاضبا وهو يقول :

ـ انا هنا الرئيس ، ولا أحد يقف أمام أرادتى ..

قال الزيبق فى صوت بارد كحد السيف :

ـ وانا هنا الزيبق أيها الرئيس ، واياك أن تنسى عناقيد الغضب الملونة التى ارتسمت فى السماء تمطر اللون والنار والنور ، وتصدر البرق والرعد .. ولا تنس أننى أطلقتها لتخليص صديقى هنا المقدم حسن بن الحصرى ، واستطيع أن أطلقها لاشتتك أنت ورجالك ، وكل رجال الوزير مروان ، ورجال الملك سلطان بحيث لا يعرفون اين هم ولا من هم ، فهؤلاء الذين فى يدك أسراى انا ، وانا وحدى صاحب الحق فى تحديد مصيرهم ، فأبعد يدك عنهم ، والا لا تلومن الا نفسك ..

فجأة صاح السلطان قاسم فى صوت مذعور :

ـ ابعدوا عنى الزيبق ، افعلوا بى ما تشاءون ولكن ابعدواالزيبق ابعدوا الزيبق .

وجاء صوت الرئيس سوهى مترددا وهو يقول :

ـ ايها الطبيب ، أنت صديقنا ..
قال عمر العيار :
ـ لقد أخبرتك منذ البدء أنهم أسرى الزيبق .. والزيبق لايتخلى عن أصدقائه ، ولا يترك اسراه لغيره ..
واحس الزيبق بحركة خفيفة الى جواره ، ولكنه لم يلتفت اليهما فقد كان سمعه كله مركزا بمكان الاسرى والرئيس سوهى ، وعاد عمر العيار يقول :
ـ ولقد امكننى أن أتحكم فى غضب الزيبق حتى الان لينسى اعلانك الدائم انك تريد قتل اسراه ، أما وقد هممت بقتلهم فعلا ، فقد تفجر غضب الزيبق ، وحين يتفجر غضب الزيبق فلا أحد يستطيع أن يقف فى طريقه .. فحذار أيها الرئيس حذار ..
صاح الرئيس سوهى فى غضب :
ـ لا يحذرنى أحد ، أنا بين رجالى ، وأعدائى بين ..
وفجأة انقطع صوته ، وارتفع صوت خبطة ، ثم وقوع جسم فوق الارض ، مع آهه عميقة .. وتحرك الحارسان فى مكانيهما فى قلق .. وتسلل شبحان نحوهما ، وصدر صوت خبطتين وصدر صوت وقوع جسدين على الارض وآهتين عميقتين .. وساد الصمت جوف الشجرة من جديد .. وقال الزيبق :
ـ أحسنت ياحسن .
قال حسن بن الحصرى فى صوت طروب :
ـ أسعدنى أن أسكت صوته بضربة من مقبض سيف فوق رأسه وأسعدنى أن أسكت حركة أحد الحارسين ، وتولى صاحبك عمر العيار أمر الحارس الثانى .
ـ لقد ارغمتمانى على أن أشاركما هذا العدوان مع الرئيس سوهى ورجليه ، وبهذا أنا أدمر جهد أعوام وأعوام من العمل المتصل لكسب ثقته ، وثقة رجاله .
قال الزيبق :
ـ لن تخسر شيئا ، فسنعيد الامر الى نصابه فى الحال ..
وتحرك كالشبح وهو يهمس :
ـ مافى
قال مافى فى ترقب :
ـ أنا هنا .. وكنت أنتظر هذه اللحظة من زمن .
وتحرك الزيبق كالشبح نحو الصوت ، واخرج خنجره ، وتحسس رسغى لومبا ، ثم مزق قيوده بخنجره ، وهمس :
ـ لومبا .

وجاء صوت لومبا هادئا وهو يقول :

ـ أنا أيضا هنا ، ولم أفقد الثقة لحظة أن انقاذى من يد الرئيس سوهى سيتم على يديك ·

وتحرك الزيبق مرة أخرى كالشبح نحو الصوت ، ومد خنجره فمزق قيود اليدين الممدوتين اليه ، وقال فى ارتياح :

الان نستطيع أن نتحدث ··

ضحك عمر العيار في مرارة وهو يقول :

ـ نتحدث ؟ ·· وهل عاد فى الامر حديث ·· ؟ لقد أمضيت سنوات طوالا فى استمالة الرئيس وقبيلته حتى حزت ثقتـــه ، وأصبح أهم صديق لنا فى هذه المنطقة ، وتأتى الان وفى قمة احتياجنا اليه فتدمر كل شيء ، هذه الخبطة على رأسه ستجعل التفاهم معه متعذرا بعدها ··

ـ المسألة مازالت فى يدنا ، وسنتدارك الامر ··

قال العيار فى حنق :

ـ كيف ؟

قال الزيبق :

ـ هذا رجل يعتقد فى أننى أستطيع فعل الخوارق ، فلنستغل هذا اذن ··

والتفت الى حسن بن الحصرى وهو يقول :

ـ لقد اصطدمت قدمي بحصى كثير قريب من الشجرة ، اذهب وابحث عن حصوات دقيقة جدا .. ثلاث حصوات صغيرة، وحاذر أن يراك أحد ··

ودون أن يتحدث تحرك حسن بن الحصرى في حذر خارجا من باطن الشجرة ، بينما فك على الزيبق جرندأنه الذى يربطه على ظهره وجعل يعبث فيه حتى أخرج ما أراد ، ثم قال :

ـ اريد بعض الضوء ·

قال عمر العيار :

ـ هذا خطر يا على فان لم يلفت الضوء رجال المدينة المرصودة ، فهو سيلفت رجال الرئيس سوهى بالتأكيد ··

وجاء صوت حسن بن الحصرى من مدخل التجويف قائلا :

ـ ماذا تريد بهذه الحصوات يا مقدم على ··

وقبل أن يجيبه على الزيبق عاد صوت الطبول يدوى فى الغابة من جديد ، وأن كان يبدو بعيدا هذه المرة ، ويزداد ابتعادا كلماتكرر ·· وهمس الزيبق :

ـ ماذا يعنى هذا الطبل ؟
قال لومبا :
ـ ان المطاردة تبتعد عن هذا المكان ٠
وقال عمر العيار :
ـ لقد نجح رجال الرئيس سوهى فى تضليل المطاردين من رجال المدينة المرصودة ، وهم الان يتعقبون أثرا خادعا يبعدهم عنا ٠
تنهد الزيبق وهو يقول :
ـ اذن نستطيع أن نشعل أحد هذه المشاعل ٠
قال مافى فى قلق :
ـ لو زال خطر رجال الوزير مروان ، فمازلنا نواجه خطر سوهى ورجاله ٠
قال الزيبق :
ـ نحتاج الى النور لنتغلب على خطر سوهى ورجاله ٠
وفجأة أشتعل وهج فى التجويف ، وتقدم حسن بن الحصرى يحمل شعلا مشتعلا ، وقال :
ـ هذا هو النور الذى تريد يامقدم على ٠
وفى صمت تناول على الحصوات ، وفتح زجاجة صغيرة ، وأمسك الحصوات بملقاط رفيع ، ومضى يصب عليها من الزجاجة سائلا لزجا ما أن مس الحصوات حتى أصدر دخانا أزرق ، وتغير شكل الحصوات على الفور وتغير لونها ، ثم أغلق الزجاجة بحذر ، وأخرج زجاجة أخرى صب منها سائلا فوق الحصوات فأصبح قوامها شفافا كالزجاج وتعددت الوانها حتى وكأن كل الوان الطيف قد اجتمعت فيها، وتأوه لومبا متعجبا وهو يقول :
ـ لست أدرى ايكما الساحر ، هذا الطبيب أم أنت ؟
ضحك الزيبق ، وهو يبلل قطعة من قماش من الزجاجة الثانية ، ورسم بها دائرة ملونة بالوان الطيف على جبهة الرئيس سوهى ، ثم على جبهتى الحارسين ، وقال :
ـ كل ما نجهله نسميه سحرا ، هذا علم يالومبا ٠٠
قال حسن بن الحصرى :
ـ بل هذا ملاعيب الزيبق التى لا حصر لها ٠
لم يجب الزيبق ، بل انهمك يعيد الزجاجتين الى الجرندان ، وأخرج زجاجة كبيرة نوعا ، وحين فتح الزيبق سدادتها شاعت فى المكان رائحة نفاذة ٠٠ واقترب على بالفوهه من أنف الرئيس سوهى الذى سرعان ما انتفض وهو يعود الى وعيه ، وقرب الزيبق الفوهة من

أنفى الحارسين فافاقا فى الحال ، وحين أعاد الزجاجة الى مكانها فى الجرندان حرص على أن يرمى الحصوات ، كل حصوة قريبة من رأس رجل من الرجال .. وتأوه الرئيس سوهى ، واعتدل فى جلسته ، واخذ يتحسس رأسه ، وهو يستجمع حواسه تدريجيا . ثم قال :

ـ ما هذا ، ما الذى حدث ؟ .. أين أنا ..

وحين بدأت نظرات عينيه تعود الى تركيزها الطبيعى ، قال الزيبق وهو يضحك :

ـ أنت هنا معنا فى تجويف الشجرة فى قلب الغابة على مقربة من المدينة المرصودة ، أما الذى حدث فهو انك أغضبتنى .. وحين أغضب تنطلق الصواعق من السماء على من أغضب عليهم فتصرعهم فى الحال .

تحسس الرئيس سوهى رأسه ثم جبهته ، فخرجت يده مليئة بالالوان .. فنظر الى كفه الملوثة وقال :

ـ صاعقة على جبهتى ، ولم أمت ..

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ كان غضبى خفيفا فأحمد الله على هذا .

بينما مد كل من الحارسين يده الى جبهته لتعود ملوثة بالاصباغ، وارتسمت نظرات الذعر فى عيونهما ، بينما أخذ كل منهم يحدق فى العلامة الغريبة فوق جبهة الاخر، ثم حولا بصرهما الى العلامة المشابهة على جبهة الرئيس سوهى ، الذى أخذ ينقل بصره بين العلامتين فى وسط جبهة كل منهما .. ظهرت علامات الدهشة والخوف على وجهه ، ومد يده يتحسس رأسه ، وقال فى صوت متخاذل :

ـ الشهاب فى الجبهة والالم فى رأسى من الخلف ..

أشار الزيبق الى الحصوات الغريبة الى جوارهم ، وقال :

ـ هذه الشهب كانت تلمع فى السماء ، ثم دخلت من فوهة هذا التجويف ليصيب كل واحد منها واحدا منكم فى جبهته ، ليتجمع الالم فى مؤخرة رأسه .. وسيزول الالم تدريجيا فلا تخف أيها الرئيس سوهى ..

مد الرئيس سوهى يده الى الحصوات الثلاث يتاملها فى دهشة وامعان وقال :

ـ لم أر فى حياتى مثل هذه الاحجار ، لا هى من الصخر ، ولا هى من الجوهر .. وهذه الالوان كيف اجتمعت كلها معا .. ؟

قال الزيبق وهو يبتسم :

ـ لو كنت رأيتها وهى منيرة فى السماء تزمجر وتبرق وترعد

لعرفت أنها شيء خاص جدا ، هذه شهب محترقة أيها الرئيس ..
قال الرئيس سوهى وقد شحب وجهه .. :
ـ وانت سخرتها لانقاذ السلطان قاسم ورجال مدينة بحرالفزال من خنجرى ..
قال الزيبق :
ـ كنت ستذبحهم وهم مقيدون ..
ازداد شحوب وجه الرئيس سوهى ، وجاء صوته ضعيفا متخاذلا ، وهو يقول :
ـ هم أعدائى ، وأعداء قبيلتى ..
قال الزيبق :
ـ وحياتهم مهمة لى كل الاهمية ..
رفع سوهى رأسه فى حدة وهو يقول :
ـ لماذا ، لقد قال السلطان كل ما يعرفه للساحر ، ولم يعد له نفع ..
قال الزيبق فى صبر :
ـ ولكنه نافع لى أنا ، فنفوذ المدينة المرصودة عتيد حتى الجزيرة المسحورة ، ولن أستطيع الذهاب اليها الا بموافقة السلطانة زينب ، وهى قد وعدتنى أن تؤمن طريقى فى الذهاب وفى العودة بشرط أن امكث عندها شهرا عندما أفوز بما جئت من أجله ..
قال الرئيس سوهى :
ـ وهى لن تنفذ وعدها الا اذا أسلمتها السلطان قاسم ..
قال الزيبق :
ـ هذا صحيح ، سأسلمه لها ، فنحن نعرف الان كل ما عنده من معلومات ..
فجأة صاح السلطان قاسم فى صوت تزداد نبرات الخبل وضوحا فيه كلما استمر فى صياحه المحموم وقال :
ـ زينب لابد أن تتزوج الملك سلطان ملك بحر الغزال ، لتصبح ملكة بحر الغزال ، ويترك لى ملك المدينة المرصودة ، ثم استقل واصبح الخليفة .. أنا الخليفة اركعوا أمامى ، أنا صديق ملك الافرنج ، أنا صديق كل ملوك الولايات هنا فى أفريقيا ، وهناك فى اسيا .. أنا السلطان الاعظم ..
قال حسن بن الحصرى فى ضيق :
ـ لقد جن الرجل .
قال عمر العيار فى تؤدة :

ـ لقد بدأ جنونه يوم بدأت خيانته .. انه الطموح الذى يدمر صاحبه ..

تحسس الرئيس رأسه من جديد ، ثم تحامل على نفسه ووقف ، ونظر الى الزيبق طويلا قبل أن يقول :

ـ أنا لا أريد أن أعادى واحدا له قواك الخفية هذه ، افعل بالسلطان ما تشاء ، ولكنى سأعاقب لومبا ومافى على سالف اساءاتهما لى ولقبيلتى ..

قال الزيبق فى صوت هادىء :

ـ ليس بين لومبا ومافى وبينك عداء ، فهما ان كانا قد أساءا اليك فقد كان هذا بأوامر ملكهم سلطان ، وقاما بواجبهما فى خدمته وخدمة مدينة بحر الغزال .

صاح الرئيس سوهى فى غضب :

ـ لقد قادا الغارات على القبيلة ، وأسرا منا الكثيرين ما زالوا يحيون حياة العبيد فى قصر الملك سلطان ..

قال مافى متدخلا فى الحديث :

ـ كانت قبيلتك تغير على مراعينا ايها الرئيس سوهى .

صاح الرئيس سوهى مستمرا فى غضبه :

ـ هذه خيرات الله خلقها سبحانه لعبيده ، فلا يحتكرها أحد ..

قال لومبا :

ـ أمامكم الغابة واسعة ، فلماذا تغيرون على القطعان وهى ترعى فى زمام مدينة بحر الغزال ؟

وصل غضب الرئيس سوهى الى قمته وهو يقول :

ـ ولماذا تغيرون على المدينة المسحورة وهى أرضنا نحن وتسرقون الجواهر والاحجار الكريمة .

قال لومبا فى صبر :

ـ الملك يعتبرها من أملاكه ، فهى حدودة الملاصقة للمدينة المسحورة .

قال سوهى :

ـ كان السلطان قاسم يعتبرها من أملاكه أيضا .. فمره هو يغزونا ويذلنا ويأسر رجالنا ويسبى نساءنا ، ومرة تأتون انتم بحرابكم وسيوفكم لتسرقوا خيراتنا وتقتلوا محاربينا ..

تنهد لومبا وهو يقول فى يأس :

ـ انه القدر الذى جعل جزيرتكم غنية يطمع فيها كل الاقوياء حولكم ..

قال الزيبق :
ـ ايها الرئيس سوهى ان لومبا ومافى جنود مخلصون لبلادهم ، وينبغى أن تنزع من قلبك كل حقد شخصى تكنه لهمـا .. أما أمـر الجزيرة فأعدك اننى سأحفظ امنها ، وابعد عنها أخطار الطامعين فيها .. هل تثق فى وعد يقطعه لك الزيبق على نفسه ؟
ـ انفثأ غضب الرئيس سوهى، وارتسمت على وجهه ملامح أمل طال غيابه ، وقال :
ـ أتعنى ما تقول حقا .. ؟
قال عمر العيار .. :
ـ الزيبق لا يقول الا ما ينوى أن يفعل .
ابتسم الرئيس سوهى ، وأشرق وجهه كله ، ومد يده مصـافحا الزيبق ، وهو يقول :
ـ ليس لنا من أمل الا أن نعيش فى سلام ، فان ضمنت لنا هذا، فقد حققت لى ولقبيلة البونت كل ما كنا نحلم به ..
شد الزيبق على يد الرئيس سوهى ، وهو يقول :
ـ ولوما ، ومافى .. ؟
قال الرئيس سوهى :
ـ هما من اتباعك ، فهم من الان أصدقاء ..
قال لومبا فى بطء :
ـ لن تندم ايها الرئيس سوهى على كلماتك هذه أبدا ..
ـ قال الرئيس سوهى :
ـ لقد صدق الزيبق فليس بينى وبينكما عداء شخصى ..
قبل أن يرد أحد على كلماته ، عاد صوت الطبول يدق من جديد ، نصمت الجميع يسمعون الدقات المتوالية والمتتـابعة ، وهى تقترب تدريجيا من مكانهم .. وحين صمتت اصوات الطبول قال مافى :
ـ لقد عادوا الى الاثر الاصلى ..
وقال لومبا :
ـ انهم يتجهون نحو هذا المكان .
قال الرئيس سوهى :
ـ اطفئوا المشاعل فى الحال ، وانتظرونى هنا .
وسرعان ما أطفئت المشاعل ليسود جوف الشجرة ظلام مطبـق ، فلما أشار الرئيس سوهى الى الحارسين ، وأنطلق مسرعا والرجلان يتبعانه .. وقال الزيبق :
ـ لو وصلوا الينا فسنقاتلهم ..

قال عمر العيار فى ثقة :
ـ لقد ضللهم الرئيس سوهى مرة ، وهو يستطيع أن يضـــللهم مرة ثانية ..
فجأة عاد الرئيس سوهى مضطربا وهو يقول :
ـ الجوهرة ، لقد سرقت قلادتى .. أين الجوهرة ؟
وجم الزيبق ، ثم لكز حســن بن الحصرى ، وقال فى صـــوت ذى مغزى :
ـ لم تسرق قلادتك ايها الرئيس ، وانما سقطت منك قريبا من السلطان قاسم حين كنت تهم بقتله .. وسيأتيك بها المقدم حسن بن الحصرى ، فقد كان قريبا منك ومنه .. هيا يامقدم حســن أحضر القلادة والجوهرة للرئيس سوهى حيث سقطت .
ودمدم حسن بن الحصرى محتجا ، فدفعه على الزيبق بقوة ، وهز حسن رأسه فى يأس ، وتحرك الى داخل التجويف وهو يخرج القلادة والجوهرة المثبتة بها من جيبه ، ثم تظاهر أنه يبحث قرب الســـلطان قاسم ، ثم صاح :
ـ انها هنا فعلا ، لقد وجدتها ..
وتنهد الرئيس سوهى فى ارتياح ، بينما قال الزيبق :
ـ كنت أعرف انك الوحيد الذى يستطيع أن يعثر عليها ، اعطها لصاحبها يا مقدم حسن ..
ومد حسن بن الحصرى يده بالقلادة الى الرئيس ســوهى الذى أخذها فى لهفة ومضى يتحسس الجوهرة بأصـــابعه ، ثم ارتداها فى عنقه ، والتفت خارجا مرة أخرى وهو يقول :
ـ لقد نصبت لهم كمينا بالقرب من هنا ، لو اقتربوا منه كانت نهايتهم ..
قال عمر العيار :
ـ نحن لا نريد سفك الدماء أيها الرئيس ســـوهى ، فحـاول أن تصرفهم بالحيلة .
لم يرد الرئيس سوهى ، وانما خرج مسرعا ، بينما قال حسن بن الحصرى :
ـ هل كان لابد أن ترغمنى على اعادة الجوهرة يامقدم على ؟
قال الزيبق :
ـ انس الجوهرة ، وابتعد عنها تماما .
ضحك عمر العيار وهو يقول :

- أنت تطلب منه المستحيل ، هذا طبع فيه ، واللص لص ولو ارتدى مسوح الزهاد .

ودمدم حسن بن الحصرى غاضبا ، بينما ارتفع صوت السلطان ناسم فجأة صائحا :

- الى يا جنود المدينة المسحورة ، انا هنا أسير ، أنا سلطانكم وقائدكم ومنقذكم .

صاح حسن بن الحصرى فى حنق :

- سيكشف هذا المجنون مكاننا بصياحه ..

بينما قال عمر العيار :

- هو لا يدرى فى جنونه انهم يبحثون عنه لقتله لا لانقاذه ...

قال على الزيبق :

- اذهب فكمم فمه يامقدم حسن حتى لا يقودهم الينا بصياحه .

وتحرك حسن بن الحصرى فى الظلام فى صمت نحو السلطان .. بينما قال الزيبق :

- يجب أن نخرج من هذا المكان ، فنحن هنا كالفأر فى المصيدة .

قال عمر العيار :

- الرئيس سوهى يعرف هذه الغابة وطرقها كأصابع يديه يستطيع أن يبعدنا عن كلاب الصيد هؤلاء ..

وقال المقدم حسن بن الحصرى :

- كان هذا المخبأ مهما يوم كان هناك ثلاثة أسرى مقيدين اما الآن فليس من عائق يحد من حركتنا الا السلطان وهو مقيد ومكمم ، ومن الممكن أن احمله فى هروبنا اذا قررتم الهروب ..

قال الزيبق :

- لننتظر الرئيس سوهى ونطرح عليه الامر .

■ ٢٨ ■

رقصة الانتصار

حين عاد الرئيس سوهى الى قلب الشجرة المجوفة كان مطرقا ويبدو عليه الضيق ، وبعد فترة صمت قصيرة جال فيها بعينيه فى الجميع وقال :

ـ انهم يقتربون، والقمر قد بدأ يبزغ، وسيسهل ضوؤهمهمتهم.

قال لومبا :

ـ نستطيع أن نهرب قبل أن يصلوا الى هذا المكان ، ونختفى عن أنظارهم فى الغابة ..

وقال مافى :

ـ والغابة لا يعرف مسالكها مثلك أيها الرئيس سوهى ، كم اختفت قبيلتكم كلها أمامنا ونحن نطاردها ، وكأنما انشقت أشجار الغابة وابتلعتها بكاملها .

ضحك الرئيس سوهى فى مرارة وقال :

ـ ان كثرة هروب ابناء القبيلة علمتهم المسالك والمخابىء والحيل، وقد أستطيع الاختفاء أنا ورجالى ، ولكن انتم .. ؟ لا أظن أن هذا فى قدرتكم ..

فجأة رفع على الزيبق رأسه ، وقال فى حزم :

ـ لم يبق الا طريق واحد للخلاص .

قال حسن بن الحصرى فى أمل :

ـ ما هو .. ؟

قال الزيبق :

ـ هما يطاردان أسيرين هما أنا وأنت يا مقدم حسن ، فلو سلم الاسيران نفسيهما لهم اكتفوا بهذا وعادوا دون ان يخطر ببالهم أمر سوهى ورجاله ولا أمر السلطان قاسم ..

قال عمر العيار وهو يبتسم :

ـ هذا قرار شجاع اذ كيف تضمن انهم لن يبادروكم بحرابهم وسيوفهم بمجرد رؤيتهم لكم دون انتظار لحديث أو تفاهم ..

ضحك الزيبق وقال :

ـ هنا يأتى دور الساحر الافريقى ، فهذا الساحر سيأسر الهاربين ويقدمهما لقمة سائغة للوزير مروان والسلطانة زينب ..

ابتسم عمر العيار وهو يقول :

ـ لا يفكر فى مثل هذا الا الزيبق ، فمن ناحية تتوقف المطاردة ،

ومن ناحية أخرى تعلو مكانة الساحر الافريقي قال الزيبق مكملا :
ـ ولا تنس ان الوزير مروان والسلطانة زينب يريدان السلطان في أيديهم ، وهما لن يقدما على قتلنا قبل أن يستردا السلطان المخلوع ..
قال حسن بن الحصرى وهو يضحك :
ـ ويفوز الزيبق بجواز المرور الى الجزيرة المسحورة ..
قال الزيبق في حزم :
ـ ليس أمامنا الان الا هذا ..
ثم التفت الى لومبا قائلا :
ـ أنت ومافي مسئولان عن هذا السلطان المجنون ، ومسئولان ايضا عن باقى حاجاتي المتروكة في الكهف ، فى الجبل المقابل للمدينة حيث كنا ، وحيث تركت حاجاتي الهامة لى .
قال لومبا :
ـ يسعدني ان تثق فينا يازيبق ـ حاجاتي تحت الحفظ ، وأسيرك نحن نحرسه لك .
قال الزيبق :
ـ اذن يغادرنا الان الرئيس سوهي ورجاله الى ناحية ، ويخرج مافي ولومبا مع الاسير الى الكهف من ناحية أخرى . أما الطبيب الافريقي فيقودني انا والمقدم حسن ، ويستعد لمقابلة الفارس باسم ورجاله .

***

كان الرجال يتقدمون في حذر ، مكونين نصف دائرة واسعة ، وقد اشهروا أسلحتهم ، وساد بينهم صمت قلق ، فقد كانوا يدركون أنهم وراء فريسة عنيدة ، وان مطلوبيهم يملكون من القوة وسعة الحيلة الكثير كما أنهم يملكون القدرة على تسخير قوى شاذة لا يستطيعون فهمها ..
وهمس الفارس باسم لرجاله في صوت أجش قائلا :
ـ جائزة كبرى لمن يستطيع أن يقبض على الزيبق ، أو صاحبه ، سأجعل الرجل الذى يتمكن من أحدهما ثريا طوال حياته ، وسأرفع قدره الى أعلى مكان بين الفرسان ..
وتبادل الرجال النظرات في قلق ، وهم يحدقون حولهم في أشجار الغابة الكثيفة التى ينيرها ، ويكشف الطرقات خلالها ضوء القمر اللامع الذى بلغ منذ لحظات قمة اكتماله ـ وعاد الفارس باسم يقول في نفس الصوت الهامس الاجش :
ـ الاثر الذى نتتبعه هذه المرة حقيقى وحاسم ونحن في الطريق اليهم ، فقط التزموا الحذر .

وفجاة صاح واحد من الرجال قائلا :
ـ انظر ايها الفارس ، أمامنا نار مشتعلة عن بعد .
ورفع الفارس يده ، فساد صمت واجم جميع الرجال ، وهمس :
ـ أين .. ؟
وعاد صاحب الصوت يقول :
ـ لقد رأيت وهجها ، هناك عند يمين هذه الشجرة الكبيرة .
قال باسم فى حذر وهو يحدق النظر فى الاتجاه الذى حدده الرجل:
ـ ربما كانت خدعة ـ انتبهوا .. لا هى نار حقيقية .. لنقترب منها بحذر وصمت ، وكل يشهر سلاحه فى استعداد ..
ومضى الجميع يتقدمون ، وكل حركة لها حساب ، وكل نقلة قدم تتم فى هدوء ، والعيون مصوبة نحو هذا الشعاع المتذبذب البعيد الغريب .. وكلما تقدموا تعالت اليهم أصوات غناء وقال واحد :
ـ أعرف هذا الغناء ، انه الساحر ..
وقال اخر :
ـ انه غناء النصر ، الساحر يحتفل بالنصر .
قال الفارس باسم وهو يكتم انفعاله بصعوبة :
ـ لا مكان للساحر هنا .. هذه خدعة .
قال الاول :
ـ ولكنه يغنى ، وصوته يأتى من ناحية النار المشتعلة .
وقال الثانى :
ـ وغناؤه للنصر .. أعرف هذه الاغنية ، بل أكاد أحفظها .
صاح الفارس باسم فى عنف :
ـ كفوا عن الكلام ، ولنتقدم فى حذر .
ومضى الجميع يسيرون فى حذر وقد خلفت كلمات قائدهم الرعب فى أعماقهم .. وكلما تقدموا ازدادت أغنية الساحر وضوحا فى آذانهم ، وازدادت النار المشتعلة وضوؤها فى أبصارهم .. وقال الفارس باسم :
ـ لعلها حيلة من حيل الزيبق فليلتزم كل منا الحذر .
وحين ازدادوا اقترابا من البقعة التى يشع منها لهب النار المتحركة قال الفارس باسم :
ـ انه يبدو وحده ..
قال الفارس الاول :
ـ هذا هو الطبيب الساحر .
وقال الفارس الثانى :

ـ انه يرقص رقصة الانتصار ٠٠ ويرقصها وحده حول النار ٠
ورفع الفارس باسم يده فتوقف الفرسان عن السير ، بينما انبعث صوت جهورى عميق النبرات من عند النار المتوهجة يقول :
ـ لقد تأخرت أيها الفارس باسم ، أنا هنا فى انتظارك من زمن ٠
همس الفارس الاول :
ـ ألم أقل لكم هو الطبيب الساحر ، وأنا أعرف صوته ٠٠
قال الفارس باسم :
ـ انتظرونى هنا ، وراقبوا كل ما يحدث ، وكونوا على استعداد للتدخل أن تطلب الامر ذلك .
ثم صاح فى صوت عال موجها حديثه ناحية وهج النار المتألق :
ـ انا قادم اليك أيها الطبيب الساحر ٠٠
وارتفع صوت الطبيب الساحر يجيبه وفى صوته نبرة سخرية خفيفة :
ـ تقدم ولا تخش شيئا فأنا وحدى هنا ..
وتقدم الفارس باسم شاهرا سيفه حتى جاوز مجموعة الاشجار التى تحجبه عن كومة الاحطاب المشتعلة التى يرقص حولها الطبيب الساحر .. ورآه يرفع يديه ووجهه الى القمر ، وثانية يركع الى الارض ويقبلها وهو يهز رأسه فتهتز القلادة المحيطة بعنقه ، وتحدث حليها صوتا معدنيا صدئا ، وهو مرة ثالثة يتقافز حول النار وهو يرفع قدميه فى اتساق مع حركة ذراعيه التى لا تهدأ ٠٠ ووقف يرقبه وهو يبتسم فى سخرية وهو يقول :
ـ أحد رجالى قال أنك ترقص رقصة النصر أيها الطبيب الساحر ٠٠ فهل انتصرت على شياطين الغابة ، أم تغلبت على الروح الشريرة التى تطاردك ٠
توقف الطبيب الساحر عن رقصته ، ثم ركز بصره على الفارس باسم ، وقال فى تؤده :
ـ لم أكن أعرف أن لك هذه البصيرة النافذة أيها الفارس باسم فقد أصبت كبد الحقيقة بحديثك هذا ، فأنا فعلا انتصرت على شياطين الغابة ، وأنا فعلا تغلبت على الروح الشريرة التى تطاردها أنت ٠
ـ قطب الفارس باسم حاجبيه ، وركز بصره فى الطبيب الساحر ، وقال :
ـ مذا تعنى تماما أيها الطبيب ٠٠ ؟
قال الطبيب الساحر :
ـ الا تعتبر الزيبق والفارس الذى يصحبه من شياطين الغابة ،

وأليس الزيبق هو الروح الشريرة التى يؤرقك وجوده ، تخاف من حب الاميرة له وعرفانها بجميله عليها ، وتغار من قدرته على الحرب ومهارته وحيله وملاعيبه ..
قال الفارس باسم وقد ازداد توتره ، واشتدت قبضته على مقبض سيفه :
ـ تعنى أنك تعرف مكانه ..
قال الطبيب الساحر :
ـ بالطبع ولهذا أرقص رقصة الانتصار .
شهر الفارس باسم سيفه وتقدم نحو الطبيب وهو يهز سيفه وصاح :
ـ اخبرنى أين هو ، لن يفلت منى هذه المرة ، وسأمزقه بسيفى فى الحال ..
قال الطبيب الساحر ، وهو يهز كتفيه فى لا مبالاة :
أعد سيفك الى غمده فلن تمزق به أحدا اليوم ..
وكان الفارس باسم قد اقترب فى انفعاله من الطبيب الساحر حتى كادت ذبابة سيفه تمس صدره ، ورفع الطبيب الساحر يده محذرا وهو يقول :
ـ حذار أيها الفارس فذبابة سيفك فى مكان قاتل ، ولو حركته أكثر من هذا لاخترق صدرى
قال الفارس باسم :
ـ لو لم تخبرنى بمكان الهاربين لانتهى أمرك ..
ضحك الطبيب الساحر ضحكة ساخرة ، وقال فى صوت هادىء يحمل تهديدا خفيا ، لم يخف أمره على سمع الفارس باسم :
ـ من استطاع أن ينتصر على الزيبق والمقدم حسن بن الحصرى ،
ـ لا نخش سيف مثلك . اخفض سيفك ايها الفارس .
ولم يحول الطبيب الساحر عينيه عن عينى الفارس باسم فقد كان يدرك أن احساس الفارس باسم بأن عدوه قد غدا فى متناول يديه ، قد ينسيه العقل بسرعة مذهلة وبحركة ماهرة ألقى صولجانه بسيف الفارس باسم وأطاح به ، وقفز مسرعا الى الامام ليضربه بقبضته ضربة أوقعته فوق الارض ، وسرعان ما كان سيف الفارس باسم فى يده ، وقد استرده من حيث وقع ، وسدد ذبابته الى عنقه وهو يقول فى صوت ساخر :
ـ قل لرجالك يلزموا أماكنهم .. فأنا رجل عجوز ويدى ترتعش ، وسيفك ثقيل ، وقد يثير منظرهم خوفى فتهتز يدى ويخترق سيفك وهو فى يدى عنقك دون أن أستطيع أن أمنع يدى عن الرعشة .

كان الرجال قد تحركوا بالفعل عندما شـاهدوا ما حدث فجـأة لقائدهم ، شلت المفاجأة حركتهم لثوان معدودات ، ثم تحركوا فجأة وهم يتصايحون فى غضب متجهين نحو رئيسهم والطبيب الساحر ..
وكان الفارس باسم لا يكاد يفهم ما حدث له ، ولا كيف اسـتطاع الطبيب الساحر المتهالك العجوز أن يطيح بالسيف من يده ، ثم يلقيه ارضا بضربة واحدة ، وقفزت الى ذهنه حركة الزيبق السريعة فى بلاط السلطان قاسم ، وكيف استطاع أن يأسره وهو وسط حرسه ، وبدأ الخوف يتسلل الى قلبه .. وقد ثبتت عيناه عند حد السيف المسلط عليه ، وأشعة القمر تلمع على حد سلاحه ، والذبابة المدببة القـاتلة تهدد عنقه .. وعاد صوت الطبيب الساحر يقول فى تهديد واضح :
ـ قلت لك ، قل لهم يلزموا أماكنهم ..
وتحركت عينا الفارس باسم في محجريهما فى رعب ، وأشـار بيده وقد احتبس الكلام فى حلقه ، فأزاح الطبيب الساحر ذبابة السيف قليلا عن عنقه ، وبعد محاولات متعددة استنفدت قوة الفارس باسم انطلق صوته صارخا فى يأس :
ـ الزموا أماكنكم ، الزموا أماكنكم .
وجمد الرجال فى أماكنهم ، ووقفوا حائرين يتبادلون النظـرات ، وينقلون عيونهم بين قائدهم والطبيب الساحر فى حيرة وقلق .. وقال الطبيب الساحر فى صوت هادىء وهو يبعد السيف أكثر عن جسد الفارس الراقد فوق الارض :
ـ تستطيع الان أن تقف ، واحذرك من أى حركة قد يسىء عقـلى العجوز فهمها .
وفى حذر شديد جمع الفارس باسم عضلات جسده ليقـوم ببطء واقفا ، ويداه مجنحتان بعيدا عن جسمه تماما ، وقال :
ـ والان ماذا تريد أيها الساحر ..
ابتسم الطبيب الساحر ، وقال :
ـ أريدك أن تتبعنى الى هذه الشجرة .
تتبع الفارس باسم بنظره حركة السيف الذى كانت ذبابته نحو فراغ مظلم فى جوف شجرة هائلة ، تتراقص حولها أفرع الشـجرة وأوراقها على ضوء النار المتذبذبة المنبعثة من الحطب الذى أوقده الساحر وتضىء أشعة القمر بعض مدخلها ، بينما يطبق الظلام الدامس على معظم التجويف الكبير فى قلب الشجرة .. وارتجف جسده كله ، وأحس بيد من حديد تطبق على قلبه ، بينما امتلأت جبهته بالعرق البـارد ، وقال فى صوت مهتز :
ـ لماذا تريد أن أتبعك الى جوف هذه الشجرة .. مثل هذه الاماكن

تسكنها الحيات الضخمة .. وتأوى اليها الشياطين والمردة ..
لمعت عينا الطبيب الساحر سخرية من خوف الفارس باسم الذى افقده كل شجاعته ورباطة جأشه ، وقال :
ـ هذه معتقدات العجائز والصبية ، ولا اظن فارسا مثلك، وصل الى ما وصل اليه من مكانة فى بلاط المدينة المرصودة يخشى منها ، أو حتى يؤمن بصحتها ..
فعملت كلمات الطبيب الساحر ونبراته الباردة فعلها فى أعماق الفارس باسم ، فالتفت حوله فى خجل ، وقد حل احساسه بالعار محل احساسه بالخوف داخل نفسه . وتمالك نفسه فى صعوبة وهويقول فى لهجة تشمل معانى الاعتذار والخجل :
ـ مطاردة الاشباح تحدث فى الاعصاب فعلها الاكيد ، وهذا الزيبق ليس الا كالاشباح والسراب الخادع ما أن اقترب من اثاره أو أتأكد أننى أتبع الطريق الصحيح اليه حتى يتبدد كل شىء فجأة ، لتعود الاثار لتظهر فى ناحية أخرى .
وتنهد وهو يتمالك نفسه تدريجيا ، وقال :
ـ لقد قضيت الليل بطوله انا ورجالى فى مطاردة غريبة ، وكأننا فى كابوس ولا نستطيع الافاقة منه .. ثم .. وتوقف عن الحديث ، وهو يتيح لعضلاته أن تستريح من توترها ، وللهدوء أن يعود الى نفسه تدريجيا ، ثم نظر فى عينى الطبيب الساحر ، وهو يقول :
ـ ثم تظهر أنت ، كأنما انشقت أرض الغابة فجأة عنك ، وعن نارك المتوهجة .. انت برقصاتك المخيفة الغريبة وسط الغابة ، وحديثك عن الانتصار على الشياطين ، ثم حركتك السريعة وأنت تطيح بسيفى وليس معك الا هذا الصولجان الهزيل .. و ..
وحك دقنه بيده وقد بدات ابتسامة باهتة تعلو شفتيه وقال:
ـ لم يضربنى أحد من قبل مثل هذه الضربة التى طرحتنى ارضا .. وكان الفارس باسم قد عاد الى هدوئه السابق ، فتحولت الابتسامة الباهتة على شفتيه الى ابتسامة ساخرة وهو يقول :
ـ من أنت ؟ فلا أظنهم يعلمون السحرة والاطباء فنون القتال بالسيف والمصارعة واللكم ..
لمعت عينا الطبيب الساحر ، وهو يبادل الفارس باسم ابتسامته تمثلها وقال :
ـ أنت لا تعرف ماذا تتعلم فى مهنة الطب ايها الفارس .. وعلى كل حال أنا من سيعيد اليك أسيريك الهاربين ، والان ..
وعاد يشير الى فوهة الشجرة المهلكة ويقول :

ـ هما مقيدان مكممان هنا ، لا يملك أحدهما لنفسه شيئا ، وهما هديتى اليك ، والى المدينة المرصودة وسلطانتها ..

وتحرك الفارس باسم نحو الشجرة ، فرفع الطبيب الساحر يده يوقفه محذرا . ووقف الفارس باسم صامتا وهو يقول وهو يهز رأسه فى فهم :

ـ هناك ثمن ..

قال الطبيب الساحر :

ـ صدقت أيها الفارس باسم ..

تنهد الفارس باسم ، وهز كتفيه فى استخفاف وهو يقول :

ـ بالطبع .. فلا أحد يقدم على هذه المغامرة التى أعجزت فرسان المدينة المرصودة جميعا الا اذا كان يريد لها ثمنا .. ما الثمن أيها الطبيب الساحر ؟

كان صوت الطبيب الساحر هادئا وهو يقول :

ـ ليس ثمنا هو شرط .

نظر اليه الفارس باسم فى دهشة وهو يقول :

ـ شرط ؟

استمر الطبيب الساحر يقول فى صوته الهادىء الهازىء معا :

ـ أشترط ان تعدنى بشرفك كفارس الا تمس الاسيرين بسوء حتى نسلمهما الى السلطانة زينب ، ولها هى وحدها ان تقرر ماذا تريد أن تفعل بهما ..

قطب الفارس باسم حاجبيه ، وقال وهو يضغط على كلماته :

ـ تعنى انك تريد حمايتهما من سيفى أيها الطبيب الساحر ..

ضحك الطبيب الساحر فى سخرية وهو يقول :

ـ سيفك مازال فى يدى ، أنت لا تملك سيفا أيها الفارس ، وأنت لم تأسرهما ، بل الذى أسرهما هو أنا ، ولذا فمن حقى أن أقرر ماذا يتم فى أمرهما حتى يتم تسليمهما الى السلطانة .

احمر وجه الفارس باسم ، وضرب الارض بقدمه فى عجز وحنق ، وقال :

ـ والسلطانة لن تقتل الزيبق .. فهى مخدوعة به ..

قال الطبيب الساحر .. وهو يقترب من الفارس الحانق :

ـ بل هى مفتتنة به ، وانت أعمت قلبك الغيرة ، وانستك ان الزيبق وحده يملك المفتاح الى السلطان المخلوع الهارب ، والسلطانة، وكذلك الوزير مروان يعرفان أهمية الحصول على السلطان ومحاكمته أمام شعب المدينة المرصودة ، لتتم فيه كلمة العدالة فيما اقترفت

يداه فى حق المدينة ، وفى حق السلطانة ، وكذلك فى حق الخليفة وانت تعلم ان حياتك نفسها لا تساوى واحدة من هذه الاحطاب الجافة التى اكلتها النيران لو هرب السلطان قاسم الى حليفه ملك بحرالغزال الملك سلطان ، وعاد مع رجاله لغزو المدينة المرصـــودة من جديد ، والانتقام من أعدائه ، والذين ساعدوا على عزله عن عرشه .

أطرق الفارس باسم برأسه الى الارض .. وكلمات الســاحر الافريقى تنفذ الى عقله لتبعد عنه الغضب والحماس اللذين أعمياه حقا عن حقيقة مهمته ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ لم أخرج على رأس فرسانى لقتل الزيبق وانما لاسره ..

قال الطبيب الساحر :

ـ تعطينى الوعد الذى طلبته منك ..

تنهد الفارس باسم وهز كتفيه فى استسلام وهو يقول :

ـ لك كلمتى ، سيصل الاثنان أمام السلطانة سالمين ..

قال الطبيب الساحر وهو يبتسم ابتسامة الرضا :

ـ اذن هيا بنا الى داخل الشجرة .

ضحك الفارس باسم وهو يسبقه الى داخل التجويف قائلا :

ـ وسيرقص أهل المدينة المرصودة كلهم رقصة الانتصار .

- ٢٩ -

الرجال يغيرون جلودهم

عادت القرية تضج بدقات الطبـــول من جديد ، عـدة دقات ذات إيقاعات معينة ثم تصمت ، لتتبعها طبول جديدة تدق نفس الدقات من جديد ، لتسلمها لمجموعة ثالثة ، وسرعان ما كانت أخبار أسر الزيبق وصاحبه على لسان كل من فى الغابة ، وسرعان أيضا ما وصلت المدينة المرصودة وشاعت بين أهلها ، فأيقظتهم من نومهم قبل موعد استيقاظهم العادى بساعات - واضيئت المصابيح لتتوهج المنازل بضـوئها ، كما أشعلت المشاعل في الطرقات والميادين ، وخرج النـــاس من بيـوتهم يرقبون بوابة المدينة الكبيرة ، ويتوقعون القادمين الذين أنذرتهم الطبول باتجاههم نحو المدينة ، بينما هرع علية القوم واعضـــاء البـلاط الى القاعة الملكية حيث جلست الســـلطانة على عرشها ووقف الى جوارها الوزير مروان وهو يعبث فى لحيته ، وقد استغرق فى تفكير عميق ، أفاق منه على ازدياد صيحات الجماهير المحتشدة وصياحها ، وهرعت السلطانة الى باب القصر حيث تشرف على باحة المدينة وما يجرى فيها، ومعها هرع كل من فى البلاط يقفون خلفها يتأملون الموكب العجيب الذى كان يدخل من بوابة المدينة يتبعه وتحيطه حشود كثيرة من رجال ونساء وأطفال أيقظتهم رسالة الطبول القـادمة من الغـــابة ‥ كان الفارس باسم يتقدم الموكب متجهما وقد أمسك بيده مقبض سيفه كأنه يستعد لسله فى أية لحظة ووراءه جاء الاسيران وقد قيـدت أيديهما خلف ظهريهما ووراءهما الطبيب الساحر الافريقي يمسك صـولجانه العجيب ، ووراءهم حشد الفرسان وقد احتذوا حذو قائدهم ، فوضعوا أيديهم فوق مقابض سيوفهم فى تأهب وحذر ‥ وكلما ازداد تقـدم الموكب تكاثر عدد المتابعين له والمتحلقين حوله ، وتحولت همهمـــات الجموع الى أصوات عالية ، ثم الى هتافات صارخة ‥ وهمس حســن بن الحصرى لعلى الزيبق قائلا :

- هم فرحون بأسرنا يا على ، ولا نحن نعرفهم ولا هم يعرفـــون ابا منا ‥ فلماذا ؟

ابتسم الزيبق وهو يقول :

- قالوا لهم أننا الاعداء ، وان فرسانهم الابطـال أسرونا ‥ فهم شامتون فينا ، معتزون بفرسانهم الابطال .

عاد حسن بن الحصرى يقول ، وهو يجـول بعينيه فى الجمـــوع الهائجة حولهم :

ـ لا نحن اعداؤهم ، ولا فرسانهم اسرونا ..

قبل أن يجيبه على الزيبق ، تراجع حسن بن الحصرى مجفلا من حجر صغير أصاب صدره ، بينما سقط حجر اخر أمام الطبيب الافريقى وصاح أحد الفرسان من الالم اذ أصابه حجر فى جبهته فأدماها ، وعاد الحصرى يقول فى غضب ودهشة :

ـ هم يرجموننا يا زيبق .. ؟

ابتسم الزيبق فى مرارة ، وهو يقول :

ـ لنسرع قليلا فى مشيتنا ، هذا الفارس باسم يظن أنه فى استعراض عسكرى بالخطوة البطيئة، بينما الناس هنا يكثرون الكلام الكاذب حتى تحولوا الى مجموعة مجنونة بحب الانتقام والرغبة فى سفك الدماء .

وسمع الفارس باسم كلمات الزيبق فأشار بيده ،فضم الفرسان صفوفهم ، وكونوا شبه دائرة حول الاسرى ، وأسرع الجميع فى سيرهم بينما أستفزت هذه الحركة الجماهير ، فازداد صراخ الناس وعلت هتافاتهم ، وظهرت أياد كثيرة ترجم الموكب بالطوب والحجارة وقطع الاخشاب والاوانى ، وكل ما كان متاحا للايدى الغاضبة..وبداوكأن المسافة من باب المدينة وحتى باب القصر قد طالت ، كما بدأت الجموع تحتشد بين الموكب والقصر وكأنما لتحول دونه والوصول الى باب القصر فى سلام . وقال الزيبق فى سخرية :

ـ ترى بماذا ملأ الوزير مروان وأتباعه اذان الناس وقلوبهم ليكون هذا موقفهم منا ، غضبا عارما وغريبا ، وتعطشا حقيقيا لدمائنا ..

قال الطبيب الافريقى :

ـ لا أعرف يا مقدم على ، ولكنى أستطيع أن أفهم مما جمعته من ألفاظ السباب المتناثرة من أفواههم .. فهم يتهمونكما بخطف السلطان وبيع السلطانة لملك بحر الغزال ، وأنكما من رجال السلطان الفاسد قاسم ، وبعضهم يرى أنكما سبب الجفاف الذى حل بالبلاد وربما كنتما أيضا سبب المرض الذى أصاب ابنة هذا الشيخ ، أو ابنة هذه العجوز ..

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ تعجبنى روحك الساخرة ، ولكن أليس هؤلاء هم أنفسهم الذين استقبلونى يوم عدت بالسلطانة محررة بالهتاف والتمجيد ..

قال الطبيب الساحر :

ـ ليس للجماهير التى شحنتها أبواق الدعاية الكاذبة ذاكرة يا مقدم على ، تذكر هذا ، لان تواجه ثورا هائجا أسلم لك من ان تواجه

جمهورا جاهلا قد حشد بالحكايات والقصص المبتسرة والاشــــارات المبهمة التى تجعل منك عدوه •
قال المقدم حسن بى الحصرى :
ـ كأننا سبب كل بلوى اصابت هؤلاء الناس •
قال على الزيبق :
ـ وكأن قتلنا بالحجارة ، او بأيديهم المجردة سيزيل كل بلوى من حياتهم •
قال الطبيب الساحر ساخرا :
ـ فينزل المطر ، ويشفى المرضى ، ويأكل الجوعى •
صاح الفارس باسم المتوتر الاعصاب :
ـ أنتم تلهون بالكلمات وغضب الجماهير يتزايد •
قال الزيبق ملوحا بيديه المقيدتين :
ـ فك هذه القيود أيها الفارس باسم وساريك أين ستذهب هذه الجماهير ••
نظر اليه الفارس باسم فى حدة وهو يقول :
ـ حتى فى هذا الموقف تريد أن تمارس ملاعيبك .. ؟
ضحك الزيبق وقال :
ـ ان أردت الحقيقة فانا لا أحب أن يصيب غضبى الجماهير بشر ، فهى مخدوعة ، ولا تعرف ماذا تريد ، ولا ماذا تفعل ، ولكن يدى ستطول رأس الافعى يوما ، وسأسحق هذه الرأس حتى لا تلعب هذا اللعب الخطر بعواطف الناس ••
قبل أن يجيبه الفارس باسم ارتفعت أصوات الابواق من القصر، مصحوبة بدقات طبول وخرج حرس القصر مسرعين يفرقون الناس المحتشدين بين باب القصر ومقدمة الموكب ، والناس تتدافع بعضها فى خوف ، وبعضها فى تحد ، ورفعت السلطانة يدها ، فالتفت الجميع الى وجودها ، وساد الصمت المدينة كلها ، وقالت السلطانة بصوت سمعه كل من فى الميدان المواجه للقصر :
ـ اشكر لك أيها الفارس باسم أن أعدت ضيوفى الى قصرى ••
وسكتت السلطانة فشحب وجه الفارس باسم ، بينما اشــتدت حركة يد الوزير مروان وهى تعبث بلحيته ، وســاد الميدان ترقب لكلمات السلطانة، التى عادت تقول فى نفس الصوت الجهورى المليء بالقوة والرقة معا :
ـ لماذا هما مقيدان ؟ لابد أن أعداءنا قد قيدوهما ، وشئت أن تأتى بهما فى الحالة التى وجدتهما عليها •• لا فك قيودهما فقد وصلا الى

بر الامان حيث يعلن شعب المدينة المرصودة أمتنـــانه للرجال الذين حرروه من قاسم الغاشم ، وحرروا سلطانتهم من الاسر والعبودية .. نحن لا ننسى أيها الفارس الزيبق جميلك على المدينة وعلى أنا .. وعلى شرف المدينة ، وشرفي أنا ..

وسكت كل من في الميدان وكأن على رءوسهم الطير .. وفجاة حدثت مفاجأة أذهلت الزيبق ، اذ قفز الفارس باسم الى جوار السلطانة وأمتشق سيفه ، وصاح وعيناه تلمعان في حدة قائلا :

ـ أنا شاهد على كل ما تقوله السلطانة ، وأنا مع السلطانة ، كل ما تقوله صحيح ، وكل من تحبه نحن نحبـــه ، وكـل من تكـرهه نحن نكرهه ..

وكأنما كان الميدان في انتظار لهذه الاشارة ، فاذ بالوجوم يتحول فجأة الى عاصفة من الهتاف والتحية .. وتقدم الفارس باسم واستل خنجره وقطع قيود الزيبق ، ثم قيود المقدم حسن وسط هتاف الجماهير .. وأخذ المقدم حسن بن الحصرى يدلك رسغيه وهو يبتسم ، وقال لعلي الزيبق :

ـ هذا الفارس كحظي مرة هو في السماء ومرة هو في الارض .

ضحك الزيبق بمرارة ، وقال :

ـ وهو كحظك أيضا لا تعرف ماذا سيكون من أمره غدا .

قال الطبيب الساحر :

ـ لقد حول المد الجماهيرى الى ناحيتك بخبطة واحدة .

قال الزيبق :

ـ واكتسب اعجاب السلطانة وشكرها ، وهذا ما كان يبغي ، أنظر اليها كيف تنظر اليه .

قال الطبيب الساحر :

ـ واكتسب في نفس الوقت حنق الوزير مروان ، وما اظنه كان يبغي هذا ، انظر الى الوزير مروان ، وكيف ينظر اليه ؟. ما احسبه الا محتارا في أمره ، لا يعرف كيف يفهم تصرفاته وتقلبـــاته الغريبة والمدهشة .

وحين قاد الفارس باسم الزيبق الى السلطانة لتصافحه هو والمقدم حسن والطبيب الساحر ، تعالت هتافات الجماهير وصيحاتهم .. ثم حيت السلطانة الجموع المحتشدة ، وقادت الطريق الى داخل القاعة ، والى جوارها الوزير مروان وهي تقول :

ـ ان الاوان لنسمع منك أيها الفارس الزيبق حقيقـة ما حدث ، وأنا واثقة ان حديثك سيوضح امامنا أشياء كثيرة خفت علينا .

ومنع الحرس الجمـاهير المتدافعة ان تدخل القـــاعة ، واتجهت

السلطانة الى عرشها ، وتبعها الوزير مروان فوقف الى جوارها ، بينما وقف الفارس باسم عن يسارها ، واخذ كل واحد من اعضاء البلاط مكانه ، القاضي والمحتسب وصاحب الجند وشيخ التجار ، ونقيب اصحاب الحرف ، وكبار الاعيان ، والوصيفات • ووقف على الزيبق بدلك رسغيه وهو يهمس لعمر العيار الى جواره •

ـ كل ما أخشاه أن تضر هذه المغامرة بشخصية الطبيب الساحر ، فهي نافعة لنا ، وللخليفة ، وللامة الاسلامية كلها ••

قال عمر العيار :

ـ بالعكس هي ستثبت مكان هذا الطبيب الساحر كل التثبيت •

وجلست السلطانة فجلس الجميع لجلوسها ، وأشارت بيدها الى مقاعد وحشايا الى ناحية قريبة منها فتبادل الزيبق والمقدم حسن النظرات ، كانت نفس الاماكن التي شغلاها يوم دس لهم المخدر ، ورأت السلطانة نظراتهما المتبادلة ، فضحكت ضحكة مفتعلة يشوبها الاضطراب ، وقالت :

ـ الا زلت تذكر أساءتنا اليك ، أعدك بكلمتي كسلطانة ان مثل هذا لن يتكرر مرة ثانية ، لقد كانت مشورة متعجلة من ••

قاطعها الوزير مروان متحدثا لاول مرة ، وقال :

ـ مافات قد فات ، ولم تكن المسألة كلها ضدك انت، فليس بينناوبينك الا كل عرفان بجميلك، ولكننا كنا نريد أننعرف منك مكان السلطان الغاشم قاسم ، فعندما لم نجده في الكهف ظننا أنك تخفيه عنا •

واندفع الفارس باسم كعادته قائلا :

ـ وقال الوزير مروان ان السلطان ربما أغراك بماله فضمك الى صفوفه ، وانك قد تكون عدت الى المدينة لتتآمر على أمنها وأمن السلطانة •

وجم الوزير مروان ، وتوقفت يده عند لحيته لا تتحرك •• بينما ضحك الزيبق ضحكة عريضة ، وأشار بيده الى الوزير مروان وهو يقول :

ـ كل هذا يخرج منك أيها الصديق الوفي للسلطانة زينب •• ؟

سعل الوزير مروان يخفي ارتباكه ، وتحرك في مكانه بقلق ،وقد احس بتركز العيون عليه ، ثم قال :

ـ مهمتي الرئيسية هي الحفاظ على سلامة المدينة وسلامة سلطانتها ، والحذر واجب ، وأنت أيها الفارس اخر الامر •• وافد غريب لا أحد يعرفك هنا ، أو يعرف حقيقة نواياك •• ثم أن رفضك لتسليم السلطان قاسم اثار شكي ومخاوفي ، وواجبي أن ••

صاح الزيبق وهو يضحك :
ـ واجبك ؟ ومهمتك ؟ .. أهذا كل مافى الامر ..
وجم الوزير مروان ، ثم تمالك نفسه وقال فى تحد :
ـ ماذا تعنى ايها الفارس الزيبق .. ان سمعتك لا تحمل فى طياتها اى خير ـ والسلطان قاسم حذرنا منك ، وقال انك عدو رهيب يجب أن نحذره ..
عاد الزيبق يضحك وهو يقول :
ـ والسلطان قاسم أهو عدوك وعدو المدينة المرصودة أم هو صديق
تدخلت السلطانة فى الحديث الذى أحست أنه يسير سيرا خطيرا ، وقالت :
ـ عدو السلطان قاسم لا أرجعه الله صديق لنا يامقدم .
قال الزيبق :
ـ ولماذا لا أرجعه الله .. ؟ ألست تريدين السلطان قاسم لتحاكميه علي ما ارتكبه في حقك وحق المدينة المرصودة من جرائم وأخطاء .. اذن سيرجع باذن الله وسيحاكم داخل المدينة المرصودة ، وعلى يد قضاتها ، وينال فيها جزاءه العادل على ما ارتكبت يداه.
هبت السلطانة زينب واقفة ، وهب الوزير مروان واقفا ، وساد الوجوم القاعة ..
وقال الوزير مروان فى بطء :
ـ تعنى أنك مازلت تحتفظ بالسلطان قاسم أسيراً ..
ولم يلتفت الزيبق الى حديث الوزير مروان ، بل وجه حديثه للسلطانة قائلا :
ـ كنت أريد بعض المعلومات من السلطان ، وهذا هو السبب فى احتفاظى به الان ، ولقد حصلت منه على كل ما اريد، ولهذا فانا أعيده اليك لتحاكميه طبقا لقوانين مدينتك ..
وسرت همهمة فى القاعة ، سرعان ما تحولت الى لغط ، اذ اخذ كل واحد يناقش هذا التطور الجديد مع جاره ، ولمعت عيون ، وغمضت ابصار ، وتعالت تهديدات ، ورفعت السلطانة يدها فساد الصمت من جديد ، وقالت :
ـ واين السلطان يا مقدم .. ؟
قال الزيبق :
ـ هو فى مكان أمين ، واذا أذنت أيتها السلطانة ارسلت أحضره اليك ..
صاح الوزير مروان :

ـ اخبرنا اين هو وسنرسل ونحضره على الفور .

قال الزيبق متجاهلا حديث الوزير مروان :

ـ المقدم حسن بن الحصرى يعرف مكانه ، فسارسله نيابة عنى ، وليصحبه من جهتكم أنتم ..

صاح الفارس باسم :

ـ أنا ورجالى مستعدون ..

تجاهل الزيبق مقاطعة الفارس باسم كما تجاهل حديث الوزير مروان من قبل ، وقال :

ـ لن يصحبه رجال مسلحون فلا داعى لهذا ، ولكنى اقترح أن يكون رجلكم مع المقدم حسن بن الحصرى الطبيب الساحر .. فهو بجيش وحده ، اذ استطاع أسرى والمقدم حسن بن الحصرى حين عجز كل رجالكم وفرسانكم .

واحمر وجه الفارس باسم ، وتراجع قليلا فى مكانه ، بينما استمر الزيبق يقول :

ـ وهو فضلا عن هذا مخلص لكم ، فلم يقبل كل الاغراءات التى عرضناها عليه ليطلق سراحنا ، وأصر على أن يسلمنا مقيدين لكم ..

نظرت السلطانة الى الساحر الافريقى باعجاب ، وابتسمت وهى تقول :

ـ نعم المواطن أنت أيها الطبيب ..

قال الوزير مروان محتجا :

ـ هو ليس مواطنا فى المدينة المرصودة ، انما هو مواطن للغابات كلها ولا ينتمى الى بلادنا انتماء كاملا ، فنحن لا نراه الا حين يشاء هو.

قاطعته السلطانة زينب قائلة فى اصرار :

ـ كم شفى من مرضانا ، وكم استسقى لنا حين جفت الامطار ، وكم دل صيادينا على مراعى الصيد ، وكم فض من خلافات بين أسر فى المدينة كادت تتفكك لولا كلمته وصائب رأيه وثقة الناس فيه ..

عاد الوزير مروان الى عناده قائلا :

ـ ولكنه ليس منا ، ولا يمكننا فى مثل هذا الامر الخطير ، أنا أقترح ..

رفع الزيبق يده ، وهو يهب واقفا ، وقال :

ـ هذه شروطى ولا اقتراحات فيها ، اما أن تقبل كما هى ، واما ترفض ، فاستودكم الله وأرحل عن بلدكم هذا ..

قال الوزير مروان فى خبث :

ـ انت بين أيدينا يا مقدم على ..

ضحك الزيبق ضحكة ساخرة وهو يقول :

ــ لست مخدرا أيها الوزير ، ولست الان مخدوعا بالكلمات المعسولة ، وحكاية الوفاء لجميلي الذى لا يقدر بثمن .. كماانني لست ضعيفا ، وانما أنا هنا أسير ، ويحق لى أن اتخلص من أسرى مهماكلف هذا من أسروني من أرواح .. هل كلامي مفهوم ..

اندفع الفارس باسم قائلا فى عصبية :

ــ هذا تهديد لا نقبله ..

ضحك الزيبق ساخرا وهو يقول :

ــ هو تهديد واضح ، وليس من شأنى أن تقبله أو ترفضه .

شحب وجه الفارس باسم ، بينما قالت السلطانة متدخلة فى الامر فى صوت حاسم ..

ــ ما كل هذه الكلمات المتعجلة ، التى لا تؤدى والا الى كلمات أكثر عجلة ، لا لست أسمح بهذا كله ..

أنت لست أسيرا أيها الفارس على ، بل أنت ضيفي أنا الشخصى ان لم تكن ضيف المدينة المرصودة التى يبدو أنها تواجه الايام الاولى من سلطنتي بتحدى أصدقائي وأصحاب الفضل على .. كأنما المقصود هو تحديد حجم سلطتي ، وفرض الوصاية على تصرفاتى .. وأنا لن أقبل هذا ، فأنا السلطانة ، لم أعد الطفلة القاصر التى يتحكم فيها السلطان قاسم ، وقد بايعتنى جماهير المدينة المرصودة ، ونصبنى القاضي سلطانة رسمية وشرعية على هذه المدينة ، ومن لا تعجبه هذه الحقائق ، فليعلن هذا صراحة ، فجو المؤامرات والدسائس فى هذا البلاط قد انتهى بازاحة قاسم ، وصاحب الفضل فى ازاحته هو المقدم الزيبق ، ومن العار أن تبدأ المؤامرات من جديد ضده هو نفسه ..

صاح الزيبق فى حماس :

ــ لا فض الله فاك أيتها السلطانة ، انت جديرة حقا بعرشك ..

وارتفعت عبارات الاستحسان من كل مكان فى القاعة ، وهب القاضي واقفا وهو يقول :

ــ أنت السلطانة شرعا وقانونا ، وقد اقسمنا يمين الولاء لك .

واندفع الفارس باسم يغير موقعه من جديد ، ويقول متحمسا :

ــ وسيوفنا فى خدمة السلطانة ..

ــ وفى لزوجة قال الوزير مروان :

ــ كلمة السلطانة فوق كلمتنا ، وما دامت تثق فى الطبيب الساحر ، فنحن أيضا نثق فيه ..

قالت السلطانة :

- اذن حسم الامر ، يذهب الطبيب مع المقدم حسن بن الحصرى كما أراد الزيبق ويعودان بالسلطان قاسم المخلوع ..

قال الزيبق :

- هذه مهمة لا تتم الا ليلا .. وقد أرهقت أحداث الليلة الماضية كلا من المقدم والطبيب ، فلنسترح هذا النهار .. وعند الليل يحضر الطبيب الساحر الى غرفتنا لادله على الطريق ، وليصحب المقدم حسن بن الحصرى فى رحلته لاحضار السلطان المخلوع ..

قالت السلطانة :

- ولن يتعقبهما أحد ، هذه أوامرى ..

وانحنى الوزير مروان رأسه فى ضيق ، وقد أحس أن السلطانة قرأت ما كان يبيته من أمر .. ثم قال فى صوت متخاذل :

- لن يتعقبهما أحد كأمر السلطانة .

قالت السلطانة وهى تشير بيدها الى كبير الخدم :

- سيقودك كبير الخدم الى الحجرة المخصصة لكما ايها المقدم الزيبق ، أنت وصديقك ، أما الطبيب الساحر فله حجرة اخرى فى القصر ..

قال الطبيب الساحر :

- لا أيتها السلطانة ، أنا اعرف أين أقضى هذا النهار ، وعند الغروب ساكون هنا لالتقى بالمقدم على وزميله .

قالت السلطانة :

- لك ما تريد، والان اذهبوا لتستريحوا حتى يحين الليل ، وسيحضر لكم الخدم الطعام والملابس اللازمة الى حجرتكما ..

انحنى الزيبق أمام السلطانة وهو يقول :

- الى المساء اذن أيتها السلطانة ، أيدك الله بعونه وهدايته ..

وخرج هو والمقدم حسن بن الحصرى يتبعان كبير الخدم من القاعة الى داخل القصر ، بينما انسحب الطبيب الساحر من القاعة الى خارج القصر فى هدوء .. وما أن خرجا حتى علت ضجة الحديث والجدل تملأ جو القاعة ، والكل يدلى برأيه فيما حدث ..

■ ٣٠ ■

حكاية ياسمين

قال المقدم حسن بن الحصرى والباب يغلق خلف كبير الخدم الذى تركهما وحدهما ليحضر لهما ما أمرت به السلطانة من طعام وملابس :

ـ اريد ان آكل أولا ثم انام الى العصر ..

قال الزيبق :

ـ اما انا فاريد ان استحم اولا ثم انام الى ما يشاء الله ..

ضحك المقدم حسن بن الحصرى وقال :

ـ اريد ان أرى وجوههم حين يدركون ان سلطانهم قد جن ، وانهم سيحاكمون انسانا لا يعى معنى المحاكمة ، ولا معنى العقوبة .

قال على الزيبق وهو يستلقى على فراشه :

ـ ليس السلطان قاسم هو المجنون الوحيد فى هذه المدينة .. فامر الوزير مروان يحيرنى ، وكذلك أمر الفارس باسم .. فكلاهما متقلب الأطوار ، غريب المواقف ..

وطرق الباب ، ودخل الخدم ، بعضهم يحملون الطعام ، وبعضهم يحمل اناء خشبيا كبيرا وضعوه وسط الغرفة ، ودخل غيرهم يحملون أوعية مليئة بالماء البارد والمناشف ، وملابس نظيفة ، وادوات الحلاقة الجديدة ، والصابون والعطور ، فضحك المقدم حسن بن الحصرى ، وهو يرقب حركة الخدم النشطة فى اعداد مائدة الطعام ، وادوات الاستحمام وقال :

ـ بالفعل هناك شىء مجنون فى هذه المدينة .. فساعه نحن فى سجن ضيق مقيدين ومربوطين الى الحائط الأملس ، يطبق علينا ظلام دامس ، ويأس كامل من النجاة ، وساعة أخرى ، نحن فى حجرة رحبة طليقين ، تقدم لنا الموائد الفاخرة ، وادوات الترف والنعيم ، لم يبق الا الزهور والرياحين ..

ولم يكمل المقدم حسن كلامه حتى دخلت الغرفة فتاة شديدة السمرة ، ترتدى ازارا شديد البياض ، وتحلى راسها بطاقة من الزهور ، تحمل فى يدها الزهور والرياحين ، تقدمها فى آنية انيقة وزعتها فى كل انحاء الغرفة .. وضحك الزيبق وهو يقول غامزا بعينيه لحسن بن الحصرى :

ـ تمن ، تجد ، فنحن الليلة فى دنيا المعجزات ..

ولم يجبه حسن بن الحصرى بل انقض على الطعام ، انقضاض

الجائع المشتاق .. واثار منظر اكلة شهية الزيبق ، فانضم اليه في التهام الوجبة الشهية التي قدمت اليهما ، بينما اكمل الخدم عملهم وانسحبوا في هدوء ، وتقدمت السمراء ذات الازار الأبيض ، وتاج الورد الذي يزين راسها منهما مبتسمة وهي تقول :
- وتسأل مولاتي السلطانة ، هل من شيء آخر ترغبانه ؟.
قال حسن بن الحصري وهو بين قضم وابتلاع :
- هذا يكفينا هذه الليلة على الاقل .
وقال الزيبق :
- كرم مولاتك السلطانة غمرنا تماما ، ابلغيها شكرنا وتقديرنا .
انحنت الفتاة لهما برشاقة ، وقالت :
- أمرت السلطانة ان لا يزعجكم أحد قبل المغرب .
ثم انصرفت .. وقال حسن بن الحصري وهو يعود الى الطعام:
- سآكل وأنام ، وأترك لك نعيم الحمام .
ابتسم الزيبق وهو يقول :
- لا أعرف كيف أفكر الا اذا احسست ان كل جزء في نظيف ، قد اغتسل تماما من كل الادران - وأمامي أشياء كثيرة على ان افكر فيها ..
قال حسن بن الحصري :
- فكر انت وسآكل أنا حتى يدهمني النوم .. وأنام ..

***

كان الزيبق في القاهرة من جديد .. وكان ينام في حجرته في بستان الشيخ زكي البتوكي الذي يرسل اليه رائحة عطوره وزهوره ورياحينه ، لتهدأ أنفاسه وتنتظم ضربات قلبـه ، وكانت أمه في الغرفة ، كيف جاءت هنا ، هو لا يدري ولكنها كانت تقف وتنظر اليه وهي ترتدي زي احمد بن البني وتتقلد سلاحه .. أراد ان يقول لها أن وجودها هنا خطأ ، فلا أحد يعرف هذا المكان ، ولا ينبغي ان يعرفه احد .. ولكنه عاجز عن الكلام ، عاجز عن الحركة .. هو مستيقظ تماما .. يعرف كل ما يدور حوله ، ولكن يده لا تتحرك لتشير ، ولسانه لا يتحرك ليبين ، وركب حصانه وسـط الصحراء ، يجري ويجري ، وهو ظمآن ، واناء الماء قد جف ولا ماء فيه .. والحصان يضرب في الرمال ويجري ، ورياح عاتية تسفي رمالها في وجهه ، وهو يغطي وجهه بطرف شاله ، ولسانه متضخم وقد جف من الظمأ ، ومن بعيد تلوح زينب تحمل اناء مندى بالماء ، وهي تشير ، وتصيح به ، ان يقترب ويشرب ، وكلما اقترب ساخت حوافر الحصان في الرمال لتتوقف او تكاد ، يقترب في بطء .. في

ببطء .. وتختفى زينب ، ولا يبقى سوى الفراغ .. ولا شيء ، ولا أحد ، وهو ظمآن .. وفجأة تقول دليلة وهى فى زى الدرويش الصالح :

ــ سأميتك عطشا يا زيبق .. لن تشرب الا ماء النار .

واقتربت وهى تحمل اناء يخرج منه دخان أزرق ، اقتربت نحوه ، وهو عاجز عن الحركة ، لا يستطيع ان يدفعها او يردها .. وقال لنفسه : اين امى ــ أين فاطمة ، واين زينب .. اين سالم ؟. لا أحد يردها ، وهى تتقدم .. وتتقدم وتقول فى صوت كالفحيح :

ــ السلطان قاسم هو سلطان المدينة المرصودة ، لا احد غيره .. لا أحد غيره ..

ومن الدخان تشكلت حية رهيبة ، تزحف نحوه فاتحة فاها وهى تفح .. حتى أوشكت ان تلتهم رأسه وفجأة ينقض المقدم منصور بسيفه ، فيقطعها نصفين .

ويصيح الزيبق :

ــ ولكنك مت يا خال منصور ، انت ميت ، انت مقطوع الرأس ، مصلوب الجسد .. انت ميت يا خال منصور .

ينظر اليه الخال منصور ، ويبتسم ، ويقول :

ــ عدوك مات يا زيبق ، عدوك مات .

وارتفعت حوافر جواده فوق الرمال ، ومضت تنطلق بلا عائق .. وقال فى صوت حنون :

ــ نحن عند الغروب أيها المقدم ، هلا استيقظت .

وفتح عينيه بصعوبة بالغة ، الحجرة المظلمة ، وسرير المقدم حسن بن الحصرى امامه ، وأصوات من بعيد ، أشباح تعود الى مجال الرؤيا فاذا هى معالم الحجرة التي نام عليها عند الصباح ، واستمر الصوت الحنون الرقيق يقول :

ــ امرت مولاتى ان أوقظك عند الغروب ، وآن الاوان أن تستيقظ .

وافاق تماما .. وقال :

ــ أين انا ؟.

ضحك الصوت العذب الحنون وهو يقول :

ــ انت فى ضيافة السلطانة زينب أيها المقدم ، وآن الاوان أن تستيقظ فالمحاكمة تبدأ بعد حين .

قال الزيبق وهو يستجمع شتات نفسه :

ــ واين المقدم حسن بن الحصرى ؟.

عاد الصوت العذب الحنون يقول فى هدوء :
ــ هو الى جانبك على هذا السرير .. ومولاتى تسأل اتأمر بأى شىء قبل أن اصحبك الى الديوان .
اعتدل الزيبق فى فراشه وقد طار كل اثر للنوم من جسده ، وقال :
ــ نعم .. اريد ان اعرف ما حدث اثناء نومى الطويل هذا .
قالت وهى تقدم له من الماء المعطر :
ــ ستعرف كل شىء فى حينه يامقدم ، فلا تشغل بالك الان .
اخذ الكوب ومضى يشربه فى بطء ، وهو يحاول أن يتذكر ذلك الحلم المخيف الذى حطت أحداثه على قلبه كالكابوس ، وتمتم وهو يعيد الكوب اليها ..
ــ سأوقظ المقدم حسن ، بينما تحكين لنا انت ما جد من احداث .
ومضى الزيبق الى المقدم حسن يوقظه فى رفق ، بينما تنهدت الفتاة ، وهى تقول :
ــ الا تريح نفسك ابدا يا مقدم .. أليس فى حياتك من الوقت ما هو ملك لك .
يتثاءب المقدم حسن بن الحصرى ، وهو يتنبه تدريجيا للفتاةالتى تقف فى الغرفة ، فقال :
ــ اسأليه بربك ، فقد نسى منذ فترة طويلة ان فى الحياة شيئا اسمه الراحة والدعة ..
ضحك على الزيبق ، وقال :
ــ لم أحضر هنا لارتاح ، واستسلم للدعة يا مقدم حسن ، لقد جئت فى مهمة ولا راحة لى الا اذا انجزتها ، وانتهيت منها على خير وجه ممكن .
تقفز حسن بن الحصرى من سريره ، وهو يقول :
ــ لا تخاطبنى انا ، فانا لم اسأل ، هى التى سألتك .. ومن حقها ولها كل هذا الجمال والدلال ان تسأل ، ولا تستطيع أن تمتنع عن اجابة سؤالها .
قال الزيبق فى جدية :
ــ ليس سؤالها بذى اهمية هى عاشت منعمة وسط بلاط السلطان ثم السلطانة ، فكل ما يلفتها هو احاديث الحب والعشق والغرام .. وهذه كلها اشياء بهيجة وسعيدة وناعمة ، ولكنها لم تعرف ، ولن تعرف ، الوجه الآخر من الحياة .

قالت الفتاة :

ـ وما هوالوجه الآخر للحياة يا مقدم ؟.

قال الزيبق وفى صوته رنة مرارة :

ـ الجشع ، الطمع فيما يملك الغير ، والحسد والغيرة ، التى تؤدى الى الخيانة والغدر ، والى اللصوصية والابتزاز ، والاستهانة بما يملك الناس ، بل والاستهانة بالآخرين وبارواحهم ..

قالت الفتاة :

ـ أتحسب اننى لا اعرف كل هذا لمجرد اننى فتاة ، واننى صغيرة السن ؟. لقد رأيت فى بلاط السلطان قاسم من هذا الشيء الكثير ، وعرفته قبل ان أعرف معنى الحب ، وما كان يبقينى فى هذا البلاط الا حبى للسلطانة زينب ، فقد ربيت معها ، وحظيت بعطف امها وحنانها ، وقضيت الليالى ساهرة فى حراستها من غدر السلطان ومؤامراته ، ولعلك فهمت الان سر اعجابى بك ، فأنت منقذالسلطانةمن كل البلاء الذى كان يحيطبها، وانت الذى رفعتها الى عرشها الذى هو حق لها ، وأنت آخر الامر الذى جئت بالسلطان ذليلا مقيدا ليلقى جزاءه الحق ..

صاح الزيبق منتبها الى كلماتها الاخيرة قائلا :

ـ هل جاء السلطان ؟.

قالت الفتاة :

ـ طبعا ، ساقه الساحر الطيب ، مكبلا ومقيدا الى سجن المدينة ، وهو الآن هناك ينتظر المحاكمة ، ومولاتى تنتظرك يا مقدم لتكون شاهدا على ما يحدث .

قال المقدم حسن بن الحصرى :

ـ وأنا ، الا ينتظرنى أحد ؟.

ضحكت الفتاة وتأودت وقالت :

ـ يا مقدم ، الكل لا ينسى معركتك المجيدة عند أبواب المدينة ، وصمودك امام فرسان المدينة المرصودة ، حتى استطاع المقدم الزيبق بملاعيبه ان يخلصك .. لم يستطع فارس أن يهرب من سيوف فرسان المدينة غيرك .

ابتسم الزيبق ، وقال :

ـ فأنت تعرفين قدره كفارس شجاع ..

قالت الفتاة :

ـ لقد سمعت عن قتاله اليائس المخيف حكايات ، وحكايات.

ارتفع الدم الى وجنتى المقدم حسن بن الحصرى ، وقال متلعثما :

ــ ما كنت الا ادافع عن حياتى ونفسى .
قالت الفتاة :
ــ امجد دفاع ، واروع فروسية .
ضحك الزيبق وقال :
ــ اسمعت يا ابن الحصرى .. لم ينس احد موقفك ، ودفاعك المجيد .
قالت الفتاة مسترسلة فى حديثها :
ــ هو عندنا حديث خرافة .. ولو مات مدافعا عن نفســه لغدا اسطورة ..
قال الزيبق :
ــ هذا فارس لا يتكرر ايتها الفتاة .. ما اسمك ــ فبعد كل هذا الحوار لا نعرف لك اسما .
قالت الفتاة وهى تخفض راسها فى خفر :
ــ اسمى ياسمين .
اندفع حسن بن الحصرى قائلا فى انفعال :
ــ ياسمين .. هذا اسمك ، وهو العطر الذى يفوح منك ، فانت فعلا ياسمين .
قالت ياسمين وقد احمر وجهها خجلا :
ــ سيدى الفارس .. هذا كثير ..
ضحكت ياسمين ، والتفتت الى الزيبق قائلة :
ــ اليس عندك يا مقدم على كلمات حلوة كهذه الكلمات ؟.
قال الزيبق :
ــ ما عندى من كلمات قلته للفتاة التى سأتزوجها .
اجفلت ياسمين وقالت فى دهشة :
ــ اذن فانت تحب يا مقدم على ، وكنت اظنك بلا قلب يعرف خفق الحب ..
قال الزيبق :
ــ رجل السيف رجل كغيره من الرجال ، يعرف الحب ، ويعرف الحزن ، ويعرف الألم .
لانت ملامح ياسمين ، وقالت :
ــ اصدقك الآن يا مقدم على .. لقد اخبرتنى السلطانة انك صددتها لانك تحب ، وانك ما جئت الى بلادنا الا مدفوعا بحبك الاصيل .. وما كانت هى تصدق هذا الحديث ، وما كنت انا لاصدقه لولا ان سمعته منك الآن ، واحسست فى لهجتك بالصدق الذى لا زيف فيه ..

لمعت عينا الزيبق فجأة ، وقال وهو يمسكها من ذراعها بعنف :
ـ اذن ففى الأمر مؤامرة ..
ظهر الخوف على وجه ياسمين ، بينما هب المقدم حسن بن الحصرى واقفا واندفع نحو الزيبق وهو يقول :
ـ انت تؤلمها يا مقدم على .
قال الزيبق وعيناه تلمعان غضبا :
ـ دفعتك السلطانة دفعا لتغرينى بجمالك وفتنتك ، لتعرف هل كنت صادقا فى صدى لها ، أم أننى كذبت عليها عن عمد لسبب اخفيه .
كان صوت ياسمين يرتجف ، وهى تقول :
ـ لن اكذب عليك أيها الفارس .. لم تأمرنى السلطانة مباشرة ، ولكنى فهمت ما أرادته منى ، ثم انى أميل اليك ؟.
ترك على الزيبق ذراعها فجأة ، ودفعها بعيدا ، وهو يقول :
ـ انت الحية التى خرجت من اناء النار تحمله دليلة ..
قال المقدم حسن :
ـ دليلة ، ما هذا ، اى اناء نار .. واية حية .
ـ انه الحلم يا مقدم حسن ، الكابوس الذى أطبق على صدرى طوال النهار .. وانا نائم ، هذا تفسيره الآن .
قالت ياسمين وفى عينيها نظرة ذعر :
ـ كابوس ؟ وما شانى انا بالكوابيس ..
قال لها على الزيبق :
ـ لاشأن لك ، ولكنك تفسير الحلم وتعبيره .
قال المقدم حسن بن الحصرى فى ذهول :
ـ كل هذه الكلمات الجميلة كانت جزءا من مؤامرة ..
قال الزيبق :
ـ وهذا الثوب ، وهذه المشية ، وهذه الابتسامة .
قال حسن :
ـ لست أصدق نفسى ، امثل هذه الفتاة تفعل كل هذا عن عهر ؟. من الآن لن أصدق البراءة فى انسان أبدا ..
قالت ياسمين فى ضراعة :
ـ اقسم انه لم تكن هناك مؤامرة ، فقط مولاتى كانت لا تفهم سر صد المقدم على عنها .. وهى من هى جمالا وعزا ومكانة .. و ..
صاح المقدم حسن :

ـ صدق كلام الزيبق .. شاهت كل الاشياء ، شاهت كل الاشياء ..

قال الزيبق فى ضيق :

ـ هذه مدينة مرصودة بالشك والغدر والخيانة ، السلطان يتآمر على الخليفة ، وعلى الوريثة الشرعية للسلطة ، والوزير مع كل عهد ، ومع كل قوة ، ورئيس الفرسان يتقاذفه الموج ، ويعبث به الريح ، وحتى هذه الفتاة البريئة تنتهك جمالها وبراءتها .

صاحت ياسمين :

ـ ولاء لسيدتى :

قال الزيبق :

ـ هذه حكايتك أنت يا ياسمين .. اما انا فقد ضقت ذرعا بهذه المدينة ، واريد أن اغادرها فى الحال .

قال حسن بن الحصرى :

ـ ومهمتك فى الجزيرة المسحورة ؟

قال الزيبق :

ـ سأنجزها قبل ان ارحل .

وقبل أن يجيبه أحد ، طرق الباب ، ولم ينتظر الطارق اذنا بالدخول ، اذ فتح الباب ، ودخل الفارس باسم مندفعا ، وهو يقول :

ـ تأخرت يا مقدم على ، المحاكمة بدأت ، وسيفوتك جزء هام منها ..

ثم التفت الى وجود الفتاة ياسمين ، فصاح فيها فى غضب :

ـ ماذا تفعلين هنا ، والسلطانة تبحث عنك ؟.

تلعثمت ياسمين ، بينما قال الزيبق فى سخرية :

ـ إنها هنا فى مهمة للسلطانة .. هيا بنا نحضر المحاكمة ..

التفت اليه الفارس باسم وقال :

ـ لقد أوشكت المحاكمة أن تنتهى ، فاسرعا لتحضرا تنفيذ الحكم .

قال الزيبق فى سخرية :

ـ أو صدر الحكم قبل انتهاء المحاكمة ؟.

وجم الفارس باسم ، ثم تمالك نفسه وهو يقول :

ـ وهل هناك شك فى خيانته وادانته ..

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ اذن هيا بنا نحضر النهاية التى وضعها السلطان قاسم لنفسه نفسه ..

■ ٣١ ■
المدينة تحترق

كانت المشاعل تملأ المكان بنورها القلق المتذبذب ، وكانت هناك مصابيح عديدة ترسل بنورها الذابل الثابت حولها ٠٠ وكانت الساحة مليئة بالناس ، وقد بدأت ساعات الليل الاولى تلف المدينة بظلامها ٠ ووسط المدينة اقيمت منصة جلس عليها القاضي ، وفي ناحية وقف الجلاد يحمل سيفه الضخم وأمامه النطع ، وفي ناحية أخرى وقف السلطان قاسم موثق اليدين وحوله الحراس شاهرين رماحهم ٠ وأمام المنصة جلست السلطانة والى جوارها الوزير مروان

.. وقال حسن بن الحصري وهو يتبع الزيبق الى الساحة ، رافعا صوته ليصل اليه رغم ضجة الميدان وصخبه :

ـ هل انتهت المحاكمة حتى جيء بالجلاد والنطع ٠ ؟

قال الزيبق :

ـ لقد جاء الجلاد والنطع قبل المحاكمة ٠

قال حسن بن الحصري :

ـ ولكن ما معنى المحاكمة اذن ؟

قال الزيبق

ـ أنها هنا تبرير للقتل ، مجرد تبرير ٠

قال حسن بن الحصري :

ـ أما كان الاجدى أن يقتلوه بدلا من هذه المهزلة ٠٠

وقال الزيبق وهو يشق طريقه الى حيث جلست السلطانة والوزير مروان :

ـ قديما كان الطامع في الملك يتحدى الملك الذي يكون قد كبر في السن علنا، ويقتله في مبارزة أمام كل القبيلة ، ويصيح الناس مات الملك عاش الملك ، وينتقل العز والجاه والمال والسلطان من بيت الى بيت ، والناس يرضونه ، فالحكم للقوة ، والقبيلة لا ترضى أن يحكمها الا من يستطيع ان يهزم من يتحداه ويقتله ، أما اليوم فلابد من القانون فالقانون قد ارتضاه الناس، وأن يحكم على السلطان اليوم بالموت فهذا هو حكم القانون. فهو حكم ارتضاه الناس ووافقوا عليه، وهو الذي يبرر للسلطان الجديد أن يحتل مكان السلطان المقتول دون أن يتهم بالاغتصاب أو القتل ٠٠

وضاع صوت الزيبق وسط ضجة كبرى ثارت من عند المنصة ،

ومن حولها من جماهير الناس ، وتوقف الاثنان عن الحركة اذ اندفعت الجموع التى كانت فى الخلف تدفع من هم امامها لتصل الى أقرب مكان الى المنصة ، وتنهد الزيبق وهو يقول :

ـ لقد نطق القاضى بالحكم .. والناس يتدافعون ليروا تنفيذه ، نما فى كل يوم يقتل فى المدينة سلطان .

قال حسن بن الحصرى فى حنق :

ـ لا نستطيع الحركة فقد احدقت بنا الجماهير وحاصرتنا ..

قال الزيبق :

ـ لا أظن ان هناك طفلا أو شيخا أو رجلا أو امرأة فى المدينة كلها داخل هذه المنازل ، الكل هنا والبيوت خالية .

وفجأة ارتفع صوت من ناحية الميدان الأيمن يصرخ قائلا :

ـ النار ، النار فى مستودع الغلال ..

بينما صاح صوت اخر فى ذعر :

ـ المنازل تشتعل ، كل هذه الناحية تشتعل ..

ونظر الزيبق الى حيث أشار الرجل ، كانت السنة النيران تخرج من نوافذ المنازل ، وتحول الظلام الى نور متوهج اذ تحولت الناحية اليمنى من المدينة الى شعلة متأججة ، وقال المقدم حسن بن الحصرى :

ـ النار فى كل مكان ، كأن هذا الجانب اشتعل كله مرة واحدة .

قال الزيبق :

ـ وهج النار يعنى ان هناك نفطا يشتعل فيزيد وهج النيران وحدتها ، لا ليست هذه الحرائق مصادفة انها بالقطع بفعل فاعل أثيم

ارتفعت صرخات النساء وصيحات الرجال تصم الاذان ، وهم يتدافعون ، ويدوسون على من يسقط منهم ، بينما صاح الزيبق فجأة :

ـ أنظر ..

ونظر حسن بن الحصرى الى حيث أشار الزيبق ، الى المنصة .

وكان الجلاد يتهاوى الى الارض وقد استقر سهم فى قلبه ، بينما كان السلطان المقيد يصرخ فى جنون ، وكوكبة من الفرسان يندفعون بخيولهم نحو المنصة ، وفى مقدمتهم فارس طويل فى زى الدراويش ووراءه مونجو ورجاله وهمس الزيبق من بين أسنانه :

ـ دليلة .

وحاول أن يندفع نحو المنصة ، ولكن الجموع كانت تضغطه ضغطا لتعيده الى الوراء ، وقال حسن بن الحصرى الذى كان يقاوم ليظل الى جوار الزيبق :

ـ ليس فى هؤلاء الفرسان نساء ..

قالَ الزيبق ، وهو يصارع موج الناس الزاخر الصارخ :
ــ أيها الدرويش الصالح .. الم تسمع عن الدرويش الصالح.. هي التي ألبت السلطان قاسم على الخليفة ، وحرضته على التمرد ، وها هي الان تنقذه من الموت الاكيد .. وخدعة الحريق لا تخرج الا من عقل كعقلها لا يأبه بسلامة الناس ولا بسلامة أموالهم ..
وكان الفرسان قد وصلوا الى حيث وقف السلطان فانتزعه مونجو من أمام النطع وأردفه أمامه فوق حصانه ، بينما أخذ رجال مونجو يمطرون الناس حولهم بالسهام ، وتساقط الناس . واندفعوا هاربين من أمامهم .. وسرعان ما تحولوا بخيولهم مسرعين يغادرون الميدان ليبتلعهم ظلام الليل .. وتمكن الزيبق أخيرا أن يشق طريقه مندفعا الى حيث وقفت السلطانة شاحبة الوجه ، مذعورة ، وما أن رأته حتى اندفعت نحوه وهي تقول :
ــ أرأيت ما حدث ، مونجو وعصابته اختطفوا السلطان قاسم .
قال الزيبق وهو يربت عليها مهدئا :
ــ لقد خلصتهم دليلة من الكهف ، وقادتهم في تخليص السلطان .
وكان الوزير مروان قد فقد هدوءه ، فقال في عصبية :
ــ لابد من اللحاق بهم ، فوجود السلطان حرا خطر داهم على ، وعلى السلطانة ، وعلى المدينة ..
قال الزيبق :
ــ يجب انقاذ المدينة من الحريق أولا .
قالت السلطانة زينب :
ــ نعم ، المدينة أولا .
ووقعت عيناها على الفارس باسم وهو يهرع نحوهم ، فقالت في ثبات :
ــ أيها الفارس، اجمع رجالك ، وضم اليك كل الفرسان وكل الحرس ، وكل الجنود ، ونظموا (طابورا) من الغدير الى المدينة لحمل الماء ومحاصرة الحريق ..
قال الفارس باسم في اضطراب :
ــ ولكن السلطان هرب ، وأستطيع ان الحق بمختطفيه قبل أن يبتعدوا .
قالت السلطانة في حزم :
ــ المدينة أولا ..
صاح الوزير مروان في انفعال :
ــ هذا قرار خاطىء ، نحن نحتاج الرجال لاعادة السلطان الهارب

قال الزيبق فى هدوء :
ـ بل قرار السلطانة هو القرار الصواب ، فمن دبر الحريق ليصرف النظر عن هجمة الفرسان ، لابد أنه رسم طريق الهروب .. والمدينة الان تحتاج كل جهودنا .
وأحس الزيبق بيد تربت على كتفه ، فالتفت ليجد عمر العيار فى زى الساحر الافريقى يقف وراءه ، ويقول فى همس :
ـ أين ذخائرك يا زيبق فهذا الحريق سيقضى على المدينة قبل أن يحمل الجنود الماء الكافى لانقاذها .
قال الزيبق :
ـ أين لومبا ومافى ، الم يذهبا لاحضار حاجاتى من الكهف ؟.
قال عمر العيار :
ـ هما هنا ، وقد عادا وانت نائم ، واخفيتهماعندى، وحاجاتك كلها سالمة عندى .
قال الزيبق :
ـ اذن هيا بنا اليهما ..
صاحت السلطانة والزيبق يتبع عمر العيار :
ـ أين تذهب ايها الفارس ، نحن نحتاج اليك الان .
قال الوزير مروان فى سخرية :
ـ وماذا يستطيع هو أن يصنع زيادة عما يفعله باقى الرجال . ؟
ضحك الزيبق وقال :
ـ سوف ترى ..
وتبع عمر العيار والى جواره حسن بن الحصرى الذى قال فى حيرة :
ـ لقد صدق الوزير مروان .. فماذا ستستطيع ان تفعل حقا ؟.
قال الزيبق ، وهم يغادرون الميدان الصاخب ، وينحرفون وراء عمر العيار الى جانب هادىء من المدينة لم تصل اليه النيران :
ـ البيوت فى هذه المدينة متلاصقة ، ولن تجدى مكافحة النيران بالماء وحده ، اذ ستشتعل النار الى بيوت جديدة قبل أن يتم اطفاء المنازل المحترقة بالفعل ..
قال حسن بن الحصرى :
ـ هذا صحيح ، فمنازل المدينة مصنوعة كلها من الخشب ، وقد تعرضت للشمس الحارقة زمنا طويلا حتى أصبحت جافة تماما ، ما أن تصلها النار حتى تحترق فى سرعة مذهلة .

كان عمر العيار قد وصل بهم الى مسجد صغير فى نهـاية حارة ضيقة ، ووقف ينتظرهما حتى يلحقا به ، وقال :

ـ ها قد وصلنا .. كانت هذه الزاوية مقر الدرويش الصالح او صديقتك الحميمة دليلة ، وما ان اختفت من المدينة حتى وجدت فيهـا مكانا آمنا أستريح فيه بعيدا عن العيون ..

قال الزيبق وهو يدخل الى المسجد الصغير خالعا نعليه :

ـ لقد أحسنت الاختيار يا مقدم .

وحين كان المقدم حسن بن الحصرى يخلع نعليه ، خرج عليهمـا لومبا ومافى من داخل المسجد ، مرحبين بالزيبق ورفيقه ، وقال لومبا:

ـ لقد رأينا كل شيء ، وكدنا نذهب وراء الهاربين ، ولكن الطبيب الساحر منعنا ، وقال ان مكاننا هنا الى جوارك ..

دخل الجميع الى ساحة المسجد الصغير ، حيث أضاء المكان مشعل علق على أحد الجدران ، وفى جانب من المسجد وجد الزيبق حرنداناته كلها ، فأسرع نحوها ، وأخرج واحدا منها ، مضى يفتش فى محتوياته والكل يرقبه فى صمت .. وابتسم الزيبق وهو يخرج عدة أصـابع قصيرة قاتمة اللون ، ولفة من الفتيلة الرفيعة ، وقال وهو يعيد غلق الحرندان :

ـ والآن سنحاصر الحريق .

قال عمر العيار :

ـ لست أفهم ما تعنيه .

قال على الزيبق ، وهو يضع ما أخرجه من الحرندان أمامه ، ويفرد لفة الفتيلة الرفيع ليكون حبلين طويلين ، ثبت طرف كل واحد منهما فى مجموعة من الاصابع القصيرة ربطها الى بعضها ربطا محكما ، ثم تنهد ، ووقف وهو يقول :

ـ عندما لا تجد النار ما تأكله ، ستـأكل نفسها ، وتكتفى بمـا أحرقت من دور ، وتخمد المياه ما بقى مشتعلا منها .

قال عمر العيار وهو يهز رأسه فى فهم :

ـ ادركت ما تريده ايها المقدم .. تهدم دارا عند هذا الطرف ، ودارا عند الطرف الاخر ، فلا تجد النار ما تمتد اليه ..

قال على الزيبق :

ـ لقد فهمت ما أنتويه تماما يا مقدم عمر ..

قال حسن بن الحصرى فى حيرة :

ـ ولكن كيف .. ؟

ربت على الزيبق على مجموعتى الاصابع القصيرة ، وقال :

ـ هنا تكمن الاجابة على سؤالك ..

قال حسن بن الحصرى :

ـ هذه العصى .. ؟

قال على الزيبق :

ـ ستصحب أنت المقدم عمر العيار فى عمل هام لانجاح مهمتنا ، وهو ابعاد الناس عن المنزلين اللذين سنختارهما ، وبعد أن يتهدم المنزلان على كل منكما أن يقود فريقا من النـاس مزودين بالفئـوس والمكاتل لحمل الانقاض بعيـدا باقصى سرعة . أمـا لومبـا ومافى نسيصحبانى فى القيام بالعملية نفسها .

قال حسن بن الحصرى فى حيرة :

ـ ولماذا لومبا ومافى معك ، وانا مع المقدم عمر العيار .. ؟

قال الزيبق :

ـ ما زال المقدم عمر العيار هو الساحر الافريقى الذى يحبه القوم منا ويجلونه ، ويطيعون كلامه ونصائحه ، أما أنت فهم يعرفون انك فى صفهم لانك صديقى .. ولابد أن أبعد لومبا ومافى عن عيـون الوزير مروان والفارس باسم لانهما يعرفان انهمـا من أعـوان الملك سلطان ملك بحر الغزال ، وانهما اشتركا فى اختطاف سـلطانتهم زينب ..

قال لومبا :

ـ صدقت أيها المقدم ، فمنذ دخلت هذه المدينة ، وأنا على حذر أن يكتشف احد أمرى ، ممن يعرفون دورى المخجـل فى اختطـاف السلطانة ..

قال الزيبق :

ـ هذه مسألة سنسويها نهائيا بعد اخماد الحريق ..

قال عمر العيار :

ـ أنت تريد ابعـاد النـاس عن المنازل المحترقة .. كيف وهم يحاولون اطفاء الحريق بالماء الذى يحملونه من الغدير .. وأنت تعرف حماس الناس وخوفهم على منازلهم .. ؟

قال على الزيبق :

ـ هم يعتقدون فيكم الخير ، قل لهم انك تريد أن تجرب سـحرك لدقائق ، ثم يعودون بعدها الى حمل الماء من الغدير .. واختر معـك من حملة المعاول والمكاتل من لهم مصلحة فى بقاء المدينة قائمة ، وابعد كل من يريدون النهب والسلب ، أو الادعاء والتظاهر ، وقسـمهم الى قسمين ، وحين يتم الانفجار ..

صاح حسن بن الحصرى :
ـ الانفجار ؟ نعود مرة اخرى الى البرق والرعد والنجوم المتساقطة من السماء التى انقذتنى من قبضتهم ..
ضحك الزيبق وقال :
ـ هذه المرة لن تسقط النجوم ، وانما ستسقط المنازل ، لنترك بيننا وبين النيران منزلا ، ونفجر المنزل الذى يليه ، ثم تتعقبه فرق الازالة فلا تبقى للمنزل أثرا .. وحين تصل النيران الى المنزل الاخير ، سيكون الطريق مسدودا أمامها ..
قال عمر العيار :
ـ وتريد منا ان نزيل الانقاض فى الحال ..
قال الزيبق :
ـ ولهذا اخترت منزلا بعد منزل من الحريق ، ويجب أن تزال الانقاض بسرعة .
قال حسن بن الحصرى :
ـ لو نجحنا في هذا ، فان النيران ستوقف بالفعل .
قال لومبا :
ـ ولكننا لن نتمكن من انقاذ كل منازل المدينة ..
قال الزيبق :
ـ سننقذ المدينة نفسها وهذا هو الشيء الهام .. هل فهم كل منكم دوره ، والمطلوب منه .
قال عمر العيار :
ـ هى مغامرة جسورة ، فلو فشلت هذه الاصابع ، ضاع كل شيء وضاعت المدينة ..
قال الزيبق :
ـ هذه الاصابع من ذخائر الشيخ زكى البتوكى ، ولن تفشل كما لم تفشل الالاعيب الصينية ، فهى فى الحقيقة جزء منها ، هل نتوكل على الله .
قال عمر العيار :
ـ ونعم من نتوكل عليه .. هيا بنا ..
قال الزيبق :
ـ هل فهم كل منا دوره ؟.
قال لومبا :
ـ لا أنا ولا مالى فهمنا دورنا ، نحن نصحبك ، هذه حقيقة ، ولكن ماذا سنفعل ؟ ما هو دورنا ؟.
قال الزيبق :

- ستتسلل انت الى المنزل الثانى للمنزل المحترق على يمين هذا الصف الطويل من المنازل ، ثم تضع هذه الاصـــابع داخله ، وتمر الفتائل الى خارج المنزل حيث تكمن بعيدا عنه ، وسيفعل مافى نفس الشيء فى المنزل الثانى للمنزل المحترق على اليسار .. هـل هـــذا مفهوم ..

هز لومبا راسه ، وكذا فعل مافى ، وهما ينظـــران الى حزمتى الاصابع ذات الفتائل فى روع وترقب .. واستأنف الزيبق حديثه فقال :

- سأضع الاصابع بنفسى ، وسأمد الفتائل حتى تصـــل اليكمـا بعيدا عن المنازل بمسافة معقولة .. كل المطلوب منكما ان يشعل كل منكما الفتيل حين أشير اليه ، ثم ينبطح أرضا ، ويترك لكل شحنة أن تفعل فعلها ..

قال عمر العيار :

- ولن يصاب أحد من أهل المدينة بسوء ..

قال الزيبق :

- هذا دورك يا مقدم عمر ، ابعد الجميع ، ثم لينقض الجميع على الانقاض ليزيلوها فورا ، ثم تستعمل الفئوس فىالهجوم على البيت الثانى للبيت الذى تفجر ، وتزيل كل ما هو قابل للحـــريق ، هى معركة تحتاج الفهم والتضافر ، كما تحتاج الفدائية والبذل ، ومن هنا أوصيتك باختيار الرجال الصالحين لخوضها ..

قال المقدم عمر العيار :

- اعطنى فرصة زمنيـــة اذن ، اذهب الى الرجـــال ، واحادثهم ، واقنعهم وأخبرهم ..

قال الزيبق :

- الوقت ضدنا ، فالحريق يمتد بلا عائق .

قال عمر العيار :

- سألجأ الى الرجال الذين آمنوا بحبى لهم ، فانتظرانى قليلا حتى أصل اليهم واقنعهم ، وأخبرهم .

قال الزيبق :

- الوقت سلاح ضدنا فالمدينة تحترق .

قال عمر العيار :

- لن يستغرق هذا منى وقتا طويلا ، فقط امنحنى الفرصة لاخبر الرجال والا مات كثيرون فى الانفجارات التى تزمع احداثها .

قال الزيبق :

ـ عندما تستعد أرسل الى المقدم حســـن بن الحصرى هنـا فى المسجد ، وساعتها سانطلق أنا ولومبا ومافى ٠

قال المقدم عمر العيار :

ـ هذا عدل ، فسأذهب الان ٠

وقال للمقدم حسن بن الحصرى :

ـ اتبعنى يا مقدم فهذا قدرنا ٠

وانصرف عمر العيار والمقدم حسن بن الحصرى من المســـجد ، والتفت لومبا الى الزيبق قائلا :

ـ ومتى نتحرك نحن ؟.

قال الزيبق :

ـ ينبغى أن يعد عمر العيار عـدته ، فالرجـال عنصر رئيسى فى نجاح خطتنا ٠٠

قال لومبا :

ـ وما دورنا فى هذه الخطة ؟

قال الزيبق :

ـ سنتحرك الان ، وسنضع فى كل منزل مختار ، مجمـوعة من هذه الاصابع ، وعند نهاية الفتيل الخاص بها يكمن أحدكمـا ، وحين أصدر الاشارة ، يشعل كل واحد منكما الفتيل ، ثم ينتظر ٠

قال لومبا :

ـ وهل معنى هذا ان ننتظر المقدم عمر ؟

قال الزيبق :

ـ سنضع الاصابع فى أماكنها ، وينتظر كل منكما فى المكان الذى أحدده ، وسأنتظر أنا هنا المقدم عمر ، وحين أشير اليكما ، يشعل كل منكما الفتيل الذى أمامه ٠٠ هل نحن متفقون ٠

قال لومبا :

ـ فهمنا ٠

قال الزيبق :

ـ اذن هيا بنا ٠٠

ومن المسجد تسلل الجميع فى صمت ، كل يأخذ موقعه الذى حدد له وكل يأخذ اهبته للمهمة التى اوكلت اليه ٠

- ٣٢ -

الجزيرة المسحورة

حين دوى الانفجار الاول ، صمتت المدينة تماما ، صمت الصارخون خوفا من النيران ، وصمت الصاخبون حول النيران ، يكافحونها عبثا بأوعية الماء المحمولة عبر طابور طويل من الرجال .. صمت كل شيء وسكت ، في ترقب وخوف .. وقبل أن تذهب مفاجأة الانفجار الاول، دوى الانفجار الثاني مروعا ومهولا ، وانهار المنزلان عند طرفي النيران حطاما واشلاء ، وبقايا متناثرة هنا وهناك ، وانقض طابوران من الرجال على حطام المنزلين ، واحد يقوده عمر العيار ، والثاني يقوده حسن بن الحصري ، وارتفعت المعاول وهوت تكمل تحطيم ما لم يحطمه الانفجاران وامتلأت الايدى بالمكاتل تزيل الحطام في سرعة وهمة ، وقد فهم كل الرجال مهمتهم ، وأصبح أملهم الوحيـــد في انقاذ المدينة هو ازالة الحطام حتى تأكل النيران نفسها وتتوقف .. وتحول الســكون الى حركة صاخبة نشطة ، وانضم الكثيرون الى طابور الماء حتى كونوا أكثر من طابور ، وبدأت النيران تخمد في مناطق عديدة ، بينما ملأ المدينة دخان كثيف ، ورأى كثيرون من سكان المدينة لومبا ومافي وهما يقومان بدورهما في رفع الانقاض ، ونقل المياه ، ومكافحة الحريق ، ولم يلتفت أحد اليهما ، ولم يعترض أحد طريقهما ، بينما كان الزيبق ينتقل من مكان الى مكان يمد يد العون لجماعةهنا ، ويحثبالتشجيع والتوجيه جماعة هناك ، حتى أحس الجميع انه في كل مكان ، وانه يعضـد كل يد ، ويذكي روح التحدى والصمود في كل نفس .. وقالت الجارية ياسمين لسيدتها السلطانة وهي ترقب حركة الزيبق التي لا تهدأ :

ـ لقد سيطر الزيبق على النار ، انه جيش وحده ..

قالت السلطانة زينب :

ـ منذ تعهد باطفاء الحريق ، وقد اطمأن قلبي ، وزايلني القلق والخوف ..

ضحك الوزير مروان في سخرية ، وهو يقول :

ـ لقد سيطر على كل رجال المدينة ، وهم يتحركون لاشـارته ، كأنما تعودوا أن يتلقوا أوامرهم منه طول العمر ..

قالت السلطانة زينب في لهجة حالمة :

ـ هو قائد بين الرجال .. فبعض الرجال لهم هذه الموهبة حتى لو

كانوا بلا جاه أو سلطان •
قال الوزير مروان فى اصرار :
ـ وبعض الرجال يركبهم الغرور حتى تداخلهم الاطماع فى الحصول على الجاه ، والاستيلاء على السلطة •
التفتت اليه السلطانة زينب ، وقالت فى حدة :
ـ لا مطمع لعلى الزيبق فى بلادنا ايها الوزير مروان ••
قال الوزير مروان فى خبث :
ـ من يعرف متى تبدأ أطماع الانسان ، وكيف تتصاعد •• ؟
قبل أن تجيبه السلطانة زينب ، ظهر الزيبق يسرع نحوهم ومعه الساحر الافريقى ، والمقدم حسن بن الحصرى ، فرفعت السلطانة يدها طالبة الصمت ، وابتلع الوزير مروان كلماته • وهو يرقب فى حنق حركات القادمين الناطقة بالزهو والثقة بالنفس •• وقال الزيبق حين واجه السلطانة :
ـ لقد تمت سيطرتنا على الامور ، وما هى الا عدة ساعات وينتهى الحريق تماما •
وقال الساحر الافريقى :
ـ لو أمرت مولاتنا السلطانة ، ننصب الخيام لايواء من فقدوا مساكنهم ، ونعد الطعام للاطفال والنساء ، وللمنهكين من الرجال الذين كافحوا النيران •
صاحت السلطانة زينب :
ـ كيف فاتنا هذا ، صدقت ياصديقنا الطبيب •
ثم التفتت الى الوزير مروان آمرة :
ـ وقفتك الى جوارى هنا بلا معنى ، اذهب لتعد الخيام ، وأوانى الطعام ، ولتفتح مخازنى كلها ، وبعد الطهاة الطعام ••
ثم التفتت الى الجارية ياسمين قائلة :
ـ اذهبى يا ياسمين معه ، ولتخرج كل جوارى القصر لاعداد الطعام ، والمأوى والكساء لضحايا الحريق •• هل اذهب معك أم تستطيعين تنفيذ هذا الامر كله •• ؟
قالت ياسمين :
ـ يكفى ما فعله الاغراب لنا ، لقد تعلمنا منهم معنى الصمود والاصرار ، ونحن لا نقل عنهم حبا لمدينتنا ، سيدهشك ما تفعل ايتها السلطانة ••
قالت السلطانة زينب ، وفى صوتها رنة فخر واعتزاز :
ـ كنت أعرف جوابك ، ينبغى أن نتعلم مما شاهدنا ، كيف يكون العمل ••

قال الزيبق :
ـ لست أشك فى صدق ما ستفعله ياسمين ..
قال الوزير مروان :
ـ وتشك فيما سأفعل ؟
قال الزيبق :
ـ هذه مدينتك .. وانت وزيرها ، وما جئت لكل هذا ، وانما جئت استأذن من السلطانة أن أذهب فى المهمة التى جئت من أجلها الى هنا ، فقد طال تأخيرى لهذه المهمة .. ووجب اذن السلطانة ٠
اطرقت السلطانة طويلا ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :
ـ اذن السلطانة نافذ ، فاذهب الى مهمتك ، ولن يمنعك أحد من المدينة المرصودة ، وان أردت معاونة ، قدمناها لك ٠
صاح الوزير مروان فى احتجاج :
ـ وماذا نفعل فى المدينة المحترقة أو فى الهاربين مع السلطان قاسم ، و ..
قاطعه الزيبق قائلا :
ـ أما المدينة فلم تعد محترقة ، وامرها موكول اليكم ، أما الهاربون فيجب أن ينظم الفارس باسم حمله لتعقبهم ، وسأعطيه المقدم حسن ابن الحصرى معه ليعينه فى مهمته .. أما أنا ، فلم يعد لوجودى هنا معنى الا اذا ذهبت الى هدفى مباشرة ٠
قال الوزير مروان فى حقد :
ـ تعنى أن تحصل على صندوق التواجيه ، وتسرقه من مدينتنا وترحل ..
قال الزيبق فى هدوء ، وهو يكتم ما يحس به من ضيق :
ـ صندوق التواجيه ليس ملكا لمدينتكم ايها الوزير ، ولا يعرف احد ، هل سأوفق فى الحصول عليه ، أم سأدفع حياتى ثمنا لاخفاقى
قاطعته السلطانة زينب قائلة :
ـ كفى أيها الفارس ، سيصحبك التوفيق والنجاح ، اذهب والله يرعاك ٠
وقال المقدم حسن بن الحصرى :
ـ سأكون فى جيش الفارس باسم فلا تشغل بالك من هذه الناحية
قال الزيبق :
ـ اعرف انك قادر على انجاح المهمة .. وسأذهب الان ..
وقبل أن يجيبه أحد ، كان الزيبق قد اختفى عن الانظار ..

قبل الفجر بقليل وصل الزيبق ومعه عمر العيار ولومبا ومافى الى حافة البحر ، ووقفوا ينتظرون مقدم الرئيس سوهى ، وقال عمر العيار
ـ لقد تأكدت من وصول رسالتى اليه ، وسرعان ما يصل .
قال الزيبق :
ـ وجوده مهم ، فهو وقبيلته حراس الجزيرة واصحابها ، ولست أريد مقاتلتهم .
قال عمر العيار :
ـ هو صديقنا ، وهو يطمع أن يكون كنز الجبـــل له ولقبيلته ، فالمغارة التى وضع فيها صندوق التواجيه تحوى كنوزا وذخائر لا مثيل لها ..
قال الزيبق :
ـ سافتح لهم الطريق الى هذه الكنوز والذخائر ..
قال لومبا :
ـ نذهب معك ..
قال الزيبق :
هذه النفيلة مطلوبة منى كاختبار لحقى فى أن أكون مقدم درك مصر ، ولو عاوننى أحد لفقدت حقى فى المطالبة بالاقرار لى بالتفوق والغلبة .. ولكنى أريد ان تذهب انت ومافى الى مدينة بحرالغزال، فأحسب أن السلطان قاسم هناك ، ومعه دليلة المحتالة ، ومونجو وعصابته ، وليس أقدر منكما على معرفة الاخبار هناك ..
قال عمر العيار قاطعا حديثه :
ـ ها هو صديقنا الرئيس سوهى قد وصل فى موعده تماما ..
ولاحت قوارب محملة بالرجال تتقدم نحو الشاطىء فى سرعة وهدوء .. وفى مقدمة القارب الاول وقف الرئيس سوهى يحمل حربته ، والجوهرة التى تتدلى فوق صدره تلمع فى أشعة الفجر الاولى ، وقال الزيبق :
ـ الرجال فى زينة الحرب ، وفى أيديهم الرماح والسيوف .. هذه ليست بادرة سلام ..
ضحك لومبا ضحكة خشنة ، وهو يعقب قائلا :
ـ رأيت هذا المنظر قبل هذا ، ان القبيلة تستعد لخوض حرب دامية .
قال عمر العيار :
ـ لا تنس ما مروا به أمس ، واظنهم يحسبون اننا ما زلنا فى عداء مع المدينة المرصودة .
وما ان انتهى من كلامه حتى كانت القوارب قد وصلت الى الشاطىء حيث وقفوا ، وقفز الرئيس سوهى الى الشاطىء ، ورفع

حربته فى يده وهزها فى عنف ، ثم اشار الى رجاله فتبعوه ، وجروا القوارب الى الشاطىء ثم نزلوا منها مسرعين ، بسلاحهم الذى يلوحون به فى وجه الشمس الوليدة التي لم تظهر بعد فى السماء ثم تقدم الرئيس سوهى نحو الواقفين فوق الشاطىء ، وأوما برأسه تحية لهم ، ثم توجه بحديثه الى الزيبق قائلا :

– أيها المقدم صاحب الحيل الكثيرة ، والنيران المتطايرة ، والرعد والبرق .. انا ورجالى ابناء قبيلة البونت جئنا لنصرتك فى حربك ضد المدينة المرصودة .

رد الزيبق التحية ، وتقدم نحو الرئيس سوهى وهو يقول :

– لم تعد هناك حرب بيننا وبين المدينة المرصودة ، مهمتى الآن فى جزيرتك وجزيرة قبيلتك أيها الرئيس سوهى ..

قال الرئيس سوهى فى دهشة :

– الجزيرة المسحورة ..

تدخل الساحر الافريقى فى الحديث قائلا :

– سيفتح المقدم الزيبق الكهف المسحور ، وليس له طلب الا صندوق التواجيه ، وسيترك لكم الكهف بجواهره كلها ، وقد زال عنه السحر ، وأصبح طريقكم اليه مأمونا ..

فجأة ضحك الرئيس سوهى ، وتبادل رجال القبيلة النظرات الساخرة ، وقد ابتسم بعضهم ، وعلت ضحكات بعضهم الآخر ، وحين أنتهى الرئيس سوهى من ضحكه ، قال :

– يا كم حملنا من جثث المغامرين الذين قصدوا الجزيرة دون ان يعرفوا طرق السير فيها ، فتمزقهم السيوف المسحورة .. حتى من استطاعوا تجنبها وقصدوا الى الكهف دمرهم حراسه السحريون، وغدت اجسادهم هناك نهبا للصقور والطيور الجارحة ، لا نستطيع حتى أن نصل اليها لندفنها بعيدا عن مخالب وحوش السماء .

قال لومبا فى صوت مرتعش :

– هذه صورة مخيفة لرحلتك يا مقدم .

وقال الساحر الافريقى مخاطبا الرئيس سوهى :

– أيها الرئيس سوهى مالم يقدر عليه احد ، سيقدر عليه الزيبق .

قال الرئيس سوهى :

– لو نجح لتنازلت له عن مكانى فى رئاسة القبيلة ، فكم حاولت ، وحاول اجدادى الوصول الى كهف صندوق التواجيه دون جدوى .. ففى هذا الكهف عز القبيلة وثروتها ..

قال الزيبق :

ـ وصندوق التواجيه ؟.

ـ لا حاجة لنا بالصندوق فهو سر الهلاك الذى يهدد اهل الجزيرة فى حياتهم وامنهم ، وهو سر الاطماع التى تحيط بنا دائما ، فان اختفى توقفت الاطماع ، وحل بالجزيرة الامان ..

ثم ضحك ، وقال :

ـ ثم هو لن يصل الى الصندوق الا اذا تمكن من ازالة السحر الذى يحرسه ، ولو فعل هذا لاستقرت حياتنا ، وزرعنا جزيرتنا ، وكثرت الخيرات لأبناء القبيلة ..

قال الزيبق :

ـ لن آخذ من جواهر الكهف الا الهدايا للخليفة وللسلطانة ، اما الباقى فهو لكم ..

قال الرئيس سوهى وهو يضحك :

ـ هدايا .. خذ ما تشاء .. انت لا تعرف قيمة ولا كمية ما ستجده فى الكهف .. ومهما اخذت فلن تنقص من هذا الكنز انملة ..

قال الزيبق :

ـ اتفقنا اذن ، تقلنى الى ساحل الجزيرة ، واترك باقى الامر لى ..

قال الرئيس سوهى :

ـ نحن لا نرتاد الا ساحل الجزيرة ، وجزئها الجنوبى البعيد ، ولن يصحبك احد منا الا الى الساحل .

قال الساحر الافريقى :

ـ وهذا كل ما يبغى .. فباقى المهمة موكولة له وحده ..

التفت الزيبق الى المقدم عمر العيار ، وقال :

ـ احسنت يا صديقى ، وانتظر ان اجدك على هذا الساحل فى انتظارى عند عودتى ..

قال المقدم عمر العيار :

ـ ساذهب مع لومبا وماقى الى مدينة بحر الغزال ، فما يجرى هناك يدخل فى صميم مهمتى هنا ، وساكون فى انتظارك هنا عند الساحل قبل غروب الشمس .

صافح الزيبق عمر العيار وصديقه لومبا وماقى ، وشاهدهم وهم يعودون الى الغابة ، التى سرعان ما ابتلعتهم داخل اشجارها الكثيفة المتشابكة ، وتنهد ، وهو يلتفت الى الرئيس سوهى ، ويشير الى القوارب ، قائلا :

ـ هيا بنا ايها الرئيس سوهى .

اشار الرئيس سوهى الى رجاله فعادوا الى قواربهم ، وقاد الزيبق قارب الرئيس ، وعادت القوارب تسير ناحية الشاطىء الآخر ، والزيبق يقف الى جوار الرئيس سوهى يرقب اشعة الشمس الأولى تنعكس على صفحة الماء القاتم فيلمع ، ويختلف لونه عن باقى مياه النهر ، ويتحول الى فضة وسط نحاس داكن ، والموج الخفيف يعبث به فيحركه حركة رتيبة هادئة ..

وصلت القوارب الى الشاطىء الثانى فى صمت ، كان الرجال ينظرون الى الزيبق ، ثم يتبادلون النظرات فى تساؤل وهم يغادرون القوارب ، ويجرونها الى الشاطىء ، ويثبتونها الى أوتاد بحبال ليفية طويلة ..

وقال الرئيس سوهى وهو يقف مع الزيبق فوق الشاطىء :

ـ هنا نتركك نحن ايضا ايها المقدم ، انظر ..

واشار بيده الى طريق متعرج يدور حول المنطقة الممتدة امامه حتى يصل الى غابة كثيفة تقع فى جنوب الجزيرة ، بينما امتدت الرمال من الشاطىء العريض لتنتهى بمنطقة صخرية قليلة الاشجار ، تظل ترتفع الى أن تصل الى جبل شاهق فى نهايتها .. وقال الرئيس سوهى :

ـ هذا طريقنا الآمن الى حيث تقيم القبيلة وسط الغابة ، اما هذه المنطقة كلها فلا يسلكها سالك الا ويموت .. لو مات فى المنطقة من الشاطىء الى حافة الجبل وجدنا جثته ، أما لو مات عند الجبل فستظل جثته هناك نهبا للصقور ..

قال الزيبق ، وهو يتأمل الأكمه والجبل :

ـ كل شىء هنا هادىء لا ينبىء بخطر .

ضحك الرئيس سوهى فى مرارة وقال :

ـ سترى كل شىء بنفسك ، ولكن لا تبدأ السير حتى نذهب نحن جميعا ..

وقبل ان يجيبه الزيبق ، اشار الرئيس سوهى الى رجاله ليتبعوه ، ومضى الجميع فى صمت يسيرون فى الطريق المتعرج الدوار ، حتى ابتلعتهم الغابة ، والزيبق فى مكانه يتبعهم بعينيه فى صمت ..

***

لم يكن على مرمى البصر ما يثير الفزع ، كل شىء هادىء تحت اشعة شمس الصباح اللامعة ، رمال ممتدة تتخللها اشجار قصيرة ، وبضعة صخور تظل تعلو ، وتعلو الى ان تصل الى حافة جبل ضخم يحجب باقى الجزيرة عن الانظار .. ولكن الزيبق لم يخدع بكل هذا الهدوء فقد كانت كل غرائزه متوفزة حذرة ، تنذر بالخطر القريب الروع .. وتلفت حوله ، فاسترعى بصره شجرة قريبة غليظة

الفروع ، طويلتها ، فالجه اليها واخرج بلطته ، ومضى يجتث احد الفروع من أصل التقائه بالشجرة ، وكان الغصن صلبا ، والبلطة لا تكاد تؤثر فيه ، واستمر الزيبق يضرب أصل الغصن ، والشمس بدات تزداد سخونة ، وانفاسه بدات تلهث ، والعرق الساخن بدا يملأ جسده كله ، وخلع الزيبق من ملابسه ما يعوقه عن الحركة ، ثم انقض من جديد على غصن الشجرة ببلطته .. وطار جزء من اللحاء الغليظ ، وظهر قلب الغصن الطرى ، وبدات البلطة تغوص فيه فى عمق ، وسرعان ما احدثت ضربات الزيبق آثارها الواضحة ، ومال الغصن عن موقعه ، وانقض الزيبق بحماس شديد ، وسرعان ما سقط الغصن تحت قدميه وقد انفصل عن الشجرة .. واخذ الزيبق يجر الغصن بعيدا ، كان ثقيلا وطويلا ، وكان ضخما عند نقطة انفصاله عن الشجرة ، ثم يدق تدريجيا الى نهايته .. ومضى الزيبق ببلطته يشذبه من الفروع الصغيرة التى تملأه ، حتى أحس انه صالح للغرض الذى يريده من أجله ..

ونظر الزيبق حوله فى حذر ، حتى استقر بصره على نقطة سوداء فى وسط الجبل البعيد .. ومضى يسير وامامه الغصن الغليظ يسبقه بخطوات كثيرة ، يدق به الارض ، ثم يسكن ، ويعود ويرفعه من جديد ، ثم يدق الارض بعنف بطرفه الغليظ ، ثم يمضى يرفعه من مكانه ، ويضعه فى مكان جديد .. وفجاة انفجر كل شيء .. صوت ازيز مخيف يملأ الجو كله ، كأن الف نحلة تطن حوله ، والف بؤرة تلمع فى وقت واحد تحت أشعة الشمس ، وكان الضياء يغشى عينيه. ضياء منعكس على اسنة سيوف متحركة لامعة ، مخيفة .. وتمزق الغصن الغليظ ، وكانما براه سلاح حاد فاذا هو لا شيء ، وكان ما يمسكه ورقة شجر لا قيمة لها ، وحدق الزيبق امامه وقد غص حلقه ، وجفت مواطن العرق فيه ، ووقفت عيناه فى محجريهما تحملقان فى ذعر . وهمس لنفسه ..

ـ الجن والشياطين ..

هذا سحر مخيف ، وكل من رآه او عاناه يؤمن بقوة هذا السحر وعظمته .. ومضى يجر باقى الغصن فى يده وقد تمزق كله مزقا مخيفة ، لو كان هو مكان هذا الغصن ، لغدا حطاما مبددا ، تذروه الرياح . واحس انه يولد من جديد .. وقف مكانه ، والعرق البارد ينداح من كل جزء من جسده .. وامامه الف سيف ، يضرب فى الف اتجاه ، والشمس تلمع على السيوف الضاربة ، ولا حياة أبدا وسط هذه السيوف الضاربة .. ومد الزيبق باقى الغصن الى حيث بقى جـذره المحطم وظـل يحـركه ، وسـحبه فى هـدوء وصمت ،

رتفع باقى الجذر تدريجيا ، وانساق وراء سحب الزيبق للغصن ، خرج من مكانه فى هدوء .. وفجاة توقفت كل السيوف ، وصمت صوت الغريب ، وعاد الهدوء يملأ المكان من جديد .

وتمالك الزيبق نفسه وهو يتذكر أحاديث الشيخ زكى البتوكى : هناك سر ، وراء كل شيء ، لا سحر هناك ، فقط هناك علم وصناعة ، رفع بلطته ومضى يضرب الارض حيث وقف ، يضرب بحذر وهدوء الى اليمين .. هذا هو ما اختاره ، والى حيث اختار أخذ يضرب بالبلطة وكأنها فاس ، خطوة خطوة ، وفجاة ضربت البلطة حديدا ، ارتفع صوت التقائه بحد البلطة ، فتوقف الزيبق ، ومضى يزيل حول الحديد ، جنزير مخيف من الحديد ، ولكنه هنا يلتقى بجنزير آخر يمتد الى شمال ، الى حيث الجبل .. وتوقف الزيبق وهو يتأمل أمامه .. انه هنا أمام السر العظيم ..

***

■ ٣٣ ■

الكنز

باصابع حذرة وحساسة ، مضى الزيبق يتحسس نقطة التقاء الجنزيرين الحديدين ، وارتطمت اصابعه بدواليب ولوالب من الصلب تحيط بنقطة الالتقاء ، هنا مكمن السر ، وعصب التحكم فى حركة السيوف .. واخذ ذهنه يعمل فى سرعة وهو يستعيد توجيهات الشيخ زكي البتوكي ونصائحه .. وبهدوء وعزم رفع البلطة ، وحدد النقطة المركزية التى رجح انها عصب التحكم ، ثم ذكر اسم الله فى صوت عال وهو ينهال ببلطتـه بكل قوة لتحـطم السيور الجلدية والجنازير ، والعقد المركبة ، وتمزق الدواليب واللوالب ، وصمت كل شىء حوله بعد ان زالت أصداء أصوات الحديد الممزق .. ورفع راسه يتلفت حوله .. لا شىء ، سكون كامل ولا حركة ، السيوف اختفت وكأنها ما كانت ، والسلام يعم المكان من جديد ، ولم يبق من آثار ما حدث الا الفصن الفليظ المحطم ، وكأنما براه سلاح مخيف .. والا انفاس الزيبق اللاهثة التى تشى عن اضطرابه وقلقه .. كان يعلم أنه اتلف جزءا من الحركة الذاتية التى تتم ميكانيكيا للسيوف عند وصول جسم ثقيل الى مكان معين .. ولكن هل هذا هو المركز الرئيسى أم هو مركز فرعى توجد غيره مراكز مماثلة ؟. وتمالك الزيبق نفسه ، فهذا وقت التفكير الهادىء ، والسلوك المنظم .. ثم مضى يحفر فى خط مستقيم ، فى حذر شديد وقد ملأ العرق جبهته واحس بطعم الملح فى فمه ، الى ان اصطدم حد البلطة بشىء معدنى ، وكان لصوت الاصطدام رنة واضحة .. وتلفت حوله فوجد صخرة ضخمة ، فذهب اليها يحملها ووقف فى مكان اصطدام البلطة بالصوت المعدني وقدر نفس المسافة التى تفصله عن الحفرة الاولى ، ورمى بالصخرة بكل قوته .. وفجأة انبعث الصوت المميز ، وتمزق الهواء بلفحات السيوف الضاربة فى عنف .. وتمزقت الصخرة تحت وقع السيوف كل تمزق ، ووقف الزيبق مذهـولا ينظر امامه وهو لا يكاد يصدق عينيـه .. كانت السيوف تتحرك امامه حتى حافة الجبل ، ولكن الصف الذى يقف فيه كان قد سكن تماما ولم يعد يتحرك ابدا . اذن فليس هناك مجمع عام ، وانما لكل صف مركز حيوى مركزى لابد من القضاء عليه حتى تسكن السيوف فيه .. وخلع قميصه ومضى يجفف العرق من جبهته وصدره ووجهه ، وهو يحدد المكان الذى يتحكم فى الصف التالى طبقا لتجربته السابقة ، وعاد الى الوراء يبحث عن صخرة جديدة مناسبة ، وحملها ، ووقف عند البؤرة التى حطمها ثم رمى الصخرة

الجديدة ، فتمزقت تحت السيوف ، ومضى يحفر من جديد فى بطء وروية الى أن عثر على المركز الثالث الملىء باللوالب والسيور والجنازير ، ورفع بلطته وهوى بها ، وتوقف صف جديد من السيوف .. وابتسم فى ارتياح وقد حفظ المسافات ، وعرف الأماكن الحساسة فى التقاء السيور والجنازير والدواليب المحركة ، واصبحت حركته اسرع ، وهو يحفر من صف الى صف ، ومن مجموعة الى مجموعة ، واصبحت ضرباته أكثر ثقة ، وهو ينهال بعنف على مراكز العصب فى كل صف ببلطته فتتحطم فى صوت الين الى اذنه ، ويتوقف صف من السيوف عن الحركة ، وراء صف .. وهو يتقدم وسط اشعة الشمس الحارقة حاملا بلطته ، حاسبا المسافات والاماكن ، محددا هدفه ، مراعيا الدقة والصواب ، فلا مجال هنا للخطأ ، والا فالموت هو النتيجة المحتومة القاسية .. واشتدت أشعة الشمس قسوة ، واشتد وهجها المنعكس على السيوف لمعانا ، ولكنها كانت تختفى ، وتقل عند سكون كل صف جديد من السيوف . وأحس الزيبق بالزهو ، هاهو يقهر هذا السحر المخيف الذى سيطر اجيالا وأجيالا على قدر الجزيرة واصحابها .. كان علم الشيخ زكى البتوكى صحيحا ، وكانت استنتاجاته وتوقعاته كلها صائبة .. هذا عمل العلم ، وبالفهم والمعرفة يبطل ، ولا سحر هناك .. الا وهم الجهلاء ، وأصحاب المعرفة السطحية . وفجأة توقف ، كان يحس فى أعماقه أن هناك من يراقبه ، من يعد عليه حركاته وخطواته ، من يشاهد كل ما يفعل .. وتوقف ، والبلطة فى يده ، والعرق فى عينيه ، والجهد يهزم عضلاته .. اى قوى شريرة هذه التى تحيط به .. كان يعرف ان ما يواجهه ليس قوة خارقة ، وليس سحرا .. ومع هذا كان يحس أنه محاصر ، كأن عيونا مجهولة ترقبه ، وكأن أنفاسا شريرة تتنفس فوق كاهله .. وعاد يتلفت حوله من جديد .. ولكنه لم ير شيئا غريبا على امتداد بصره . وهز كتفيه كأنما يزيح عنه هذا الاحساس ، ومضى ينقض من جديد على مكان الحركة يدمرها ، والسيوف تتهاوى أمامه الى أن رفع رأسه ليجد نفسه ينظر فى فتحة كهف كبير تلمع صخوره لانعكاس اشعة الشمس عليها ، ولا سيوف هناك . ودق قلبه فى عنف ، وفجأة قفز فى الهواء صارخا وهو يضحك ، لقد فعلها ، لقد هزم السيوف القاتلة ، وانفتح امامه الطريق الى الكهف الملىء بالكنوز والجواهر ، وحيث يوجد مطلبه الذى عانى من اجل الوصول اليه الكثير .. صندوق التواجيه .. وأفاق من موجة الفرح الجارفة التى احتوته على صرخات آدمية من ناحية البحر ، وحين التفت الى ناحية الصوت وقف مكانه مذهولا .. فقد

رست على الشاطىء مركب كبيرة ، وقفت فى مقدمتها دليلة المحتالة وهى فى زى الدرويش الصالح ، بينما اندفع من المركب مونجو ورجاله جميعا وهم يلوحون بحرابهم ، وصيحاتهم تصم الآذان ، وصاحت دليلة فيهم :

ــ ها هو الزيبق امامكم ، مزقوه ، فلم يعد لنا به حاجة بعد أن فتح الطريق الى صندوق التواجيه وكهف الكنوز ..

وقف مونجو ينظر اليها لحظات ، ثم لوح بحربته وهو يصيح :

ــ الكنز أولا ، أما الزيبق فأين سيذهب ، سنعود اليه لنأخذه الى الملك سلطان ، والى السلطان قاسم فسيدفعان فيه الكثير ، وقاسم يريده حيا ليعذبه بنفسه ..

وضحك ضحكة وحشية وهو يصيح فى رجاله :

ــ الى الكنز ، لن يسبقنا اليه أحد ..

واندفع الجميع وراءه الى الكهف ، والزيبق ينظر اليه فى ذهول ، صدقت حاسة الخطر التى نبهته الى وجود شىء غريب ، وتحول ينظر اليهم .. وهو يحس ان أنفاسهم تتنفس فوق كتفيه ، ولكنهم جروا وعبروا .. كان يقف متأهبا والبلطة فى يده ، يتوقع ضربة حربة فى اى حين .. ولكن أحدا لم يلتفت اليه ، كانوا يجرون صارخين وهم يلوحون بحرابهم نحو مدخل الكهف ، وهو يقف متأهبا . والكل يعبره الى فوهة الكهف .. كان يرقب فى حذر ليستطيع تجنب اى طعنة توجه اليه . ولكن أحدا لم يوجه حربته نحوه ، بل كأن أحدا لا يهمه وجوده فى شىء ، فالكل يتسابقون فى سرعة الوصول الى الكهف ، وقد تحول الوصول الى الكهف هدفا لهم لا يرون غيره .. وكان مدخل الكهف عريضا وطويلا ، تحده الجدران الصلبة من الناحيتين، بينما لا ترتفع سخور سقفه كثيرا عن الارض ، وما أن غدا الجميع داخل هذه الفوهة الواسعة حتى دوى صوت كالرعد ، ووجف قلب الزيبق ، وهو يرى ذاهلا السيوف الحادة تبرز من جدران الممر الصخرى ، ومن سقفه ومن أرضيته لتمزق الجمع المحتشد هناك كل ممزق .. وطارت رءوس ، وتمزقت أبدان ، وارتفعت صرخات تمتزج فيها الدهشة بالالم باليأس .. ثم سكت كل شىء فجاة كما بدأ . توقف الصوت الراعد . واختفت السيوف الى اماكنها المجهولة ولم يبق فى مدخل الكهف الا دماء واشلاء ومزق، وبقايا أعضاء آدمية كانت منذ ثوان تضج بالحركة والجشع والحياة .. جف حلق الزيبق ، واضطربت انفاسه ، وشلت حركة جسده كله ، ود لو أن الزمن استرجع هذه الثوانى القليلة ، وان الرجال لم يندفعوا خلف مونجو ليلقوا هذا المصير المخيف البشع ، ود لو

كان يحلم ، وان ما حدث ليس حقيقة .. ولكن الاشلاء التى مازالت تهتز فى ارتجاف بشع ، والدماء التى لطخت جدران المدخل وارضه وسقفه لم تترك اى شك فى ان ما حدث حقيقة ، وانه شاهد لتوه مجزرة بشعة ارتكبها مجهول مات منذ زمن ، ضد كل من يجرؤ على المساس بحرمة كنزه واسراره .. وافاق الزيبق من ذهوله على صوت مفاجىء من خلفه وحركة عالية ، فالتفت ليجد السفينة قد فردت قلوعها كلها واخذت تنساب مبتعدة عن الشاطىء وكأنها فى فزع يفوق فزعه هو ، وكانت دليلة قد اختفت من على ظهر السفينة تماما .. وسرعان ما ابتعدت اشرعة السفينة ثم غابت عن نظره ، وهو واقف مكانه وكأنما فقد القدرة على الحركة .. ها هى دليلة تهرب من جديد بعد ان دبرت فى هلاكه ، فلا شك انها عرفت انه غادر المدينة المرصودة الى الجزيرة المسحورة ، ولا شك انها احضرت مونجو ورجاله لأسره او قتله ، ولكن طمع مونجو فى استلاب الكهف، ورغبة قاسم فى الثأر المؤلم البطىء من الزيبق ، افسدا خطتها .. وها هم الرجال قد تمزقوا ، وها هى تهرب فى ذعر ، وكأنما تخشى أن تمتد هذه السيوف لتطبق على السفينة ، وتحطمها مزقا ، كما فعلت بالرجال .. ولكن كيف عرفت ؟ وممن ؟ .. قفز الى ذهنه وجه الوزير مروان .. وابتسامته ذات الألف وجه .. ولكنه هز كتفيه ، وهمس لنفسه :

– كل شىء بأوان ، وليس الآن هو أوان الشك ، الآن هو اوان العمل ..

وابتسم لنفسه فى مرارة ، وعاد يهمس :

– الآن أوان التركيز ، والا اصبحت مزقا كمونجو ورجاله ..

واحس بالقشعريرة تهز جسده كله ، فتمالك نفسه ، ونظر حوله ، واحس بالدهشة تملأه ، الشمس ترسل اشعتها ساطعة منيرة ، والبحر يرسل فيض رذاذه منعشا لطيفا ، والصحراء هى ، هى ، والكهف وفوهته المخيفة هى ، هى .. فمن اين يبدأ .. وارغم نفسه أن ينظر الى الكهف ومدخله ، مجموعة المزق والتعاسات التى تملأ المكان ، وتمالك نفسه وجعل يتفحص مدخل الكهف فى هدوء .. عند ناحية كانت صخرة ناتئة بعض الشىء ، وحين تفحصها الزيبق فى عناية ، احس انها ليست من التكوين الصخرى الاساسى للكهف .. ومد اصابعه يتحسس الصخرة فى دقة ، واحس انه يستطيع ان يحدد ابعادها واحس ايضا ان هذه الصخرة وضعت هنا مؤخرا ، اضيفت الى تكوين حائط الكهف ، وليست اساسا فيه وفى هدوء مضى يتحسس هذا الجزء الهام من تكوين حائط الكهف ..

ولم تظهر السيوف القاتلة .. وفجأة وجد نفسه خارج الممر القاتل ، وأمام نور عنيف يغشى العيون .. وأغلق عينيه ، وانحنى الى الارض ، يلتقط أنفاسه ، ويهدىء ثائرة قلبه السريع الضربات .. ومرت لحظات .. احس فيها ان الحياة تعود الى جسده ، وانه ولد من جديد ..

كانت الدموع فى عينيه ، وكانت كلمات الشكر والحمد لله عند شفتيه ، وكان قلبه يخفق فى ابتهال .. انها ارادة الله ان ينجو من هذه المهلكة المخيفة ، وهى ارادة الله أن يزيل هذا الخطر الجاثم المخيف الذى يحطم كل انسان .. ما هو الا أداة فى يد القدرة .. واحس بصفارة ، وأنه مدين للقدرة العليا التى لا تدانيها قدرة ، وأنه مسخر لأمر يريده سبحانه وتعالى ، وآن أوان حدوثه .. وانه كان أداة هذا الحدث ..

وحين فتح عينيه ، بهره الضوء المخيف ، فعاد يغلقهما من جديد ـ كأن سيوفا من ضوء قد غزت عينيه حتى كادت تفشى رؤيتهما .. لا يدرى لماذا احس انه أمام حدث عظيم .. وتحامل وهو مغمض العينين ، ثم استند الى سيفه بيد ، ورفع يده الاخرى عن عينيه ، ثم فتحهما فى حذر .. وعاد يغلقهما بسرعة .. هذا ضياء لا يقدر عليه أحد ـ كأن ألف فوهة نور تندفع لترسل اشعة صارخة الى العينين فتغشيهما ، وتمنعهما من الرؤية ..

وحين فتح الزيبق عينيه أخيرا طالعه منظر لا ينسى ابدا .. مئات بل آلاف الجواهر ، مرصوصة فى كل مكان ، وفى صدر المكان تمثال نحاسى للحكيم اليونانى .. القلنسوة والشـال والملبس ، والملامح ، كان يعرفها من مصر حيث عاش اليونان ، وحيث تركوا تماثيلهم فى الصعيد القريب ، وفى المنيا وبنى سويف لم يكن عنده شك أن هذا التمثال ليونانى جاء هنا عبر الزمان والمكان ، ولكنه كان هنا من زمن طويل ، وجمع جواهره وثروته وعلمه ، ودفنها فى هذا الكهف .. وأحكم حراسته بعلمه ومعرفته ، ولكنه مات .. واندثر وكل حى لابد ان يموت ويندثر ، ولكن الحياة لابد ان تستمر ، لا تقف لارادة رجل ، ولا لعلمه الا الى حين .. وقد حان الحين ..

كان التمثال يمد يديه أمامه ، وفوق اليدين وسادة من حرير احمر ، مطعمة بالجواهر ، كل جوهرة تفوق جوهرة الرئيس سوهى عشرات المرات .. وكلها تلمع فى ضوء الشمس فى انعـكاس رائع جميل ، وفوق الوسادة استقر صندوق التواجيه .. مطعما بالجواهر واليواقيت والمرجان .. واحس الزيبق انه يحلم لا يمكن ان يكون فى العالم مكان كهذا .. حول التمثال اكوام واكـوام من الجـواهر واليواقيت والزمرد واللؤلؤ وعناقيد الذهب ..

والتمثال صامد أصم ، وجهه لا يشي بمعنى ، وهو يحمل الوسادة وفوقها صندوق التواجيه .. هذه الثروة المخيفة استخرجها من باطن هذه الارض ، وأراد ان يستأثر بها ، فصنع الأعاجيب لحمايتها ولكنها ينبغي ان تعود الى أهلها ..

وتقدم الزيبق الى صدر التمثال ، وحمل صندوق التواجيه فوق وسادته المخملية المحلاة بالجواهر ، ووضعها الى جواره على الارض ، ثم أخرج جرندانان من جرنداناته ، وأخذ يملأ كل جرندان بالجواهر واليواقيت والزمرد والذهب ، واحدة للخليفة ، والاخرى للسلطانة زينب .. كان ينتقي فى هدوء ، وقد هدأت نفسه ، واحس انه يتحرك فى عالم من الحكمة والصواب .

■ ٣٤ ■

فى نصف نهار

حين خرج الزيبق يحمل صندوق التواجيه بين ساعديه ، وجرنداناته المليئة بالجواهر فوق ظهره ، فوجىء بالمراكب الصغيرة تملأ الساحل الرملى أمامه .. وفوجىء بالساحل نفسه وقد امتلأ بالرجال، وفى مقدمتهم الرئيس سوهى يلوح برمحه ، ويصيح ، فيصيح لصياحه كل الرجال ، وهم يلوحون برماحهم وسيوفهم .. وضع الزيبق حمله فوق الارض ، ثم رفع يده يحيى القادمين ، واندفع الجميع نحوه ، وفى مقدمتهم الرئيس سوهى ، الذى غرس رمحه امامه وهو يقول :

ـ صدقنا نبوءة الساحر الافريقى ، وجاء رجل من الشمال ، هزم الشر ، وفتح الطريق الى الكنز .

قال الزيبق ، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة :

ـ انتهت الاسطورة ، والطريق الى الكنز مفتوح .

صاح الرئيس سوهى وهو يلوح بحربته :

ـ الفضل لك يا مقدم .. لقد تابعنا معركتك كلها ، ولم نكن نصدق انك ستنجو ، ولكنك ـ كما قال الساحر الافريقى ـ محروس بعناية الله .. والان ماذا تريد منا .

قال الزيبق :

ـ الكنز ملك لكم فانتم أصحابه .

قال سوهى وهو يضحك :

ـ ما كنت أتوقع منك الا هذا .. وسأضع رجالى لحمايته .

قال الزيبق ، وهو يجيل النظر فى الوجوه اللامعة بالسعادة ومعانى الحب والامتنان .

ـ الكنز لكم ، لم آخذ الا ما جئت من أجله ، أى صندوق التواجيه وهدية للخليفة واخرى للسلطانة زينب ، سلطانة المدينة المرصودة .

قال الرئيس سوهى :

ـ كل ما أخذته حلال لك ، فصندوق التواجيه مجرد رمز لحراسة الكنز ، أما ما تحمله معك فهو لا يمثل شيئا بالنسبة للكنز .. ويكفى انك قضيت على السحر اللعين ـ لقد صدق الساحر الافريقى الذى أخطرنا ان اوان ظهور المخلص قد آن .. وكنا جميعا فى انتظار الرجل الاتى من الشمال يحمل سيفا وبلطة ، وتخضع له النار ، وتسير فى ركابه قوى البرق والرعد .. وعرفناك منذ جئت فكنا فى خدمتك .. ونحن فى خدمتك الى النهاية .. ولو شئت لزحفنا معك على المدينة المرصودة ، لننصبك سلطانا عليها ..

ضحك الزيبق وهو يقول :
ـ الم تعرف بعد أنه لا أطماع لى فى بلادكم ٠٠ لقد جئت لهدف ،
وقد حصلت على ما جئت من أجله ، وآن أوان العودة ٠٠
ضحك الرئيس سوهى ضحكة عريضة ، وهو يقول :
ـ تحكى الاسطورة التى يتناقلها أبناء القبيلة جيلا وراء جيل ،
ان الرجل الآتى من الشمال لن يرحل الا بعد آن يمحق الشر فى بلادنا
ويقضى على الافاعى ، ويسود السلام ٠٠
قال الزيبق :
ـ لعلك تتحدث عن رجل اخر ٠٠ أما هذا الرجل فهو يريد العودة
الى الشاطىء الاخر ٠٠
قال الرئيس سوهى :
ـ هيا بنا ، القوارب جاهزة ، والرجال مستعدون ٠٠
وسط ضجيج الرجال وغنائهم ورقصهم وضحكاتهم الطروب
صحب الرئيس سوهى على الزيبق الى قاربه الذى اندفع متجهسا الى
الشاطىء الاخر ، وحوله ووراءه عشرات القوارب الصغيرة التى تضج
بالطبول والغناء ٠٠

***

كان عمر العيار فى انتظاره كما وعد على الشاطىء الاخر ٠٠ ولكن
رجال قبيلة البونت اندفعوا نحو الساحر الافريقى يعانقونه ، ويرقصون
حوله فى طرب وسعادة ، وكل منهم يحاول أن يسبق الاخر ليحكى له
على ما فعله الزيبق فى الجزيرة المسحورة ، وكل منهم يشير الى
صندوق التواجيه الذى يحمله الزيبق الى أرض الشاطىء ٠٠
واندفع الرئيس سوهى يشق طريقه بين رجاله المحتشدين ليعانق
الساحر الافريقى ، وهو يقول :
ـ لقد صدق ما قلته ، وتحققت الاسطورة وجاءنا بطل الشمال
بطل السحر ، وغدت الجزيرة آمنة ٠٠ نحن مدينون لك ٠
قال الساحر الافريقى وهو يخلص نفسه من عناق الرئيس سوهى
فى رفق :
ـ لا وقت لهذا ، فالخطر ماثل وهو يشملكم كما يشمل المدينة
المرصودة ٠
وجم الرئيس سوهى ، وتراخت ذراعاه ، بينما تقدم الزيبق نحو
عمر العيار وقال :
ـ عندك من الاخبار مالا يسر ٠٠ ما هى ٠٠ ؟
قال عمر العيار :
ـ كل مالا يسر ٠٠ كأنهم انتهزوا فرصة ذهابك الى الجزيرة

المسحورة ليفعلوا كل شيء .. ربما ظنوا أنك لن تعود منها حيا ابدا.

ساد الوجوم كل رجال القبيلة .. وشحب وجه الرئيس سوهى ، بينما سأل الزيبق عمر العيار قائلا :

ـ انهم يتحركون بسرعة منذ انقاذ السلطان قاسم ، وحرق المدينة المرصودة .. أليس كذلك . ؟

ـ كنت فى مدينة بحر الغزال عندما عادت دليلة هذا الصباح اليها فى زى الدرويش الصالح ، كانت كأنها ضيف ، اجتمعت بالملك سلطان ، وسرعان ما قبض الجواسيس على لومبا ومافى ـ وهربت أنا بالصدفة المحضة .

قال الزيبق فى عصبية :

ـ دليلة عادت على السفينة ذات الاشرعة بعد أن تعقبتنى الى الجزيرة المسحورة ، ودفعت مونجو ورجاله ورائى ، ولكنهم تركونى واندفعوا الى الكهف وقد ظنوا الطريق آمنا بعد أن ابطلت فعل السيوف فى أرض الجزيرة ، ولكنهم تمزقوا عند المدخل ، وشاهدت دليلة هذا فاندفعت هاربة بسفينتها من الجزيرة .

قال عمر العيار :

ـ ظننت ان كل شيء قد ضاع ، وانك لن تستطيع أن تحل لغز الجزيرة المسحورة ، وانك أيضا قد ضعت . ومن هنا بدأت حركتنا السريعة والحاسمة .

قال الزيبق :

ـ واذن ..

قال عمر العيار :

ـ علينا أن نسرع والا فكل شيء قد ضاع .

التفت الزيبق الى الرئيس سوهى ، وقال :

ـ هذه الذخائر اتركها لك ، وحين أطلبها أرجو أن أجدها .

ودفع الى الرئيس سوهى بصندوق التواجيه فوق الوسادة المرصعة والجرندانين المليئين بالجواهر .. ثم قال :

ـ لا أستطيع أن أوزع اهتمامى بين هذه الذخائر ، وبين ما هو مطلوب منى الان .. فهل أنت معى أيها الرئيس سوهى ؟

قال الرئيس سوهى ، وهو يحمل صندوق التواجيه والجراندانين :

ـ هم فى الحفظ والصون ، وحياتى فداء لهما .. ونحن معك فى اى طريق توجهت اليها ايها الفارس .

قال الزيبق :

ـ سنسرع لنكون فى خدمة السلطانة زينب :

كانوا يتقدمون فى حذر متجهين نحو المدينة المرصودة ، حين

توقفوا فجأة ، اذ أسرع أحد الطلائع الذين أمرهم الرئيس سوهى أن يتقدموهم عائدا فى عجلة واضطراب ، وحين وصل الى الرئيس سوهى قال فى انفعال :

ـ التقدم مستحيل ايها الرئيس، من المدينة وحتى هنا عساكر وخيام واستحكامات مخيفة ، ولو تقدمنا اكثر من هذا لاكتشفوا أمرنا وقضوا علينا ، فأظن ان كل رجال مدينة بحر الغزال هنا بأسلحتهم وعدتهم ، ومعهم كل أحلافهم وانصارهم .

قال الرئيس سوهى :

ـ متى حدث هذا وكيف ؟

قال الساحر الافريقى :

ـ يكفى دليلة نصف نهار .. لابد أن كل الحشد كان جاهزا ، أعده السلطان لتنفيذ خطته منذ زمن ، وكانت اشارة دليلة له بالبدء كافية لانجاز مثل هذا التحرك الضخم ، وكافية ايضا لتطويق المدينة تماما .

قال الزيبق :

ـ لينتظر الجميع هنا ، ولنتقدم أنا والرئيس سوهى والساحر الافريقى ، وهذا الدليل ، الى حيث رأى جيوش الملك سلطان لنرى بأنفسنا ، ثم نتشاور فى أمرنا ..

لم يجبه أحد ، وانما أشار الرئيس سوهى بيده ، فأخذ كل رجاله مخابئهم وراء الاشجار ، وتقدم هو وعمر العيار والدليل مع الزيبق فى صمت الى أمام ..

***

قبل أن يصل الزيبق ومن معه الى حيث يقودهم الدليل ، وصلت الى آذانهم أصوات الجنود والحركة ، وصهيل الخيل فى المعسكر وفى داخله ، وفى نفس الوقت وصلت الى أنوفهم روائح الاخشاب والاعشاب المشتعلة ، ممتزجة بروائح الطعام المطهو ، واللحم المشوى .. وقال الرئيس سوهى وهو يقترب من حافة رابيه عالية صحبه اليها الدليل :

ـ هو معسكر ضخم لم أشهد مثله فى حياتى ..

قال عمر العيار ، وهو ينظر محاذرا الى جواره الى المنظر الذى يطالعهم من أسفل :

ـ صدقت ، ولكننا هنا لن نعرف شيئا عنه ، فهو مجرد معسكر ..

قال الزيبق وهو يحاذيهما فى النظر الى المعسكر :

ـ سأتسلل اليه لاعرف كل شىء عنه ..

قال عمر العيار فى حزم :

ـ لن تصلح انت لهذه المهمة ، سأتسلل أنا الى المعسكر ، فلونى

سيساعدنى على الاختفاء وسط الجنود ٠
قال الرئيس سوهى :
ـ بل انا الاولى أن أقوم بهذه المهمة ، فأنا أعرفهم جميعا ، أو على الاقل أعرف قادتهم ، وسأتمكن من التسلل وسطهم دون أن ألفت نظرا ٠٠
صمت عمر العيار لحظات ، ثم قال :
ـ سأصحبك ، وسنعرف كل شىء ٠٠ فقط اترك جوهرتك هنا مع تابعك حتى لا تلفت اليك الانظار ٠
قال الزيبق :
ـ وأنا ؟
قال عمر العيار فى حزم :
ـ تبقى هنا .. هذه مهمة لا مكان لك فيها ..
قال الزيبق :
ـ الان ، ربما ٠٠ ولكنى سأستعد ليكون لى فيها مكان بعد أن تنتهوا من الاستكشاف ٠٠
وتسلل عمر العيار ووراءه الرئيس سوهى فى صمت ناحية المعسكر ، بينما قال الزيبق للرجل الباقى :
ـ ابق هنا فى انتظارهم حتى أعود اليك ٠
وانسل الزيبق عائدا الى حيث ترك جرنداناته وسط الرجال ، فحملها وانزوى فى ناحية ، ومضى يخرج أدوات التنكر ، فصبغ وجهه باللون الاسود ، وارتدى شعر أكرت ، ووضع قطعة مطاط فى فمه فاذا بشفتيه مدليتين ، واذا بوجنتيه منتفختين ، واذا بعلامات عند صدغيه وعند ذقنه كأنها اثار وشم أزرق قاتم قديم ، وفوجىء رجال الرئيس سوهى بالزيبق يعود اليهم على هذه الهيئة الغريبة ، وجعلوا يتبادلون النظرات بينهم فى دهشة ، فهو قد غدا واحدا منهم لولا ملابسه التى تميزه ٠٠ وقال الزيبق :
ـ أريد ملابس كملابسكم ٠٠
وضحك أحدهم وقال :
ـ لو ارتديت مثلنا ما عرفناك وسطنا ٠
ثم عاد يضحك وهو يقول :
ـ احضر لك هذه الملابس حالا ٠
ومضى الرجل الى حيث وضع جرابه ، فاخرج طاقما كاملا من الملابس ، وعاد بها الى الزيبق ٠٠ الذى نظر اليه فى دهشة ، فقال الرجل :

ـ صدقت فى هذا ، ولكنى أحسب ان هناك ملعوبا من ملاعيبك

ـ قال الرئيس سوهى اننا معك فى كل حلك وترحالك ، وعرفت وعرفنا جميعا انك ستنتصر على الشر ، فهذا هو تفسير الاسـطورة القديمة ، فحملت معى ما يعيننى على الرحلة الدائمة معك .

ابتسم الزيبق ، وتقبل الملابس فى ترحيب ، وهو يقول :

ـ انتظرونى هنا ، فهذا يومنا مع اعدائنا ..

فوجىء الزيبق بهتاف الرجال الذى يكاد يصم الاذان ، وتلويحهم بحرابهم وقسيهم ، تحيه له ـ وعرف انه أصبح بطلهم منذ قضى على طلاسم الجزيرة المسحورة ، فالتفت اليهم قائلا :

ـ سنقضى على أعدائنا كما قضينا على سحر الجزيرة ، ولكنى أريدكم أن تلزموا الهدوء والسرية حتى أعود اليكم .

وانفلت الزيبق مسرعا ، وقد اهتز قلبه من ولاء الرجال وحبهم ، وحين وصل الى المكان الذى اقعى فيه الدليل ، تسـلل بحذر ، حتى وصل اليه ، والى المكان الذى يشرف منه على جيش مدينة بحر الغزال ، وقال فى حذر وهدوء :

ـ لم يصل أحد بعد .

اجفل الرجل ورفع حربته ، ثم أمعن النظر فى الزيبق ، وقال :

ـ من أنت .. لم أرك من قبل ، ولست من النبط .

قال الزيبق فى حذر ، وهو ينظر الى الحربة فى احتراز :

ـ انتظر أنا الزيبق ، انظر الى جيدا وستعرفنى .

حدق الرجل النظر فى الزيبق ، وقد ازداد ارتيـابه ، وازدادت الحربة فى يده تهديدا واستعدادا ، وقال :

ـ الزيبق ـ تعنى رجل الجزيرة المسحورة ، ولكن .. ربما ، فمن نعل كل هذا فى الجزيرة قادر أن يكون فى أى صورة .

تنهد الزيبق فى ارتياح وهو يقول :

ـ صدقت ، وهذه الصورة التى أنا فيها ، ماذا ترى فيها ؟

قال الرجل وهو يخفض حربته :

ـ أنت واحد منا ، ولولا لكنة فى كلامك ما عرفتك أبدا .

ضحك الزيبق وقال :

ـ لن أتحدث حتى لا يعرف أحد أمر هذه اللكنة .

قاطعه الرجل قائلا :

ـ صمتا ، فالرئيس سوهى يعود ، ومعه الطبيب الساحر ..

ما ان انتهى الرجل من كلامه حتى سـمعا صـوت أقدام تتقدم نحوهما فى حذر ، ثم أطل وجها عمر العيار والرئيس سوهى ، ونظر عمر العيار الى الزيبق فى دهشة ، وقال :

ـ متى أتممت هذا التحول ، ولم ..
وقال الرئيس سوهى :
ـ لولا أن سمعت صوتك ما عرفتك ..
قال الزيبق فى ضجر :
ـ ماذا عندكما ؟.
قال عمر العيار :
ـ فى نصف نهار تمكنت دليلة من أسر حسن بن الحصرى والفارس باسم ومن معهما من رجال ، وفى نصف نهار حشد الملك سلطان جيشا كبيرا لا قبل لرجال الرئيس سوهى به ، ولا أمل للمحاصرين فى المدينة المرصودة فى مواجهته ..
وقال الرئيس سوهى :
ـ لم أر فى حياتى مثل هذا العدد المسلح من الرجال محتشدين فى مكان واحد .
سأل الزيبق :
ـ ولومبا ومافى .
قال عمر العيار :
ـ لابد انهما أسرى أيضا ، هناك خيمة مقامة عند سفح الجبل عليها حراسة مشددة ، لا أشك أن الجميع فيها .. بينما نصبت خيمة كبيرة فى مواجهة المدينة جعلها الملك سلطان مركزا لقيادته ، وهو فيها مع السلطان قاسم ودليلة وكبار رجاله ، ورؤساء القبائل والعشائر الذين صحبوه ..
أطرق الزيبق مفكرا للحظات ، وعيناه تجولان فى الحركة الدائمة التى يمور بها الوادى من بعيد ، ثم رفع رأسه قائلا :
ـ هناك شىء هام أغفلناه ، وهو النفق الذى تسلل منه لومبا ومافى مع مونجو وعصابته عندما خطفوا السلطان ، هم أيضا اغفلوه حتى الآن ، والا لكانوا قد تسللوا الى المدينة من زمن .
قال عمر العيار :
ـ هذا صحيح ـ نسينا أمر هذا النفق ، وهو خطر ماثل على المدينة وسلامتها .
قال الزيبق :
ـ لا فائدة من أى عمل نقوم به فى وضح النهار ، وعددنا ضئيل بالنسبة لهم ، ولكن لابد أن نتسلل الى المدينة الآن ، وندخل من هذا النفق ، ونعمل على سده أو حراسته ، ونتولى أمر الدفاع عن السلطانة والمدينة المرصودة ، فلست آمن عليها ولا على المدينة مع وجود الوزير مروان فى السلطة .
قال عمر العيار :

ـ صدقت فى هذا ، ولكنى احسب ان هناك ملعوبا من ملاعيبك تكون خطوطه فى ذهنك لمواجهة هذا الامر الذى نحن فيه ..

ابتسم الزيبق ، وقال :

ـ اترك هذا الامر لى يا عمر .. ولكن هؤلاء الذين أشعلوا النار فى المدينة ألم يستعملوا النفط ؟ من أين لهم به .. ؟

قال الرئيس سوهى :

ـ هناك بحيرة منه فى الجانب الجنوبى من الجزيرة المسحورة حيث هيكل عبدة النار ، تستمد كل القبائل حاجتها من النفط منها .

قال الزيبق :

ـ اذن فليسرع رجالك اليها ، وليملئون كل الزجاجات الموجودة عندكم بها ويسدوها فى احكام ويدعوا فى الفوهة فتيلا مبتلا قابلا للاحتراق الشديد ، وليعودوا كلهم هنا فى أسرع وقت .. فنحن لن نستطيع أن نتأخر كثيرا عن منتصف الليل ..

قال الرئيس سوهى :

ـ سآمرهم بهذا وأعود اليكما ..

قال الزيبق لعمر العيار :

ـ امض أنت الى المدينة لحراسة النفق واغلاقه .. وستسمع منا بعد حين .

قال عمر العيار :

ـ الست تحتاجنى معك ؟

قال الزيبق :

ـ عندما ترى بواكير هجومنا على المعسكر بعد منتصف الليل ، اخرج انت ورجال السلطانة زينب لضرب المعسكر بكل قوتكم .. فسيكون أمر اندحارهم سهلا .

قال عمر العيار مترددا :

ـ ما ستقوم به وحدك عند حلول الظلام ، يحسن أن أكون فيه معك .

قال الزيبق :

ـ كأنك حدست مافى ذهنى ..

قال عمر العيار :

ـ تزمع أن تجرد المعسكر من قادته .. ثم تفاجئه .

ضحك الزيبق ، وقال :

ـ اترك هذا الامر لى .. أما أنت فهيا الى مهمتك ، والا لو سبقونا الى هذا النفق ، ضاع كل شيء ..

وبهدوء ربت عمر العيار على كتف الزيبق ، ثم تسلل بين الاعشاب العالية متجها فى صمت ناحية المدينة المرصودة .

■ ٣٥ ■
نهاية الرحلة

ظل على الزيبق فى مكانه فوق الرابية يرقب حركة الجنود تحته، وهم فى حركة نشيطة لا تهدأ ، الى أن أحس بحركة الرئيس سوهى وهو يتحرك فى حذر نحوه ، وسرعان ما كان الرئيس سوهى الى جواره ، وهو يقول :

ـ لقد أرسلت الرجال الى بحيرة النفط ، وأمرتهم أن يستولوا من معبد النيران على كل الزجاجات التى فيه حيث يحتفظ الكهنة برفات من يحرقون من موتاهم فى زجاجات ‥ ولكنهم لن يعودوا قبل حلول الظلام ‥

قال الزيبق :

ـ لن نحتاجهم قبل هذا ‥ أما الان فلنتسلل انا وأنت ، كما فعلت مع الساحر الافريقى ، الى داخل المعسكر لارى كل شىء بنفسى ، وانت قد دخلته قبل هذا ، فتستطيع أن تقودنى فى هذه الجولة وانت أكثر دراية بما تفعل ‥

قال الرئيس سوهى :

ـ ماذا ننتظر ، هيا بنا ‥

زحف الزيبق والرئيس سوهى زحفا حتى أصبح المعسكر الكبير امامهما تماما ، وجمد الاثنان فجأة حين تحرك ناحيتهما أحد الحراس ممسكا حربته ، ولكنه تجاوز مكانهما ومضى فى طريقه حتى وصل الى شجرة وقف عندها وهو يجيل عينيه فيما حوله فى كسل وتراخ ‥ وكان الزيبق يتحرك من جديد ، حين أحس بيد الرئيس سوهى فوق ساعده ، والتفت الى حيث ينظر الرئيس سوهى فرأى حارسا اخر يتحرك من الناحية المقابلة وفى يده حربته ، فعاد فى مكانه من جديد ، واذا بالحارس الاول يترك مكانه عند الشجرة ويتحرك نحو الحارس الثانى الى أن التقيا قريبا من المكان الذى يكمن فيه الزيبق والرئيس سوهى ‥ وتبادل الحارسان كلمات مقتضبة ، ثم عاد كل منهم الى موقفه الاول ‥ وتبادل الزيبق النظرات مع الرئيس سوهى ، وأومأ برأسه ، وتحرك كل منهما فى صمت الى موقع حارس من الاثنين ‧ وسرعان ما دوت خبطتان مكتومتان من الجهتين المقابلتين ، واختفى الحارسان ‧ وقال الزيبق حين اقترب منه الرئيس سوهى يجر الحارس الفاقد الوعى ، ويتأمل زميله الممدد على الارض تحت قدمى الزيبق :

ـ كممهما وقيدهما ، وسنخفيهما خلف هذه الشجرات ، ثم هيا بنا الى خيمة الاسرى ..

قال الرئيس سوهي :

ـ ولكن هذه مخاطرة ..

قال الزيبق :

ـ سنرتدى ملابسهما ونضع على وجوهنا مثـل الاصباغ التى وضعوها على وجنتيهما ولنسرع فلا وقت هناك ..

كانا ينتقلان فى خفة بين الجمـــوع وفى أيديهما الرماح ، وعلى وجهيهما أصباغ الحرب ، وهما يلقيان بالتحية هنا وهناك ، ولا أحد يشك فى أمرهما ، وقال الرئيس سوهي :

ـ هذا هو المكان ..

وتلفت الزيبق حوله .. كانت الخيمة فى نهاية الساحة الواسعة التى عسكر فيها الجيش ، وكان هناك حارسان يتحركان حولها بانتظام .. وعلى بعد قليل منها أوقدت النيران ، ووضعت القدور التى كانت تنبعث منها روائح طعام شهي .. وابتسم الزيبق وقال :

ـ لماذا لا نأكل ، ألسنا منهم .. وهذا الطعام أليس للجوعى من جنودهم ..

نظر اليه الرئيس سوهي مقطبا ، ولكنه سرعان ما ضحك ، وقال :

ـ لم لا ؟ ..

وفى هدوء تقدما نحو النيران والقدور ذات الرائحة الشهية ، وكان الطاهى الذى يقف أمام القدور سمينا كبير البطن ، وكان جسده كله يتصبب عرقا رغم هواء الغروب الرطب .. وأخذ الرئيس سـوهى يحادثه ، والرجل يملأ أوعية واسعة بالطعام ، ويضعها الى جـواره ، وهو يوالى تحريك مافى القدور بملعقة خشبية طويلة ، وهز رأسه بعد قليل ، وهو يشير الى وعاءين مملوئين طعاما ، فحملهما الرئيس سوهى الى حيث جلس الزيبق جائعا ، فانقض على الطعام الذى أحرق فمه ، وبرزت عيناه من محجريهما اذ صدم فمه الطعام الحريف المليء بالتوابل والشطة ، والشديد السخونة .، وقال الرئيس سوهى محذرا :

ـ هذا طعام نألفه كلنا هنا ، فحذار أن يبدو عليك ما يدل على انك غريب عنه ..

مسح الزيبق الدموع التى طفرت من عينيه ، وقال :

ـ هو طعام شهى على كل حال ، وسأعتاده بعد قليل ..

قال الرئيس سوهى وهو يغمز بعينيه :

ـ وهناك شيء شهى اخر .. أترى هذه الاوعية المليئة بالطعام ..

قال الزيبق وهو يتابع اصبع الرئيس سوهى الى حيث اشار :

ـ ثمانية أوعية .

قال الرئيس سوهى :

ـ سيكملها الطاهى عشرة ، ثم يحملها الى الخيمة ، فهى طعام الاسرى ..

قال الزيبق :

ـ عشرة أسرى ..

قال الرئيس سوهى :

ـ لابد ان بعضهم من جنود المدينة المرصودة ، المهم اننا سنحمل اليهم هذا الطعام بأنفسنا ، فقد عرضت على الطاهى هذا كرد [illegible] حين أعطانا الطعام ، ووافق ..

ابتسم الزيبق ، وهو يقول :

ـ انت تتعلم بسرعة أيها الرئيس سوهى .. ثلاث رحلات تكفى لان نحمل الطعام كله الى الخيمة ونبقيه خارجها حتى تكتمل كل الاوانى ، ثم نصحب الحارسين معنا الى الداخل ، فهذه الرحلات نفسها تكفى لكى ننفى اى شك قد يحوم حول انتمائنا للمعسكر ، كيف والطاهى يستعملنا كمساعدين له .. آه .. لقد اكمل الطاهى الوعاءين الاخرين .. هيا بنا ..

والتهم الرئيس سوهى مابقى فى انائه من طعام ، وأسرع يسبق الزيبق الى الطاهى ، الى حيث وقف الطاهى يفرك يديه فى ارتياح ، وقد ملأت وجهه ابتسامة عريضة سعادة بهذه المساعدة التى جاءته من حيث لا يحتسب ، فكم كان يكره أن يقطع المسافة بين الموقد وبين هذه الخيمة خمس مرات كاملة .. وما أن انتهى من حديثه مع الرئيس سوهى حتى أشار هذا الى الزيبق فوضع حربته الى جوار الموقد ، وحمل اناءين ممتلئين ، ومضى بهما ناحية الخيمة ، بينما حمل الرئيس سوهى اناءين آخرين ، وسار يتبعه وحين وصل الزيبق الى الخيمة تقدم نحوه الحارسان فى تساؤل ، ولكنه وضع الاناءين أمام الخيمة ، ومضى عائدا دون أن يرد على حديثهما ، ووصل الرئيس سوهى بعده فأفهمهما حقيقة مهمتهما ، ثم غادرهما الى الموقد مرة أخرى .. وعاد بعد حين بأربعة أوان أخرى ، وهز الحارسان رأسيهما فى استحسان لفعلهما فقد كانا يحبان الطاهى السمين ، وكانا يعرفان كراهيته للمشى ولو لمسافة قصيرة ، دع جانبا ان يسير المسافة خمس مرات كاملة ولهذا فما أن عاد الزيبق والرئيس سوهى بآخر اناءين قابلاهما ببسمات عريضة ، وكلمات اطراء واضحة ، وقال الرئيس منتهزا فرصة رضاهما :

ـ ساعدانا فى ادخال هذه الانية الى الخيمة ..

وحمل الجميع الانية على مرات الى داخل الخيمة ، وعيون الاسرى تتبعهم فى وجوم ، وما كادت اخر الاطباق توضع على الارض ، حتى

دوت خبطتان مكتومتان ، وأمام أعين الاسرى المندهشة سقط الحارسان غائبين عن الوعى فى صمت .. وفى سرعة كان الحارسان قد كمما واحكم وثاقهما ، واندفع الحارسان الاخران الى الاسرى يفكون قيودهم، وهم يأمرونهم بالصمت الكامل .. وهمس المقدم حسن بن الحصرى :
ـ على الزيبق ، لا يفعلها الا الزيبق ..
قال الفارس باسم فى مرارة وهو يفرك رسغيه لتعود اليها الدماء المحبوسة :
ـ الزيبق ؟.. لا الزيبق قد مات من زمن فى الجزيرة المسحورة، الم يحك الدرويش الصالح للملك سلطان حكاية السيوف التى تخرج من الارض والجدران والسقف .. ؟ لعله الان قد غدا مزقا ..
قال لومبا :
ـ لا ، لايحدث هذا لمثل الزيبق ..
قال الزيبق :
ـ أشكر لك ثقتك فى يالومبا ، وأنت يامقدم حسن .
صاح حسن بن الحصرى ، وهو ينظر اليه فى دهشه :
ـ أنت .. ولكن هذا اللون ، هذه الملابس ، هذا الوجه .
ثم أخذ يضحك وهو يضرب كفا بكف ، ثم قال :
ـ من يغلب ملاعيب الزيبق ؟ ..
قال الزيبق والرئيس سوهى يطلق سراح اخر الاسرى :
ـ ليس هناك وقت للكلام ، الان كلوا الطعام ، وسنخرج أنا والرئيس سوهى لنحل محل الحارسين حتى لا يشك أحد فى الامر .. وأنت يا لومبا ومعك مافى ، ارتديا ملابس الحارسين الصريعين .. وحذار من اصدار أى صوت .. وفى هدوء حمل الزيبق والرئيس سوهى حربتى الحارسين ، ومضيا الى خارج الخيمة يدوران حولها كأنما يحرسانها فى دقة وجدية كاملة .. وبعد قليل لاحظ الزيبق ان الطاهى السمين يشير اليهما فى حركات سريعة متلاحقة ، فقال للرئيس سوهى :
ـ لماذا تظن الطاهى يصدر كل هذه الاشارات ..
قال الرئيس سوهى :
ـ انه يريد الاوعية الفارغة ..
وأشار الرئيس سوهى بحربته نحوه ، وهو يقول :
ـ سأخرج لومبا معك بينما أعود اليه بالاوعية الفارغة وأسترد الحربتين ؟ ..
قال الزيبق :
ـ أخبره ان الملك سلطان يريد الاسرى ، وأننا نريد بعض أصدقائه من الجنود ليحرسوهم معنا ، فنحن الاربعة لا نكفى ..

واخبرهم في الداخل أن يعيدوا ربط أيديهم فهم ما زالوا أسرى ..
وحاول أن تعرف من الطاهي أماكن تخزين النفط هنا .
لمعت عينا الرئيس سوهي وهو يقول :
ـ فهمت .. قد تنجح خطتك ، ولو أنها شديدة الجسارة .
قال الزيبق :
ـ في مثل موقفنا هنا وسط معسكر العدو ، لا مكان الا للجسارة
تركه الرئيس سوهي الى داخل الخيمة ، وسرعان ما عاد يحمل الاوعية الفارغة متجها الى ناحية الطاهي ، وعلى التو خرج لومبا مرتديا زى أحد الحراس وفي يده حربة ، فقال الزيبق :
ـ أمكث هنا ، وسأرسل اليك مافي ليبدو الامر طبيعيا ، فلى حديث مع الاخرين .
وتركه ليدخل الى الخيمة التى بدأ الظلام يخيم عليها، وقال الفارس باسم في حنق :
ـ لماذا تريدنا أن نظل مقيدين .. ؟
قال الزيبق :
ـ بعد أن يشتد الظلام قليلا ، سنخرج من هنا الى خيمة الملك سلطان ، أسرى يقودهم حراسهم ليستجوبهم الملك ، وسيبدو الامر طبيعيا ، انتم في الوسط تسيرون وقد قيدت ايديكم ، وربطتم جميعا في حبل واحد ، وحولكم حراسكم ..
قال المقدم حسن بن الحصرى :
ـ أتظن هذه الحيلة تنجح .. ؟
قال الزيبق :
ـ لابد أن تنجح والا هلكنا ، وضاعت المدينة المرصودة .. ان الرئيس سوهي الان يبحث لنا عن مدد جديد من الحراس .
قال الفارس باسم في حنق :
ـ يا لجسارتك .
ضحك الزيبق ، وقال :
ـ عليك أن تفهم رجالك ما تريد منهم تماما ، فاى خطأ من واحد منهم سيفسد خطتنا .. ولكن لم تخبرني بعد ، كيف وقعتم في الاسر.
لم يجبه الفارس باسم وانما الذى أجابه هو المقدم حسن بن الحصرى الذى قال في مرارة :
ـ كان الفارس باسم يقودنا وراء الهاربين وقد استطاع أن أن يكشف اثارهم ، وفجأة انهالت علينا السهام من أمام ومن خلف ، وقبل أن نفعل اى شيء كانت الشباك قد سقطت فوقنا من قمم الاشجار لتمنع حركتنا ، وخرجت من الشبكة لاواجه بضحكات مونجو

الشامتة ، وضحكات صديقك الدرويش الصالح الساخرة .. وبعدها، ما نحن هنا ..
قال الزيبق :
ـ أما مونجو فقد انتهى أمره ، أما الباقون فقد حانت ساعتهم .
قبل أن ينهى الزيبق حديثه دخل الخيمة الرئيس سوهى وهو يقول :
ـ كل من حولنا يعرفون أننا سنصحب الاسرى الى خيمة الملك، ومعى اربعة من الحراس لمعاونتنا ..
قال الزيبق :
ـ ومخازن النفط .
قال الرئيس سوهى :
ـ لقد حددها الطاهى لى حين أخبرته اننا نريد أن نزود مشاعلنا بالنفط المشتعل حتى تضىء الطريق لنا ، ولا يهرب السجناء .. وهى منتشرة فى أنحاء المعسكر المختلفة ..
قال الزيبق :
ـ هذا أحسن ما فعلت ، فعن طريق هذه المشاعل سنهزم الملك سلطان هزيمة منكرة ..
قال الرئيس :
ـ لست أفهم ؟ ..
قال الزيبق :
ـ ستفهم كل شىء فى حينه ، أما الان ، فلابد أن يعود واحد الى معسكرك ، فمن تختار .. ؟
قال الرئيس سوهى وهو يفكر فى صوت مسموع :
ـ لومبا يعرف الطريق ، وسيكون من السهل عليه أن يجد الرجال بسرعة ..
التفت الزيبق الى لومبا ، وقال له :
ـ عندما تصل الى معسكر الرئيس سوهى سيكون رجال الرئيس سوهى قد عادوا بزجاجات النفط الملآنة ، ثبت فى فم كل زجاجة شريطا قابلا للالتهاب ، وقسم الرجال الى ثلاثة أقسام ، وليتسلل القسم الاول الى يمين المعسكر ، والثانى الى يساره ، والثالث فى مؤخرته ، وعندما ترى الصواريخ تملأ السماء يشعل كل رجل الفتيل فى زجاجته ويلقيها فوق المعسكر ، ثم أمطروا المعسكر بوابل من السهام ، ثم اهجموا بحرابكم بعد هذا ..
خرج لومبا مسرعا وهو يرتدى زى الحرس ، وفى يده حربته ، بينما قال الزيبق للرئيس سوهى :
ـ لنحمل بلطتين وهيا بنا ننطلق ..
والتفت الى حسن بن الحصرى قائلا :

ـ لن يطول غيابنا ، فلابد ان احضر جرندانى حيث تركتـه على راس هذا المعسكر ، ثم ان براميل النفط هنا فى انتظارى انـــا والرئيس سوهى .. ولا يتحرك احد حتى نعود ..

وخرج الزيبق والرئيس سوهى ، وسارا بكل ثقة وهما يحملان الحراب ، وحيا الرئيس سوهى الطاهى برفع الحربة فى يـــده ، الى ان وصلا الى حيث تركا الحارسين المقيدين ، فتأكدا من قيودهما، ثم اسرعا الى اعلى الهضبة حيث احضر الزيبق جرندانه .. وعادا فى هدوء الى المعسكر وقد بدأ الظلام يخيم عليه وقال الزيبق :

ـ لنتسلل الى حيث براميل النفط ، ونشق جوانبها بالبلط حتى يسيل النفط منها ويغرق العشب حولها .. ولنعد بعد هذا مسرعين الى الخيمة .

***

قال الرئيس سوهى للحراس الجدد المنتظرين خارج الخيمة :

ـ لقد اكد الملك امره بالاسراع باحضار الأسرى ، وســنحمل المشاعل حتى لا يهرب منهم احد ، ولتحيطوا بهم من كل جانب .. وهيا بنا الى خيمة الملك ..

وتقدم الرئيس سوهى يحمل مشعلا ، ومعه مافى يحمل مشـعلا آخر ، بينما تبعهما موكب الأسرى المقيدين ، وحولهم الحـــراس المدججين بالسلاح ، والزيبق فى المقدمة ، يشقون أرض المعســكر فى اتجاه خيمة الملك ، وكان خبر استدعاء الأسرى قد ملأ المعسـكر فوقف الكثير من الجنود يرقبون الموكب وهم يمطرون الاسرى بسيل من الشتائم القبيحة، ويحييون الحراس بكلمات التشجيع والضحكات المرحة .

وكان الزيبق وهم فى الطريق يخرج من جرندانه ، البنج وضـد البنج ، وقبل أن يصلوا الى الخيمة بقليل أعطى الرئيس ســوهى ومافى قطعا من البنج ليضعاها فى المشاعل التى يحملونها ، ثم أعطى الرئيس سوهى ضد البنج ، وأخذ هو الآخر ضد البنج ، ثم حمل المشعل عن مافى وهو يقول له :

ـ احمل انت الحربة ، واعطنى المشعل ، فهم يعرفونك هنا .. واختف وسط الحراس ولا تظهر نفسك قدر الامكان .

وما ان وصل الموكب الى الباب الخارجى للخيمة حتى أعترضه الحراس ، فتقدم الرئيس سوهى نحوهم قائلا :

ـ انا رئيس حرس الأسرى ، وقد جئت بهم كأمر الملك سـلطان لانه يريد أن يستجوبهم .

قال احد الحراس :

ـ ادخلوا بهم الى ساحة الخيمة الداخلية حيث كبير الحرس ، وهو يتولى أمرهم .

وافسح الحراس الطريق ليدخل الموكب الى ساحة الخيمة التى يقف فيها الحراس والطهاة والخدم ، والتى تفصل سور الخيمة الخارجي عن باب الخيمة الرئيسية .. ولاحظ الزيبق كثافة الحراسة، فقال للرئيس سوهى :

ـ حاول ان ندخل انا وانت الى الخيمة .

وظهر كبير الحراس يسرع نحوهم قائلا :

ـ من الذى امركم باحضار الأسرى الى هنا .. ؟

قال الرئيس سوهى مشيرا الى الزيبق :

ـ حمل الى هذا الحارس أمر مولانا الملك ، فجئت بالحرس والأسرى ، فالملك يريد استجوابهم عله يعرف مدخلا سريا الى المدينة يوفر علينا الجهد والتعب .

قال كبير الحراس :

ـ هيا معى الى الملك مادامت هذه ارادته ، ولكن اتركوا الأسرى هنا حتى يامر باستدعائهم .

وسار وراءه الزيبق والرئيس سوهى يحملان المشعلين ، وفى خفية وضعا كميتين جديدتين من البنج فى المشعلين .. وانحنيا وهما يدخلان الى قلب الخيمة الملكية ..

ووجف قلب الزيبق وهو يرى الكل أمامه يجلسون فى جنبات الخيمة حول الملك سلطان ، كان هناك السلطان قاسم ، والدرويش الصالح ، والوزير مروان ، ورؤساء العشائر التى جاءت بجنودها .. وأسرع كبير الحراس ناحية الملك الذى كان يتحدث الى الدرويش الصالح فى اهتمام ، فاشار اليه بيده لينتظر . ووقف كبير الحراس فى خشوع ينتظر اذن الملك بالكلام .. بينما تحرك الزيبق الى ناحية ، والرئيس سوهى الى ناحية أخرى ، والمشعلان يلتهبان بالنفط والبنج ..

التفتت دليلة التى كانت تتزيا بزى الدرويش الصالح فجأة ، وهى تتشمم الهواء حولها فقد أحست برائحة غريبة تملأ الخيمة ، وكانت تعرف هذه الرائحة بحكم خبرتها الطويلة فى دنيا العياقة والحيل .. وجالت ببصرها حولها ، فوقع بصرها على الزيبق وهو يحمل المشعل ، وجعلت تنظر اليه فى حدة ، وسرعان ما عرفته رغم تنكره ، فصاحت ، وهبت واقفة وهى تشير نحوه بيدها .. والتفت الكل اليها فى دهشة ، ولكن قبل أن تتكلم كانت تتهاوى الى الأرض وفى عينيها نظرة ذعر ويأس .. وما أن هب الملك سلطان ليقف حتى

تهاوى الى جوارها فاقد الوعى مثلها ، وتبعهم الباقون واحدا اثر الآخر .. واطفأ الزيبق مشعله ، وحذا الرئيس سوهى حذوه ، ثم مضيا يقيدان كل الموجودين ، ثم خرج الرئيس سوهى الى الساحة الخارجية للخيمة ، وصاح فى الحرس قائلا :

ـ ادخلوا الاسرى ، ولكن اتركوا اسلحتكم هنا ، فلا يجب ان يدخل أحد الى حضرة الملك وفى يده سلاح .. وحين دخل الأسرى وحراسهم الى قاعة الملك ، اشار الزيبق الى المقدم حسن بن الحصرى ، ففك قيوده الوهمية وكذلك فعل باقى الأسرى ، وانقضوا على حراسهم فأوثقوهم .. وقال الزيبق :

ـ الحرس الخارجى ، عليكم بالحرس الخارجى ..

وخرج الجميع الى الساحة فتغلبوا على ما بها من حراس ، ثم خرجوا الى خارج الخيمة حيث انتهوا من أمر الحراس الخارجين ، وقال الزيبق :

ـ ساعدنى يامقدم حسن ، فى نصب الصواريخ .. وليحضر كل منكم القس والسهام ، وضعوا فى السهام قماشا مبللا بالنفط ، وليشعل كل منكم سهمه قبل اطلاقه ..

وأسرع الزيبق والمقدم حسن بن الحصرى ، ينصبون قواعد اطلاق الصواريخ بحيث تتجه الى كل مكان فى المعسكر ، وما أن انتهيا حتى صاح الزيبق :

ـ الآن .. وليصرخ كل منكم بأعلى صوته لتحدثوا أكبر ضجة ممكنة ..

وانطلقت الصواريخ الملونة تلهب السماء بأنوارها ، وتحدث فى انفجارها أصواتا كالرعد والبرق ، ووراءها انطلقت السهام المشتعلة ، وصرخات الرجال تصاحبها ، وأحس جنود الملك سلطان أنهم يهاجمون من مردة تشق السماء ، وترسل حمم النفط ، وفجأة ارتفعت صيحات من يمين المعسكر وشماله وجنوبه ، واندفعت كرات ملتهبة ما ان تمس الارض حتى تنفجر بشدة ، وتنثر النار حولها ، ووصلت النيران الى العشب المشبع بالنفط فاشتعل المعسكر كله فجأة وتحول الليل الى كتلة من اللهب المشتعل .. وكان رجال الملك سلطان يجرون هنا وهناك فى ذعر وحيرة ، حين فتح باب المدينة المسحورة وهجم جنود السلطانة زينب وعلى رأسهم عمر العيار ، بينما اندفع رجال الزيبق والفارس باسم يهجمون بالسيوف والحراب ، ومن كل مكان اندفع رجال الرئيس سوهى يهاجمون بالسهام والحراب والسيوف .. واشتد الذعر بالرجال فتفرقوا هاربين ، او استسلموا لمهاجميهم دون قتال ..

***

صافحت السلطانة زينب الزيبق وهى تقول :
ـ هذا يوم عيد لى وللمدينة كلها ..
وكانت أصوات الأغانى والاهازيج تصل اليهم من كل انحاء المدينة التى خرج أهلها يحتفلون بنصرهم العظيم على أعدائهم ، فابتسم الزيبق وهو يقول لها :
ـ من الآن لن تخافى على مدينتك من ملك بحر الغزال فهو فى يدنا ، وكذلك السلطان قاسم ، والدرويش الصالح عدوى الحقيقى ، والعقل المدبر لكل هذه المحاولات للانتقاص من سلطان الخليفة على هذه الأرض .. وهو ليس درويشا ، وليس صالحا ، بل هو ليس رجلا آخر الأمر ، انما هو الداهية دليلة المحتالة التى دخلت أرضكم بهذا الزى لتتآمر على خروج ارضكم كلها عن طاعة الخليفة مستعينة بضعاف النفوس هنا ، وأولهم واخطرهم الوزير مروان الذى أسرناه فى خيمة الملك سلطان ..
قالت السلطانة زينب فى دهشة :
ـ كان فى وسطنا عندما بدأ الحصار ، ثم اختفى فجاة ..
قال عمر العيار الذى كان يقف الى جوارهما مبتسما :
ـ لقد خشيت أن يكون قد تسلل ليطلع الملك سلطان على المدخل السرى للنفق الذى استعمله لومبا ومافى ، فشددت الحراسة عليه ، وبالفعل حاولوا اقتحامه أول الليل ، ولكنهم فشلوا .
قال الزيبق :
ـ لقد أحس أن المدينة ستسقط فى يد الملك سلطان ، فاحب أن يبيع المدينة لينال الحظوة لديه .. سنصحبه معنا الى الخليفة مع الملك سلطان والسلطان قاسم ودليلة ليرى فيهم الخليفة رأيه .
قالت السلطانة زينب :
ـ اذن فأنت ستغادرنا أيها الفارس الزيبق ..
قبل أن يجيبها ، صاحت ياسمين التى كانت تقف خلفها طربا ، وصفقت بيدها فرحة وهى تقول :
ـ المقدم حسن بن الحصرى ، انه يعود سالما وانا التى كنت أكاد اموت قلقا عليه .
ثم اندفعت نحو المقدم حسن الذى كان يسير مع الرئيس سوهى يحملان صندوق التواجيه ، والهديتين الكبيرتين اللتين اخذهما الزيبق من الجزيرة المسحورة .. ولمعت عينا المقدم طربا ، واقبل عليها يحييها فى حرارة ، فقالت السلطانة زينب :
ـ يبدو أن ياسمين قد نجحت فيما فشلت فيه سلطانتها ..

تجاهل الزيبق معنى كلامها ، وقال :
ـ هذا هو صندوق التواجيه الذى جئت فى طلبه ، اما هذه الصرة فهى هدية لك من كهف الجواهر فى الجزيرة المسحورة ؛ والصرة الثانية هدية للخليفة .
ابتسمت السلطانة زينب فى مرارة ، وهى تتناول الصرة ، وفتحتها ، فخطف لمعان الجواهر الأبصار ، وتحولت ابتسامتها الى سعادة غامرة ، ومدت يدها تتناول الجواهر وتتأملها فى فرحة ، وقد أنستها فرحتها بالجواهر كل مرارة كانت تحملها فى نفسها ؛ وقالت وهى تختار مجموعة من الجواهر ، وتمد يدها بها الى الزيبق:
ـ هديتك مقبولة ايها الفارس .. واقبل انت هذه الهدية منى لزينب الأخرى ، ولو ان عودتك اليها أهم من كل جواهر العالم ..
وقال المقدم حسن بن الحصرى :
ـ أما انا فجوهرتى هى ياسمين .
قالت السلطانة زينب :
ـ هى لك أيها الفارس ولتسعد بها .. وتسعد بك ..
قال حسن بن الحصرى ، وهو يكاد يطير فرحا :
ـ ان قبلت ان تأتي معى ، فهى زوجتى على سنة الله ورسوله .
صاحت ياسمين :
ـ أقبل ، أقبل يامولاى ..
ضحكت السلطانة زينب وهى تقول فى مرارة ..
ـ للزيبق صندوق التواجيه ، وللفارس حسن ياسمين ، أما السلطانة زينب فلها الجواهر ..
قال الزيبق :
ـ بل لك مدينتك آمنة يامولاتى ، والى جوارك لومبا ومافى يحكمان مدينة بحر الغزال والرئيس سوهى يحكم الجزيرة المسحورة، والكل اصدقاؤك وحلفاؤك ..
ضحك عمر العيار وهو يقول :
ـ أما انا فلى الأسرى الذين جئت فى طلبهم ..
نظرت اليه السلطانة زينب فى دهشة وهى تقول :
ـ الطبيب الساحر جاء فى طلب أسرى ..
قال الزيبق :
ـ هذا هو المقدم عمر العيار يامولاتى من فرسان خليفة المسلمين، وما جاء الى هنا فى هذا الزى الا ليقضى على الفتنة ويكشف الخونة ..
ضحكت السلطانة زينب وقالت :
ـ مثلكم من يفخر به بلاط الخليفة ..

قال عمر العيار :
ــ أما وقد انتهت مهمتى فأستأذنك فى الرحيل غدا مع المقـــدم على الزيبق ، فقد استقر الأمر هنا وزال كل خطر ، وتم القضـــاء على كل المتآمرين وأعوان الفرنجة الذين ارادوا أن يمزقوا بلادنا من داخلها بعد أن عجزوا عن هزيمة جيوشنا فى ساحة القتال ..
قالت السلطانة زينب :
ــ نحن هنا ندين بالولاء للخليفة ، ونحن ورجالنا فـــداء أرض المسلمين ..
قال الزيبق :
ــ نعم الكلام أيتها السلطانة ــ لو اذنت نغادر بلادكم عند الفجر، فهذه نهاية الرحلة ..

***

من نسمات الفجر الندية خرجت المدينة المرصودة كلهـا تودع الراحلين ، كان الزيبق فى المقدمة على فرس اشهب ، والى جواره المقدم حسن بن الحصرى ، ثم هودج ياسمين ومعها الذخائر فـوق جمل ضخم ، ووراءه السجناء مقيدين فوق خيولهم ، وفى مؤخرة الركب ، المقدم عمر العيار فوق فرسه ..
ولوح الرئيس سوهى بحربته تحية للراحلين ، بينمـا اخـذت السلطانة زينب تلوح بمنديلها ، والى جوارها الفارس باسم يلوح بيده وهو يقول :
ــ أنا أسعد الناس برحيلهم ..
قالت السلطانة زينب :
ــ لن تشهد بلادنا مثلهم ابدأ ..
وقال الرئيس سوهى :
ــ سمعت كثيرا عن الزيبق ، واسعدنى الله أن أعيش معـه ، وان أرى بنفسى قدرته ومهارته ، وان أحكى لأولادى عن ملاعيب على الزيبق .

رقم الايداع : ٢٦٨٥ / ١٩٩٠



هذه الرواية

اجمل الحكايات التي يحبها الناس دائما .. هي التي تتحدث عنهم وعن احوالهم . والحكايات الشعبية ، عادة ، ما تكون مليئة بالطرائف ، والالاعيب التي يميل الناس الى متابعتها من السطر الاول ..

وعلى الزيبق هو احد ابرز ابطال الحكايات الشعبية التي يرويها الناس في جلسات السمر ، ويتمتعون بها حين يتابعونها ، أو يقراونها ..

وقد حرصت «روايات الهلال» ان تقدم حكايات جديدة عن على الزيبق : مليئة بالجديد من المواقف الطريفة . والملاعيب الشيقة .. وذلك بعد ان نجحت الاعمال السابقة التي كتبها فاروق خورشيد في هذا المجال مثل سيرة «سيف بن ذى يزن» ومثل سيرة على الزيبق .. التي نستكملها اليوم بنفس الابداعية والتميز ..

وحرصا على امتاع القارىء ، حرصت روايات الهلال ان تقدم كل هذا العالم الجميل في طبق واحد متميز .

يقول فاروق خورشيد صاحب الرواية «بعد ربع قرن من الزمان نعود نكمل على الزيبق بملاعيب على الزيبق ، وكان الزمان مامضى ، وكان العمر ما انقضى ، انها رسالة هدفها واضح ومميز هو ان نعيد هذه السير الشعبية العربية الى الحياة نابضة بهموم العصر واحلامه وامانيه ..» .



فاروق خورشيد

○ من مواليد مارس عام ١٩٢٨

○ روائى وباحث فى الأدب الشعبى العربى ، اهتم كثيرا بتقديم السير الشعبية فى شكل روائى جذاب

○ من اهم رواياته فى هذا المضمار : «سيف بن ذى يزن» التى حصلت على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٦ و «على الزيبق» و «الزهراء فى مكة» والتى سبق ان قدمتها روايات الهلال

○ يؤمن ان البطل الشعبى ، مثل على الزيبق ، رمز لرفض الوسائل التى يلجأ اليها بعض الحكام اللصوص فى ابتزاز حقوق وأموال الناس .

••


زيت الذرة الفاخر
ذو العبوة المميزة
صحى
مغذى
لذيذ
حقاً أطعم
منه مفيش
تصنعين منه أشهى الأطعمة
وألذ المأكولات والفطائر
والحلويات